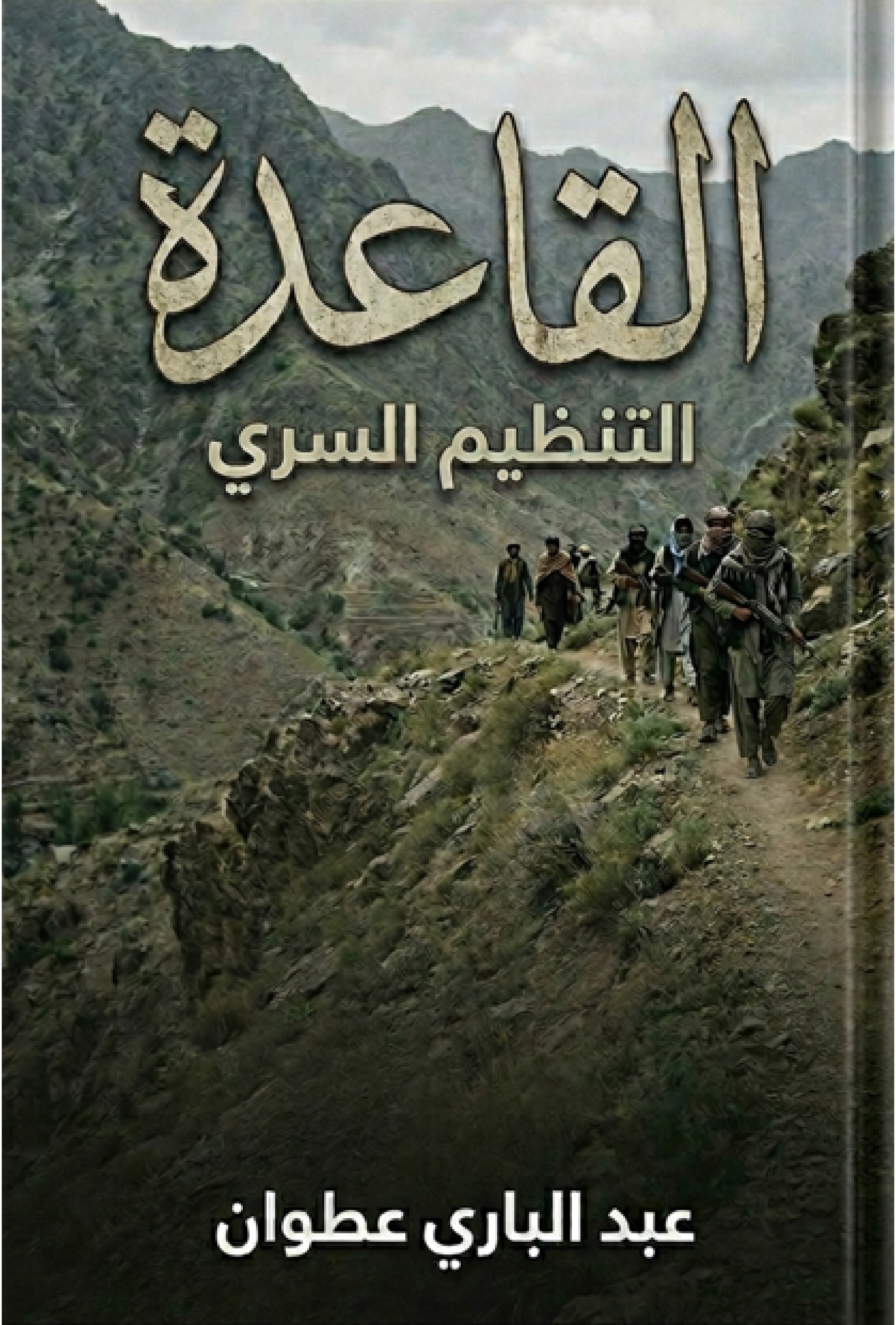

القاعدة
التنظيم السري
عبد الباري عطوان

عبد الباري عطوان

القاعدة

التنظيم السرّي

دار الساقي

Abdel Bari Atwan, *The Secret History of al-Qai'ida*
First Published in 2006 by Saqi Books

الطبعة العربية

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

ISBN 978-1-85516-758-2

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ _ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

إلى أفراد عائلتي: باسمة، خالد، ندى، وكريم.

إلى ذكرى والدتي ظريفة عطوان

التي توفّيت في آب / أغسطس العام ٢٠٠٣

في مخيّم رفح للاجئين في قطاع غزة.

مقدّمة الطبعة العربية

مرّ أكثر من خمسة أعوام على إعلان الولايات المتحدة الأمريكية ما سمّته بالحرب على الإرهاب، وبرغم ذلك جاءت النتائج عكسية تماماً، بل كارثية بكلّ المقاييس. فقد خسرت حتى الآن حوالى ثلاثة آلاف جندي أمريكي، وأصيب حوالى ٢٥ ألف آخرين نصفهم تقريباً من ذوي الإصابات المعوقة. أما على الصعيد المالي، فبلغت نفقات هذه الحرب الدائرة في العراق حتى كتابة هذه السطور ٥٠٠ مليار دولار، وأصبحت تكلّف الخزينة الأمريكية سبعة مليارات دولار شهرياً، عدا النفقات الأخرى غير المباشرة.

وربما تكون إدارة الرئيس جورج دبليو بوش نجحت في إطاحة نظامي، الطالبان في أفغانستان، وصدّام حسين في العراق، ولكنها خسرت الحرب عليهما. فالدول العظمى القوية تستطيع بما تملكه من أسلحة فتاكة تدمير الدول الصغيرة، أو الضعيفة، ولكنها لا تستطيع الانتصار عليها، هكذا علمنا التاريخ، وهكذا أثبتت وقائعه، فأمريكا انهزمت في فيتنام. والإمبراطورية السوفياتية بدأ انهيارها بعد خسارتها الحرب في أفغانستان.

تنظيم «القاعدة» الذي كان العنوان الرئيس للحرب الأمريكية على الإرهاب بات أقوى عشر مرات أو أكثر مما كان عليه قبلها، فقد وجد في العراق ملاذاً آمناً، وبيئة أكثر ملاءمة من جبال تورا بورا في أفغانستان، وزعيمه الشيخ أسامة بن لادن ونائبه الدكتور أيمن الظواهري ما زالا على قيد الحياة يقودان هذا التنظيم عن بعد، الأول كزعيم روحي، والثاني كمخطط استراتيجي، ومنظّر سياسي وعقائدي، فالتنظيم استطاع أن يطوّر نفسه، وينتقل من الصيغة الهرمية، أي قمة ووسط وقاعدة، إلى تنظيم أفقي واسع، بقيادات

ميدانية تتمتع بالاستقلال الذاتي والقدرة على الحركة في المملكة العربية السعودية والعراق وأوروبا وقريباً في لبنان والصومال ودارفور.

أما حركة طالبان فقد نجحت في إعادة تنظيم صفوفها مجدداً، وتجميع قواها على نحو أكثر قوة، وباتت تقود حركة مقاومة فعّالة ضد الاحتلال الأمريكي لأفغانستان تلحق خسائر بشرية ومادية كبيرة بالقوات المتعددة الجنسية الموجودة حالياً هناك، وبدأنا نسمع أصواتاً في الغرب تطالب بإجراء مفاوضات مع هذه الحركة، وقرأنا أن قيادة القوات البريطانية في أقاليم البشتون الجنوبية، ومنطقة هلمند نفسها توصّلت إلى اتفاق شبه رسمي بتسليم خمس مقاطعات للطالبان مقابل تخفيف الهجمات ضدها.

فما دام الشيخان أسامة بن لادن والملا عمر على قيد الحياة، يمكن القول إن الحرب على الإرهاب فشلت تماماً في تحقيق أبرز الأهداف من إعلانها، لأن الرئيس بوش الابن حدد نجاحها، والانتصار فيها، بالقبض عليهما وتقديمهما إلى العدالة.

الرئيس بوش وحليفه طوني بلير رئيس وزراء بريطانيا توقفا عن القول إن العالم أصبح أكثر أمناً بعد إطاحة النظامين في العراق وأفغانستان، وإن البلدين باتا أفضل حالاً. فالحرب الأهلية الطائفية باتت تحصد أرواح الآلاف شهرياً في البلد الأول الذي تحول كله إلى مقبرة جماعية، حيث أكد تقرير مجلة لانست الطبية البريطانية الموثوق بها أن ٦٦٥ ألف عراقي قتلوا منذ بداية الاحتلال الأمريكي للعراق، في حين أكدت تقارير الأمم المتحدة عمليات التطهير العرقي، وهروب أكثر من مليوني عراقي إلى دول الجوار، سوريا والأردن، للنجاة بأرواحهم من عمليات القتل المستمرة.

ولم يكن من قبيل المفاجأة أن يعترف كوفي أنان الأمين العام للأمم المتحدة، بأن الأوضاع في عهد النظام السابق في العراق كانت أفضل حالاً من الأوضاع في عهد الديموقراطية الأمريكية، لأن العراق كان آمناً وموحّداً، بينما تغيب الخدمات الأساسية والأمان عن العراق الحالي، وبات ثمانية آلا ف شخص عراقي يفقدون أرواحهم شهرياً، وأصبح البلد مقسماً وفقد المعايير الطائفية والعرقية.

الرئيس بوش كرر غير مرّة أنه يحارب «الإرهابيين» في العراق حتى يمنع وصولهم إلى

الولايات المتحدة، ولكنه ينسى أن هؤلاء لم يعودوا بحاجة إلى قطع آلاف الأميال، والمرور عبر عدة مطارات وسط غابة من الاحتياطات الأمنية للوصول إلى نيويورك أو واشنطن أو لوس أنجلوس، فهناك ١٤٠ ألف جندي أمريكي في متناول يدهم في العراق، يشكلون صيداً ثميناً لعناصر تنظيم «القاعدة»، وفصائل المقاومة العراقية الأخرى.

والأمر الأكيد أن وضع القوات الأمريكية في العراق سيزداد سوءاً إذا ما مضت الإدارة الأمريكية قُدُماً في مخططاتها للجوء إلى الخيار العسكري لضرب المفاعلات النووية الإيرانية وتجهيزاتها، لأن الميليشيات العراقية الموالية لإيران في العراق ستحول هؤلاء إلى رهائن تحت رحمتها، وربما تصبح هذه الميليشيات أكثر خطراً على القوات الأمريكية من تنظيم القاعدة نفسه.

الإدارة الأمريكية غرقت في رمال العراق وأفغانستان المتحركة، فهي لا تستطيع البقاء، خاصة بعد تصاعد العمليات العسكرية ضد قواتها، وفشل العملية السياسية التي حاولت تطبيقها، وهي لا تستطيع الانسحاب والبلاد تعيش ظروفها الراهنة، لأن هذا الانسحاب سيكون اعترافاً بالهزيمة. وربما تلجأ إلى الهروب إلى الأمام، أيّ شنّ حرب على إيران تعويضاً عن فشلها هذا، فهي إدارة يشبه حالها حال النمر الجريح الذي يتخبط في ضرباته.

وإذا عدنا إلى تنظيم «القاعدة»، مجدداً موضوع هذا الكتاب، فيمكن القول إن استراتيجية التنظيم تحققت، أو الجزء الأهم منها، فقد نجح هذا التنظيم في جرّ الولايات المتحدة إلى الحرب في المنطقة، وإفشال مشروع احتلالها في العراق، وإشعال فتيل الحرب الأهلية الطائفية لجرّ دول الجوار إليها لإنقاذ الطائفة السُنيَّة، مثلما كان يخطط أبو مصعب الزرقاوي زعيم التنظيم في العراق الذي نجحت القوات الأمريكية في اغتياله. فالعراق يشهد حالياً حرباً غير مباشرة بين السعودية وإيران. فقد كتب السيد نواف عبيد مستشار العاهل السعودي لشؤون الأمن مقالاً في صحيفة «الواشنطن بوست» في ديسمبر / كانون الأول عام ٢٠٠٦ قال فيه إن بلاده لن تسكت عن ذبح السُنَّة في العراق، وستدعم البعثيين وضباط الجيش السابقين منهم بالمال والسلاح، وستؤسس فصائل مسلحة إذا اقتضى الأمر لمواجهة الميليشيات الطائفية الشيعية. وهذا هو بالضبط ما أراده

الشيخ أسامة بن لادن وممثله في العراق أبو مصعب الزرقاوي أي توسيع نطاق الحرب وتوريط دول الجوار فيها.

المنطقة العربية، وبعد التدخل العسكري الأمريكي، أصبحت تعيش حروباً أهلية، وتواجه تقسيمات على أسس طائفية، ويتحول الكثير من دولها إلى دول فاشلة غير قادرة على السيطرة على حدودها، وذات حكومات مركزية ضعيفة، وقيادات هزيلة. فالحرب الأهلية الطائفية في العراق باتت نموذجاً يصدره هذا البلد إلى دول الجوار. فلبنان ينزلق بسرعة إليها، وكذلك المناطق المحتلة في فلسطين، والشيء نفسه يقال أيضاً عن السودان وربما قريباً سوريا. وهذا هو المناخ الملائم الذي يتطلع إليه تنظيم القاعدة لإرساء قواعده وفتح فروع جديدة له.

إن أيّ هجوم أمريكي أو إسرائيلي على إيران لتدمير برامجها النووية سينعكس سلباً على المنطقة، لأن نتائجه ستكون كارثية. فإيران لا تعيش حصاراً مثل ذلك الذي فرض على العراق فأنهك قواه ودمّر قدراته العسكرية، أو الأحرى أجهز على ما تبقى منها بعد حرب طويلة مع إيران استمرت سبع سنوات. فإيران سترد على هذا الهجوم وستنتقم من الولايات المتحدة وحلفائها، وخاصة إسرائيل وبعض دول الخليج من خلال ترسانتها العسكرية القوية. فالمواجهة الإسرائيلية مع حزب الله في يوليو / تموز عام ٢٠٠٦، التي انتهت بانتصار الأخير، كانت مباراة بين الأشبال، وعلينا أن نتصور المنازلة الكبرى بين الفريقين الرئيسين أي القوات الأمريكية والإيرانية.

فإذا كان «حزب الله» أطلق أربعة آلاف صاروخ على المدن الإسرائيلية، وأعلن زعيمه السيد حسن نصر الله أن في حوزته عشرين ألفاً أخرى، ترى كم في حوزة إيران من صواريخ من مختلف الأحجام والمسافات؟ إن هذه الصواريخ الإيرانية ستذهب إلى إسرائيل والقواعد الأمريكية وآبار النفط في الخليج، ولإغلاق مضيق هرمز وتهديد الملاحة فيه بما يمنع مرور ١٨ مليون برميل من النفط يومياً عبره إلى المحيطات المفتوحة.

تنظيم «القاعدة» لن يتوقف عن شنّ هجمات جديدة في الغرب، لتأكيد «استراتيجية التخويف» التي يتبناها، ولتحقيق مكاسب إعلامية، وتأكيد قوته وأخطاره على الولايات

المتحدة وحلفائها على غرار تفجيرات لندن في السابع من يوليو / تموز عام ٢٠٠٥ التي نشرت الرعب، وأحدثت حالة من الاضطراب.

وباعتباري عربياً مسلماً عاش في لندن طوال ثلاثين عاماً، وعمل فيها كصحافي وكاتب متخصّص بشؤون الشرق الأوسط السياسية، أجد نفسي قادراً على طرح قصة تنظيم القاعدة وتأثيره في الحضارة الغربية من منظور مختلف، فأنا مدرك جيداً النمط الحياتي الإسلامي، والنمط الحياتي الغربي على السواء، كما أنني على يقين تام، بأن التعاون على أسس من العدالة والمساواة، هو السبيل الوحيد للمضي قدماً نحو عالم أفضل، أمّا المواجهة فستكون كارثة على الجميع، وإذا كان الغرب يريد فعلياً القضاء على ما يسميه الخطر الإرهابي الذي تشكله التنظيمات المتطرفة، مثل تنظيم القاعدة، فإن عليه أن يدرك أسباب هذا التطرف وجذوره السياسية والاجتماعية، خصوصاً أنه تحول اليوم إلى شبكة أيديولوجية لها امتدادات في جميع أنحاء العالم.

تمهيد

الواقع أن هذا الكتاب يسعى إلى المساهمة في هذا المسار من خلال البحث في نشأة تنظيم القاعدة وعضويته وطموحاته وتأثيراته واستراتيجياته بطريقة موضوعية تحليلية.

وأشير في هذا السياق إلى أنني لا أؤيد جدول أعمال القاعدة ولا أدعم هذا التنظيم بأي شكل من الأشكال. لكنني، إذ أبحث في العديد من جوانب الشبكة التي لم يتم التطرّق إليها من قبل على نحو معمّق، أحاول فقط أن أستكشف واقعها، وأن أفسِّر هذا الواقع وأحلله متى توافرت الإمكانية لذلك. والواقع أن هذا الكتاب يشكل عرضاً لمعرفتي المباشرة بتنظيم القاعدة وقادته، ونتاجاً لسنوات طويلة من المراقبة والدراسة والتجارب التي اختبرتها في زياراتي معسكرات القاعدة ومقابلتي اللاعبين الأساسيين في هذا التنظيم.

لا شك في أن الأحداث المرعبة التي شهدتها لندن قد أثبتت أن تنظيم القاعدة تبدّل وتوسّع، ونجح في بلورة استراتيجية طويلة الأمد يسعى إلى تنفيذها بكثير من الصبر والتصميم.

والجدير ذكره أن بنية القاعدة الجديدة، التي تسمح لمجموعات صغيرة مستقلة تتبنّى أيديولوجية التنظيم بأن تتكوّن على نطاق محلّي وتمارس نشاطاتها من دون الرجوع فعلياً إلى القيادة المركزية، ليست دليلاً على أن التنظيم قد أصبح ضعيفاً كما يفترض بعض

المعلِّقين المتفائلين. فالعكس هو الصحيح، لأن توسّع القاعدة الأفقي يجعلها في غضون فترة قصيرة أكبر وأقوى. وبسبب رواج أيديولوجيتها واستراتيجيتها عبر شبكة الإنترنت على نطاق واسع، يَسهُل على أي من فروعها، أو المجموعات التابعة لها، التحرّك في أي مكان وزمان وفقاً لإطار العمل المنصوص عليه من دون الحاجة إلى أي ترخيص أو موافقة سابقة.

لطالما صرّح جورج دبليو بوش بأنه أرسل القوات الأمريكية لمحاربة تنظيم القاعدة في العراق من أجل منع هذه الشبكة من القيام بأي هجوم على الولايات المتحدة نفسها. لكن بعد مرور أربع سنوات على غزو العراق، لم يكتفِ تنظيم القاعدة بتوجيه ضرباته إلى البلدان العربية الصديقة للولايات المتحدة من خلال العمليات التي نفّذها أنصاره في طابا وشرم الشيخ في مصر، والعقبة في الأردن، والدار البيضاء في المغرب، بل نجح أيضاً في توسيع طيف تهديداته ليصبح أقرب إلى الولايات المتحدة نفسها، من خلال استهدافه اسطنبول ومدريد ولندن.

والمثير للسخرية أن الحكومتين الأمريكية والبريطانية تذرّعتا بالسعي إلى نشر الحداثة في العالم الإسلامي وعزل التطرف من أجل تضييق الخناق على القاعدة، لكنهما حققتا العكس تماماً. فقد استطاعت القاعدة أن تحدث في المجتمعات الغربية تغييرات تفوق ما أحدثه الغرب في هذا التنظيم، ونذكر منها على سبيل المثال التشريعات الصارمة في بريطانيا والولايات المتحدة، والتغيير الحكومي الذي أفضت إليه الانتخابات العامة في إسبانيا في العام ٢٠٠٤.

ولا بد من الإشارة إلى أن الفكرة القائلة إن اﻟﻤﺴﻠﻤﻴﻦ يكرهون الشعب الأمريكي أو يمقتون الحضارة الغربية فكرة خطيرة وغير صحيحة. فما يكرهه الكثيرون هو السياسة الخارجية الأمريكية؛ وليسوا وحدهم من يفعل ذلك. فللمثال، اجتمع في أيار / مايو العام ٢٠٠٥ ثلاثة وثلاثون قائداً من جامعة الدول العربية ودول أمريكا الشمالية للمرة الأولى في البرازيل، بغية تكوين تحالفات جديدة لمواجهة ما يسمّونه الهيمنة الأمريكية الشاملة. وثمة

مثال آخر على ذلك أن نسبة الدعم الأوروبي للحرب التي شنتها الولايات المتحدة على العراق لا تتجاوز ١٠ في المئة في دول مثل إسبانيا واليونان. أما الفكرة القائلة إن العالم يرزح تحت وطأة «صراع الحضارات»، فغير صحيحة هي أيضاً. ففي هذه المرحلة التاريخية، لا وجود لحضارة إسلامية يمكن الحديث عنها، بل مجرّد هيمنة لأنظمة ديكتاتورية فاسدة مؤيّدة للغرب تفتقر إلى الديموقراطية والإنتاجية الاقتصادية الفعلية.

وربما قد تغيّر تنظيم القاعدة، لكن مطالبه واحتجاجاته لا تزال هي نفسها. ومن الضروري أن يبحث قادة الغرب جدياً هذه المطالب والشكاوى بدلاً من إنكارها على غرار ما فعل طوني بلير عندما رفض الإقرار بأن تفجيرات لندن ترتبط على نحو ما، بدعمه مشروع الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط. في المقابل، لماذا لفت الشعب الإسباني هذا الرابط إثر المجزرة التي استهدفت وسائل النقل في إسبانيا في ١١ آذار / مارس العام ٢٠٠٤، فصوّت لمصلحة تغيير الحكومة التي دعمت غزو الولايات المتحدة للعراق؟ ولماذا لم تهاجم القاعدة، بحسب قول الشيخ بن لادن نفسه، دولاً مثل السويد؟

لا حاجة حقاً إلى أن يكون المرء عبقرياً أو حتى محللاً نافذ البصيرة ليتمكن من الإجابة عن هذين السؤالين. فقد أوجز الشيخ أسامة بن لادن وأيمن الظواهري هاتين المسألتين بقدر المستطاع من الوضوح. أما مظالم العالم الإسلامي التي يتخذانها حجة لتبرير الهجمات الدموية، فتمتد جذورها إلى زمن بعيد.

وفي هذا السياق، يمكننا أن نستعيد الخطاب الذي توجّه به الشيخ بن لادن إلى الشعب الأمريكي قبل خمسة أيام من موعد إجراء الانتخابات في ٤ تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٤. فقد وصف في خطابه منشأ أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر وأشار بوضوح تام إلى أن حملته على الولايات المتحدة بدأت فعلياً في العام ١٩٨٢ عندما سمحت أمريكا للإسرائيليين باجتياح لبنان، لا بل ساعدتهم على ذلك عبر أسطولها السادس. ومما جاء في ذلك الخطاب: «لم أستطع نسيان تلك المشاهد المؤثرة، الدماء

والأطراف المبتورة، جثث النساء والأطفال المبعثرة في كل مكان، البيوت التي دُمِّرت على رؤوس قاطنيها والمباني الشاهقة التي تهدّمت... وفيما كنت أرى الأبراج المدمّرة في لبنان، أيقنت ضرورة الاقتصاص من الظالم بالمثل وتدمير الأبراج في أمريكا».

وفي الخطاب نفسه الذي بثّته محطة «الجزيرة» الفضائية، دان الشيخ بن لادن «العقوبات التي أودت بحياة الملايين في العراق واستنكر أبشع مجزرة شهدتها البشرية يوماً وقد ارتُكبت بحق الأطفال على يد بوش الأب، وندّد أيضاً برشق ملايين الأطفال في العراق بملايين الأطنان من المتفجرات بتحريض من بوش الابن من أجل إزاحة عميل سابق واستبداله بدمية جديدة تساعد الإدارة الأمريكية على نهب النفط العراقي وارتكاب انتهاكات أخرى.

أنا أدين الهجمات على المواطنين الأبرياء في الغرب إدانة مطلقة. فقد عشت الجزء الأكبر من حياتي كشخص راشد في لندن، وأنا أحب هذه المدينة ومواطنيها. وأنا أقدّر وأدعم الديموقراطية الغربية والحضارة الغربية القائمة على الإنصاف واستقلالية النظام القضائي والحريات المدنية وحرية التعبير وتكافؤ الفرص. لكنني أرتاب بكون القادة الغربيين محقين في تعريض شعوبهم لخطر فادح من أجل تحقيق غايات سياسية واقتصادية مريبة وغامضة.

وأنا أؤكد أن القادة أمثال الرئيس بوش ورئيس مجلس الوزراء طوني بلير، يميلون أكثر فأكثر إلى اعتماد سياسات لا تتفق مع رغبات الشعوب ومصالحها التي يجدر بهم خدمتها. والواقع أن هذا كله يندرج في إطار الخطة الرئيسة لتنظيم القاعدة، كما سأحللها في هذا الكتاب، بل إن الشيخ أسامة بن لادن لن يتوانى عن استغلال هذه الثغرة المميتة في الوقت الملائم.

أما الغاية من كتابي هذا، فتتمثّل في عرض حقيقة تنظيم القاعدة أو ما أصبح عليه هذا التنظيم، وما يسعى إلى إنجازه والإمكانات التي يتمتّع بها، وكيف يمكن الغرب أن يردّ على احتجاجاته والتحدّيات التي يطرحها، فضلاً عن ذلك، يبحث الكتاب في الحملة

الشرسة التي تعرض لها العراق، وفي تحوّل تلك البلاد أرضاً تُنبت أشدّ محاربي القاعدة صلابة ونضالاً. فقد أصبحت دول العراق والباكستان وأفغانستان تشكّل اليوم منصات لإطلاق العمليات الدولية، وتتبادر إلى ذهني هنا الهجمات الأخيرة على مدريد ولندن وبومباي، وكلها هجمات يمكن رصد ارتباطها بقيادة القاعدة المركزية. والجدير ذكره أن القاعدة لا تحاول تقويض الاستقرار في العالم الغربي فحسب، بل تستهدف منطقة الشرق الأوسط الراكدة بمجملها.

وفي فصول أخرى من الكتاب، أعرض دور شبكة الإنترنت وظهور ما يُعرف بالجهاد عبر الإنترنت كشكل من أشكال الحروب. كذلك أبحث في ظاهرة التفجيرات الانتحارية وتاريخها، وأدرس الاستراتيجية الاقتصادية لتنظيم القاعدة. والواضح أن لدى المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة تحديداً، أسباباً كثيرة للخوف من القاعدة باعتبارها تسعى إلى تحقيق مشروع ينم عن مستوى عالٍ من الذكاء، ويرمي إلى تفجير الأنظمة الظالمة واستنزاف الموارد الاقتصادية الغربية إلى حد الإفلاس عبر التسبب بارتفاع أسعار النفط واستدراج الدولتين إلى حرب استنزاف تبلغ كلفتها مليارات الدولارات.

ومن المفيد الإشارة إلى أني أستهل الكتاب بسجل شخصي عن الوقت الذي أمضيته برفقة الشيخ أسامة بن لادن عندما كان لا يزال واحداً من أبرز الرجال المطلوبين في العالم، وفي طريقه لأن يصبح أكثرهم أهمية. صحيح أن الشيخ بن لادن يُعتبر اليوم واحداً من الذين كُتب عنهم الكثير في العالم، إلا أنه يبقى للمفارقة شخصاً تحيط الألغاز بعدة جوانب من حياته. ولا يمكن البدء بتوثيق تاريخ القاعدة توثيقاً صحيحاً من دون التعمّق في شخص مؤسّسها ومرشدها. وهذا ما جعلني أخصّص الفصلين الأول والثاني لعرض شخصية الرجل، ووصف مراحل التطور التي خاضها ليصبح العنصر الرئيس في الحركة الجهادية اليوم. وأشير في هذا السياق إلى أن القرّاء الذين يعرفون أصلاً السيرة الذاتية للشيخ أسامة بن لادن سيجدون في صفحات هذا الكتاب الكثير من المعلومات الجديدة.

خلال رحلاتي عبر الشرق الأوسط، لاحظت الدلالة المتنامية التي يشكلها الشيخ بن

لادن وتنظيمه لدى العديد من مسلمي العالم البالغ عددهم نحو ١,٧ مليار شخص. وقد تكون الحرب مع القاعدة لا تناظرية، لكن الغلبة لن تكون للرضى الذاتي الذي يبديه الغرب مصحوباً بلا مبالاة بالأخطار، فالشيخ بن لادن وتنظيم القاعدة يتمتعان في المقابل بالصبر ويتحركان وفقاً لاستراتيجية طويلة الأمد وأيديولوجية راسخة. وإذا كان للغرب أن يتورط مع القاعدة، فهو مضطر بدايةً إلى فهمها.

نحن نتحمل مسؤولية تجاهلنا القاعدة؛ وهي لن تختفي.

أخيراً شعرت بسعادة غامرة من النجاح الكبير الذي حققته الطبعة الإنكليزية من هذا الكتاب، والاستقبال الكبير الذي حظيت به من الصحف والمجلات الكبرى في بريطانيا وأمريكا ومختلف أنحاء العالم. وهو النجاح الذي أدى إلى تدافع دور نشر كبرى في فرنسا وإسبانيا وهولندا وألمانيا وتركيا واليابان ورومانيا واليونان ودول أخرى عديدة لترجمته ونشره.

مع الشيخ بن لادن في مخبئه في طورا بورا

عندما جرت الأحداث الموثّقة في هذا الفصل، كانت حالة من الاضطراب والفوضى تعم أفغانستان. فقد تمكّنت جماعة طالبان (التي تحظى بدعم باكستان) من السيطرة على كابول في أيلول / سبتمبر العام ١٩٩٦، أي بعد مرور عامين على اندلاع الحرب الأهلية على الحكومة التي جرت تنحيتها، وهي تمثّل دولة أفغانستان الإسلامية. لكن البلاد ظلت تتخبّط في حالة انعدام الاستقرار متأتية من النزاعات بين الميليشيات التي راحت تتقاتل على السلطة خارج المدن الرئيسة.

الدعوة الغربية

في العام ١٩٩٦، أمضيت ثلاثة أيام مع الشيخ أسامة بن لادن في مخبئه في طورا بورا؛ فكنت الصحافي الوحيد المقيم في الغرب الذي تسنّت له فرصة تمضية هذا المقدار من

الوقت الثمين معه، بل إن أحداً لم يسبقني إلى ذلك ولم يحذُ حذوي في ما بعد. ولا شك في أن هذه الرحلة كانت أغرب المهمات التي اضطلعت بها خلال عمري المهني الذي يزيد على ثلاثين عاماً، وهي تفسِّر اهتمامي الدائم بالشيخ بن لادن وبتنظيم القاعدة.

كان للشيخ بن لادن، بين العامين ١٩٩٤ و١٩٩٨، مكتب في شارع أكسفورد في لندن يمثِّل الفرع البريطاني لمنظمته تحت اسم لجنة الإصلاح والشورى. وكان يترأس هذه اللجنة خالد الفوّاز الذي اعتقلته شرطة سكوتلنديارد بتهمة ضلوعه المزعوم في تفجيرات القاعدة التي استهدفت السفارات الأمريكية في نيروبي وكينيا ودار السلام وتنزانيا.

والجدير ذكره أن الصحافيين العرب المطّلعين يشيرون إلى الفوّاز باعتباره «سفير الشيخ بن لادن في بريطانيا». وفي تشرين الثاني / نوفمبر العام ١٩٩٦، حضر خالد الفوّاز إلى مكاتب صحيفة «القدس العربي» حيث أشغل منصب رئيس التحرير. وبعد توطئة ضمّنها بعض عبارات المجاملة والكياسة، وبعد لفّ ودوران، سألني: هل أنت مهتم بالسفر إلى أفغانستان لمقابلة الشيخ بن لادن الذي كان قد توارى أخيراً عن الأنظار؟. فقد أثار هذا الاقتراح غير المتوقّع فضولي. فالشيخ بن لادن كان في طريقه لأن يصبح علانيةً العدو الرقم واحد للولايات المتحدة، وكان موضع نقاش في الأوساط العربية لكونه شخصية عسكرية محيِّرة، تجمع الحضور القوي والثراء وتشكّل خطراً فعلياً.

وإذا كان الصحافي هو الذي يطلب عادة إجراء مقابلة ما، فإن للشيخ بن لادن في هذه المسألة، كما في سائر المسائل الأخرى، طريقته الخاصة في تحقيق أي أمر. ويبدو أنه قد اكتسب بمرور الوقت حكمة عملية جيّدة في ما يتعلق بكيفية استخدام وسائل الإعلام. وعندما قرر أن يعلن الحرب على الولايات المتحدة، أراد أن يعرف العالم بأسره قراره، حتى إنه أوصى الفوّاز بدعوة عدد من المحترفين في عالم الإعلام وقع اختُيروا أيضاً لإجراء مقابلات معه. وفي ما يتعلق بالصحافة المكتوبة، وقع الاختيار فقط عليّ أنا وعلى الصحافي البريطاني روبرت فسك Robert Fisk من صحيفة «إندبندنت» Independent وأشير في هذا الإطار إلى أن الشيخ بن لادن كان يكنّ الكثير من التقدير والاحترام

للصحافي فيسك لجرأة مقالاته التي انتقد فيها سياسة الولايات المتحدة تجاه إسرائيل ودعمها الأنظمة الفاسدة في العالم. أما أنا، فاختارني الشيخ بن لادن، بحسب ما أخبرني الفوّاز، لأنه كان معجباً بموقفي الصلب في انتقادي بعض الأنظمة العربية، واعتراضي على حرب الخليج التي اندلعت في العام ١٩٩١. أضف أن «القدس العربي» كانت الصحيفة العربية اليومية الوحيدة التي تتمتع باستقلالية فعلية. فالصحافة العربية المكتوبة تخضع خضوعاً تامّاً للمصالح السعودية، وصحيفتي كانت إحدى الصحف القليلة التي يمكنها نشر مقابلة مع الشيخ أسامة بن لادن.

(في ما يتعلق بشبكات البثّ التلفزيوني، تمّ الاتصال بمحطة بي بي سي BBC، لكن القيّمين على هذه المحطة رفضوا الدعوة لأنهم لم يروا في الشيخ بن لادن ظاهرة يمكن أن تشكل حدث الساعة وتبرِّر إرسال فريق عمل من المحطة إلى أفغانستان. وكذلك فوّتت الشبكة الأمريكية سي بي أس CBS هذه الفرصة للأسباب نفسها. في المقابل، رحّبت القناة البريطانية الرابعة British Channel Four بالفكرة وأرسلت فريق عمل إلى أفغانستان. وكان أن التقيت المنتج في أحد فنادق جلالاباد، عندما كنت أنا أيضاً في طريقي إلى مقابلة الشيخ بن لادن. لكن آنذاك، لم يفصح أي منا عن أسباب وجوده في أفغانستان.

وفي تلك المرحلة، كان مراسل محطة سي إن إن، بيتر بيرجن Peter Bergen، الإعلامي التلفزيوني الوحيد الذي اعتبر الشيخ بن لادن شخصاً بالغ الأهمية والخطورة. ولا شك في أنه أبدى حماسة بالغة عندما وجّه إليه الفوّاز الدعوة، حتى إنه أقنع رئيسه بأهمية هذه المهمة الصحافية. وقد بلغني في مرحلة لاحقة أن رجال الشيخ بن لادن ما كانوا يثقون بفريق السي إن إن، ويشكون في تغلغل بعض عناصر السي آي إيه CIA (وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية) في صفوفه. وانطلاقاً من هذه الشكوك، تم اصطحاب أعضاء الفريق، بعد أن عُصبت عيونهم، إلى معسكر بديل موقّت في منطقة نائية. وقد استغرقت المقابلة آنذاك أقل من ساعة، وبدا الشيخ بن لادن خلالها شديد التوتر.

أما في ما يتعلق بي، فقد أخبرت الفوّاز بكل تهذيب بأني أقدِّر اقتراحه، وإن كنت أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير. والواقع أن عدة أسباب كانت تقف وراء ترددي ويتعلّق معظمها بخوفي على سلامتي الشخصية. فأفغانستان في ذلك الوقت كانت تشهد حرباً أهلية طاحنة ولا تخضع، لأي سلطة قانونية. وكان الأمن فيها منعدماً في ظل غياب أي شرطة أو حكومة. وفي ظل هذه الظروف، كانت الجريمة قد بلغت مستويات لم يسبق لها مثيل وعمليات الخطف باتت حدثاً مألوفاً. وفي حال لم تُدفع الفدية، يمكن أتباع زعماء الميليشيات أن يقتلوا المخطوف للحصول على خمسة دولارات تقبع في جيبه. وباعتبار أني لم أكن أتقن اللغة الأفغانية (البوشتو)، وأن قلة من الناس في أفغانستان تتحدث بالعربية أو الإنكليزية (أي اللغتين الوحيدتين اللتين أتقنهما)، لم أثق بمقدرتي على أن أتدبّر أمري في مثل تلك الأحوال.

أضف أنني كنت قلقاً من احتمال أن يتعقّبني رجال الاستخبارات التابعون لأي من الدول التي كانت تطارد الشيخ بن لادن في ذلك الأوان. فصحيح أن شهرته لم تكن كما هي اليوم، إلا أنه كان متهماً بهجومين استهدفا وطنه الأم، المملكة العربية السعودية، وتمثّلا بتفجيرات الرياض في العام ١٩٩٥ وبترتيب هجوم في العام ١٩٩٦ على قاعدة أمريكية في الخبر عن طريق شاحنة ملغومة، مما أسفر عن مقتل تسعة عشر جندياً أمريكياً. ولا شك في أنه كان يُعتبر رجلاً بالغ الخطورة بالنسبة إلى العديد من الأنظمة، من الولايات المتحدة إلى باكستان، وكان هدفاً للعديد من محاولات الاغتيال السعودية. وإن كنت سأقود رجال الاستخبارات إلى الشيخ بن لادن عن غير قصد، فهذا يعني أني سأُقتل على الأرجح في سياق الهجوم على مقرّه. وفي المقابل، إن كانت الغلبة في معركة كهذه لمصلحة رجال الشيخ بن لادن فسيعتقدون حتماً أني جاسوس، مما سيؤدي إلى نتائج مهولة، وتحديداً إلى سيناريو تنتفي فيه أي فرصة للفوز. لكن حدساً قوياً كان يخبرني بأن الشيخ بن لادن سيثبت نفسه كظاهرة ذات أهمية تاريخية بالغة في العالم الإسلامي. وكنت أعلم بأن عدداً من الصحافيين الغربيين المرموقين كان يسعى جاهداً لمقابلة الشيخ بن

لادن من دون أن تؤتي جهوده ثماراً تُذكر. في المقابل، وُجِّهت إليّ دعوة مفتوحة للقيام برحلة إلى قاعدته، ولم يكن يسعني أن أفوّت فرصة إجراء سبق صحافي كهذا.

وبعد مرور أسبوعين على تلقي الدعوة، همس لي شخص ملتحٍ بأن الظرف بات مهيّأً للسفر. وكان يُفترض بي أن أستقل الطائرة إلى مدينة بيشاور الحدودية في باكستان والتي تقع مباشرة على الحدود مع أفغانستان، على أن أنزل لدى وصولي في فندق كونتينانتل Hotel Continental وأهاتف رجلاً يُدعى فيصل دوّنوا لي اسمه على قصاصة من الورق. والواقع أن هذه كانت المعلومة الوحيدة التي زُوّدت بها قبل بدء الرحلة.

أقصى درجات الأمن

علمت منذ البداية أني لا أستطيع إخبار أي كان بوجهة سفري أو بدواعيه. فانتشار معلومات كهذه خطر على رجال القاعدة وعلى حياتي كما على المهمة برمّتها. وكانت محطة «الجزيرة» الفضائية قد دعتني ولحسن الحظ في الوقت الملائم، إلى قطر للمشاركة في نقاش متلفز، مما زوّدني بحجة مشروعة للسفر إلى المنطقة.

والواقع أن شخصاً واحداً فقط، يعمل مباشرة تحت إمرتي في صحيفة «القدس العربي»، كان يعلم حقيقة بوجهة سفري. أما زوجتي وأولادي، فلم يكن لديهم أدنى فكرة عن هذه الرحلة. وما كاد النقاش المتلفز ينتهي حتى أخبرت الزملاء في قطر بأني سأذهب في إجازة قصيرة إلى دبي «للاسترخاء». وكانت هذه المزاعم بالطبع أبعد ما تكون عن الحقيقة.

بيشاور

وصلت إلى بيشاور في ساعة متقدّمة من مساء اليوم التالي. وبينما كنت أقف أمام منضددة الاستعلامات لأحجز حجرة في فندق بيرل كونتينانتل Hotel Pearl Continental، وقد انتابني شعور بالسرية التامة، راعني سماع صوت سعودي مألوف يناديني باسمي.

وما إن استدرت حتى وجدت قبالتي شخصاً أعرفه منذ زمن بعيد ينقض عليّ محتضناً مقبّلاً. وسرعان ما رأيتني محاطاً بمجموعة من السعوديين كانوا برفقته، وجميعهم يصرّون على معرفة أسباب وجودي في تلك البقعة الغريبة من الأرض. ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أنني لم أكن أتمتع بأي شعبية في المملكة العربية السعودية، ولا سيّما أنني واظبت على انتقاد النظام السعودي عدة سنوات. وقد انتابني الخوف من أن أثير شكوك هذه المجموعة، فيسارع أحد أفرادها إلى إخطار قوات الأمن السعودية، فتسرع في مطاردتي وتفضح الغرض الفعلي من زيارتي.

وإذ رحت أناور لكسب الوقت، سألت عما جاء بهم إلى بيشاور، فأجابني الزميل الذي لم أكن أرغب في وجوده بالقول: «نحن جئنا في إطار وفد لتقصّي الحقائق في أفغانستان».

فأجبته وقد شعرت بالامتنان لهذه الفكرة الملهمة: «وأنا أيضاً حضرت للسبب نفسه، وسأبدأ تقصّي الحقائق في الغد».

لكن الرجل علّق قائلاً: «كان يجدر بهم أن يرسلوا شخصاً آخر يا عبد الباري. فالبلاد خطرة والأمن فالت». واستمر الرجل في تثبيط عزيمتي، لا بل يؤسفني أن أقول إنه أثار في نفسي شعوراً بالملل فيما راح يقص عليّ أخباره لساعات وساعات.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما تمكّنت أخيراً من أن أقفل باب حجرتي وأفتح قصاصة الورق التي تحتوي على رقم هاتف فيصل. وما إن طلبت الرقم، حتى أجابني على الفور شخص بدا مقتضباً في ردّه إذ قال: «كن جاهزاً غداً صباحاً في تمام الساعة العاشرة. لا تقل أي شيء، فالهاتف غير آمن».

عبور الحدود

في العاشرة صباحاً، كان فيصل يطرق باب غرفتي في الفندق، شاب غير حليق الذقن، أسمر متوسط القامة، يرتدي ملابس باكستانية. وعلى الرغم من أنه كان متحفظاً في

الحديث، فقد فهمت من الكلمات القليلة التي نطق بها أنه من جدّة، أو لعله من مكة المكرّمة، وربما أكون مخطئاً.

كان فيصل قد أحضر لي زياً أفغانياً لأرتديه في خلال رحلتنا. وكان الزيّ يتكوّن من بنطال فضفاض وقميص طويل وعمامة. وأشير ها هنا إلى أن العمامة تحديداً أثارت لديّ شعوراً بالارتباك، خصوصاً أنه لم يسبق أن اعتمرت شيئاً مماثلاً. في تلك الأثناء كانت قوات الأمن الباكستانية تمنع العرب من الذهاب إلى أفغانستان، لكن فيصل طمأنني إلى أن شكلي يوحي أني أحد زعماء قبائل البشتون. وعلى الرغم من عدم اقتناعي بهذا التشبيه، أسرعت في ارتداء الزيّ بأقصى سرعة. ولم تكن هذه بالمهمة السهلة، خصوصاً في ما يتعلق بالعمامة التي ينبغي تثبيتها على الرأس بطريقة معقدة جداً. (ما زلت أحتفظ بهذه الملابس في خزانتي في منزلي في لندن، وأفضّلها على أي بزّة من تصميم أرماني Armani، باعتبار أنها تعيد إليّ على الدوام ذكرى هذه المغامرة وصوراً اختزنتها في ذاكرتي عن الجبال الأفغانية).

وفيما كنت أرتدي ملابسي، راح فيصل يُعلمني على عجل بالترتيبات: سيرافقني اثنان من الطالبان لتهريبي عبر نقاط التفتيش واجتياز الحدود بين بيشاور وجلالاباد، حيث يتولى آخرون مهمة تسليمي إلى الشيخ بن لادن. لكن فيصل لم يتفوّه بأي كلمة من شأنها أن تدلني على مكان وجود الشيخ.

كنت على يقين تام أن الرحلة ستكون محفوفة بالمخاطر، إذ كان يُفترض بنا أن نسير عبر الأراضي الحدودية الجبلية التي تخضع لقبائل متحاربة خارجة على القانون، ينحصر نشاطها اليومي بالخطف والنهب والقتل. وكنت أعلم أيضاً أن اكتشاف قوات الأمن الباكستانية هويتي العربية الحقيقية سيعرّضني لأبشع المخاطر. لكن فيصل لم يتوانَ عن إضافة مكوّن جديد إلى مزيج الخوف هذا إذ أخبرني بأن العديد من الطرق التي سنسلكها لتفادي بعض نقاط التفتيش كانت على الأرجح مزروعة بالألغام. آنذاك، تملّكني شعور قوي بالخوف.

طلب إليّ فيصل أن أترك أغراضي كلها في حجرة الفندق ولا أحمل معي أي شيء. مرتدياً ملابسي الجديدة، توجهت بصحبة فيصل إلى محطة الحافلات حيث كان في انتظارنا اثنان من جماعة طالبان بحسب الاتفاق. كانا شابين في العشرين من عمرهما أو أقل، متواضعين، لا يحملان أي سلاح في أرض حتى الأطفال فيها يحملون مسدسات. وبدا لي إذ ذاك أن هذين الشابين لن يكونا المرافقين الأكثر بعثاً على الطمأنينة في مواجهة المخاطر التي تنتظرنا. وبعد أن غادرنا فيصل، حشرنا أجسادنا في حافلة تويوتا صغيرة مع خمسة عشر مسافراً آخرين. وسرعان ما انطلق السائق الشاب بأقصى سرعة مثيراً زوبعة من الغبار.

لم يكن مرافقاي يعرفان العربية أو أي لغة أخرى، وأنا بالطبع لا أعرف الأفغانية، وكانت اللغة المشتركة بيننا هي الصمت، مع ابتسامات الارتياح في كل مرة نجتاز فيها حاجزاً للجيش الباكستاني. وقد لاحظت أنهما لم يكتما ضحكتهما كلما نظرا إلى هيئتي الجديدة وعمامتي، وربما اعتقدا أنني أحد مهرِّبي الهيروويين، أو تاجر سلاح، أو إنسان على باب الله يريد الجهاد في بلد يبدو أن الجهاد فيه لن يتوقف على الإطلاق. كان منظري غريباً بالنسبة إليّ على الأقل، وإن كان متجانساً مع الآخرين، والاستثناء الوحيد أن ملابسي كانت جديدة، وعمامتي كذلك. وإذا كنت قد لفتّ أنظار ركاب الحافلة جميعهم، ومعاون سائقها الذي نظر إليّ متشككاً، فلذلك السبب وحده.

السائق كان شاباً ويسابق الريح في سيارته القديمة المتهالكة، ويتلوّى بين المطبات بطريقة بهلوانية في طريق جبلي مرعب. باكستان في حالة طوارىء والإجراءات الأمنية في ذروتها، ولكن برغم الحواجز الكثيرة التي أوقفتنا فقد مررنا بسلام حتى نقطة الحدود.

وهي كانت عبارة عن ممر وسط جبلين عرضه عشرة أمتار على الأكثر، يقف عليها جنود ورجال مباحث من باكستان، يتأملون المارين بتفحص، ولكنهم لا يوقفون إلا من معه كيس أو أشياء لافتة للنظر. ولأنني لا أحمل إلا مخلاة من القماش الرديء، لا تضم إلا كاميرا وجهاز تسجيل صغيراً، وبضع أوراق، وبطاريات صغيرة، فقد مررنا بهدوء من دون

أن يوقفنا أحد، أو لعل الطالبين اللذين يرتبطان بعلاقة جيدة مع باكستان، وجيشها على وجه التحديد، كانا أقوى من جواز سفر دبلوماسي بالنسبة إليّ.

بعد نقطة الحدود الباكستانية مشينا نحو نصف كيلومتر. ثم لاحت نقطة الحدود الأفغانية، وهي عبارة عن علم أبيض متسخ، أو ربما قطعة من ثوب بالٍ، علّق على عصا عادية لا تكاد تُرى، يجلس إلى جانبها شبح رجل ملتح معمم، لم يسأل أحداً وكأن الأمر لا يعنيه. وإذ عدنا وركبنا الشاحنة، مررنا بمقبرة كان ترفرف على مدخلها نحو عشرين أو ثلاثين راية إسلامية وعربية، حمراء وخضراء. وأوضح أحدهم أن المقبرة تضم جثث العرب المجاهدين الذين قضوا نحبهم في الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي. (استمرّت الحركة الجهادية الأفغانية الناجحة ضد الغزو السوفياتي عشرة أعوام من العام ١٩٧٩ إلى العام ١٩٨٩). فسألت السائق أن يوقف الشاحنة ورحنا نجول بعض الوقت بين الضرائح ونحل رموز الأسماء والآيات القرآنية المدوّنة على الشواهد. وتبيّن أن القبور تعود إلى محاربين من مصر واليمن والمملكة العربية السعودية وغيرها من الدول العربية. وكان اسم المعركة التي سقط فيها كل محارب منقوشاً على شاهد القبر. فكانت هذه المقبرة أشبه بشهادة على أن الجهاد قد وحّد بين أشخاص من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وصلنا إلى سوق صغيرة، أشار كل من مرافقي إلى فمه بحركة فهمت منها أنهما يريدان تناول الغداء، فالساعة الثانية والنصف ظهراً. أومأت بالموافقة، فاتجهنا إلى مطعم على قارعة الطريق. المقاعد خشبية أتت من الجبال مباشرة من دون تشذيب، والطاولات من الزنك أو الحديد الصدىء. كان الطعام مرقاً يحوي قطعة من لحم يعلم الله هويته، ونصف حبة بطاطس، في صحن معدني، وبضعة أرغفة من الخبز، وإناء فيه ماء وثلاثة أكواب معدنية.

كانت وجبة شهية بمختلف المقاييس، حتى إن الجوع أنساني توصيات الطبيب كافة في شأن تجنب الكوليسترول، فالدهون كانت عائمة بطريقة لافتة، وعلى أي حال نحن لسنا في مطعم خمس نجوم مثل تلك المطاعم التي اعتدناها، نحن معشر الصحافيين، في البلدان الغربية المترفة.

تجشّأ صاحباي، وحمدا الله كثيراً على هذه النعمة، وذهبنا بعد ذلك إلى مسجد مجاور للصلاة. كان من الصعب عليّ فهم اللغة التي يتحدّث بها الإمام، وإن كنت تعرّفت إلى بعض الآيات القرآنية التي تلاها.

لم أكن أملك أدنى فكرة عن مكان وجودنا، ما خلا معرفتي بأننا في أفغانستان. توجهنا إلى محطة الحافلات الأفغانية، ونجح مرافقاي، باعتبارهما في بلدهما، وينتميان إلى الحزب الحاكم، في إجلاسي في المقعد الأمامي إلى جانب السائق وركب آخر، أي في الدرجة الأولى، بينما هما جلسا في الدرجة السياحية تأدباً وتواضعاً، أو هكذا اعتقدت.

الرحلة من الحدود الباكستانية إلى جلالاباد تستغرق أربع ساعات أو أكثر أو أقل. الأمر يعتمد على همّة السائق ونوع سيارته وتعاون الركاب. سيارتنا كانت من النوع القديم الذي عاصر الجهاد الأفغاني الأول، وربما شارك فيه بطريقة أو بأخرى. ولذلك نزلنا منها ثلاث مرات، في الأولى والثانية لانفجار عجلات، وفي الثالثة لإخراجها من وحل غرقت فيه واستعصى على محرّكها الخروج منه بقوته الذاتية. ولذلك كان لا بد من اللجوء إلى مناكب الركاب وعضلاتهم لإعطائه قوة إضافية.

السير في باكستان هو على اليسار، تماماً مثل بريطانيا. فباكستان هي ربما الوحيدة إلى جانب مالطا وقبرص على ما أعتقد، التي لا تزال متمسكة بهذا الأثر الاستعماري البريطاني على الرغم من استقلالها. أما في أفغانستان، فهوية المرور مجهولة وتعتمد على مزاج السائق ومطبّات الطريق. فالسيارة تتلوّى مثل ثعبان هرم، تارة على اليسار وطوراً على اليمين، والطريق ملآن بالمطبات الناجمة عن القذائف، أو جنازير الدبابات، أو السيول وعوامل التعرية الأخرى، أو كلها مجتمعة.

أفغانستان في ظل طالبان

وصلنا إلى جلالاباد بآلام شديدة في الرقبة والظهر، وبسلامة الله فوق ذلك. أخذني مرافقاي إلى الجهة المحددة، وهي منزل أحد قادة المجاهدين الأفغان في منطقة جلالاباد، حيث سلّما الأمانة وانصرفا، ولم أرهما بعد ذلك.

قدّم لي سكان البيت كوباً من الشاي. وفيما جلست أبادلهم أطراف الحديث، علمت أن اثنين من الصبية الذين تجمهروا حول جهاز كمبيوتر وانهمكوا بألعاب النينتندو كانا نجلَي الشيخ بن لادن، سعد ومحمد.

جرى توجيهي إلى أحد فنادق المدينة الذي يحمل اسم الجبل الأبيض دائماً، ويذكّر بحياء بماضٍ مستقر لأفغانستان وآثار عزّ ولّى. الفندق فسيح محاط بحدائق ملأى بأشجار البرتقال بأنواعه كلها، وبساتين ورد، ولكنه خالٍ من النزلاء تقريباً، ولم أرَ فيه إلا صحافيّين تلفزيونيَين، أحدهما من القناة الرابعة البريطانية والآخر من البي بي سي، وكانا رفيقيّ في وجبة العشاء المقررة، أي مرق لحم أو دجاج، مع أرز هذه المرة وأرغفة خبز.

صاحب الفندق رجل طريف من كابول، هاجر إلى جلالاباد هرباً من القذائف واشترى النزل أو استولى عليه، والله أعلم، اعتقد أنني أفغاني بشتوني بسبب ملابسي. عندما حدّثني ورددت عليه بالإنكليزية، ازداد تشككاً وفضولاً، وازدادت أسئلته عن مقصدي، فتحايلت عليه بالقول إنني من أب بشتوني وأم انكليزية. وعندما سألني عن سبب جهلي لغة الباشتون، أسعفني الله بالقول إن والدي توفّي وأنا صغير، وتولّت والدتي تربيتي، وهي لا تتحدث غير الانكليزية. الأعذار هذه كانت ضرورية لإخفاء مقصدي وتجنّب أسئلة صاحب الفندق المزعجة. وكانت فرحتي كبيرة عندما كفّ عن الأسئلة وبدأ تحليل الوضع في أفغانستان. وقد بدا لي أنه من مؤيدي نجيب الله (الرئيس الأفغاني السابق الموالي للاتحاد السوفياتي والذي أُبعد من الحكم في العام ١٩٩٢). فقد أشاد به وبخصاله القيادية، ولكنه أشاد بالطالبان أيضاً، في مناسبة ومن دون مناسبة، طلباً للأمان ربما، وتجنّباً للمشكلات. وقد اعترف بأن المدينة لم تعرف الأمن إلا في عهدهم، بعدما كانت نهباً لقطاع الطرق واللصوص والميليشيات المتعددة التي فرضت خوات على الجميع، ووصل الأمر ببعضها إلى اغتصاب السيدات، وهي جريمة أو الأحرى أم الجرائم في أفغانستان.

الكهرباء في النزل انقطعت بعد العشاء مباشرة واستعنا في اكتشاف طريقنا إلى غرفتنا،

وهي متواضعة الأثاث بكل المقاييس، بأضواء الشموع. وعندما سألت صاحب الفندق عن عودتها (أي الكهرباء)، قال إنها قد تعود بعد سبع دقائق أو سبعة أيام، الله وحده، ثم الطالبان، أعلم. وفعلاً غادرت الفندق في عصر اليوم التالي والكهرباء ما زالت مقطوعة، ولعلها كذلك حتى الآن.

الليلة الأولى في الفندق كانت نوعاً من العذاب، فقد استعصى عليّ النوم، والسبب كثرة الحشرات التي تشاطرني الفراش، وبعضها من النوع الفتاك المزوّد بأجهزة دمار شامل بيولوجية، مثل البق. أما عن البراغيث، فلا تسأل. والحسنة الوحيدة من تجربة النوم في هذا الفندق أنني تعرفت مجدداً، وبعد طول انقطاع، إلى هذا النوع من الحشرات والقوارض، فجاءت عملية التعارف هذه مؤلمة جداً، وظهرت آثارها واضحة على ساقيّ وبعض أجزاء جسمي الأخرى.

صباح الجمعة جاء سفير الشيخ بن لادن في جلالاباد إلى الفندق واعتذر إليّ قائلاً إن الشيخ لن يتمكن من مقابلتي هذا اليوم، وعليّ الانتظار. فأبلغته أنني على عجلة من أمري، ولديّ ارتباطات مسبقة في لندن تحتّم وجودي الإثنين هناك، فتفهّم الأمر ووعد خيراً.

كان هذا السفير هو أبو حفص، المعروف أيضاً باسم محمد عاطف، أو أحد العقول العسكرية الجبارة المحيطة بالشيخ أسامة بن لادن، نحيل الجسم، أسمر طويل القامة، معمم، ويمتلىء حيوية وشباباً، وللحق كان في قمة التهذيب. لم يحدثني البتة عن نفسه أو دوره، ولم أكتشف مكانته إلا بعد مغادرتي أفغانستان. وأعترف أنني احترمت صدقه وتواضعه وإيمانه العميق بالقضايا التي يؤمن بها، ولا بد أنه أحس بهذا الاحترام من جانبه.

في مرحلة لاحقة، أخبرني أبو حفص عن الهجوم الذي استهدف السفارة المصرية في إسلام آباد في العام ١٩٩٥. وقد أوضح لي آنذاك أن الغاية من الهجوم كانت الانتقام لعمليات التعذيب والتحرّش الجنسي، التي لقيها «الأخوان» على أيدي رجال الاستخبارات المصرية داخل السفارة. وإذ قرّر رجال القاعدة تدمير السفارة، وضعوا خطة

تقضي بإرسال سيارة صغيرة لتفجير البوابة، تليها ناقلة نفط تحمل ١٥٠٠ كيلوغرام من المتفجرات لتفجير مبنى السفارة كلّه. وعندما استُخدمت الاستراتيجية نفسها لاحقاً في الهجمات على سفارتَي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام في العام ١٩٩٨، أدركت على الفور أن الخطة كانت من بنات أفكار أبي حفص. آخر مرة تحدّثت معه بعد ذلك، كانت عقب القصف الأمريكي لأفغانستان في تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠١. فقد هاتفني ليبلغني بياناً، انفردنا به في حينه، يؤكد لي نجاة الشيخ أسامة بن لادن واستشهاد خمسة من المجاهدين العرب، ويتوعّد على لسان الشيخ بن لادن بالانتقام من النظام الأمريكي والرئيس كلينتون وتلقينه درساً لن ينساه. (وقد قُتل أبو حفص بعد فترة وجيزة في كابول عندما استهدفته قذيف أمريكية).

في الساعة الثالثة ما بعد الظهر، جاءت سيارة حمراء إلى الفندق تنقل شخصاً جديداً، وسائقاً ومسلحين قالا لي إننا سننطلق إلى الشيخ، وحذراني من أن الطريق شاقة ومرهقة، علاوة على كونها خطرة، فحمدت الله على هذا الامتحان وتعوّذت من الشيطان الرجيم، وسلّمت أمري إلى خالقي.

الطريق إلى إمارة الشيخ بن لادن كانت شاقة فعلاً، غير معبّدة نصفها يمرّ وسط قرى جبلية ووديان، ونصفها الثاني حلزوني صخري مرعب جداً. ومن سوء حظنا أننا سرنا إليه بعد حلول الظلام، فكنا نسير إلى المجهول، مع سائق يستعجل الموت، ويقود السيارة كما لو أنه على إحدى طرق ألمانيا السريعة الفسيحة، ولا يفوته، بين حين وآخر، استعراض مهاراته بطريقة بهلوانية تتأرجح معها السيارة ذات اليمين وذات اليسار.

في منتصف الطريق، توقفنا أمام صخرة حالت دون استمرارنا، وقال السائق بثقة مطلقة إنها سقطت توّاً من قمة الجبل، وهنا سقط قلبي، وسألت هل كان هذا مألوفاً. أجاب السائق بثقة كبرى بالإيجاب، وأكد أن علينا أن نتوقّع صخوراً أخرى متساقطة. فنحن في موسم الشتاء، والتربة رخوة. وروى لنا كيف أن صديقه أبا عبيدة انتقل إلى خالقه قبل بضعة أشهر على الطريق نفسها، وبسبب سقوط صخرة على سيارته فابتلعت ريقي وقرأت الفاتحة.

بعد مرور سبع ساعات أخرى من المعاناة ومصارعة الصخور والنضال عبر الممرات الجبلية الخطيرة، بلغنا حاجزاً من نوع آخر. كان هذا الحاجز يخضع لإمرة مسلحين من طالبان شرسي المظهر؛ ولم يكن من سبيل لمعرفة هل كانوا سيعتبروننا أصدقاء أو أعداء. وإذ راحت السيارة تتقدّم بنا ببطء باتجاههم، شعرت بانكماش في معدتي، إنما لم يكن من داعٍ لشعوري بالقلق. إذ لم يلتفتوا التفاتة ثانية باتجاهنا، حتى إنهم لم يسألوا عما نفعله أو عن وجهتنا، تماماً كما لم يسألوا عن أي أوراق ثبوتية واكتفوا بأن لوّحوا لنا للمرور. والحقيقة، أقول إني لم أتعرض لأي تفتيش أو استجواب طوال الرحلة، علماً بأني كنت أتوقع العكس تماماً باعتبار أن الشيخ بن لادن كان مطارداً من العالم بأسره.

خلافاً للصحافيين القليلين الآخرين الذين جرى اصطحابهم لمقابلة الشيخ أسامة بن لادن، لم يعصب رجاله عينيّ لدى اقترابنا من طورا بورا. وقد رأيت في ذلك دلالة على أن الشيخ يعتبرني جديراً بثقته.

وسرعان ما بدأت أجهزة الاتصال تخرج عن صمتها. فقد أعطى مرافقي إشارة عن قرب وصولنا. وهنا استقبلتنا سيارة مدججة بالمسلحين، وقاذفات آر بي جي ومدفعية تزيّن ظهرها. ولم أشعر بالاطمئنان على الرغم من أن الهدف كان طمأنتنا، والله أعلم.

في عش النسور: طورا بورا

بلغنا أخيراً عش النسور، وهو الاسم الذي كان يُطلق على قاعدة الأفغان العرب في طورا بورا. (الأفغان العرب هو اسم أُطلق على المجاهدين الذين حضروا جماعات من الدول العربية ليستقروا في أفغانستان ويحاربوا الاتحاد السوفياتي في البدء والغزو الأمريكي في ما بعد. وفي مرحلة لاحقة، شكل العديد من هؤلاء الرجال نواة تنظيم القاعدة). كنا على ارتفاع ثلاثة آلاف متر تقريباً، وكان بمقدوري أن أرى، بفضل المصابيح الأمامية للسيارة، كهوفاً عديدة محفورة في سفوح الجبل وسط الثلج. وكنت ألمح في العتمة، وإن بشكل غير واضح، أطياف مجموعات حراسة مسلحة تتحرك هنا وهناك من

دون أن أتبيّن ملامحها. وعلى الرغم من أنني قضيت الجزء الأكبر من الرحلة وأنا في حالة أقرب إلى الذعر، فقد شعرت بالفرج بل بالأمان عندما بلغنا المخبأ السري للشيخ بن لادن. (لم أشعر قط بما يدفعني إلى الخوف من الشيخ أو من رجاله).

توقّفت السيارة أمام مدخل أحد الكهوف. كان نور خافت ينبعث من الداخل. رياح باردة جداً لفحت وجهي لدى النزول من السيارة، وكادت أن تقذف بعمامتي إلى سفح الجبل، فهرعت إلى المدخل حيث ينبعث نور خافت. كان في استقبالي رجل تملّكني ذهول شديد لمّا أدركت أنه كاتب سوري كنت أعرفه حق المعرفة في لندن. فالرجل لم يكن سوى عمر عبد الحكيم، المعروف أيضاً باسم «أبو مصعب السوري»، والمتخصص بموضوع الجهاد والإسلام. وبعد أن تبادلنا أطراف الحديث للحظات، علمت بأنه غادر إسبانيا، حيث زوجته والحياة المدنية التي كان يحياها، لينضم إلى تنظيم القاعدة. وفي مرحلة لاحقة، انضم إلى جماعة طالبان وأصبح المستشار الإعلامي للملا عمر. وفيما قادني أبو مصعب السوري إلى كهف آخر، قال: «تعال، فالشيخ في انتظارك».

قابلت الشيخ أسامة بن لادن قبل حلول منتصف ليل الثالث والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر بهنيهة. كان يجلس القرفصاء على بساط وقد وضع في حضنه رشاشاً من نوع كلاشينكوف. وعلى الرغم من وجود بضعة أشخاص معنا، فقد جعلني أتسمّر في مكاني. فالمرء يشعر دوماً بالغرابة عندما يقابل رجلاً بات يعرف صورته حق المعرفة من خلال الصحافة؛ بل إن شعوره بالاندهاش يتعاظم عندما يدرك أن هذا الرجل مطلوب من وكالات الاستخبارات في العالم أجمع. وضع الشيخ بن لادن بندقيته أرضاً وهبّ واقفاً، ثم اتجه صوبي وقد ارتسمت على محيّاه ابتسامة ودودة تحولت إلى ما يشبه ضحكة مكتومة عندما تنبّه إلى ملابسي. آنذاك، عانقني الشيخ بن لادن بحرارة وسألني عن رحلتي.

في ذلك الحين، شعرت بأني ضيف مكرَّم وعوملت باحترام بالغ. قال الشيخ بن لادن إنه يأمل ألا أكون منهكاً ووعدني بأن نتناول طعام العشاء معاً في وقت لاحق. وقد أشار

عليّ آنذاك بأن أجلس على مقعد مصنوع من أغصان صغيرة مصدرها أشجار السنديان التي تغطي سفح الجبل. وكانت الأغصان مثبّتة بمسامير لتشكل قاعدة حرفية يعلوها فراش غير سميك.

بذل الشيخ بن لادن قصارى جهده ليخفِّف من توتري. والواقع أنه بدا إلى حد ما شخصاً قريباً، وربما هذا هو جوهر الشخصية القوية والحضور المؤثِّر. فقد كان يتحدّث على سجيّته موضحاً أن لطورا بورا دلالة خاصة بالنسبة إليه. ففي مرحلة الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي، شكلت طورا بورا قاعدته العسكرية الرئيسة. أما الآن، فهو يستخدم هذه القاعدة كملجأ يختلي فيه بنفسه، أي كمكان للتفكير والتخطيط والاسترخاء.

ولكم شعرت بالدهشة لدى اكتشافي أن الشيخ بن لادن، المتحدِّر من إحدى أكثر العائلات العربية ثراءً والمعتاد أعلى درجات الرفاهية، يقيم في هذا الكهف الوضيع والشديد البرودة. فقد كنت أتوقع ـ حتى بعد أن بدا واضحاً أن قاعدته تقع في أعالي الجبال ـ أن أجده، إن لم يكن في قصر، فعلى الأقل في منزل أو مسكن معقول. لكن الشيخ بن لادن أخبرني بأنه يحتقر المال وبأنه لم يسعَ قط إلى حياة ملؤها الراحة والرخاء، بل إنه خلافاً لأشقائه، انتهج على الدوام نمطاً حياتياً متواضعاً.

وعندما شكوت الطقس البارد، أخبرني بأني محظوظ لأنني في الشتاء. فعندما حضر روبرت فيسك إلى المكان نفسه لإجراء مقابلة معه، كان الوقت صيفاً والعقارب تمرح في المكان. كانت مساحة الكهف ستة أمتار طولاً وأربعة عرضاً؛ وكان أبرز ما يميّز المكان مكتبة ملأى بكتب التراث والتفسير (الشروحات القرآنية). أما الجدران الأخرى، فتزيّنها بنادق كلاشينكوف تتدلى من مسامير ثُبِّتت في أنحاء مختلفة من الجدران.

الرجل، أي الشيخ أسامة بن لادن طويل القامة، نحيل البنية من دون ضعف، أطلق العنان للحيته، يرتدي الملابس الأفغانية ويتّقي البرد بسترة مرقطة من ذلك النوع الذي ترتديه الفرق الخاصة (كوماندو)، وإن كان غالباً ما يضع فوقها بطانية صوف أفغانية تتدلى من كتفيه. وكان يعتمر عمامة بيضاء، أو في بعض الأحيان يحيط رأسه بشماغ أحمر.

كان الشيخ بن لادن لطيف المعشر متواضعاً إلى أبعد حدود، حتى إنني اكتشفت في خلال اليومين الذين أمضيتهما برفقته أن صحبته قد تكون ممتعة. كان يتحدث بصوت خافت إنما مسموع، وترتسم دوماً على شفتيه ابتسامة توحي الطمأنينة وتختصر المسافات بينه وبين ضيفه، خصوصاً إذا كان يقابله للمرة الأولى، كما هو الحال معي.

في خلال أول حديث لنا، رحت أشكو المشقة التي خبرتها في رحلتي، والآلام المبرحة التي شعرت بها في الظهر والعنق والمعدة. فضحك وقال لي إنه هوّن عليّ الأمر بأن قرر مقابلتي في منتصف الطريق. فقد كان في قاعدة أبعد وأعلى. شكرت له هذه المبادرة مضطراً.

في منتصف الحديث، سمعت صراخاً وجلبة وإطلاق نار وقصفاً مدفعياً وصاروخياً. وشاهدت مضيفي يهرع بسرعة إلى خارج الغرفة، ويتركني وحدي. فقلت في نفسي إنها النهاية، وقرأت آية الكرسي. فقد اعتقدت أن هجوماً وقع. فالرجل مطلوب رأسه من دول عظمى من بينها أمريكا وروسيا، ومن عدة قوى غير عظمى ولن تكون، ومعظمها عربية... بعد لحظات عاد الرجل، واعتذر إليّ موضحاً بأن ليس هناك ما يزعج، مجرد استنفار يحدث بين حين وآخر تحسباً للطوارئ وإبقاء حالة الاستعداد في أقصى درجاتها. ارتحت قليلاً، ولكنني لم أطمئن، ولعنت حظي وما جلبته إلى نفسي.

عشاء متواضع

بعد اكتمال الحديث، قالوا إن العشاء جاهز. توقّعت أن يكون غزالاً برياً مشوياً، أو جدياً من ذلك النوع الجبلي الخالي الدهن. وتواضعت في أحلامي إلى درجة مجموعة من الطيور، وحتى الدجاج البلدي. وكانت المفاجأة عظيمة لي عندما كان العشاء بطاطس مقلية على الطريقة العربية وعائمة في زيت من بذور القطن، وصحناً من البيض لا يكاد يكفي شخصاً منهم، وجبناً مالحاً أعتقد أن تناوله انقرض حتى في قرى صعيد مصر، ومجموعة من الأرغفة أظن أنها عُجنت بالرمل لأن مضغها كان يحدث صريراً بين

الأضراس لا يشجع على تكرار التجربة. تناولت بضع لُقيمات، وادعيت أنني لا أتعشّى عادة لأسباب صحية، فقبلوا اعتذاري وواصلوا الأكل.

كانت وجبة أخرى تشكل طعام الشيخ بن لادن المفضل تتألف من الخبز مع اللبن والأرز وتُقدَّم مع البطاطس المطبوخة في صلصة الطماطم. كانت الدهون الحيوانية تطفو على سطح الطبق؛ وبصعوبة استطعت أن أجبر نفسي على ابتلاع هذا الطعام. وبعد تناوله، تقيأت تحت شجرة صنوبر خارج الكهف.

(أخبرني أخيراً شخص مقرَّب من الشيخ بن لادن بأنني عندما نشرت أول تقرير عن هذه الزيارة في «القدس العربي»، أعاد الشيخ بن لادن قراءته أربع مرات. وكان في كل مرة يبلغ الجزء المتعلق برداءة الطعام، ينفجر بالضحك ويقول إنه سيقدم لي أشهى خروف محشو إنْ زرته مجدداً).

فيما راح الرجال يكملون طعامهم، سرحت في تفكيري وتساءلت عما دفع هذا الرجل، ابن الأكرمين، الذي ينتمي إلى أسرة ثرية معروفة تملك المليارات، إلى أن يعيش هذه الحياة الخشنة، وسط هذه الجبال الخطرة المقفرة، يواجه كل هذه المخاطر، ينتظره الموت في كل منعطف، وتتصيّده جهات عديدة. في تلك اللحظة تحديداً، شرع الشيخ بن لادن يتحدث عن عدم خوفه من الموت، وعن رغبته في الشهادة، وعن مدى الأسى الذي يشعر به لأنه ما زال على قيد الحياة. وعندما تحدّث عن رفاقه المجاهدين الذين غيّبهم الموت، والذين سيدخلهم الله فسيح جنّاته، بحسب ما يؤمنون، رأيت عينيه تغرورقان بالدمع، وبدا واضحاً أنه يشعر بتأثر شديد.

آنذاك، تحدثنا أيضاً عن ثروته. وفي حين رفض الإفصاح عن مقدار ثروته تحديداً، اعترف بأنه، على الرغم من احتجابه عن الأنظار، لا يزال يدير مجموعة استثمارات كبيرة من خلال شبكة معقدة من معارفه السريين. لكنه أشار إلى أن هذه الثروة ملك للأمة (المجتمع الإسلامي كله) قائلاً: «من واجب الأمة كلها أن تكرِّس ثروتها للنضال». ولاحظت في تلك الأثناء أنه قلما تحدّث عن «العرب»، في حين أنه لا يكف عن الحديث

عن الإسلام والأمة. ولكم أذهلني استخدامه صورة مجازية في حديثه عندما قال: «الأمة مترابطة كأنها تيار كهربائي» (فهو كان رجلاً يرغب في أن يعيدنا بالزمن ١٥٠٠ سنة).

بعد ذلك، شهد الكهف حديثاً باهراً. فالمستشار الإعلامي للشيخ بن لادن كان حاضراً معنا، وبدا مستاءً عندما شرع الشيخ بن لادن يتحدث في بعض الأمور. وقد طلب إليّ آنذاك ألا أدوّنها، فلم أفعل إلا الآن. والواقع أن أحد الأحاديث التي شملتها الرقابة حينئذٍ يتعلق بالحكومة والقيادة السودانيتين اللتين كانتا قد عمدتا أخيراً إلى طرد الشيخ بن لادن من السودان نزولاً على طلب الولايات المتحدة. وقد تذمّر الشيخ بن لادن بصوت ملؤه الغضب والمرارة مشيراً إلى أن المسؤولين السودانيين ليسوا بمسلمين وأنهم خانوه. فهو كان قد ساعد مالياً تلك البلاد المفلسة وأمدها بنحو ٣٠٠ مليون دولار من أمواله الخاصة. وعندما طلب إليه المسؤولون السودانيون الرحيل، طالب باستعادة تلك القروض. قال لي الشيخ بن لادن وهو يستعيد ذكريات تلك المرحلة: «أخبروني بأنهم يفتقرون إلى تلك المبالغ، وما كانوا يكذبون. لكنهم عرضوا عليّ لقاءها محاصيل من الذرة والقمح والأنعام، مقترحين أن أبيعها لأستعيد مالي». ضحك الشيخ بن لادن وقد لاح في عينيه مزيج من البهجة والمرارة وسأل: «من يبتاع الذرة والمواشي من الشيخ أسامة بن لادن الفار من العدالة؟».

كان الشيخ بن لادن يتمتع بحسّ الفكاهة، وكثيراً ما يلقي بالدعابات عندما لا تكون متوقعة على الإطلاق. ففي أثناء انتقاده المطوّل والغاضب لوجود القوات الأمريكية في شبه الجزيرة العربية (المملكة العربية السعودية ودول الخليج)، أشار إلى أن جلّ ما يهم تلك القوات بالطبع هو النفط، لكن ذلك يستوجب ضغطاً عسكرياً. وأضاف قائلاً: «في مختلف الأحوال، سنبيعهم النفط حتماً؛ فنحن لا نستطيع أن نشربه».

ولا بد لي من الإشارة إلى أن الشيخ بن لادن رفض أن أسجِّل حديثه على أشرطة في خلال مقابلاتنا. وإذ شعرت بتشنّج عضلي في يدي جرّاء تدوين الملاحظات باستمرار، سألته لمَ لم يسمح لي باعتماد بديل أسهل وتسجيل المحادثة. لكني لم ألقَ منه جواباً. وفي

ما بعد، أوضح لي مستشاره الإعلامي (في سياق حديث خاص ليس للنشر بالطبع) أن الشيخ بن لادن كان يخشى ارتكاب بعض الأخطاء النحوية أو الدينية التي يمكن أن تُستغل ضده في حال تسجيلها. ففي ذلك الحين، لم يكن الشيخ بن لادن خبيراً متفوقاً في الإسلام، لكنه كان يسعى إلى تحقيق هدفه. وقد أدركت مدى وعيه أهمية صورته في العالم الإسلامي ورغبته في أن يتبوأ منصب مفتٍ (مرجع يدرس الشريعة [قانون الإسلام]، ويتمتع بصلاحية إصدار الفتاوى [المراسيم الدينية]).

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما غادر المدعوون الآخرون الكهف للنوم. وكان الكهف يحتوي على سريرين فقط، فعرض عليّ الشيخ بن لادن استخدام أحدهما واضطجع هو في السرير الآخر. وكان ذلك بالطبع أغرب سرير رقدت فيه يوماً. سريري كان جافاً غليظاً بكل المقاييس، ولا أعتقد أن حاله تغيّر منذ عشرين عاماً. فالبطانيات هي نفسها، وقد باتت عديمة الملامح والألوان من كثرة الاستعمال وقلة التنظيف، والشيء نفسه يقال عن الوسادة. وأشد ما أثار خوفي أن الفراش كان يمتد عبر عدة صناديق من القنابل اليدوية وتحيط به أسلحة الكلاشينكوف وأسلحة أخرى تتدلى من الجدران.

كانت التدفئة بدائية، عبارة عن خزان مياه تحته كانون للحطب، وماسورة ترتفع إلى السقف. ويبدو أن هذه الطريقة البدائية في التدفئة، والمطبقة في معظم أنحاء أفغانستان، كما سمعت، هي أكثر فعالية من سائر أجهزة التدفئة الحديثة في أوروبا. إنما على الرغم من الدفء النسبي في الكهف، فقد جافاني النوم لليلة أخرى. فالترسانة التي كانت تحيط بي جعلتني غاية في التوتر. وبما أني جاهل بأمور الأسلحة، كنت قلقاً من أن يفجِّرها شيء ما عن غير قصد.

في المقابل، لم يكن الشيخ أسامة بن لادن يواجه مشكلات مماثلة مع الأرق. فما إن وضع رشاشه الكلاشينكوف أرضاً بالقرب من سريره حتى غطّ في نوم عميق وهانىء. ولو أنني كنت قاتلاً أو صائد مكافآت، لحالفني الحظ. ولم أكن أعرف آنذاك أن الرجل الراقد في السرير المجاور سيصبح الأسوأ سمعة في العصور الحديثة، وسيرتفع ثمن رأسه

من مبلغ زهيد نسبياً كان يساوي مليون دولار أمريكي يوم رقدت على مقربة منه إلى ٢٥ مليون دولار تقدّمها اليوم الولايات المتحدة لمن يرشدها إليه.

كان صرير الرياح في الخارج مثل صفارات الإنذار، وديك أحول بدأ صياحه في الواحدة صباحاً بصوت جهوري لم أسمع مثله. وما زاد الطين بلة أن سيارات القاعدة كانت تطلق العنان لمحركاتها بالتناوب. وعندما سألت عن السبب في الصباح، قالوا إنها مسألة ضرورية حتى لا يتجمّد الديزل في المحركات وتبخر الكهرباء.

في الساعة الرابعة صباحاً دبت الحركة في القاعدة، وانطلق صوت الأذان لصلاة الفجر. يا الله ما أجمله وصداه يتردد في الجبال الشاهقة في أرض أفغانستان. تصوّرت أنني في معسكر لجنود أبي مسلم الخراساني يستعد مجاهدوه للتصدي للكفار في معركة فاصلة. الأسماء كلها من حولي كانت توحي بذلك، فهذا هو أبو عبيدة، وذاك أبو معاذ، وثالث أبو صهيب، ورابع أبو ذر، وخامس أبو الوليد.

لم أنم، كما قلت، حتى أصحو. ولكن المشكلة في الوضوء، والجماعة مطاوعة، وصلاة الصبح يجب أن تكون حاضراً لا قضاء فيها، والوضوء بعد النوم واجب... قمنا بتثاقل، زوّدنا الأخوان ببعض الماء الفاتر من أجل الوضوء. سألت أين التواليت، قالوا ضاحكين: تواليت؟ هل تظن أنك في شيراتون؟ وأشاروا إلى منطقة خلاء وقالوا هناك يمكن قضاء الحاجة والوضوء... درجة الحرارة كانت نحو عشرين درجة مئوية تحت الصفر على أبعد تقدير، ولكنّ للضرورة أحكاماً. وكل ما أذكره أن أطرافي السفلى من الوسط إلى القدمين تجمّدت تماماً، ولا أعرف أكان وضوئي شرعياً أم لا. كل ما أعرفه أنني اجتهدت والله أعلم.

المدافع والدبابات والطبيعة

مع تسلل الضوء رويداً رويداً، بدأت تتضح ملامح إمارة القاعدة. وبدأ منظر الجبال يطل على شخص مثلي قاطع الطبيعة البكر منذ ثلاثين عاماً على الأقل. إنه جمال من نوع خاص، أشجار الصنوبر تعانق بطن الجبل، والثلوج تغطيه من كل جانب، وهواء نقي يملأ

الرئتين، وشمس تبزغ على مهل وخفر في الأفق البعيد، يسبقها شفقها بألوانه القرمزية والحمراء، كأنه هودج عرس لأجمل فتيات القبيلة.

القاعدة تتمتع بحراسة جيدة، هكذا أعتقد. فهناك مدفعية مضادة للطائرات، ودبابات ومجنزرات تتحكم في الطريق، وكمائن للمجاهدين في كل منحنى، وراجمات صواريخ. وقيل إن هناك صواريخ من نوع ستينغر لمواجهة أي غارات جوية. ولكنني شخصياً لم أرها ولم أسأل عنها إيثاراً للسلامة ودرءاً للشبهات.

إفطار الصباح لم يكن مختلفاً كثيراً عن العشاء: الجبن نفسه، أو ما تبقى منه مع بعض عسل القصب الأسود، وشاي بالحليب، وقد رافقته تلاوة آيات من القرآن الكريم. ولاحظت أن الشيخ بن لادن مقلّ في الأكل، ولا يحتسي أي مشروب غير الماء، بما في ذلك الشاي والقهوة، والله أعلم.

قاعدة عصرية ونخبة متعلمة

اكتشفت في خلال جولتي على القاعدة السفلية أنها مجهّزة، على نحو يتناقض مع أثاثها البدائي، بأحدث التقنيات، وأنها تستمد الطاقة الكهربائية من مولِّد صغير خاص بها. ورأيت أجهزة كمبيوتر وأجهزة اتصالات من أحدث ما توصَّل إليه العلم. كان الشيخ بن لادن قادراً على ولوج شبكة الإنترنت؛ وهي تقنية لم تكن حينئذٍ متوافرة للجميع كما هي الحال اليوم. وقد قال لي في هذا السياق: «في أيامنا هذه العالم يتحول إلى ما يشبه قرية صغيرة».

لا بد من الإشارة إلى أن حداثة شبكة الاتصالات لدى الشيخ بن لادن كانت تتنافى وشظف العيش الذي توصي به الأشكال الأكثر تطرفاً في الأصولية الإسلامية، وتحديداً تطرّف مضيفيه، أي حركة طالبان. وقد ضحك أحد معاوني الشيخ بن لادن عندما أبديت هذه الملاحظة قائلاً إن القاعدة «جمهورية داخل جمهورية».

وكان الشيخ بن لادن يحتفظ بأرشيف ضخم يشتمل على بيانات محفوظة في وثائق

خطية وعلى أقراص إلكترونية في آنٍ واحد. كذلك تضمّن الأرشيف الصحف العربية والأجنبية. فالشيخ بن لادن يطلع دوماً على آخر الأخبار إما من خلال الاتصالات السلكية اليومية مع لندن والخليج، وإما عبر الصحف، بحسب مكان وجوده والظروف المؤاتية. وإذ وقفت بالقرب من مكتب الشيخ بن لادن، وقع نظري على ختم لإحدى الشركات. وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من النظر إلى أسفل الختم لقراءة اسم الشركة أو المنظمة الذي يحمله فإن فكرة أن يكون الاسم هو «القاعدة» دغدغت مخيلتي.

لم تكن القاعدة في طورا بورا قد استُخدمت كمعسكر تدريبي منذ عدة سنوات. أما المجاهدون الذين كانوا يحيطون بالشيخ بن لادن في ذلك الأوان، فكانت مهمتهم حمايته من التعرض للاعتقال أو الهجوم. وكان الشباب من مختلف الأعمار ومن معظم الجنسيات العربية، ولكن غالبيتهم من الجزيرة العربية ومصر، ونسبة أبناء القصيم ومكة والمدينة وباقي إمارات الخليج عالية. وجميعهم يعرفون أنفسهم بأسماء إسلامية، وخصوصاً بأسماء الصحابة والمبشّرين بالجنة، وقادة الفتوحات الإسلامية الأولى. شباب مؤمنون بربهم ودينهم أداروا ظهورهم للدنيا منذ زمن بعيد، ويتطلعون إلى الدار الباقية ويستعجلون ذلك. وقد لاحظت أن غالبيتهم تحوز درجات علمية عالية، بعضهم أطباء ومهندسون ومدرّسون، هجروا أهلهم ووظائفهم، وانخرطوا في الجهاد الأفغاني وغير الأفغاني. ودائماً هناك جبهة مفتوحة، ودائماً هناك متطوعون يبحثون عن الشهادة ويستعجلون الآخرة.

والواقع أن المجاهدين العرب يحترمون قائدهم ويكنّون له كل الحب والتقدير على الرغم من أنه لا يظهر أي حزم أو بوادر قيادية. فقد كانوا يتمسكون بكل ما يقوله ويخاطبونه على الدوام مستخدمين اللقب التشريفي «شيخ»، وجميعهم قالوا لي إنهم على استعداد للموت دفاعاً عنه، وسيثأرون من أي جهة أو شخص يتعرّض له. فيصل الذي حدثتكم عنه في البداية، السفير غير المعلن في بيشاور، قال لي إنه مستعد أن يتلقى الرصاص بصدره في أي وقت دفاعاً عن الرجل وحماية له.

جلت مع الشيخ أسامة، أو أبي عبد الله كما يناديه أتباعه ومريدوه، في الجبال المجاورة

للقاعدة، وكان يمتشق بندقيته من طراز كلاشينكوف، وهي بندقية يعتز بها، قال إنها كانت لأحد الجنرالات السوفيات الذين قُتلوا في إحدى معارك الجهاد الأفغاني.

الحديث دار على الماضي والحاضر والمستقبل، والأنظمة العربية الفاسدة، والظلم الأمريكي الواقع على المسلمين. حدّثني أيضاً عن أيامه في السودان والصومال، وعن المحاولات التي استهدفت قتله واغتياله، عن الإغراءات المالية الضخمة التي عُرضت عليه للتراجع عن دعوته وجهاده، وعن الوفود والوسطاء الذين تدفقوا عليه. وقال لي أيضاً إن السعوديين عرضوا أن يعيدوا إليه جواز سفره السعودي إن رضي بأن يعلن على الملأ أن الملك فهد مسلم حقيقي، لكنه رفض عرضهم (سأناقش هذه المسائل كلها بالتفصيل في فصول مقبلة من هذا الكتاب).

نهاية الزيارة

بزغ فجر اليوم التالي وأشرقت الشمس، لكن البرد كان قارساً. وصحبني الشيخ بن لادن هذه المرة في جولة سياحية صعوداً عبر الجبل إلى الأماكن الأخرى من المعسكر. وفيما كنا نسير بين الأشجار، أوضح لي أنه يحب الجبال ويؤثر العيش دوماً في بيئة كهذه. قال لي: «أفضل الموت على العيش في دولة أوروبية».

في خلال جولتي، رأيت بيوتاً عديدة مبنية من الطوب يرتفع الدخان من مواقدها. وفاحت رائحة إعداد الخبز فيما تناهى إلى مسمعي ضجيج أولاد يلعبون. واستطعت أن ألمح بعض أولئك الأولاد وعدداً من النسوة اللواتي غطّى الحجاب أجسادهن من الرأس إلى أخمص القدمين.

أشار الشيخ بن لادن إلى قمة الجبل وأوضح لي أن قاعدة سوفياتية كانت ترتفع في المكان في مرحلة الجهاد، وأنها كانت تبسط سيطرتها الكاملة على المنطقة مسببة الكثير من المتاعب للمجاهدين. وإذ عادت به الذكريات إلى تلك المرحلة، قال بفخر: «فجّرناها وطردنا القوات السوفياتية».

واللافت أنه تحدّث بشكل إيجابي عن المحاربين السوفيات واصفاً إياهم «بالشجعان والصبورين»، مما كشف عن بعض الحقائق التي أفادني بها حصرياً آنذاك. فقد أخبرني الشيخ بن لادن بأن العرب الأفغان أنصاره كانوا متورطين في الكمين الذي نُصب في العام ١٩٩٣ للقوات الأمريكية في العاصمة الصومالية مُقديشو، موضحاً كيف أُلقي اللوم على زعيم الميليشيا الصومالي محمد فرح عيديد. وقال الشيخ بن لادن: «لكن عيديد أنكر مسؤوليته، لم يكن يكذب. لقد حققنا انتصارات مهمة في معارك ألحقت خسائر هائلة بالأمريكيين وفتكنا بهم في مقديشو». وأضاف الشيخ بن لادن أن الولايات المتحدة أظهرت جبناً لا مثيل له عندما سحبت قواتها من الصومال مباشرة بعد تلك الحادثة.

وأكد الشيخ بن لادن أن تنظيم القاعدة مسؤول عن تفجيرات العام ١٩٩٦، التي استهدفت القاعدة الأمريكية في أبراج الخبر في الظهران ـ المملكة العربية السعودية. فقد انفجر آنذاك ما مقداره ١٥٠٠ كيلوغرام من الديناميت في المجمّع العسكري الذي يؤوي القوات الأمريكية، مما أودى بحياة تسعة عشر جندياً وتسبب بإصابة خمسمئة. وأوضح لي الشيخ أنه شعر بالاستياء لأن الولايات المتحدة نقلت قاعدتها العسكرية السعودية عقب تلك التفجيرات إلى الخرج في الصحراء جنوبي الرياض. وتذمر الشيخ بن لادن قائلاً: «إنه مكان بعيد. كان من السهل اصطيادهم في الخبر، لكنهم انتقلوا بسرعة. فعلوا ذلك في غضون شهر واحد». وأضاف أن تنظيم القاعدة كان قد خطط لعمليات أخرى تستهدف مجمّع أبراج الخبر.

وأخبرني الشيخ بن لادن أيضاً بأن هجمات أخرى كانت قيد التخطيط، مشدداً على أن الإعداد لهذه «العمليات» كما يسمّيها يستغرق وقتاً طويلاً. والواقع أنه ألمح إلى ضربة تستهدف الأمريكيين في عقر دارهم، لكنني أعترف بأني لم أدرك حقيقةً فظاعة ما أشار إليه ضمناً عندما أدلى بتصريح لا يمكن نسيانه إذ قال: «نأمل أن نبلغ نقطة الاشتعال في المستقبل غير البعيد». وبعد أن وقعت أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر الفظيعة، بتّ كثيراً ما أفكر في المجاهدين الشباب الذين التقيتهم في طورا بورا وأتساءل عما إذا

كنت قد جلست آنذاك بالقرب من أحد الرجال الذين نفّذوا تلك الهجمات المدمرة. ولم يكن الأمر ليفاجئني لو كان صحيحاً.

بلغت زيارتي للشيخ بن لادن التي استمرت يومين نهايتها، وحضرت السيارة الحمراء نفسها لتعيدني إلى جلالاباد. ولا بد من الإشارة إلى أنني شعرت بأسف شديد على عدم تمكني من قضاء وقت أطول في هذه الإمارة العربية الأفغانية. فقد أذهلني ما رأيته من أبعاد نفسية وسياسية واجتماعية تميِّز هذه المجموعة من الرجال وقائدها؛ وما كان بالإمكان أن أتعرَّف حتى إلى القشور في مثل هذه الفترة القصيرة.

بعد أن قابلت الشيخ بن لادن، أدركت أنه لم يكن رجلاً عادياً وبتّ أتوقع أن يضطلع بدور مهمّ في تاريخ وطنه، المملكة العربية السعودية، وفي تاريخ العالم الإسلامي عموماً. ولم يخطر ببالي قط أن هذا الرجل المهذّب والعذب الصوت الذي تعلو الابتسامة محيّاه ويبدو لطيفاً سيصبح أخطر رجل في العالم، فيسبب الذعر للعواصم الغربية ويلحق بالولايات المتحدة خسائر بمليارات الدولارات، فيهدد استقرارها الاقتصادي ويورّطها في حروب شرسة في أفغانستان والعراق. ولا بد لي من الإشارة إلى أن تجربة لقائي هذا الرجل حددت بداية اهتمامي الدائم بتنظيم القاعدة ومختلف المسائل المتعلقة بهذا الموضوع، والتي طبعت هذا الكتاب.

الفصل الأول

الشيخ أسامة بن لادن

الحتمية التاريخية للشيخ بن لادن

يبدو العالم الإسلامي اليوم مذهولاً بالشيخ بن لادن. وعندما تعمد قناة «الجزيرة» الفضائية المتمركزة في قطر إلى بثّ رسالة مصوّرة أو مسجّلة للشيخ بن لادن، أو تبثّ شريطاً وثائقياً عن حياته، تبدو الشوارع شبه مقفرة في بلدان مثل المملكة العربية السعودية ومصر وفلسطين وسوريا والمغرب، ذلك أن الجميع يلزم منزله ليشاهد أو يسمع هذا الرجل الذي نجح في اكتساب مكانة شبه مقدَّسة في المنطقة.

وقد أظهر إحصاء أُجري أخيراً أنه يحظى بدعم نحو ٦٠ في المئة من المواطنين في بعض الدول العربية. وفي تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٣، وعلى الرغم من أن المملكة كانت تتعرض لهجمات مباشرة يشنّها تنظيم القاعدة، فإن ما يزيد على نصف المواطنين السعوديين أعرب عن تأييده رسالة الشيخ بن لادن. كذلك في مصر، حيث المساعدات الأمريكية عنصر دعم أساسي للاقتصاد، يبدو الشيخ بن لادن أكثر شعبية من جورج دبليو بوش.

والواقع أن حتمية تاريخية تقف وراء سطوع نجم الشيخ بن لادن الذي أصبح في نظر الكثيرين القائد الصوري لهوية إسلامية منبعثة. صحيح أن هذا الأمر بعيد الاحتمال للعديد

من الأشخاص في الغرب، حيث يتم تصوير الشيخ بن لادن والنظر إليه باعتباره إرهابياً خطيراً، إلا أنه من الضروري أن نفهم كيف ينظر إليه محبوه في العالم الإسلامي. فكيف يمكن التصدّي للخطر الحقيقي الذي تشكّله أيديولوجية تنظيم القاعدة بالنسبة إلى الأمن العالمي إن ظلّ الغموض يلف هوّية هذا التنظيم وطبيعته؟

يرى مسلمون كثر في الشيخ أسامة بن لادن بطلاً شجاعاً في مسيرة الثورة والتمرد، وشخصاً ذا مزايا أسطورية يذكّر بداود متحدياً جالوت. ولعل كثيرين من مؤيديه الحاليين لا يوافقون على أسلوبه القائم على العنف الشديد، أو على حكم الشريعة الذي يرغب السلفيون[1] في فرضه عليهم، لكن هذين الأمرين يشكلان في الوقت الراهن تفصيلين ثانويين بالنسبة إليهم. فبعد قرون من الانحطاط، يُعتبر الشيخ بن لادن في نظرهم صاحب فضل في إعادة الأمل والكرامة إلى شعب يرزح تحت وطأة الذل والاستغلال، ورجلاً استطاع أن يتصدّى للأوباش في الغرب، وتحديداً للولايات المتحدة. فهكذا وصف لي بعضهم مشاعره تجاه الشيخ بن لادن.

وقد شبّه بعضهم الشيخ بن لادن بغاندي القائد الهندي العظيم الداعي إلى السياسة الشعبية، في حين آثر آخرون تشبيهه بغاندي باعتبار أنه هو أيضاً تخلّى عن حياة الثراء والرخاء والرفاهية ليحيا حياة متقشفة في كهوف الجبال القاحلة ووزّع أراضيه الشاسعة على الفلاحين والفقراء. لكن الاختلاف الهائل يتمثل طبعاً بواقع أن غاندي كان مسالماً واعتمد أساليب سلمية فقط في سعيه إلى العدالة والحرية، في حين أن الشيخ بن لادن اختار طريق العنف المتطرف والقتل الجماعي.

وربما يكون آية الله الخميني، القائد الصوري للثورة الإسلامية الإيرانية، هو الأقرب تاريخياً إلى الشيخ بن لادن. والجدير ذكره في هذا الإطار أن الخميني شكل إلى حد ما

---

(١) السلفية، المشتقة من الكلمة العربية «سلف» (الأجيال الأولى)، هي مدرسة الفكر الديني التي تقوم على الفكرة القائلة إن الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين وحدها تسير على الصراط المستقيم، مما يعني أن انهيار الأمة أو سقوطها سيصبح حتمياً نتيجة الزيغ أو الضلال الديني. ويُعرف السلفيون أيضاً باسم «السلف الصالح».

قدوة للشيخ بن لادن في أثناء مكوثه في السودان، حتى إنه اعتمد منهجية مشابهة لتلك التي تميّز بها الخميني لجهة نشر رسالته. فكان يصدر البيانات الصحفية ويبثّ شرائط تسجيل وينشر تحذيرات مكتوبة تطالب بالإصلاح وتدعو إلى التطبيق الكامل للشريعة ومحاربة الفساد. لكن من المنظار الديني الحاسم، لا توافق بينهما على الإطلاق، باعتبار أن الخميني كان مسلماً شيعياً والشيخ بن لادن سُنِّياً. ولعل الصحابي عمّار بن ياسر هو الأقرب إلى الشيخ بن لادن.

السنوات الاولى

وُلد الشيخ أسامة بن لادن العام ١٩٥٧ في الرياض في المملكة العربية السعودية. كانت أمة سورية الأصل ووالده متعهد بناء عصامياً يُدعى محمد عوض بن لادن. وكان الأب قد حضر إلى المملكة العربية السعودية من منطقة حضرموت في جنوب اليمن، حيث يُعرف السكان بذكائهم وحكمتهم وصبرهم ومواهبهم المميّزة في عالم الأعمال. علماً أن العائلات التي تمتلك كبرى الشركات في المملكة العربية السعودية قدمت في الأصل بمعظمها من تلك المنطقة. وكان أن دخل محمد بن لادن سوق العمل بدايةً كعامل بسيط، لكنه سرعان ما تسلّق في غضون بضع سنوات سلّم النجاح والتقدّم، إلى أن أضحى رئيس أكبر امبراطورية لمقاولات البناء في العالم العربي.

ولعل أبرز ما حقّقه نجاحه في أن يصبح لاعباً سياسياً أساسياً في المملكة، وإن من وراء الكواليس. فقد تمكّن محمد بن لادن من بناء علاقات وثيقة مع العائلة الحاكمة؛ وعندما استحكم النزاع في أواسط ستينيات القرن العشرين بين الملك سعود وأخيه ولي العهد الأمير فيصل، كان لمحمد بن لادن دور بارز في إقناع الملك بالتنازل عن العرش لفيصل ومغادرة البلاد. كانت خزينة المملكة فارغة آنذاك، والبلاد مشرفة على الإفلاس. لكن محمد بن لادن أقرض المملكة على مدى أكثر من ستة أشهر عشرات ملايين الدولارات لدفع رواتب الموظفين الحكوميين. وعقب ذلك، وتعبيراً عن الامتنان لبادرته، كافأته

العائلة الحاكمة بعقود بناء ضخمة، كان أبرزها عقد توسيع الحرم في مكّة المكرّمة وجامع النبيّ محمد (ص) في المدينة المنوّرة.

الشيخ أسامة بن لادن هو الولد الثالث والأربعون بين إخوته وأخواته البالغ عددهم ثلاثة وخمسين ولداً، وترتيبه الحادي والعشرون بين تسعة وعشرين شقيقاً، ولمّا قُتل والده في حادثة تحطّم طائرة، كان لا يزال أسامة في العاشرة من العمر.

كان عمر الشيخ أسامة بن لادن ستة أشهر، عندما انتقلت عائلته من الرياض إلى الحجاز حيث أمضى سنوات الطفولة والمراهقة. وكان يزور باستمرار أقدس مدينتين لدى الإسلام، أي مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة. ولا شك في أن تلك الزيارات تركت أثراً بالغاً في نفسه، وساهمت في تعزيز الإيمان الديني الذي يبديه اليوم.

وقد أخبرني أحد أشقاء الشيخ بن لادن أن الشيخ أسامة كان في صغره طفلاً هادئاً ومتحفظاً؛ فكان يبقى على مسافة من الأطفال الآخرين ولا يشاركهم في لعبهم وهرجهم. كما أنه كان يتمتع بالذكاء، ويؤثر البقاء على مقربة من والده، مستمتعاً بالجلوس بهدوء إلى جانبه. أضف أنه كان يحضر الكثير من اللقاءات الدينية وحلقات الدراسة وتلاوة القرآن الكريم، حتى عندما كان فتى صغيراً.

هذا وكان الشيخ بن لادن على الدوام شديد التعلّق بوالدته. وكانت جذور علية غانم، وهو اسم الوالدة قبل الزواج، تعود إلى عائلة قروية سكنت منطقة اللاذقية الساحلية في شمال شرقي سوريا. وعلى الرغم من أن الغلبة في تلك المنطقة للمسلمين العلويين، كان آل غانم عائلة سُنِّية. وكان محمد بن لادن قد تعرّف إلى الجميلة علية أثناء رحلة عمل قام بها إلى اللاذقية في العام ١٩٥٦. وبعد وقت صير، أضحت علية زوجته الرابعة. ولا بد من الإشارة إلى أن الشيخ أسامة بن لادن ابنها الوحيد؛ وقد حدّثني عنها مستخدماً أسمى عبارات الحب والاحترام.

في العام ١٩٩٨، حاولت الحكومة السعودية أن تستغل إعجاب الشيخ بن لادن بوالدته لمصلحتها، فنقلتها على متن طائرة نفّاثة خاصة إلى أفغانستان على أمل أن تنجح في أن

تثني ابنها عن مواصلة الجهاد وتقنعه بالعودة إلى المملكة العربية السعودية. لكن مهمّتها باءت بالفشل. ويُعتقد أن آخر لقاء بين الأم وابنها كان في كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠١، وتحديداً في حفل زفاف نجل الشيخ بن لادن وابنة أبي حفص المصري.

ومعروف أن علية تتابع نشاطات ابنها باهتمام يبلغ حد الهوس، حتى إنها تحتفظ بقصاصات من الصحف وتتابع قنوات البثّ الفضائي وتطلع بشكل منتظم على بياناته وتصريحاته عبر شبكة الإنترنت.

أضف، أن الشيخ بن لادن اعتاد تمضية عطلاته الصيفية مع خاله ناجي في اللاذقية حيث تعرّف وهو في السابعة عشرة من العمر بابنة خاله نجوى غانم التي أصبحت في ما بعد زوجته الأولى. وكانت نجوى في الرابعة عشرة من العمر عندما تم الزواج، فانتقلت مع الشيخ أسامة إلى المملكة العربية السعودية وأنجبت له أحد عشر طفلاً.

تلقى الشيخ بن لادن علومه الابتدائية والمتوسطة والثانوية في مدارس جدّة، ودرس لاحقاً الاقتصاد وإدارة الأعمال في جامعة الملك عبد العزيز في جدّة ونال شهادة البكالوريوس. وفي خلال دراسته الجامعية، عكف الشيخ بن لادن على درس التيارات الأيديولوجية الإسلامية السائدة وتتلمذ على يد أبرز العلماء من أمثال محمد قطب والدكتور عبد الله عزّام.

والواقع أن زفاف الشيخ أسامة بن لادن في سنّ مبكرة (السابعة عشرة من العمر) يدحض بوضوح المزاعم المتكررة في شأن تمضيته مرحلة الشباب متنقلاً بين لندن وباريس وجنيف ومانيلا بحثاً عن المغامرات المثيرة. لكن أحد أشقائه أخبرني بأن الشيخ أسامة قصد لندن بالفعل عندما كان في الثالثة عشرة ليتابع برنامجاً صيفياً لتعلّم اللغة الإنكليزية في مدرسة للغات في شارع أكسفورد. وقد أكد المدير السابق للمركز الإسلامي في ريجنتز بارك Regents Park في لندن، الشيخ محمد زكي بدوي، أن الشيخ بن لادن زار المسجد في أوائل ثمانينيات القرن العشرين وألقى فيه العديد من الخطب الدينية.

كان من عادة محمد بن لادن أن يستضيف أعداداً كبيرة من الحجّاج الذين يقصدون مكة المكرّمة في كل عام. وبعد وفاته قرر اثنان من أشقاء الشيخ بن لادن الأكبر سناً أن يفعلوا بالمثل. وكثيراً ما كانت صفوف الحجّاج تضم علماء ومفكرين معروفين في الإسلام، وقد أبدى الشاب الشيخ أسامة حماسة بالغة للقائهم ومحادثتهم. ويبدو أنه تأثر تأثّراً بالغاً باثنين منهما تحديداً، أولهما محمد قطب شقيق سيد قطب (الذي يعتبره بعض المحللين الأب الروحي للمجموعات الإسلامية المتطرفة، والذي سنتحدث عنه بالتفصيل لاحقاً). أما الرجل الثاني، فكان عبد الله عزّام، عقائدي الجهاد في أفغانستان وصاحب الشخصية المؤثرة في صفوف الشباب المسلمين في الثمانينيات. وكان كلا الرجلين يحاضر في جامعة جدّة ويدرِّس الثقافة الإسلامية باعتبارها مقرراً إلزامياً للطلاب كافة.

أفغانستان

أصبح عبد الله عزّام المرشد الأول للشيخ بن لادن، وكان يزوّده بلمحة عامة عن الأحداث السائدة في العالم الإسلامي. وقد ناقش الاحتلال السوفياتي لأفغانستان، مشدداً على ضرورة تحرير الدولة الإسلامية من الاحتلال الأجنبي. ونظّم عزّام رحلة سريّة للشيخ بن لادن إلى باكستان عبر معارفه، فسافر الشاب إلى بيشاور وكراتشي، حيث قابل زعماء بعض المجموعات الإسلامية الأفغانية، وفي عدادهم عبد الرسول سيّاف من الاتحاد الإسلامي (الاتحاد الإسلامي من أجل تحرير أفغانستان Baraye Azadi Afghanistan، وبرهان الدين رباني من الجماعة الإسلامية (سيواجه الرجلان لاحقاً حركة طالبان التي أنشأ معها الشيخ بن لادن تحالف الأمر الواقع). وقد استمرت تلك الرحلة شهراً واحداً وتبعتها رحلات أخرى إلى أن انتقل الشيخ أسامة بن لادن في العام ١٩٨٢ إلى أفغانستان واستقر فيها بشكل شبه دائم. وقد حمل معه الشيخ بن لادن معدات حفر وحفّارات وجرّافات تعود إلى شركة العائلة في المملكة العربية السعودية، فشكل هذا العتاد مساهمة مهمة في حملة المجاهدين على الغزاة السوفيات، إذ سمحت المعدات

بشق الطرق في الجبال وتسوية الأرض وحفر معسكرات تشبه المتاهات، على غرار المعسكر الذي زرته في طورا بورا.

علماً أن الشيخ بن لادن اضطلع بدور رئيس على صعيد تمويل المجاهدين وشجّع آلاف السعوديين على التطوّع في مسيرة الجهاد في خلال رحلاته المتكررة إلى المملكة العربية السعودية حيث راح يلقي الخطب والمواعظ. آنذاك، كان قد أصبح للكثيرين نموذجاً يُحتذى به. فعلى الرغم من أن الشيخ بن لادن وُلد في عائلة فاحشة الثراء، فإنه لم يلق بالاً للرخاء المالي وتخلى عن العيش الرغيد الذي كان ينعم به معظم أفراد عائلته ليصب اهتمامه على جدول أعمال إسلامي. وبدأ الشيخ بن لادن يشكل وجهاً معروفاً على صفحات المجلات والجرائد العربية في منطقة الخليج، حيث تم تصويره مجاهداً ذا مآثر بطولية أبدى استعداده للتضحية بالرخاء لا بل بحياته أيضاً في سبيل القضية والمبادىء التي آمن بها.

كانت الحكومة السعودية تدعم من دون أي تحفظ المجاهدين العرب والأفغان الذين يتصدّون للاحتلال السوفياتي في أفغانستان وتناصرهم. وفي تلك المرحلة، تكوّنت لجان لجمع التبرعات تحت رعاية الأمير سلطان بن عبد العزيز، أمير منطقة الرياض، وجرى تشجيع أئمة المساجد على إلقاء خطب نارية تحضّ الشباب على الانضمام إلى صفوف المقاتلين. كذلك وُضعت صناديق كبيرة في باحات المساجد لجمع التبرعات من المصلّين. وأذكر أني في خلال وجودي في المسجد أيام الجمعة، إلى جانب آلاف المصلين، رأيت احتشادهم بكثير من الحماسة من حول الصناديق لتقديم التبرعات. وأكثر من ذلك، عمدت الحكومة السعودية نفسها إلى مشاركة الولايات المتحدة في نفقات الحرب الأفغانية. وتفاوتت التقديرات في ما يتعلق بالمبالغ المقدّمة تحديداً بين مليارين و٢٠ مليار دولار أميركي[٢] بحسب المصادر المتعددة.

(٢) «كلفة الانتصار الأفغاني» Cost of the Afghan Victory، مقال لديليب هيرو Dilip Hiro، مجلة نايشون Nation، ١٥ شباط / فبراير ١٩٩٩.

في العام ١٩٨٤، أسس الشيخ بن لادن بيت الأنصار في بيشاور. وكانت الغاية من هذا البيت أن يشكل محطة لاستقبال الوافدين الجدد من المتطوعين للجهاد قبل إرسالهم إلى معسكرات التدريب. والواقع أن الشيخ بن لادن لم يكن يملك آنذاك معسكرات خاصة للتدريب، فكان يرسل المتطوعين الجدد إلى إحدى مجموعات المجاهدين الأفغان التي يتزعّمها قادة كبار أمثال سيّاف أو ربّاني أو قلب الدين حكمتيار، زعيم الحرب الإسلامي الأفغاني. لكن بحلول العام ١٩٨٦، كان الشيخ بن لادن قد أنشأ معسكراته التدريبية الخاصة في أنحاء مختلفة من أفغانستان. وفي العام ١٩٨٩، أسس مكتباً لتسجيل أسماء المجاهدين وإعلام عائلات من يُقتل منهم. كان اسم مكتب التسجيل هذا «القاعدة»، ومن هنا نشأ اسم التنظيم. والجدير ذكره أن معظم مصادر الدراسات الإسلامية تشير إلى أن نواة شبكة القاعدة تشكلت في تلك المرحلة تحديداً.

وعقب انسحاب الجيوش السوفياتية في العام ١٩٨٩، عاد الشيخ بن لادن إلى المملكة العربية السعودية وقد تلقى تحذيراً من الاستخبارات الباكستانية مفاده أن وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية (سي آي إيه) تسعى إلى اغتياله هو وعبد الله عزّام. وبعد مرور أسبوعين على ورود التحذير، قُتل عزّام، عرّاب الجهاد الأفغاني، مع نجليه.

المملكة العربية السعودية

وضعت الحكومة السعودية الشيخ بن لادن تحت الإقامة الجبرية في أواسط التسعينيات ومنعته من السفر. كذلك أغارت القوات السعودية على إحدى مزارع الخيول التي يملكها وفرضت عليها رقابة مشددة. فقد كانت للحكومة السعودية مخاوف أمنية من الشيخ بن لادن حتى في تلك المرحلة المبكرة. فخطب الشيخ بن لادن الرنانة كانت مسجّلة على أشرطة وتُوزّع على نطاق واسع؛ وكان يحذِّر من خلالها الشعب السعودي من الخطر الذي يمثّله النظام البعثي في العراق، مؤكداً أن هذا النظام يخطط لغزو منطقة الخليج كلّها. أما الرسالة اللاحقة التي وجّهها الشيخ بن لادن إلى نائب وزير

الداخلية، الأمير أحمد بن عبد العزيز، ليحثّ من خلالها العائلة الحاكمة على الإقرار بضرورة إجراء إصلاحات شاملة، فلم تسهم في جعله محبباً لدى النظام. إن الشيخ بن لادن تنبأ في هذه الرسالة نفسها بغزو صدام حسين للكويت.

لا شك في أن وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز كان مهتماً بهذا التحليل اهتماماً جعله يدعو الشيخ بن لادن إلى اجتماع. لكنه لم يتصرف لاحقاً بحسب ما تمليه التحذيرات التي نقلها إليه الشيخ بن لادن. وعندما غزا صدام حسين الكويت في الثاني من آب / أغسطس العام ١٩٩٠، كتب الشيخ بن لادن رسالة أخرى إلى الوزير يقترح فيها تجنيد مجاهدين من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ومن بينهم المحاربون العرب الأفغان الذين قاتلوا من قبل تحت رايته، في سبيل تحرير الكويت. وقد زعم الشيخ بن لادن آنذاك أنه قادر على بناء جيش قوامه مئة ألف رجل. لكن رسالته هذه لم تلقَ أي اهتمام.

وقد أخبرني الشيخ بن لادن أن أكبر صدمة تلقاها في حياته تمثّلت بقرار الحكومة السعودية دعوة القوات الأمريكية للدفاع عن المملكة وتحرير الكويت. وكان يصعب عليه أن يصدق أن بيت آل سعود قد يرحب بانتشار قوات «ملحدة» على أرض شبه الجزيرة العربية، أي على مقربة من الحرمين الشريفين، للمرة الأولى منذ نشأة الإسلام.

هذا وكان الشيخ بن لادن يخشى أن يؤدي ترحيب الحكومة السعودية بالقوات الأمريكية على أرض عربية إلى تعريض البلاد للاحتلال الأجنبي، مما قد يشكل نسخة طبق الأصل عن مجريات الأحداث في أفغانستان، ذلك أن الحكومة الشيوعية في كابول كانت قد دعت من قبل القوات الروسية إلى بلادها. وتماماً كما حمل الشيخ بن لادن السلاح لمحاربة القوات السوفياتية في أفغانستان، قرر حينئذٍ أن يحمل السلاح ليواجه الجيوش الأمريكية في شبه الجزيرة العربية. وفي تلك المرحلة، قرر الشيخ بن لادن أن يكف عن تقديم النصائح للمسؤولين السعوديين في شأن ما يجدر بهم فعله وما لا يجدر بهم فعله. فقد شعر بأن التواصل معهم قد أصبح عقيماً.

آنذاك، بدأ الشيخ بن لادن يسعى إلى تحقيق غايتين. فقد أصدر رجل الدين السعودي

المعروف الشيخ بن عثيمين فتوى تلزم كل مسلم، ولا سيّما مسلمي شبه الجزيرة العربية، بالاستعداد لمحاربة «الغزاة». وقرر الشيخ بن لادن استغلال هذه الفتوى لتجنيد الشباب وحثّهم على السفر إلى أفغانستان حيث يتلقّون التدريبات اللازمة على القتال. والواقع أن عدداً كبيراً من السعوديين استجاب هذا النداء.

إلى ذلك قرر الشيخ بن لادن جمع أكبر عدد ممكن من العلماء في مؤسسة دينية مستقلة من شأنها أن تشكل إطاراً مرجعياً للشعب بدلاً من جمعية كبار العلماء الرسمية (السلطات الدينية). فالشيخ بن لادن لم يعد يثق بالعلماء السعوديين، حتى إنه شعر بأن أحكامهم الدينية باتت ترتكز على مطالب الحكومة أكثر منها على التأويلات الصادقة للشريعة. وإذ ذاك، شرع يطالب بفتوى مستقلة في شأن ما إذا كان يجوز للحكام السعوديين أن يطلبوا مساعدة جيوش أجنبية.

في غضون ذلك، عقد الشيخ بن لادن العزم على مغادرة وطنه الأم بشكل نهائي. لكن مشكلة واحدة كانت تعترضه، فجواز سفره مصادر. إذ ذاك، استعان بعلاقات أحد أقاربه الوثيقة بالعائلة الحاكمة ليحصل على إذن يخوّله السفر إلى باكستان بحجة أنه مضطر إلى تصفية بعض أعماله. وبعد كثير من المماطلة، مُنح في النهاية الإذن للقيام برحلة واحدة فقط وحصل على جواز سفر.

السودان

عندما وصل الشيخ بن لادن إلى باكستان، عبر الحدود منها إلى أفغانستان حيث اكتشف أن المجاهدين الذين حاربوا معاً تحت راية واحدة، باتوا الآن متورطين في نزاعات مسلحة عنيفة ومريرة نشأت بين زعماء الميليشيات الأفغانية المتخاصمة. وقد حاول الشيخ بن لادن في البدء تهدئة الأجواء، فنصح المجاهدين العرب بألا يتورّطوا في الأمر وسعى إلى لعب دور الوساطة بين زعماء الأحزاب الأفغانية على أمل حلّ النزاعات القائمة في ما بينهم. لكنه لم يلقَ مكافأة له على مساعيه الحثيثة إلا التهديدات بالقتل، مما

جعله يقرر الانتقال إلى السودان. وكان حزب الجبهة الوطنية الإسلامية للإنقاذ قد أمسك بزمام السلطة في السودان عقب انقلاب عسكري نفّذه في العام ١٩٨٩، فظنّ الشيخ بن لادن أنه سيتمتع بحرية التحرّك هناك.

توجّه الشيخ بن لادن إلى السودان بسرية تامة في كانون الأول / ديسمبر العام ١٩٩١ على متن طائرة نفّاثة خاصة أقلته مع عدد من رفاقه. وكانت شركاته قد نفّذت بضعة مشاريع إعمارية وزراعية في السودان، مهدّت الطريق لـ«جهاده السياسي». وراح الشيخ بن لادن آنذاك يجري المقابلات ويصدر البيانات الصحفية التي تحثّ على القيام بثورة إسلامية. وقد استثمر مبالغ كبيرة من ثروته في مشاريع إعمارية ضخمة. منها على سبيل المثال بناء مطار بور سودان والطريق السريع الذي يمتد على طول ٤٠٠ كيلومتر بين بور سودان والخرطوم. كذلك استثمر الشيخ بن لادن مبالغ طائلة في مشاريع زراعية في منطقة الجزيرة، حيث استهدفت استثماراته زراعة آلاف الفدادين بالقمح ودوّار الشمس. وأخبرني الشيخ بن لادن أن استثماراته الشخصية في السودان بلغت نحو ٢٠٠ مليون دولار أمريكي. والجدير ذكره أن هذه المشاريع كانت تلقى أيضاً دعماً مالياً من الحكومة السعودية.

أضف أن الشيخ بن لادن استخدم في تلك المشاريع العديد من العرب الأفغان الذين حاربوا معه ضد الاتحاد السوفياتي، وشجّعهم على الانتقال مع عائلاتهم إلى السودان. وكان العديد منهم من المصريين ومن أعضاء مجموعتي الجماعة الإسلامية والجهاد الإسلامي الشديدتَي التطرف. وربما هذا الوقاع أثار حفيظة الحكومة المصرية التي بادرت إلى إطلاق حملة صحفية شرسة على الحكومة السعودية، متهمة إياها بدعم الإرهاب وتمويله. وإذ ذاك، أذعنت الحكومة السعودية للضغوط، فجرّدت الشيخ بن لادن من حقه في المواطنية، وتبرأت منه وعلّقت كل تمويل للمشاريع التي تنفذها شركات الشيخ بن لادن في السودان بذريعة معاقبة النظام السوداني على دعمه لصدّام حسين في غزو الكويت.

وصف لي الشيخ بن لادن الفترة التي أمضاها في السودان باعتبارها واحدة من أهم مراحل حياته وأغزرها إنتاجاً. فقد التقى في الخرطوم علماء مسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي، بمن فيهم العالم السوداني حسن الترابي الذي كان يسعى إلى إنشاء تنظيم سياسي جديد معارض للولايات المتحدة يجمع بين أعضاء متدينين وعلمانيين في آنٍ واحد. وقد عقد مؤتمر الشعب الإسلامي العربي اجتماعه الأول في الخرطوم في العام ١٩٩١، وكان المشاركون فيه يمثلون شريحة كبيرة من الآراء والمعتقدات. وقد ضمّت صفوفهم شخصيات بارزة مثل قلب الدين حكمتيار وعبد الرسول سيّاف، وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ونايف حواتمة مؤسّس الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين وأمينها العام، وفتحي الشقاقي قائد الجهاد الإسلامي الفلسطيني، وخالد مشعل من حركة حماس، وعماد مغنية من حزب الله، وعدة ممثلين عن الأخوان المسلمين والمجموعات الجهادية في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وقد وصف بعض وسائل الإعلام الغربية هذا الحدث «بمؤتمر الإرهاب».

والواقع أني حضرت هذا المؤتمر الذي كان يهدف إلى إيجاد بديل من الجامعة العربية ومنصة مشتركة لجميع الجهات الرافضة لتدخل الولايات المتحدة في العراق عام ١٩٩١ والمناهضة للأنظمة العربية التي دعمت مثل هذه المغامرات العسكرية على يد قوة أجنبية.

وفي هذا السياق تحديداً عزّز الشيخ بن لادن حضوره في السودان وأمّن مأوى للشباب الساعين إلى الجهاد وأيضاً للعديد من المجاهدين العرب الذين أُنكر عليهم الحق في العودة إلى أوطانهم بعد انتهاء الحرب الأفغانية.

كان الشيخ بن لادن يعتز بمقاومته الولايات المتحدة حتى من خلال مشاريعه الزراعية. وقد أخبرني متبجحاً بأنه نجح في إنبات دوّار الشمس بنسب تجاوزت الأرقام القياسية إلى حدّ لا يمكن الولايات المتحدة بلوغه على الرغم من تقنياتها الزراعية المتطورة.

في غضون ذلك، وعلى الرغم من أن نشاطات الشيخ بن لادن في السودان كانت تتمحور بشكل رئيس حول السياسة، قرّر مهاجمة القوات العسكرية الأمريكية بعمليتين

تنفّذان في الخارج. فتمثّلت الهجمات الأولى للقاعدة بتفجيرات استهدفت في العام ١٩٩٢ جنوداً أمريكيين مسافرين في أثناء إقامتهم في فندق «غولد مور» Goldmohur Hotel في عدن ـ اليمن، مما أودى بحياة ثلاثة وجرح خمسة. أما العملية الثانية، فنُفِّذت في العام ١٩٩٣ عندما جرى إسقاط طوافتين من طراز الصقر الأسود في خلال هجمات في مقديشو (أُعيد تصويرها لاحقاً في فيلم هوليوود «سقوط الصقر الأسود»). والجدير ذكره أن هجوم مقديشو نُفِّذ تحت إمرة أبي عبيدة البنشيري، القائد العسكري في تنظيم القاعدة الذي غرق العام ١٩٩٦ في حادثة عبّارة في بحيرة فيكتوريا. وسرعان ما سحبت الولايات المتحدة قواتها من الصومال، وهو أمر أخبرني الشيخ بن لادن لاحقاً بأنه أسف له كثيراً، ذلك أنه كان يخطط لشنّ حرب استنزاف على تلك القوات (وهذا ما يحدث حالياً على ما يبدو في العراق).

ونتيجة الضغوط المتزايدة التي مارستها مصر والمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة، شرعت الحكومة السودانية بحلول العام ١٩٩٤ تبحث عن وسائل للتخلص من الشيخ بن لادن الذي بدأ يزداد خطورة. فقد نجا حتى ذلك الحين من محاولات اغتيال عدة نفّذ أشنعها ثلاثة رجال يقودهم مواطن ليبي اقتحموا المسجد حيث كان يصلي وأطلقوا النار على المصلين. وعندما اكتشفوا أنه لم يكن في عداد الأموات أو الناجين، واصلوا البحث عنه في مكاتب شركته في الخرطوم، ومن ثم في منزله في منطقة الرياض شرقي الخرطوم.، وقد انتشرت آنذاك شائعة مفادها أن التنسيق لمحاولة الاغتيال جرى بشكل مباشر أو غير مباشر من طريق عناصر في الحكومة السودانية.

وأخبرني محمد عاطف (المعروف أيضاً باسم أبي حفص المصري) أن الشيخ بن لادن بدأ يشعر باشتداد الخناق عليه في تلك المرحلة. ففي العام ١٩٩٤، بات جلياً أن السودان لا ترحّب بوجوده، كما أن السعوديين جرّدوه من جنسيته. وشعر الشيخ بن لادن بأنه يواجه خيارين واضحين: فإما أن يعود إلى المملكة العربية السعودية حيث يمضي بقية حياته رهن الاعتقال أو الإقامة الجبرية، وإما أن يشن حملة عسكرية حقيقية على أعدائه يستمر فيها إلى أن يُعتقل أو يُقتل.

وبحسب عاطف، إن اهتمام الشيخ بن لادن تحوّل منذ ذلك الحين عن النشاط السياسي، فشرع يركّز على بناء تنظيم عسكري هائل ينفِّذ العمليات ضد أهداف أمريكية، عسكرية وإدارية وتجارية، ولا سيما ما كان منها في شبه الجزيرة العربية.

هذا وقد ساهمت سلسلة لقاءات جمعت بين الشيخ بن لادن وزعيم الجهاد الإسلامي (د. أيمن الظواهري) وقائد الجماعة الإسلامية (رفاعي أحمد طه) في مصر في تعزيز عزمه على الانتقال إلى أقصى درجات العنف.

لا بد من الإشارة إلى أن الظواهري ترك أثراً بالغاً في الشيخ بن لادن، وهو أمر سنتناوله تفصيلاً في صفحات لاحقة من هذا الكتاب. والواقع أن أيديولوجية الظواهري كانت فريدة من نوعها في تلك المرحلة إذ كانت تجمع بين النظرة السلفية الجهادية والتطرف في الوحدة العربية، وهو أمر يتجلّى اليوم كقوّة رئيسة في الثورة العراقية. وقد شجّع الظواهري الشيخ بن لادن على تحويل اهتمامه من القضايا الإسلامية المحلية، كقضايا البوسنة والشيشان وألبانيا وكوسوفو والفليبين وتايلاند إلى القضايا الإسلامية المركزية، ولا سيّما في فلسطين والعراق. وإذ تعززت أواصر العلاقة بين الظواهري والشيخ بن لادن، اتسعت استراتيجية الشيخ بن لادن لتشمل أي ميدان أو ظرف يسمح له بإلحاق الأذى بالولايات المتحدة أو بمصالحها. ومن هنا انبثقت فكرة الجهاد العالمي التي تطبع اليوم استراتيجية تنظيم القاعدة.

في العام ١٩٩٥، أدّت التفجيرات التي نفّذها رجال القاعدة في الرياض، والتي أودت بحياة خمسة أشخاص بينهم ثلاثة خبراء عسكريين أميركيين في قاعدة للحرس الوطني السعودي، إلى زيادة الضغوط على السودان كي تعمد إلى ترحيل الشيخ بن لادن. وعندما تناهى إلى مسمع الشيخ بن لادن أن المفاوضات بدأت بين مسؤولين سودانيين وسعوديين، أدرك أن الاحتمال كبير جداً بأن يتم تسليمه إلى الرياض، وشرع يبحث عن استراتيجية فاعلة للخروج من هذا المأزق.

آنذاك، تنامى شعور الشيخ بن لادن بالارتياب والمرارة، ولم يعد يعلم تحديداً من

يستحق ثقته. وكان الترابي قد خسر ثقة الشيخ بن لادن عندما اضطلع بدور رائد في عملية القبض على الإرهابي العالمي الشهير كارلوس «ابن آوى» في السودان عام ١٩٩٤. وأصبح الشيخ بن لادن يحترس من الحكومة السودانية، إلا أنه رفض بشكل قاطع أن يوجّه إليها أصابع اللوم علانية. والواقع أنه طلب إليّ أن أمحو جزءاً من مقابلتي معه تذمّر فيه من الخيانة التي تعرض لها متهماً الحكومة السودانية والرئيس عمر البشير بطعنه في الظهر.

في العام ١٩٩٦، عُقد اجتماع خاص بين الشيخ بن لادن والبشير الذي أكد له أنه لا يزال موضع ترحيب في السودان، وأنه لم يصدر أي أمر يقضي بترحيله. لكن البشيّر أعلمه أيضاً بأن الحكومة السودانية عاجزة عن حمايته من محاولات الاغتيال. آنذاك، فهم الشيخ بن لادن الرسالة التي صيغت بأسلوب لطيف وقرر مغادرة البلاد طوعاً. وإذ ذاك، اتصل بأصدقاء قدامى في صفوف المجاهدين الأفغان مثل الشيخ يونس خالص والعميد جلال الدين حقاني اللذين كانا يتمتعان بنفوذ قوي في منطقة جلالاباد. وكان ذلك قبل أن يمتد نفوذ حركة طالبان إلى ما بعد منطقة قندهار. ففي تلك المرحلة، كانت مناطق أفغانية مختلفة تخضع لحكم أحزاب مختلفة.

العودة إلى أفغانستان

غادر الشيخ بن لادن السودان متجهاً إلى جلالاباد في أيار / مايو العام ١٩٩٦ على متن طائرة خاصة مستأجرة تضم اثني عشر راكباً ويقودها قبطان روسي لا يفقه كلمة واحدة من العربية ولا فكرة لديه عن هوية الرجال الذين يقلّهم. وقد ضمّت صفوف المسافرين مع الشيخ بن لادن حارسه الشخصي حمد الزبير (الذي قُتل في العام ٢٠٠١ خلال الغزو الأمريكي لأفغانستان)، وسيف العدل المصري ونجلي الشيخ بن لادن، سعد وعمر.

لم يكن سيف العدل يثق بالقبطان، حتى إنه لم يبلغه بوجهة السفر مسبقاً بل كشف له عن مقصدهم عندما اقتربت الطائرة من المجال الجوي الأفغاني. وقد جلس سيف العدل

طوال الرحلة في المقعد الأمامي المجاور لمقعد القبطان، واضعاً سلاحه في حرجه، وانصرف إلى تفّحص الخرائط وأجهزة توجيه الطائرة. وكان رجال القاعدة الآخرون مسلحين هم أيضاً. (في خلال زيارتي إلى طورا بورا، حكى لي الشيخ بن لادن أحداث تلك المغامرة بأسلوب مرح، ويمكنني أن أتصوّر مدى الذعر الذي انتاب القبطان).

كانت العملية سريّة جداً، ولم يكن أحد يعلم بموعد إقلاع الطائرة من مطار الخرطوم باستثناء الرئيس البشير ورئيس جهاز الاستخبارات لديه. أما مسؤولية التنسيق مع الجانب الآخر، فتولاّها المهندس محمود من المجموعة الإسلامية الأفغانية «الحزب الإسلامي» التي كان زعيمها يونس خالص حاضراً في المطار لاستقبال ضيوفه شخصياً.

وبعد الخروج من السودان، تلقّى الشيخ بن لادن ثلاث ضربات مالية كارثية، أولاها جاءت نتيجة قرار اتخذته الحكومة السعودية وقضى بتجميد موجوداته المعروفة كافة. فقد غضب المسؤولون السعوديون عندما أثنى الشيخ بن لادن على تفجيرات أبراج الخبر في العام ١٩٩٦، وباتوا يصرّون على عودته إلى الديار معلناً الندم والتوبة، ولا شيء أقل من ذلك. ويُعتقد أن الموجودات التي جمّدتها السلطات كانت تراوح، يوم وُضعت تحت سيطرة وكالة رسمية، بين ٢٠٠ و٣٠٠ مليون دولار أمريكي. وبحسب تقديرات الأمير تركي الفيصل، المدير السابق لوكالة الاستخبارات السعودية، لا يزال الشيخ بن لادن يتحكم بنحو ٥٠ مليون دولار هي ودائع نقدية يحتفظ بها في حسابات مصرفية سريّة.

وقد أخبرني الشيخ بن لادن بأنه تلقّى في ما بعد رسالة تسلّمها عن طريق والدته وعمه في خلال زيارتهما له في قندهار. وفي هذه الرسالة تعرض عليه الحكومة السعودية الإفراج عن موجوداته المجمّدة ومضاعفة قيمتها إلى نصف مليار دولار وفقاً لشروط محددة. ولكي يستعيد الشيخ بن لادن ملكية موجوداته المقدّرة بنحو ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مليون دولار، يجدر به أن يعود إلى المملكة ويعلن فور وصوله ومن باحة المطار، أن العاهل السعودي مسلم مؤمن يلتزم تعاليم دينه. والواقع أن هذا المطلب الغريب سببه إقدام الشيخ بن لادن على اتهام آل سعود علانية بالارتداد عن الدين والتجديف، أي بتهمتين

عقوبتهما الموت. فبحسب أحكام الشريعة، فإن ذلك يعني السماح بهدر دم أولئك الذين يمسكون بزمام الحكم. أضف إلى ذلك أن خلع الملك أو الانقلاب على العائلة الملكية يصبح عندئذٍ واجباً دينياً.

أما الضربة المالية الثانية التي تعرض لها الشيخ بن لادن، فتمثلت بعجز الحكومة السودانية عن أن تسدد له تكاليف مشاريع نفّذها لمصلحة السودان، ومن بينها مشروع الطريق السريع الذي يربط بور السودان بالخرطوم. وقد أعلمني الشيخ بن لادن أنه خسر نحو ١٦٥ مليون دولار أمريكي في تلك المشاريع، وأنه لم يتمكن من استعادة ما يزيد على ١٠ في المئة تقريباً من مجموع استثماراته. وقال إنه عندما تشاور مع البشير في شأن كيفية استرجاعه أمواله، علم منه أن خزينة الدولة فارغة وأن جلّ ما يمكن فعله هو تسديد الديون بمحاصيل من القمح أو الذرة أو الصمغ أو قطعان من الماشية يمكن الشيخ بن لادن أن يبيعها إلى دول أخرى لاسترداد ديونه. (ومن هنا التعليق الساخر الذي أدلى به أمامي الشيخ بن لادن في طورا بورا على إمكانية أن يبتاع أحدهم مثل هذه السلع من هارب سيئ السمعة؛ أخبرني معارض للنظام السعودي يعيش في لندن، وهو أيضاً متخصص بأيديولوجية تنظيم القاعدة، بأنه يذكر وصول بعثة من القاعدة إلى أفغانستان في العام ١٩٩٦ موفدة من الشيخ بن لادن لبيع الحبوب).

وبعد ذلك كانت الضربة الثالثة التي تمثلت بخسارة الشيخ بن لادن عدداً من الشركات أُقفلت نتيجة معلومات عن ارتباطها بالشيخ بن لادن سُرِّبت إلى الحكومة السعودية. وكان الواشي أحد أقرباء الشيخ بن لادن، وتحديداً زوج إحدى بنات أخيه، وكان يقيم في السابق في لندن. وقد سلّم هذا القريب نفسه إلى الاستخبارات السعودية، ثم انتقل إلى الإمارات العربية المتحدة ومنها إلى الرياض حيث راح يكشف بعض الأسرار المالية لتنظيم القاعدة ممهداً الطريق لعودته إلى الديار.

ولعل أشد ما آلم الشيخ بن لادن كان جحود السودان الجلي. فقد آلمه أن يخونه السودانيون مقابل لا شيء بدلاً من التفاوض على تحقيق بعض المكاسب من تلك الخيانة.

لا بد من الإشارة إلى أن تفجير أبراج الخبر كان نقطة تحوّل رئيسة في مسار تنظيم القاعدة. فعندما لم يسارع الشيخ بن لادن إلى الإعلان مباشرة عن مسؤوليته عن الهجوم، بدت الحكومة السعودية متلهّفة للتأكد أن الهجوم نفّذته مجموعات شيعية إرهابية. وقد رفضت الحكومة السعودية آنذاك التعاون مع التحقيق الأمريكي في شأن الحادث وامتنعت عن إعطاء الإذن باستجواب عدد من المعتقلين المشتبه في تورطهم في التخطيط للهجوم.

وقال في تلك المرحلة مصدر مقرّب من تنظيم القاعدة إن الهجوم على مقرّ الحرس الوطني في الرياض جاء رداً على اضطهاد أحد قادة القاعدة. أما الهجوم على أبراج الخُبر، فكان الهدف منه الثأر من إقدام السلطات على إعدام أربعة رجال اتُهموا بتفجيرات الرياض وأُجبروا على الإدلاء باعترافات بُثّت عبر شاشات التلفزيون، في حين أن لا علاقة لهم على الإطلاق بالهجوم.

وبعد مرور فترة وجيزة على تفجيرات الخبر، وتحديداً في آب / أغسطس العام ١٩٩٦، أرسل الشيخ بن لادن فاكساً إلى صحيفة «القدس العربي» ضمّنه «إعلان الجهاد ضد الأمريكيين المحتلين لبلاد الحرمين الشريفين». واللافت أن هذا البيان لم يصدر باسم لجنة الشورى والإصلاح، على غرار البيانات السابقة كافة التي كانت تدين الوضع في المملكة العربية السعودية في أثناء إقامة الشيخ بن لادن في السودان. فالوثيقة المكتوبة في اثنتي عشرة صفحة كانت مذيّلة بتوقيع الشيخ بن لادن.

والجدير ذكره أن السفير السعودي في إسلام آباد مارس الكثير من الضغوط على الشيخ يونس خالص (الذي كان يحمل جواز سفر سعودياً وتربطه علاقة جيدة بالعائلة الحاكمة) وجلال الدين حقاني مطالباً إياهما بتسليم الشيخ بن لادن. لكنهما رفضا الإذعان لمطلبه. وقد أصدرا آنذاك بياناً مشتركاً جاء فيه: «إن لجأ إلينا حيوان، لن يكون أمامنا أي خيار إلا حمايته. فكيف برجل وهب حياته وثروته لوجه الله ولقضية الجهاد في أفغانستان؟».

وعلى الرغم من أن الشيخ بن لادن كان في الأصل يتوخّى جانب الحذر تجاه حركة طالبان، فقد أرسى معها علاقة جيدة عقب أول لقاء وأمير الحركة الملا عمر في صيف العام ١٩٩٦. وقد أعرب الملا عمر عن إعجابه العميق بملاحظات ضيفه العربي الحيادية ورفضه اتخاذ جانب أي من فصائل المجاهدين التي بلغت طريقاً مسدوداً في صراعها على السلطة. وإذ قرر الشيخ بن لادن مبايعة (التعهد بالولاء) الملا عمر، أمر أتباعه بالقتال تحت راية الأمير وأرسل مجموعة قوامها ٣٠٠ رجل من المجاهدين العرب الأقوياء والأشاوس إلى مناطق الطاجيكيين بغية التصدّي للتحالف الشمالي المعارض لطالبان. (وقد روى الشيخ بن لادن لاحقاً بكثير من الأسى أن العديد من هؤلاء الرجال أسلم الروح في خلال الرحلة بسبب البرد والعجز عن تحمل الظروف المناخية والحياتية الصعبة المميزة لتلك المناطق). وعلى الرغم من التصاريح التي تؤكد قيام علاقة نسب بين الملا عمر والشيخ بن لادن عبر زواج الأول بابنة الثاني، فإن هذا الحديث لا يستند إلى أي أساس صحيح.

حاولت الحكومة السعودية استمالة حركة طالبان عندما وجدتها تزداد نفوذاً. وإثر سقوط كابول، اعترفت المملكة العربية السعودية بحركة طالبان سلطةً شرعية في أفغانستان. وفي هذا الإطار، أرسل السعوديون دعوات للحج إلى كل عضو في الحكومة، وقبل الشيخ محمد رباني، رئيس حكومة طالبان، الدعوة.

ما إن تعززت العلاقة بين الملا عمر والشيخ بن لادن، وتوافر الغطاء الأمني لتنظيم القاعدة في أفغانستان، حتى عقد الشيخ بن لادن العزم على القيام بتحرك حاسم تجاه الولايات المتحدة. وفي أوائل العام ١٩٩٨، استحصل على فتوى موقعة من أربعين عالماً أفغانياً وباكستانياً تدعم بيانه السابق الذي طالب فيه بطرد قوات الولايات المتحدة من شبه الجزيرة العربية. وأعلن الشيخ بن لادن والظواهري في شباط / فبراير العام ١٩٩٨ تأسيس الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين. والواقع أن هذه الجهة شكلت مظلة لمختلف المنظمات الجهادية، ومن بينها حركة الجهاد الإسلامي في مصر (ويتزعّمها

الظواهري)، والجماعة الإسلامية في مصر (ويتزعّمها رفاعي طه)، فضلاً عن مجموعات أخرى في كشمير وباكستان. هذا واتسعت اهتمامات الشيخ بن لادن لتشمل شبكات مماثلة أخرى سياسية وأيديولوجية، ولتستهدف بشكل رئيس الولايات المتحدة وحلفاءها عموماً، حيثما تستطيع ذلك.

وتزامنت هذه الأحداث كلها مع تصعيد التهديد الأمريكي بتوجيه ضربة عسكرية إلى العراق إثر إقدام صدام حسين على طرد الفرق التابعة للأمم المتحدة والموكلة التحقيق في موضوع الأسلحة. وإذ أصبح الهجوم الأمريكي على العراق وشيكاً، سعى الشيخ بن لادن إلى تعزيز الشعور العربي والإسلامي بالاستياء، خصوصاً أن تقديم نفسه كبطل إسلامي ذي شعبية تجرأ على إصدار فتوى تحرّض على استهداف الولايات المتحدة بالهجمات سيمكّنه من استغلال موقعه هذا لتعبئة الجماهير من أجل المعركة. لكن الولايات المتحدة نجحت في احتواء الأزمة، وقبل صدّام حسين بعودة المحققين إلى العراق.

شكّلت التفجيرات التي استهدفت السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام في السابع من آب / أغسطس العام ١٩٩٨، والتي استُخدمت فيها شاحنتان محمّلتان بالمتفجرات، أول هجوم تنفّذه الجبهة الإسلامية العالمية. وقد أوضحت آنذاك البيانات الصادرة عن تنظيم القاعدة أن الاختيار وقع على هاتين المدينتين لأن كلاً منهما تحتضن وجوداً عسكرياً أمريكياً مهماً ولأن الحكومتين في كينيا وتنزانيا دعمتا اعتداء الولايات المتحدة على العراق وأقامتا علاقات وثيقة مع إسرائيل.

وقد ردّت الإدارة الأمريكية على الهجومين بقصف مواقع تنظيم القاعدة في أفغانستان. ومن المواقع التي استهدفها القصف مقر الشيخ بن لادن في قندهار (وكان عبارة عن قاعدة جوية سوفياتية مهجورة). لكن الشيخ بن لادن، وبفضل الحاسة السادسة غير الاعتيادية التي كثيراً ما تتجلى لديه في ظروف مماثلة، كان قد غادر وعائلته الموقع المذكور قبل يومين من قصفه.

وفي الحادي والعشرين من آب / أغسطس العام ١٩٩٨، أي عقب القصف الأمريكي، اتصل بي محمد عاطف (وكان آنذاك القائد العسكري الأعلى في تنظيم القاعدة) هاتفياً في الجريدة ليصرِّح بأن القصف الأمريكي أخفق في تحقيق أهدافه. فالشيخ أسامة بن لادن كان لا يزال حياً، وكذلك قادة تنظيم القاعدة كلهم. وقال عاطف إن القصف أسفر عن استشهاد خمسة مقاتلين، اثنان منهم من اليمن، واثنان من المملكة العربية السعودية وواحد من مصر. كما وعد بأن يرسل إلى صور الرجال الخمسة عبر البريد، وقد وفى بوعده فعلاً بعد حين. وفي سياق المكالمة، أخبرني محمد عاطف عن رغبة الشيخ بن لادن في أن يبعث برسالة إلى الرئيس الأمريكي بيل كلينتون. وجاء في مضمون الرسالة أنه سيثأر من هذا الهجوم بطريقة مذهلة وبأنه سيوجّه ضربة إلى أمريكا تهزّها على نحو كبير، وهي ضربة لم تشهد مثلها من قبل. وقد يبدو أن عملية الثأر نُفِّذت بالهجومين اللذين استهدفا مركز التجارة العالمية ومبنى البنتاغون في الحادي عشر من أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١، مما قد يثبت أيضاً أن التحضيرات لعملية الحادي عشر من أيلول كانت تجري على قدم وساق عندما حصل تفجير السفارتين الأمريكيتين في إفريقيا.

وفي ظل ضغوط هائلة فرضتها الولايات المتحدة لكفّ يد الشيخ بن لادن، توجّه الأمير تركي من جهاز الاستخبارات السعودية إلى قندهار في أيلول / سبتمبر العام ١٩٩٨. وقد سافر آنذاك على متن طائرة نفّاثة خاصة يرافقه الشيخ عبد الله تركي، الذي كان يشغل في ذلك الحين منصب الوزير السعودي للشؤون الإسلامية، وسلمان العمري، القائم بالأعمال السعودية في كابول. حضر الاجتماع آنذاك الداعية الإسلامي المتطرف السوري أبو مصعب السوري الذي زوّدني لاحقاً عبر الهاتف بتقرير مفصل عن مجريات الاجتماع. فقد طلبت البعثة السعودية آنذاك من الملا عمر أن يسلّم الشيخ بن لادن إلى الولايات المتحدة باعتباره إرهابياً. لكن هذا الطلب أغضب الملا عمر إذ أغاظه أن تطلب حكومة مسلمة تسليم أخ مسلم إلى «دولة ملحدة». وإذ ذاك، قال للأمير السعودي: «إن كنت تتحدث باسم أمريكا، فلا تلمني إن تحدثت باسم الشيخ بن لادن». وفي حين زعم

الأمير تركي بأن الملا عمر وعده من قبل بتسليم الشيخ بن لادن، أنكر الملا عمر بشكل قاطع تقديمه مثل هذا الوعد. ويبدو أنه تحدّث بفظاظة إلى الأمير تركي، لكن المترجم رفض ترجمة حديثه على نحو كامل. وأصرّ الملا عمر حينئذٍ على نقل كلامه حرفياً إلى الأمير الذي استشاط غضباً وبلغ به الأمر حد التهديد بسحب الاعتراف السعودي بحكومة طالبان. وكانت هذه مسألة خطيرة، خصوصاً أن ثلاث دول فقط كانت قد اعترفت بشرعية تلك الحكومة. وانتهى الاجتماع بأن طلب الملا عمر بلهجة غاضبة من الأمير أن يرحل مصطحباً معه القائم بالأعمال. وبعد فترة وجيزة، قطعت الحكومة السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع طالبان.

رسم لشخصية الشيخ بن لادن

الواقع أن السمعة التي اكتسبها الشيخ بن لادن كمحارب في أوساط أولئك الذين حارب معهم تتميّز بالتقدير العميق لشجاعته ولعدم خشيته الموت. فلطالما أبدى الشيخ بن لادن أسفه الشديد لأنه لم يستشهد بعد على غرار العديد من رفاقه في أفغانستان. ففي خلال الجهاد الأفغاني، صودف وجود الشيخ بن لادن في دائرة القصف العنيف أكثر من أربعين مرة. ويقول الشهود إن مجازر فظيعة وقعت في ثلاث من تلك المرات على الأقل، فكانت أشلاء من أجساد المقاتلين تتطاير في الهواء من دون أن تبدو على الشيخ بن لادن أي مسحة خوف. كذلك أخبرني أحد المجاهدين الذين قاتلوا في أفغانستان بأن صاروخ سكود انفجر مرة على بعد ٢٠ ياردة أو أقل من الشيخ بن لادن الذي لم يرف له جفن. والواقع أن الشيخ بن لادن أُدخل المستشفى للمعالجة عدة مرات جرّاء إصابته في المعارك، وكاد يُقتل ذات مرة بغاز سام مصدره هجوم بالأسلحة الكيميائية، حتى أنه لا يزال يعاني جراء تلك الحادثة آلاماً في الحلق.

وعلى الرغم من أن ترتيب الشيخ بن لادن هو الحادي والعشرون بين أشقائه التسعة والعشرين، فإنه تميّز على الدوام بسلطته المهمة وحضوره المؤثر في العائلة، خصوصاً

بعد أن احتُفي به كبطل في خلال الحرب الأفغانية. وكان يُحتكم إلى الشيخ بن لادن في أي مشاحنة عائلية، مع الإشارة إلى أن المشاحنات من هذا النوع حتمية في عائلة كبيرة كعائلته. أما المزاعم القائلة إن أشقاءه تبرأوا منه بعد أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر فليست صحيحة تماماً. وقد صدر بالفعل بيان نشرته الصحف السعودية عن إنكار أشقائه له، إنما قيل لي إن هذا البيان صدر بالإكراه تحت وطأة الضغوط الهائلة التي مارستها على العائلة سلطات مختلفة. والواقع أن العديد من أفراد العائلة برأ نفسه سراً من هذا التصريح، بل إني التقيت عدداً من أشقاء الشيخ بن لادن الذين عبروا عن عميق تقديرهم لشقيقهم كشخص وكمسلم في آنٍ واحد. لكنني لا أعتقد بأنهم يوافقون على تصرفاته العنيفة التي فاجأتهم على ما يبدو، حتى إنهم بذلوا قصارى جهدهم للبقاء على مسافة من تلك الهجمات.

في خلال البحث عن المعلومات الضرروية لهذا الكتاب، حملتني مقابلاتي مع أشقاء الشيخ بن لادن وشقيقاته إلى العديد من العواصم الأوروبية. ولا بد لي من الإشارة إلى أنهم طلبوا عدم ذكر أسمائهم خوفاً من التبعات. وقد أبدت اثنتان من شقيقات الشيخ بن لادن الأصغر سناً حماسة لمقابلتي. فبما أنهما لم تلتقيا أخاهما منذ عدة سنوات، كانتا تودّان معرفة جميع تفاصيل اجتماعي به، حتى إنهما سألتاني عن أوضاعه الصحية وعما يأكله ويشربه وعن مشيته وما إلى ذلك.

وخلافاً لما يعتقده أو يزعمه الكثيرون، لا تربط الشيخ بن لادن بعائلة آل سعود الحاكمة أي علاقة خاصة أو شخصية. فصحيح أنه قابل العديد من أفراد تلك العائلة عندما كان يعيش في المملكة العربية السعودية بحكم العلاقة الوثيقة بينهم وبين العديد من أشقائه، لكنه أعرب في سياق لقائي به عن عميق ازدرائه لآل سعود الذين وصفهم «بالكفرة الفاسدين»، مشيراً إلى أنهم «نهبوا ثروة الأمة وأضلوا طريق الإسلام». هذا وقد يكون وراء حقد الشيخ بن لادن على العائلة الحاكمة سبب شخصي. فوفقاً لشقيقه وأكبر إخوته الذكور علي بن لادن الذي يعيش اليوم في باريس، كانت العائلة الحاكمة قد عيّنت

مجلس أوصياء لإدارة أراضي والد الشيخ بن لادن بعد وفاته؛ وكثيراً ما كان الشيخ أسامة يعبّر عن سخطه بسبب عدم كفاية المجلس.

كان الشيخ بن لادن يكنّ كراهية مطلقة وضغينة قصوى للولايات المتحدة. ولعل هذا الشعور يعود إلى النهج الذي اتبعه الأمريكيون في معاملتهم للمجاهدين الأفغان والعرب في خلال الحرب ضد الاتحاد السوفياتي في أفغانستان. فبحسب توصيف الشيخ بن لادن، استخدم الأمريكيون المحاربين لتحقيق غاياتهم، مستغلين حماسة المجاهدين المسلمين لتطهير أرض إسلامية من المحتلين «الملحدين». وعندما هُزم السوفيات، ألقى الأمريكيون بالمجاهدين جانباً كأنهم مناديل ورقية ينبغي رميها. ويستطرد الشيخ بن لادن قائلاً إن الولايات المتحدة عادت لتحذو حذو الاتحاد السوفياتي، فاحتلت هي أيضاً أرضاً إسلامية إذ أرسلت قواتها في العام ١٩٩٠ إلى شبه الجزيرة العربية. والواقع أن تأكيدات عديدة تشير إلى ارتباط الشيخ بن لادن في السابق بوكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية أو بغيرها من وكالات الاستخبارات الأجنبية. لكن الأمير تركي قال في مقابلة أجرتها معه المحطة العربية الفضائية أم بي سي: «لا علم لنا بأي تواصل بينه وبين الوكالات التابعة لحكومات أجنبية، باستثناء الحكومة الباكستانية». والجدير ذكره أن علاقة الشيخ بن لادن بأجهزة الاستخبارات الباكستانية هي على الأرجح ما سمح له بالتسلل عبر الباب الخلفي عندما قصفت الولايات المتحدة طورا بورا في تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠١.

أضف أن الشيخ بن لادن يرى في الولايات المتحدة جذور الشر المطلق على المستويات الدينية والسياسية والأخلاقية، بل يعتبرها مصدر النكبات التي نزلت بالأمة (العالم الإسلامي). وقد صرح من قبل بأنه يبغض الولايات المتحدة بسبب دعمها أنظمة عربية فاسدة وجائرة مثل المملكة العربية السعودية، وأيضاً بسبب مساندتها المريبة لإسرائيل.

ومن الممكن تبرير الشعبية التي يتمتّع بها الشيخ بن لادن في أوساط العديد من مسلمي العالم البالغ عددهم ١,٣ مليار مسلم، بأنه يُشكل لدى هؤلاء الصوت المعبِّر عن مشاعر

الإحباط والاستعداء والإهمال. فالمسلمون المؤيديون للشيخ بن لادن يرون فيه شخصاً قوياً يحارب إلى جانبهم.

وقد أدركت من خلال تجربتي أن الشيخ بن لادن يتمتّع بشعبية كبيرة في شبه الجزيرة العربية تحديداً، وعلى وجه الخصوص في المملكة العربية السعودية واليمن. ففي اليمن، مسقط رأس والده، يفتخر الناس على ما يبدو بالمواطن السيىء السمعة الذي خرج من بلادهم ويعلقون صوره على جدران منازلهم. واللافت أن نسبة كبيرة من أتباعه وحراسه الشخصيين تتكوّن من يمنيين أو من رجال أتوا من منطقة عسير في جنوب المملكة العربية السعودية، وهي منطقة كانت تاريخياً تابعة لليمن. والواقع أن الشيخ بن لادن يثق بحراسه الشخصيين الستة عشر ثقة عمياء، ليس بسبب الرابط الذي يجمعهم بوالده فحسب، بل أيضاً لأن اليمنيين معروفون في العالم العربي بشهامتهم وشجاعتهم وصدقهم وإخلاصهم.

والجدير ذكره أيضاً أن الإعلام الغربي ساهم في الارتقاء بالشيخ بن لادن إلى مستوى البطل الشعبي في العالم الإسلامي، باعتبار أن كل من يصوِّره هذا الإعلام عدواً للولايات المتحدة يصبح موضع تقدير.

وقد يتمثّل أحد المؤشرات إلى مستوى الإعجاب بالشيخ بن لادن في العالم الإسلامي بالازدياد المفاجىء في عدد الذين باتوا يحملون الاسم «أسامة». ففي الولايات الشمالية من نيجيريا، التي تتكوّن غالبية سكانها من المسلمين، أُطلق اسم «أسامة» على ما نسبته ٧٠ في المئة من الصبية الذين وُلدوا في الأشهر التي أعقبت أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر تيمناً بالشيخ بن لادن[٣]. كذلك شاع اسم «أسامة» في مالي وباكستان والسنغال وفلسطين والفيليبين الجنوبية وتايلاند. وفي خلال إقامتي في تركيا، لاحظت الطلب الشديد على ولاعات تحمل صورة الشيخ بن لادن. وأخبرني آنذاك صاحب أحد المتاجر بأن الشيخ بن لادن بطله وبأنه علّق صورته على الجدار في منزله. فضلاً عن ذلك،

(٣) محطة بي بي سي، ٣ كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٢.

لم تعد القمصان التي تحمل صورة الشيخ بن لادن رائجة في العالم الإسلامي فقط، بل أيضاً في أمريكا الجنوبية والوسطى.

لكن الشيخ بن لادن كان يتصرف بشيء من التواضع. فهو لم يكن يميل إلى العزلة، بل كان يأكل مع رجاله ويرتدي ملابس تشبه ملابسهم. واللافت أنه شجع زوجاته وأولاده على اتباع النمط الحياتي القائم على الزهد والتقشف الذي انتهجه هو نفسه على الرغم من انتمائه إلى إحدى أغنى العائلات في العالم. وأنا متيقن تماماً أن هذا المسلك ساهم في تعزيز شعبيته. وقد أخبرني سعد الفقيه، وهو معارض سعودي يعيش في لندن، أن منزل الشيخ بن لادن في السودان كان مزوّداً بجهاز تكييف، إلا أنه لم يشغّله مرة واحدة، حتى عندما كانت الحرارة تبلغ ٥٠ درجة مئوية. وأعلمني الفقيه أيضاً بأن الشيخ بن لادن كان يصوم يومين في الأسبوع صيفاً وشتاءً[٤].

كان أبو جندل (واسمه الفعلي ناصر الباهري) واحداً من حرّاس الشيخ بن لادن الشخصيين، وقد أجرينا معه مقابلات مطوّلة لصحيفة «القدس العربي»[٥]. ويذكر أبو جندل أن المُلاّ عمر، عقب اكتشاف مخطط لاغتيال الشيخ بن لادن، طلب إليه الانتقال من جلالاباد إلى قندهار باعتبارها آمنة أكثر. وخيّره الملا عمر آنذاك بين مسكنين، أحدهما في مجمع الشركة الكهربائية المزوّد بالتسهيلات الحياتية كافة، والآخر في قاعدة جوية سوفياتية مهجورة تخلو من مختلف وسائل الراحة. واختار الشيخ بن لادن القاعدة الجوية حيث أقام مع عائلته في مكان يفتقر إلى المياه الجارية والكهرباء وحتى إلى المراحيض. وقد قال إنه أراد أن يحيا على طريقة الصحابة والمسلمين الأولين.

والواقع أن شظف العيش هذا لا يُعزى إلى الزهد في الحياة فحسب، بل أيضاً إلى مبادىء استراتيجية. فلطالما تحدّث الشيخ بن لادن عن سقوط منظمات عسكرية بسبب إسراف القيادة وعجز جنودها عن تحمّل الشدائد.

(٤) مقابلة مع سعد الفقيه، ٢٨ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥، لندن.

(٥) أجرى المقابلة الحمّادي، ونشرتها صحيفة «القدس العربي» في ٣ آب / أغسطس العام ٢٠٠٤.

وأشار أبو جندل إلى أن الشيخ بن لادن دخل في جدال حاد مع ابنه البكر عبد الله حول النمط الحياتي الذي كان ينتهجه في خلال إقامة العائلة في الخرطوم. وكانت حجة عبد الله آنذاك أن الله تعالى أنعم على العائلة بالثراء ولا بد من التمتع بهذه النعمة. وفي مرحلة لاحقة، عاد عبد الله إلى المملكة العربية السعودية بمساعدة أعمامه ومباركة العائلة الحاكمة، فانضم إلى مجموعة شركات العائلة وبدأ يعيش حياة ملؤها الرفاهية (المثير للسخرية أن هذا الخلاف أنقذ الشيخ بن لادن من محاولة قتل كادت تودي بحياته. فقد تأخّر بفعل جداله مع ابنه عن العودة إلى مكتبه بضع دقائق، ولم يكن بالتالي موجوداً عندما اقتحمت المكان مجموعة من القتلة المأجورين وفتحت النار على الحاضرين كافة).

تزوّج الشيخ بن لادن أربع نساء بعد زواجه بابنة خاله السورية نجوى. وكانت ثلاث من زوجاته من المملكة العربية السعودية والخامسة من اليمن. أما نجوى، فغادرت السودان برفقة ابنها عبد الله وعادت إلى المملكة العربية السعودية حيث تقيم اليوم كذلك زوجته الثانية أم علي التي تطلّقت منه في السودان ورجعت هي أيضاً إلى المملكة العربية السعودية برفقة ابنها وابنتها. وتقيم أم علي حالياً في جدّة.

في تموز / يوليو العام ٢٠٠٠ تزوّج الشيخ بن لادن للمرة الخامسة فتاة يمنية في السابعة عشرة من العمر اسمها أمل السداح. وقد دفع الشيخ بن لادن آنذاك مهراً للعروس قدره ٥ آلاف دورلا أمريكي. أعدّ لهذا الزواج أبو جندل الذي يقول إن زعيم القاعدة أقام حفلاً كبيراً في مناسبة الزفاف حضرته مجموعة من أنصاره. وفي مختلف الأحوال، عاشت زوجاته معاً بسعادة تحت سقف واحد على مدى عدة سنوات خصوصاً أن الشيخ بن لادن لم يكن يسمح بنشوب مشاجرات بينهن.

أقام أبناء الشيخ بن لادن الأحد عشر وبناته الثلاث عشرة كلهم معه في أفغانستان، باستثناء ابنه البكر عبد الله وابن آخر له وابنة من زوجته الثانية أم علي. وعندما رجع عبد الله إلى المملكة العربية السعودية لينعم بحياة ميسورة أكثر، وجه ضربة قاسية إلى الشيخ بن لادن. واعتبر هذا الأخير أن ابنه تصرّف على نحو سفيه وخرج عن طاعته، فلم

يعد إلى ذكر اسمه قط. كذلك تمردت أم علي على الشيخ بن لادن في أثناء وجود العائلة في السودان وطلبت الطلاق. فعلى غرار عبد الله، لم تستطع أم علي تحمل شظف العيش الذي فُرض عليها.

أما زوجتاه أم حمزة وأم خالد، فتتحدران من عائلتين سعوديتين معروفتين. وتحمل الأولى شهادة دكتوراه في اللغة العربية، والثانية شهادة دكتوراه في الشريعة. والجدير ذكره أن أم خالد تنتمي إلى عائلة آل الشريف الشهيرة، وهي أخت أحد رفاق الشيخ بن لادن في الجهاد الأفغاني. ولعل هاتين الزوجتين لا تزالان برفقة الشيخ بن لادن، مع العلم أن مصادر مقرّبة من تنظيم القاعدة أبلغتني بأنه الآن - وقد أصبح في حالة فرار دائمة - بات يسافر وحده، لا يرافقه سوى حارس شخصي واحد.

وفي ما يتعلق بزوجته اليمنية أمل، فقد هُرّبت إلى خارج أفغانستان مع طفلتها الصغيرة بعد مرور شهرين على أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر. وفي أوائل العام ٢٠٠٢، عادت إلى اليمن بعد أن كانت تختبىء في باكستان. وقد اعتُقلت واستُجوبت قبل وضعها تحت الإقامة الجبرية في مجمّع والدها. وفي مرحلة لاحقة من العام نفسه، اعتُقلت مع والدها وشقيقها إثر اشتباك مسلّح وقع في المجمّع. ولا أحد يعلم تحديداً أين أصبحت العائلة اليوم. علماً أني حاولت الاتصال بها لدى عودتها إلى اليمن بغية إجراء مقابلة معها، لكن الحكومة اليمنية منعت أفراد العائلة كافة من التحدث إلى الإعلام.

كان الشيخ بن لادن يستمتع بالحياة الريفية ويحب ركوب الخيل. وكثيراً ما كان ينظّم لأفراد عائلته رحلات إلى الصحراء ويدرّب زوجاته وأولاده على استخدام الأسلحة. هذا وكان يستمتع أيضاً بممارسة الرياضة، ولا سيّما لعبة كرة الطائرة، بل إنه كان يتفوّق على خصومه في هذه اللعبة، خصوصاً أن طول قامته يبلغ ١٩٠,٥ سنتيمتراً. وفي أفغانستان، كان الشيخ بن لادن يترأس فريقاً لكرة الطائرة فيما يترأس أبو حفص المصري الفريق الآخر. ويشير الذين كانوا حاضرين في المكان حينئذٍ إلى أن المباريات بين الفريقين كانت تستقطب حشداً كبيراً من مجاهدي تنظيم القاعدة، وكانت تتميّز بشدة المنافسة وقوة الهمة.

كثيرة هي التقارير التي تشير إلى إصابة الشيخ بن لادن بأمراض خطيرة. وقد ذهب بعض الروايات الخيالية إلى حد القول إنه يحتاج إلى ميز كلوي، بل كثيراً ما كانت ترد هذه الروايات في الصفحة نفسها التي يرد فيها خبر عن فراره من القصف الأمريكي عبر الجبال ممتطياً جواده. وكنت قد سمعت أنه يعاني أحد أشكال داء السكري المعتدلة الحدة. لكنني لم ألحظ، عندما أمضيت ثلاثة أيام برفقته وبتّ الليل معه في كهف واحد أنه لا يتناول أي دواء، لا بل لم تظهر عليه أي أعراض تشير إلى اعتلال ما في الصحة. وعندما سرنا أكثر من ساعتين عبر الجبال المغطاة بالثلوج، بدا لي وافر الصحة وكامل اللياقة البدنية.

أعلم أن الشظايا أصابت كتفه اليسرى في خلال القصف الذي استهدف طورا بورا في العام ٢٠٠١. وقد بدت الإصابة واضحة في أول لقاء تلفزيوني سجّله عقب الاعتداء في كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٢ ليثبت للعالم أنه لا يزال على قيد الحياة. وكان يمكن المشاهد أن يلاحظ أن كتفه اليسرى أعرض من اليمنى، وأن ذراعه اليسرى تبدو مشلولة شللاً كاملاً، خصوصاً أنه لم يحركها قط على الرغم من أنه أعسر. وعندما ظهر مجدداً عبر شاشات التلفزيون في وقت لاحق من العام نفسه حرّك كتفه اليسرى وذراعه اليسرى عمداً ليبيِّن أنه على خير ما يرام. ويُعتقد أن الظواهري، وهو في الأصل جرّاح مجاز، أخضعه لجراحة من أجل استئصال الشظايا.

لا بد من الإشارة إلى أن الشيخ بن لادن كان هدفاً للعديد من محاولات الاغتيال. وفي إحدى المرات، أرسلت الحكومة السعودية شاباً طاجيكياً في الثامنة عشرة من العمر إلى قندهار لتنفيذ هذه المهمة، بعد أن وعدته بالجنسية السعودية وبمكافأة مالية قدرها مليون ريال سعودي، أي ما يعادل ٢٥٠ ألف دولار أمريكي. لكن رجال القاعدة قبضوا على الشاب قبل أن يتمكن من تحقيق مبتغاه، فاعترف بذنبه وراح ينتحب. وعندما واجهه الشيخ بن لادن، سأله هل كان يعتقد بأنه سينجو بفعلته ويبقى حياً بعد تنفيذ الاغتيال. ويبدو أن الشاب كان مذعوراً جداً، حتى إن نشيجه جعله غير قادر على الكلام. فعفا الشيخ بن لادن عنه وأمر حرّاسه بإطلاق سراحه.

وقد كشف لي أبو جندل عن واقعة أخرى. ففي الليلة التي سبقت قصف قندهار في آب / أغسطس العام ١٩٩٨، قصد الشيخ بن لادن منطقة خوست ليقوم بجولة على معسكرات التدريب فيها. آنذاك، أخبر طاه أفغاني كان يعمل لمصلحة وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية عملاءه بوجهة الشيخ بن لادن. لكن الشيخ، وبفضل «حاسته السادسة» التي أشرنا إليها سابقاً، غيّر رأيه فجأة وهو في منتصف رحلته وتوجّه عوضاً من ذلك إلى كابول. وفي اليوم التالي، أغارت طائرات حربية أمريكية على معسكرات القاعدة في خوست وأودت بحياة خمسة رجال.

ولم يكن الشيخ بن لادن يحبِّذ استخدام المصطلح «رواتب»، فكان يشير إلى المال الذي يدفعه لأعضاء تنظيم القاعدة بعبارة «رعاية شهرية». وكانت الرعاية الشهرية تُدفع فقط للمتزوجين وتراوح بين ٥٠ و١٢٠ دولاراً أمريكياً في الشهر الواحد بحسب عدد أفراد العائلة ورتبة معيلها في التنظيم. أما الأعضاء غير المتزوجين، فلا تُخصص لهم أي رواتب شهرية؛ وهم يتناولون الطعام في المعسكرات أو القواعد حيث تُعد وتُقدّم ثلاث وجبات يومياً.

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر والهجمات الانتقامية على طورا بورا، أصبح الشيخ بن لادن في حالة فرار دائم، ولم تعد تتوافر معلومات كثيرة عن حياته الشخصية منذ تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠١.

كثيراً ما يُطرح عليّ السؤال الآتي: «ما الذي يريده الشيخ بن لادن؟». الواقع أني لا أعتقد بأن للرجل الأكثر خطورة في العالم أي طموحات شخصية محددة، بل إنه لا يسعى، كما يُزعم في غالب الأحيان، إلى أن يصبح خليفة المسلمين. وفي هذا الإطار، يقول المعارض سعد الفقيه إنه لا يمكن الشيخ بن لادن في أي حال من الأحوال أن يصبح يوماً خليفة لأنه «من حضرموت وقبيلته لا تتحدّر من قريش، في حين أن النبوءات الإسلامية تفيد بأن الشخص الذي يُنتظر أن يعيد إحياء الخلافة ينتمي إلى قريش ويتحدّر من سلالة النبي».

يؤمن الشيخ بن لادن بأن الحياة امتحان يريد منه الخالق اختبار إيمانه وثباته وطاعته. وكثيراً ما كان يقول إنه لا يطمح إلا إلى دخول الجنة، وإن أسرع طريق إليها هي الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

عمد الشيخ بن لادن باستمرار إلى تغيير الاستراتيجيات والتكتيكات التي يعتمدها، مظهراً بذلك مرونة استثنائية. فهذا الرجل الذي يسعى إلى الشهادة، خطط في المقابل للبقاء على قيد الحياة لينغّص حياة الولايات المتحدة. فإدارة بوش التي أنفقت ٢٥٠ مليار دولار أمريكي على الحروب في أفغانستان والعراق وسعت سعياً حثيثاً إلى القضاء على تنظيم القاعدة، لم تنجح إلا في تزويد الشبكة بملجأ آمن في قلب العالم العربي، بل إنها مكّنت الشيخ بن لادن من تعزيز سمعته في أوساط ملايين البشر كأشهر محارب مسلم في عصرنا الجاري.

الفصل الثاني

محارب مقدس

«إن إرهابنا لكم وأنتم تحملون السلاح على أرضنا هو أمرٌ واجبٌ شرعاً ومطلوبٌ عقلاً... من أجل إعادة إرساء عظمة الأمة وتحرير الأماكن المقدسة المحتلة... وهؤلاء الشباب يختلفون عن جنودكم، فمشكلتكم هي كيفية إقناع جنودكم بالإقدام على الحرب، أما مشكلتنا فهي كيفية إقناع شبابنا بانتظار دورهم في العمليات والقتال».

«إعلان الجهاد ضد الأمريكيين المحتلين لبلاد الحرمين الشريفين»، الشيخ أسامة بن لادن، فتوى، العام ١٩٩٦.

هكذا أعلن الشيخ أسامة بن لادن بأسلوب درامي نموذجي الحرب على أعظم قوة في العالم من أحد الكهوف في جبال أفغانستان.

في الواقع لا يمكن أي دراسة جدية عن الشيخ بن لادن وتنظيم القاعدة، أن تتجاهل الخلفية الإسلامية والتاريخ الإسلامي اللذين خرجا منهما. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن تأويلاً خاصاً للإيمان الديني، جرى تعديله وتسييسه عبر القرون، يعلمنا بهوية الشيخ والتنظيم، ويثبت مكانتهما في العالم الإسلامي. فلا وجود لتنظيم القاعدة من دون الإسلام.

يبدو أن بعض المعلقين الغربيين لم يفهم فتاوى[1] الشيخ بن لادن فهماً كاملاً، لا بل

(١) الفتوى هي رأي أو حكم قانوني يصدره أحد علماء الدين الإسلامي.

ذهب إلى حد الاستهزاء بها. فغالباً ما يعجز الناس في الغرب عن إدراك الرابط العميق الذي يحسه المسلمون تجاه ماضيهم إدراكاً تاماً، كما يعجزون عن فهم المرارة التي يرثي بها الكثيرون مجد الأمة الغابر، وفي غالب الأحيان، يمتزج هذا الشعور بالخسارة التاريخية بتجربة معاصرة كثيراً ما يغلب عليها الشعور بالخيبة والإذلال.

شكلت الحاضرات الإسلامية على مدى عدة قرون القوى العسكرية العظمى على وجه الأرض. فقد اجتاحت جيوش المسلمين أوروبا وإفريقيا والهند والصين، وكان المسلمون قادة العالم على صعيد القوة الاقتصادية والفنون والعلوم. ولا شك في أن البلاغة القديمة التي ينتهجها الشيخ بن لادن على نحو يعيد إلى الذاكرة أصداء زمن كانت الأمة فيه تزداد قوةً ونفوذاً، بموازاة تأكيده الحاسم إمكانية إعادة بناء خلافة شاملة، تشكّل حتماً جزءاً من الحظوة التي يتمتع بها والتأثير الذي يمارسه في أوساط العالم الإسلامي. فقد تحوّل الشيخ بن لادن إلى صورة تجسِّد الهوية الإسلامية المنبعثة التي ترتبط ارتباطاً سياسياً معقداً بالتفسير السلفي للإسلام.

غني عن القول بالطبع إن المسلمين، وحتى أولئك الذين يتبعون الشيخ بن لادن، ليسوا جميعهم سلفيين. لكن الإسلام يبقى الميزة المحددة للحياة اليومية التي يحياها معظم مسلمي العالم، ولا بد من فهم دلالات هذا التديّن. فالإسلام يطبع جميع جوانب حياة المسلمين بمختلف جوانبها، من السلوك والتعليم إلى الملبس والعادات الغذائية والعلاقات الشخصية. وإذ ذاك، لا ينبغي التقليل من شأن الدعوة إلى الجهاد (الذي قد يعني أشكالاً عدة من النضال ولا يقتصر على القتال العسكري فحسب). فقد يتحوّل الجهاد في ظل بعض الظروف إلى واجب مقدس لدى المسلمين لا يمكنهم التهاون فيه.

والجدير ذكره أن علماء المسلمين بلوروا على مدى قرون حججاً دينية وعقائدية في ما يتعلق بمفهوم الجهاد. وفي أيامنا هذه يبدو أن هذا الجدال سيخلِّف تأثيرات على الأمن المستقبلي في العالم كله. ويبدو أيضاً أن حجة الجهاد ضد الولايات المتحدة، الراسخة تحديداً في أيديولوجية تنظيم القاعدة، وحتى ـ على نحو يمكن إثباته ـ في شخص الشيخ

أسامة بن لادن نفسه، تلقى استحساناً متزايداً وسريع الوتيرة في الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا.

يشكل مفهوم الجهاد جزءاً لا يتجزأ من الإسلام. وقد شكل النبيّ محمد (ص) المثال الأول للمجاهد (أي لمن يلتزم الجهاد). والواقع أن للجهاد تطبيقات متنوعة تراوح بين ضبط النفس (أخلاقياً وبطبيعة الحال الامتناع عن العنف) والتضحية بالذات في سبيل قضية نبيلة.

مثال الرسول

أمر النبيّ محمد (ص) أتباعه، في خلال السنوات الثلاث عشرة الأولى من رسالته، بألا يردوا على الاضطهاد بأي شكل من أشكال العنف. وكان يخبرهم بأنهم سيكافأون في الآخرة على صبرهم، بالجنة.

وبعد مرور نحو عقد من المثابرة، أُخرج النبيّ محمد (ص) وأنصاره من مكة المكرّمة وجُرّدوا من ممتلكاتهم. آنذاك، كان كبار رجال قريش الظالمون يخططون لقتل النبي محمد (ص)، إلا أنه فرّ في منتصف الليل ولجأ إلى المدينة المنوّرة. وفي المدينة، أسلمت قبيلتا أوس والخزرج فيما بقيت القبائل اليهودية الثلاث على دينها. والواقع أن هذه الواقعة تشكل مرحلة رئيسة في تاريخ الإسلام باعتبارها تحدد نشأة المجتمع السياسي الإسلامي، حتى إن التقويم الإسلامي يبدأ من تاريخ هجرة النبيّ محمد (ص) من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة.

بعد وصول النبي محمد (ص) إلى المدينة المنوّرة، بوقت قصير، جرى الاعتراف به رسمياً قائداً سياسياً لمجتمع جديد ومختلط قوامه العرب من سكان المدينة الذين اعتنقوا الإسلام ديناً ونمطاً حياتياً، واليهود الذين قبلوا بالإسلام نظاماً سياسياً. وفي تلك المرحلة تحديداً، اكتسب مفهوم الجهاد بعداً إضافياً إذ اعتُبر أن الله عزّ وجلّ أنعم على المسلمين بالحق في القتال. وفي أيامنا هذه، قد يعني هذا الحق أيضاً أن يبذل المسلم قصارى جهده في القتال من أجل النصر أو الشهادة (الشريعة واضحة تماماً في ما يتعلق بموضوع الجهاد

الذي لا يقتصر معناه عرضاً على «الحرب المقدسة». فالاجهاد بحسب تعريف الشريعة يعني حرفياً «النضال» أو «الكفاح» أو «المثابرة» أو حتى «العمل»، وقد يعني أيضاً الصراع المعنوي الذي يخوضه المرء في مقاومة الخطيئة والإغراء).

أثبتت وحدة المسلمين في الهجرة أن الإسلام رابط يفوق بقوته رابط الدم أو الإقطاع. ولعل هذا ما يجعل من الهجرة مفهوماً أساسياً في الاستراتيجية التي تعتمدها القاعدة لجهة تعبئة المجاهدين من خلال حثّ الشباب على ترك عائلاتهم ومنازلهم والانضمام إلى الجهاد أينما تجلت الحاجة إلى ذلك.

وقعت أول معركة رئيسة في تاريخ الإسلام في العام ٦٢٤ ميلادي. آنذاك، أرسل أهل مكة المشركون جيشاً قوامه نحو ٨٠٠ رجل لمهاجمة المسلمين في بدر. وانتصر المسلمون في تلك المعركة على الرغم من أن عددهم لم يكن يتجاوز ٣٠٠ رجل سقط منهم في المعركة عدد ضئيل جداً. والواقع أن هذا الانتصار ما زال مصدر إلهام المسلمين الشباب، ويُحتفل بذكراه في خلال شهر رمضان من كل عام.

في العام ٦٣٠هـ، عاد النبيّ محمد (ص) إلى مكة منتصراً ودخل المدينة على رأس جيش قوامه ١٠ آلاف مسلم. وسرعان ما استسلم أهل مكة، واعتنقت غالبية سكان المدينة الإسلام طوعاً.

وراحت شبه الجزيرة العربية تقع تحت سيطرة المسلمين بلدة تلو الأخرى ومنطقة تلو الأخرى، في حين شرع العرب يعتنقون الدين الجديد بالآلاف. ووحدهم أولئك الذين شنّوا حملات عسكرية ضد النبيّ (ص) وأنصاره قُتلوا وأُجبروا على الاستسلام. أما المزاعم التي تقول إن الإسلام فُرض على الناس أو انتشر بقوة السيف، فلا أساس لها من الصحة.

توسّعت الأمة الإسلامية جغرافياً وديموغرافياً على مر عدة أجيال. وتُعرف الأجيال الأولى من المسلمين باسم السلف. وغالباً ما يُشار إلى أن الانتشار السريع للإسلام في شبه الجزيرة العربية وخارج حدودها أيضاً يُعزى إلى واقع أن المثال الذي قدّمه السلفيون كان يفوق أي مثال آخر تجلّى في تلك المرحلة لجهة القيم الأخلاقية واحترام الإنسانية.

ولا غرابة في أن تقع اللائمة في ما يتعلق بالانحطاط المستمر الذي شهدته ثروات المسلمين عبر العالم منذ «العصر الذهبي» على الحكّام والشعوب التي أضلت السبيل إلى الله. والواقع أن الدعوات للعودة إلى «الدين الحق» كما كان يُمارس في عهد النبيّ محمد (ص) وأولئك الذين أتوا بعده مباشرة انبعثت مراراً وتكراراً عبر تاريخ العالم الإسلامي وجسّدها تحديداً السلفيون (الذين لا يمثّلون أيديولوجية محددة؛ «فالسلفية» مصطلح نوعي يضم طيفاً واسعاً من المعتقدات التي تراوح بين الاعتدال وأقصى درجات التطرف والعنف).

الجهاد

يسعى المسلمون جاهدين إلى عيش حياتهم بحسب ما جاء حرفياً في الكتاب. ومن الضروري أن نعود إلى الكتاب أو الكتب متى حاولنا فهم مفهوم الجهاد أو النضال الذي يحثّ عليه الدين. ونحن لا نتحدّث هنا عن الجهاد الشخصي الذي يناضل من خلاله المؤمن روحانياً، وإنما عن الجهاد بمعنى القتال.

في الإسلام مرجعان أساسيان هما القرآن الكريم (الذي يُعتبر «كلام الله» الحقيقي أبداً والموثوق به كما أُنزل على النبيّ محمد (ص) والحديث الشريف. ويُقصد بالأحاديث النصوص التي توثّق الأقوال الفعلية للرسول أو وصف أفعاله كما نقلها الصحابة. والجدير ذكره أن معظم الأحاديث دُوِّنت بعد وفاة الرسول الذي لم يشأ أن يخلط الناس بين كلام الله المنزل وكلامه هو. لكن المسلمين يولون أهمية بالغة لنصوص الأحاديث باعتبار أنها تفسِّر القرآن الكريم أو تكمّله.

لسوء الحظ، نزعت بعض المجموعات العقائدية والسياسية العديمة الذمّة إلى فبركة أحاديث غير صحيحة لغايات خاصة. وقد انكب علماء المسلمين، ولا سيّما في أوائل القرن الثاني لظهور الإسلام، على مهمة مجهدة تمثّلت باستقراء المواد الصحيحة من النصوص الضخمة المنسوبة إلى النبي.

تتوافر ست مجموعات أساسية من الأحاديث تتفاوت درجة موثوقيتها. والواقع أن

غالبية المسلمين السُنَّة يعترفون فقط بمجموعتين باعتبارهما صحيحتين تماماً. وتتمثل هاتان المجموعتان بصحيح البخاري وصحيح مسلم بن الحجاج.

لا وجود للإكليروس في الإسلام، لكن تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف وتطبيقهما مهمة بالغة الأهمية يضطلع بها علماء المسلمين.

هذا وتشكل الشريعة مجموعة من الإرشادات المستوحاة من القرآن الكريم والحديث الشريف على السواء. والجدير ذكره في هذا الإطار أن الدولة الإسلامية التي أسستها حركة طالبان بين العام ١٩٩٦ والعام ٢٠٠١ كانت تخضع لحكم الشريعة. لكن بعض المعلقين أمثال د. عزام تميمي. مدير معهد لندن للفكر الإسلامي السياسي، يذكر المزاعم القائلة إن مجموعات مثل حركة طالبان وتنظيم القاعدة، وحدها تدافع عن الشريعة وتطبقها. ويشير د. تميمي إلى أن أحد الأسباب الرئيسة التي تجعل بيانات القاعدة تزخر بمصطلحات من مثل «الجهاد» و«الشريعة» يتمثل تحديداً بواقع أن هذه المصطلحات مهمة في نظر المسلم العادي. وهو يستند في تعليله هذا إلى حجة مفادها أن تنظيم القاعدة يعكس حنيناً يسكن قلوب المسلمين، بل إن هذا ما يجعل رسالة القاعدة مبعث إعجاب هائل.

أما بالنسبة إلى الكثيرين في الغرب، فإنه لمفهوم ثقافي غريب تماماً ألا تأذن ديانة ما بالقتل فحسب، بل تحثّ أيضاً أتباعها على القتل باعتباره واجباً دينياً. لكن الإسلام يفعل ذلك في بعض الظروف.

فوفقاً لما جاء في القرآن، أذن الله تعالى للمسلمين بالجهاد في السنة الثانية للهجرة ليدافعوا عن أنفسهم ويمنعوا أعداءهم من مهاجمتهم. وقد جاء في القرآن الكريم بالعبارة الصريحة: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (سورة البقرة، الآية ١٩٠). لكن الله عزّ وجلّ يوصي أيضاً بالسلم مع الذين لا يعتدون: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (سورة البقرة، الآية ١٩٣).

واستشرافاً للتردد في الذهاب إلى الجهاد، جاء في القرآن الكريم: ﴿كتب عليكم

القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ (سورة البقرة، الآية ٢١٦).

ولعل هذه الاقتباسات تساعدنا على فهم الأسباب التي جعلت الشيخ أسامة بن لادن الذي يبدو لين العريكة ذرب اللسان، مصدر رعب للعالم الغربي.

هذا ويُعتقد أن للجهاد، تعبيرين، أحدهما هجومي والآخر دفاعي. والغاية من الجهاد الهجومي إنقاذ المضطهدين وصدّ الطغاة الذين ينوون ربّما التعرض للمسلمين. ولعل أبرز ما يميّز هذا النوع من الجهاد أنه فرض كفاية، مما يعني أنه في حال التزم بعض المسلمين القادرين أداء مهمّة الجهاد، يُعفى آخرون من هذا الواجب.

أما الجهاد الدفاعي، فيُعتبر فرض عين، أي أنه واجب إلزامي على كل مسلم في المكان والزمان المعينين. ويتوافق العديد من المسلمين على أن الغزاة أمثال المستعمرين أو قوات الاحتلال يشكّلون سبباً يستوجب الجهاد الدفاعي. وقد يضيف البعض (ومنهم بالطبع الشيخ بن لادن والظواهري) أن النضال ضد أي نظام جائر هو تعبير مشروع عن الجهاد الدفاعي. ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن الجهاد الدفاعي لا يقتصر على القتال الجسدي. فوفقاً لمبادىء الإسلام وتعاليمه، يمكن المسلم المتديّن أن يسهم في الجهاد بطريقة من ثلاث: فإما أن يصبح مقاتلاً، مع ما يرافق ذلك من ضمانة بدخول الجنة في حال الشهادة، وإما أن يدعم الجهاد مالياً (وهذا ما فعله أيضاً الشيخ بن لادن بسخاء)، أو يدعمه معنوياً من خلال الإيمان بالقضية المحقة، والاهتمام إن دعت الحاجة بعائلة فرد توجّه إلى ساحة القتال.

أضف أن الجهاد الدفاعي واجب ديني مطلق يقع على عاتق كل رجل مسلم قوي البنية. وإن دعاه «قائد عادل وتقي» إلى المشاركة في الجهاد، فلا يسعه إلا أن يستجيب للنداء. والجدير ذكره أن التركيز هنا على منزلة القيادة مهم جداً، بل إنه يقدّم لنا فكرة عن أسباب اهتمام الشيخ بن لادن الشديد بصورته. فورعه وزهده في الدنيا جعلاه شخصاً أسطورياً في العالم الإسلامي.

هذا وقد يدعو إلى الجهاد الهجومي الخليفةُ باعتباره القائد الأعلى للأمة. واللافت أن

مسألة تحديد هوية السلطة المسلمة المخوّلة، إذا ما توافرت، إعلان الجهاد الهجومي والدفاعي، قد شكلت معضلة منذ الثالث من آذار / مارس العام ١٩٢٤، تاريخ إبطال كمال أتاتورك للخلافة التي حافظ عليها السلاطنة العثمانيون منذ العام ١٥١٧. ففي تلك المرحلة من التاريخ، انهارت الإمبراطورية «الإسلامية» المهيمنة وتجزّأت إلى نحو خمسين دولة ـ وطن على أساس الاختلافات العرقية والإثنية واللغوية والسياسية والجغرافية والتاريخية.

ويرى بعض المسلمين في غياب الخليفة انتهاكاً للشريعة، معتبرين أن إعادة إرساء الخلافة خطوة أولى ضرورية للحفاظ على مقدّرات المسلمين. ومعروف أن أحد الأهداف المعلنة لتنظيم القاعدة هو إعادة إحياء الخلافة والمجد الغابر للأمة الإسلامية.

قيام الإسلام السياسي

خُصِّصت كتب كاملة للبحث في هذا الموضوع تحديداً. لكنني سأحصر ملاحظاتي هنا بالعلماء والمفكرين الذين خلّفوا تأثيرات مباشرة لدى الشيخ بن لادن والظواهري من حيث بلورة معتقداتهما الجهادية.

تأثّر الشيخ بن لادن بمجموعة من مدارس الفكر الإسلامي التي يمكن جمعها تحت خانة السلفيين. صحيح أنه قابل شخصياً العديد من علماء الإسلام والمفكرين المعاصرين الذين يحظون بأسمى درجات التقدير، إنما يُعتقد بأنه تأثّر على وجه الخصوص بدايةً بعبد الله عزّام، ولاحقاً بالظواهري، نائبه في تنظيم القاعدة.

لا بد من الإشارة إلى أن إيمان السلفيين بأن الأجيال الثلاثة الأولى فقط من المسلمين تسير على الصراط المستقيم، يُردّ إلى حديث للنبيّ محمد (ص) نفسه جاء فيه: «خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

كان تقي الدين ابن تيمية (١٢٦٢ ـ ١٣٢٨) على الأرجح السلفي الأول. وكان قد بدأ مهنته الفكرية في سنّ مبكرة، بل إنه يُعتبر واحداً من أعظم علماء الإسلام الذين عرفهم التاريخ. كان ابن تيمية يقيم (بشكل رئيسي) في دمشق في زمن شهد في خلاله العالم

الإسلامي فورة سياسية ودينية عارمة. ففي العام ١٢٥٨، حدث ما لم يكن في الحسبان. فقد هزم الغزاة المغول الإمبراطورية العباسية، أي الخلافة، ونهبوا عاصمتها بغداد. وإذ بحث ابن تيميّة عن تفسير لهذه الفاجعة، استنتج أن المسلمين ماعادوا يلتزمون الدين الحق وباتوا يهملون واجباتهم الدينية. وقد ذكّر ابن تيمية أبناء عصره آنذاك بالوعد الذي قطعه النبيّ محمّد (ص) للمسلمين الأوائل مباشرة قبل وفاته إذ قال لهم «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وسُنَّتي، ما إن تمسّكتم بهما، لن تضلوا بعدي أبداً». (السُنَّة تعني التقاليد التي اتبعها رسول الله في حياته).

وكان ابن تيمية جريئاً على وجه الخصوص في إدانته القادة المسلمين جرّاء تقاعسهم عن دعم الإيمان الحقيقي بالإسلام والشريعة والحضّ عليه. وكان من الطبيعي أن يولّد له موقفه هذا العديد من الخصوم النافذين، حتى إنه سُجن عدة مرات في بلده الأم سوريا وفي مصر. لكن شعبيته تعاظمت بين أوساط الجماهير طوال حياته. وعندما وافته المنيّة، ندبه ٢٠٠ ألف شخص في الشوارع.

لم يكن الشيخ بن لادن والظواهري الوحيدين المعجبين بابن تيميّة، خصوصاً أن البعض قد يرى فيه مرشداً أيديولوجياً ونموذجاً يُحتذى به. فقد ذاع صيته كمحارب شجاع ومقدام، واشتهر أيضاً بتقواه وحسّ العدالة لديه. أضف أنه كان متوقّد الذكاء، يجمع بين قوة الذاكرة وشمولية المعرفة، الأمر الذي جعل منه خطيباً لامعاً.

وكان ابن تيميّة صارماً في إدانته أولئك الذين اهتدوا إلى الإسلام ديناً جديداً، ولا سيّما المغول الذين أرادوا إضفاء آثار من معتقداتهم السابقة على دينهم الجديد. فالمغول كانوا قد اهتدوا آنذاك إلى الإسلام، لكنهم لم يلتزموا الشريعة، بل تمسّكوا عوضاً منها بالقوانين التشريعية المغولية «ألياسا» التي طوّرها جنكيزخان. وقد أصدر ابن تيميّة فتوى ضد المغول جعل منها سابقة في الجهاد ضد الكافرين حتى وإن كانوا حكّاماً.

والواقع أن الشيخ بن لادن أشار إلى ابن تيميّة في «إعلان الجهاد ضد الأمريكيين...» الذي أصدره في العام ١٩٩٦، وصرّح فيه بأن المؤمنين الحقيقيين سيحثّون الأمة على محاربة الأعداء كما فعل الأسلاف من علمائهم أمثال ابن تيميّة.

أما الوهّابية، وهي الملّة الإسلامية التي يتبعها السعوديون والتي نشأت في القرن الثامن عشر، فسأعرض لها لاحقاً ببعض التفصيل. لكني أودّ هنا لفت الانتباه إلى دور الجهاد في إرساء الوهّابية في المنطقة، مع الإشارة إلى أنها كانت في تلك المرحلة مرادفاً للإيمان الحقيقي والدين الحق. فبحلول العام ١٨١١، استطاع الوهّابيون عقب تحالفهم مع المحارب ابن سعود، أن يوّحدوا قسماً كبيراً من شبه الجزيرة العربية تحت رايتهم. وفي مرحلة مبكّرة من القرن العشرين، ظهرت بين صفوف البدو مجموعة من أتباع ابن عبد الوهاب عُرفت باسم «الأخوان». وتمركز نحو مئة ألف من هؤلاء المجاهدين الأشاوس في معسكرات أطلقوا عليها اسم «الهجرة» (وذلك إكراماً لهجرة النبيّ محمد (ص) من مكة المكرّمة). وكانت غاية الأخوان محاربة المسلمين «الضالين» وغير المسلمين كجزء من مشروعهم المتمثل بالعودة بشبه الجزيرة العربية إلى ما يعتبرونه «الصراط المستقيم».

والجدير ذكره أن السلطات السعودية تعتبر تنظيم القاعدة «مجموعة ضالة» في إشارة مباشرة إلى هذا التاريخ المبكّر، وهو سياق لا يمكن إلا أن يثير السخرية باعتبار أن القاعدة اتهمت آل سعود علانيةً بالكفر،أضف أن الوهّابية كانت واحداً من توجّهين تركا أثراً بالغاً في فكر زعماء القاعدة، باعتبار أن التوجّه الثاني تمثّل بالعقيدة القطبية التي ترتكز على أفكار سيّد قطب المصري الجنسية (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) وكتاباته.

ويبدو أن السنتين اللتين أمضاهما سيّد قطب في الولايات المتحدة بين العامين ١٩٤٨و١٩٥٠ من أجل متابعة علومه قد جعلتاه ينقلب ضد الليبرالية الغربية. وما إن عاد إلى مصر حتى شرع يحذّر أبناء وطنه من مخاطر أنماط الحياة الغربية. وانضم سيّد قطب إلى جماعة الأخوان المسلمين ليصبح واحداً من أنصارها الأشد صخباً في التعبير عن آرائها ومعتقداتها. وأشير في هذا السياق إلى أن جماعة الأخوان المسلمين تأسست في العام ١٩٢٨ على يد المصري حسن البنّا وارتكزت على المبادئ: «الله غايتنا والنبي قائدنا والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمنياتنا».

خلال ثلاثينيات القرن العشرين، عرفت جماعة الأخوان المسلمين انتشاراً مثيراً للذهول، وبات لها اليوم فروع في سبعين دولة. والواقع أن معظم تجليات الدين

الإسلامي قد تأثرت إلى حد ما بهذه الجماعة، ما خلا حالات الاحتلال الأجنبي، وفيها يبرر الأخوان المسلمون المقاومة المسلّحة (كما هي الحال في فلسطين والعراق)، ويقتصر جدول أعمالهم اليوم على إيجاد سبل سلمية لتحقيق الإصلاح المرجو والمشاركة في المسار السياسي حيثما بدا ذلك ممكناً. في المقابل، يدين العديد من أكثر المنظمات الجهادية تطرفاً، وبينها تنظيم القاعدة، هذه المقاربة باعتبارها شكلاً من أشكال التسوية.

هذا وقد تبّنت جماعات كتنظيم القاعدة، كتابات سيّد قطب لتثبّت بعض الوصايا الجوهرية في ما يتعلق بالحكم، وأبرزها على وجه التحديد أن سلطة الله الواحد الأحد تحول دون حكم البشر الذي ينبغي قلبه بالقوة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك؛ وأن الشكل المشروع الوحيد لحكم المسلمين يتمثّل بدولة إسلامية على رأسها خليفة. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن سيّد قطب أخذ مصطلح «الجاهلية» عن العلامة الهندي المولد المودودي. ويُقصد بهذا المصطلح حياة الجهل البهيمية التي كان يحياها الإنسان كما يُعتقد قبل ظهور الإسلام. والواقع أن الشيخ بن لادن كثيراً ما يستخدم هذا المصطلح.

اعتُقل سيّد قطب وسُجن لمحاولته المزعومة اغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر في العام ١٩٥٤. وإذ ذاك، أمضى الجزء الأكبر من حياته المتبقية في السجن حيث وضع بعض النصوص الإسلامية الأشد تأثيراً في العصر الحديث. ونذكر من كتبه «في ظلال القرآن الكريم» وبيان مبادئ في الإسلام السياسي تحت عنوان «معالم في الطريق». ولا بد من الإشارة إلى أن كتاباته انبثقت من تطرفه الخاص، خصوصاً أنه خبر العنف الهمجي وألوان التعذيب في السجن، ومن رفضه ما كان يعتبره نظام ناصر غير الشرعي. وعندما مُنح سيّد قطب الفرصة لإطلاق سراحه بشرط التوسل إلى عبد الناصر ليعفو عنه، أجاب بهذه الكلمات الشهيرة: «إن السبّابة التي تشهد أن لا إله إلا الله لا يمكن أن تكتب اعتذاراً لطاغوت». قد أُعدم سيّد قطب في العام ١٩٦٦.

أما العلامة الآخر الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بنشأة القاعدة، فهو عبد الله عزّام، وكان مرشد الشيخ بن لادن في خلال دراسته الجامعية. وعبد الله عزّام فلسطيني من الضفة

الغربية هرب إلى الأردن في خلال حرب الأيام الستة، وتأثر على وجه الخصوص بتعاليم سيّد قطب. صحيح أن عبد الله عزّام كان يشدد على ضرورة الجهاد من أجل تحرير الأراضي الإسلامية من الاحتلال الأجنبي، إلا أنه لم يكن يؤمن باستخدام العنف ضد الأنظمة الإسلامية مهما انحرفت هذه الأنظمة عن مبادئ الشريعة.

بعد مرور خمس سنوات على غزو السوفيات لأفغانستان، وتحديداً في العام ١٩٨٤، أصدر عبد الله عزّام فتوى تحت عنوان «الدفاع عن الأراضي الإسلامية: الفرض الأول بعد الإيمان» أعلن فيها أن الجهاد في فلسطين وأفغانستان فرض عين (إلزامي) على المسلمين كافة. وقد حظيت هذه الفتوى بدعم المفتي الكبير في المملكة العربية السعودية، سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز الذي شكّلت لاحقاً فتواه المرحبة بالقوات الأمريكية على الأرض السعودية في العام ١٩٩٠ انقلاباً ملحوظاً.

انتقل عبد الله عزّام إلى بيشاور في العام ١٩٨٠، فاضطلع بدور رئيس في تجنيد العرب الأفغان، وراح ينظّم ترتيبات السفر والإقامة والتدريبات العسكرية لهؤلاء في معسكرات أنشأها لهذه الغاية. وقد ساعده في القسم الأكبر من هذه المهمات الشيخ بن لادن، مما جعل العلاقة تتوطّد بين الرجلين وتفضي بهما إلى تأسيس التنظيم الذي عُرف باسم «مكتب خدمات المجاهدين». واللافت أن عبد الله عزّام شارك في القتال وحارب بانتظام مع وحدات الأفغان والعرب المجاهدين، وهذا ما جعل منه شخصية ملهمة للعديد من المسلمين في جميع أنحاء العالم.

ونشير في هذا السياق إلى أن عبد الله عزّام اعتبر تحريض المسلمين الآخرين واجباً دينياً، ولهذا السبب لا نستغرب اليوم أن ترتفع أصوات رجال الدين المسلمين لتحضّ الشباب على الانضمام إلى الجهاد في فلسطين أو العراق أو إلى أي دولة أخرى انطلقت فيها مقاومة الاحتلال.

وعلى الرغم من أن الحركات الإسلامية ركّزت عموماً على النضالات المحلية والوطنية، فإن عبد الله عزّام أشار إلى واقع أن العديد من الحدود الوطنية المزعومة قد فرضه المستعمرون الأوروبيون على الأمة. وهو يقول في هذا الإطار: «لسوء الحظ،

عندما نفكر في الإسلام، نفكر على المستوى الوطني ونعجز عن جعل رؤيتنا تتخطى الحدود الجغرافية التي رسمها لنا الكافرون». ويمكن القول إن هذه المقاربة هي الخطوة الإيديولوجية الأولى على طريق الجهاد الشامل الذي طبع مشروع تنظيم القاعدة.

قُتل عبد الله عزّام ونجلاه في العام ١٩٨٩. وكانت حالة من الجفاء قد بدأت تحكم علاقته بالشيخ بن لادن الذي بات أقرب إلى الظواهري. وكان هذا الأخير قد وصل إلى بيشاور في أواسط ثمانينيات القرن العشرين ومكث في معسكر اجتمع فيه أفراد من الجهاد الإسلامي، المجموعة المناهضة للأخوان المسلمين. ولطالما اتهم الظواهري ورفاقه عبد الله عزّام بالتسوية لأنه كان يعارض عقيدتهم القائمة على التكفير (اتهام المسلمين بالارتداد عن الدين الحق) ويعترض على غايتهم الاستراتيجية المتمثلة بإسقاط الأنظمة القائمة بالقوة.

لكن الفرضية القائلة إن الشيخ بن لادن أذن بقتل عبد الله عزّام لا تستند إلى أساس متين. ومن المشتبه فيهم أيضاً في مقتله جهاز الاستخبارات الباكستاني (آي أس آي ISI ووكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية (سي آي إيه CIA) والموساد (جهاز الاستخبارات الإسرائيلي) باعتبار أن هذه الأجهزة كانت تخشى ما أعلنه عبد الله عزّام في غالب الأحيان في شأن عزمه توجيه اهتمامه والمجاهدين إلى تحرير فلسطين حالما ينتهي الجهاد الأفغاني. (في العام ١٩٧٩، أصدر عبد الله عزّام فتوى مستفزة جداً صرّح فيها بالآتي: «إن طبّق المسلمون وصية الله ونفّذوا أحكام الشريعة في ما يتعلق بالنفير العام[٢] لأسبوع واحد فقط في فلسطين، لأصبح بالإمكان طرد اليهود من فلسطين»).

وفي مفارقة مثيرة للاهتمام عما يعتقده معظم المعلقين، صرّح عزّام تميمي من معهد الفكر السياسي الإسلامي بأنه يرى الكثير من المبالغة في الحديث عن مدى تأثير عبد الله عزّام في تكوين تنظيم القاعدة. وهو يقول: «عوضاً من إلقاء اللوم على القاعدة في ما يتعلق بالاستمرارية المفترضة لإيديولوجية وطموح يعودان إلى زمن قيام الإسلام، ينبغي

(٢) النفير العام هو المبدأ الذي يفرض على الأمة مجتمعة، بحسب ابن تيميّة، بأن تتجنّد كلها متحدة وتسير إلى الموقع الذي تتعرض فيه أرض إسلامية للاعتداء وتنطلق في الجهاد.

تعقب الجذور الحقيقية لهذه الظاهرة في الأزمة السياسية العميقة التي تتفشّى في العالم الإسلامي. فهذه الأزمة هي ما يدفع اليوم بالشباب المسلمين إلى أحضان القاعدة باعتبارها تؤمّن للجيل الذي نشأ على تثبيط العزيمة والهزيمة والذل فرصة لاختبار الانتماء القومي وعزّة النفس والنصر».

اندماج مسارين: الشيخ بن لادن والظواهري

يرتبط تطور إيديولوجية الشيخ بن لادن وتنظيم القاعدة ـ التي تشكل عبارة «الفكر السلفي الجهادي» أفضل توصيف لها على الأرجح ـ ارتباطاً وثيقاً بفكر الظواهري. وعلى الرغم من أن الرجلين لم يوحّدا قواتهما رسمياً تحت راية القاعدة إلا في العام ١٩٩٨، فقد تقابلا حتماً، فأثر كل منهما في الآخر على مر العقد السابق. ويُعتقد على وجه الخصوص أن الظواهري كان فعّالاً جداً في إقناع الشيخ بن لادن باعتماد وسائل أشد عنفاً. ومن المثير للاهتمام أن نتوقف عند مقارنة مهنة كل منهما في تلك المرحلة.

بالنظر إلى المعطيات عن المراحل المبكرة من حياة الشيخ بن لادن، يبدو جلياً أنه لم يولد محارباً، خصوصاً أن الروايات تتحدث عن رجل ليّن العريكة. فعندما قصد أفغانستان للمرة الأولى في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، كان دوره الأساسي توفير الدعم المالي والإداري للمجاهدين وهو لم يكن يبقى في أفغانستان طوال الوقت، بل يتنقل بينها وبين المملكة العربية السعودية مراراً وتكراراً، وكان ناشطاً في المملكة العربية السعودية في شركة البناء الخاصة بعائلته، وفي التواصل مع العائلة السعودية الملكية التي كانت تحوّل الأموال إلى المجاهدين. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هي أيضاً تموّل الحملة على القوات السوفياتية، فتوفّر الدعم للمجاهدين وتدرّبهم وتزوّدهم بالأسلحة. ويذكر أن صفوف المجاهدين آنذاك كانت تضم بجزء كبير منها الرجال أنفسهم الذين ينفذون اليوم عمليات إرهابية في جميع أنحاء العالم.

يكبر الظواهري (المولود في مصر في العام ١٩٥١) الشيخ بن لادن بستة أعوام. وقد انضم الظواهري إلى الأخوان المسلمين وهو لا يزال في الرابعة عشرة من العمر، والتزم

تعاليم سيّد قطب، حتى إنه كثيراً ما يردد قوله الشهير: «أخي فامضِ لا تلتفت للوراءْ.. طريقك قد خضبته الدّماءُ.. ولا تلتفت ههنا أو هناكْ.. ولا تتطلع لغيرِ السّماءْ». ومن المفارقات الكثيرة أن الظواهري اختار الطب مهنة له وأصبح جرّاحاً. وبحلول العام ١٩٧٩، كان قد انضم إلى مجموعة الجهاد الإسلامي الأكثر تطرفاً، وقد تصدّر إسقاط النظام المصري قائمة أولوياتها.

في العام ١٩٨١، ردّت حركة الجهاد الإسلامي على اتفاق السلام التي أبرمه الرئيس المصري أنور السادات في العام ١٩٧٩ مع إسرائيل، بأن أقدمت على اغتيال السادات. وكان الظواهري متورطاً في عملية الاغتيال، فأرسل إلى السجن حيث تعرّض للتعذيب على الرغم من النقص في الأدلة التي تدينه. ويبدو أنه أصبح قائد الجهاد الإسلامي في مصر في أثناء احتجازه في السجن. وعندما أُطلق سراحه في العام ١٩٨٤، أعاد تفعيل حركة الجهاد الإسلامي. وفي العام ١٩٨٥، سافر إلى باكستان وأفغانستان ليدعم المجاهدين ضد الاتحاد السوفياتي.

وبدأ الشيخ بن لادن في العام ١٩٨٦، يصادق المتطرفين المصريين أمثال الظواهري وأبي حفص المصري. في ذلك الحين، كان المجاهدون يرزحون تحت وطأة الضغوط العسكرية الشديدة، وكانت أيضاً انطلاقة الشيخ بن لادن كقائد في ساحة القتال. والواقع أنه شارك في العديد من المعارك التي وقعت في خلال السنوات الثلاث الأخيرة من النزاع. وكثيرة هي الروايات (المنحولة ربما) حول تلك المرحلة. وقد جاء في إحدى هذه الروايات مثلاً أن رجال الشيخ بن لادن بكوا لأنهم نجوا في إحدى المعارك ولم يستشهدوا. وتقول رواية أخرى تتعلق بمعركة جاجي الشهيرة إن الشيخ بن لادن، وفيما كان المجاهدون يتعرضون لقصف وحشي من السوفيات، دخل في حالة من السكينة والصفاء الروحي، فاستسلم للنوم ونجا من القصف من دون أن يصيبه أي مكروه. (أعاد الشيخ بن لادن سرد هذه القصة على مسمعي وعلى مسمع الصحافي البريطاني روبرت فيسك).

نشأت نواة تنظيم القاعدة بدايةً في العام ١٩٨٨، وكانت تتألف من حلقة «داخلية» من

الرجال الذين بايعوا الشيخ بن لادن (أقسموا على الولاء له) باعتباره «الأمير» أو القائد، ومن حلقة «خارجية» كان عديد أفرادها ومدى التزامهم في تغيّر مستمر. وفي تلك الأثناء، كان نائب الشيخ بن لادن أبا حفص المصري الذي كان ينتمي إلى الجهاد الإسلامي ويُعرف بصلته الوثيقة بالظواهري. ويبدو أن الاندماج بين مساري الشيخ بن لادن والظواهري بدأ عند هذه النقطة تحديداً، علماً بأنهما انفصلا مجدداً بعد عام واحد لدى انتهاء الجهاد الأفغاني.

بعد ذلك بوقت قصير، وعقب اللحظة الحاسمة في العام ١٩٩٠، عندما تجاهل السعوديون عرض الشيخ بن لادن بتوجيه قوات المجاهدين ضد العراق وآثروا الاعتماد على الولايات المتحدة استقر الشيخ بن لادن في السودان حيث شغلته في خلال السنوات التالية مشاريع شق الطرق والمشاريع الزراعية. لكن الشيخ بن لادن كان يعمل من وراء هذه الواجهة على تطوير إيديولوجيته واستراتيجيته الجهادية. وعلى غرار عبد الله عزّام، كان مفهومه للجهاد شاملاً أكثر منه محلياً، وفي العام ١٩٩٢، بات مستعداً لتوجيه ضرباته إلى الولايات المتحدة. ففي عدن، فجّر الفاعلون في تنظيم القاعدة جنوداً أمريكيين كانوا في طريقهم إلى الصومال. وبعد مرور عام واحد، نفّذ رجال القاعدة ضربة أخرى، فأطلقوا هجوم مقديشو على ثلاث طوّافات أمريكية.

في غضون ذلك، عاد الظواهري إلى مصر وراح يدعو حركة الجهاد الإسلامي إلى تنفيذ هجومات أكثر جرأة وأشد عنفاً. وخلافاً للشيخ بن لادن، كان جدول أعمال الظواهري آنذاك محلياً برمته، وكان هدفه الحكومة المصرية. أضف أنه استطاع زيارة الولايات المتحدة مرتين في أوائل تسعينيات القرن العشرين. وعلى الرغم من أن هدف الزيارتين ليس واضحاً، فقد افترض بعضهم أنه كان يسعى إلى جمع الأموال لمصلحة الجهاد الإسلامي. في المقابل، أشارت مصادر أخرى إلى أن تنظيم القاعدة كان في ذلك الحين يساعد هو أيضاً على تمويل حركة الجهاد الإسلامي. هذا ويشير مصدر رفيع الشأن إلى أن محاولة الاغتيال الفاشلة التي استهدفت الرئيس المصري حسني مبارك في العام ١٩٩٥ تمت بتمويل من القاعدة عبر أبي حفص المصري والظواهري.

أطلق الشيخ بن لادن هجومه الأول ضد عدوه المهم الآخر - أيّ النظام السعودي - في العام ١٩٩٥ عندما عمدت خلية القاعدة في المملكة إلى تفجير مجمّع سكني للعمال الأجانب في الرياض. وفي العام ١٩٩٦، تعرضت القوات الأمريكية لهجوم في الخبر، وأصدر بن لادن «إعلان الجهاد ضد الأمريكيين المحتلين لبلاد الحرمين الشريفين» محرّضاً المسلمين على الانضمام إليه في هذه المعركة.

في العام ١٩٩٧، كانت للظواهري اليد الطولى في المجزرة المروّعة التي استهدفت ثمانية وخمسين سائحاً وأربعة مصريين في الأقصر. وقد بشّر لاحقاً الظواهري بتلك المجزرة معتبراً أنها «حدث بالغ الأهمية في سياق الحملة ضد أعداء الإسلام». لكن العامة من المصريين رفضت تقييمه هذا للمجزرة، مما جعل الشعبية التي كانت تنعم بها المجموعات الجهادية من قبل تذهب سريعاً أدراج الرياح. وفي العام ١٩٩٨، أعلن قادة العديد من الجماعات المتطرفة هدنة مع الحكومة. أما الظواهري، فرفض بكثير من التمرد هذه الدعوة إلى السلام مع حكومة التكفير وتوجّه إلى أفغانستان حيث عقد تحالفاً نهائياً مع الشيخ بن لادن وأصبح ساعده الأيمن والمنظِّر الأول لديه. وقد أصدرت السلطات المصرية في العام ١٩٩٩ حكماً غيابياً بالإعدام بحق الظواهري.

الجبهة الإسلامية العالمية

يؤكد المطّلعون من الداخل أن الشيخ بن لادن والظواهري تبادلا التأثير أحدهما في الآخر وبالقدر نفسه إنما بطريقتين مختلفتين. فالظواهري هو مصدر الجرأة والعنف المتزايدين اللذين تميّزت بهما عمليات القاعدة، إلى جانب المناورة مع الإعلام وتطوير استراتيجية نفسية. والجدير ذكره أن الظواهري كان ينتقد إعلان الجهاد ضد الولايات المتحدة الذي أصدره الشيخ بن لادن العام ١٩٩٦ في اثنتي عشرة صفحة. ووفقاً لما قاله سعد الفقيه، «أخبر الظواهري الشيخ بن لادن بأن الولايات المتحدة لن تأخذه أبداً على محمل الجد طالما أن احتجاجاته تبقى ضمن حدود المعقول. فالرغبة في خروج الجيوش الأمريكية من المملكة العربية السعودية أمر يمكن حتى للمواطن الأمريكي العادي أن

يتفهمه وربما يتعاطف معه؛ ما يعني أن هذا الإعلان لن يتصدّر عناوين الأخبار، ولن يساعد على التعبئة إن لم يسلّط الضوء عليه». كذلك أشار الظواهري إلى استحالة نسخ هذه الوثيقة الطويلة وتوزيعها من الناحية العملية. ففي تلك الأيام، أي قبل عصر الإنترنت، كان إعداد النسخات المصوّرة صعباً ومكلفاً.

في المقابل، قال الظواهري للشيخ بن لادن: «اجعل من الأمريكيين وكلاءك الإعلاميين الشخصيين، فلديهم أكبر آلة للعلاقات العامة في العالم كلّه». وقد حثّ الظواهري الشيخ بن لادن على إصدار فتوى موجزة ومباشرة تستهدف الأمريكيين كلهم واليهود كلهم سواء في ديارهم أم خارجها، ومن ثم ترجمة هذه الفتوى بالفعل. وبحسب ما أورده الفقيه حرفياً، لم يكن الشيخ بن لادن مسروراً بهذه الفكرة. فهو لم يكن يتقبّل فكرة أن يكون كل أمريكي عدواً له. لكن الظواهري قال له: «الهدف من ذلك ليس قتل الأمريكيين، بل دفعهم إلى الجنون. إنهم رعاة بقر وسيردون من دون تفكير».

في الثالث من شباط / فبراير العام ١٩٩٨، أعلن الشيخ بن لادن والظواهري تأسيس الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين، مما أدى إلى جمع الجهاد الإسلامي والجماعة الإسلامية المصرية والجماعات المسلحة الباكستانية والبنغلادشية تحت مظلة واحدة للمرة الأولى. والواقع أن توحيد مجموعات مختلفة كان جزءاً لا يتجزأ من رؤية الظواهري وقد انتقل معه مفهوم عولمة الجهاد إلى واجهة إيديولوجية القاعدة الآخذة في التطوّر.

وفي البيان الذي بعث به الرجلان إليّ في صحيفة «القدس العربي» عبر الفاكس، وجّها دعوة إلى «كل مسلم يؤمن بالله عزّ وجلّ لأن ينفّذ مشيئة الله عبر قتل الأمريكيين ونهب أموالهم حيثما كان ذلك ممكناً ومتى سنحت الفرصة».

وجاء رد الفعل الأمريكي تماماً كما توقّعه الظواهري. فقد أعلن بدايةً ساندي بيرجر Sandy Berger (وكان حينئذٍ يترأس مجلس الأمن القومي في الولايات المتحدة) اعتقاده بأن الشيخ بن لادن عازم فعلاً على إيذاء المواطنين الأمريكيين وهو قادر على ذلك. وأعقبت الإعلان التفجيرات المتزامنة التي استهدفت في العام ١٩٩٨ سفارتَي الولايات

المتحدة في نيروبي حيث أوقعت ٢١٣ قتيلاً وفي دار السلام حيث أوقعت أحد عشر قتيلاً.

آنذاك، أصبح الشيخ بن لادن رسمياً وعلانيةً العدو الرقم واحد في الغرب. ويبدو أن استراتيجية الظواهري شكّلت ضربة دعائية متقنة، خصوصاً وأن الأضواء سُلطت على وجه الشيخ بن لادن في أنحاء الكرة الأرضية. وسرعان ما أصبح الشيخ بن لادن مشهوراً في العالم كلّه لتتعزز إذ ذاك شعبيته في العالم الإسلامي. فقد أثبت الشيخ بن لادن أنه خصم موثوق به لأمريكا، وأنه خلافاً لصدّام حسين (الذي عمد هو أيضاً إلى تحدّي القوة العظمى)، ليس طاغية يمتلك ستين قصراً. هذا وقد رأى فيه العديد من المسلمين رجلاً أخلص لقضيته واختار لنفسه نمطاً حياتياً عنوانه التقشف.

تمثّل ردّ الولايات المتحدة بسلسلة من الهجمات على سبعة أهداف في أفغانستان والسودان، مما ألحق الضرر بالعلاقات العامة داخل البلاد وخارجها. فقد استهدفت الولايات المتحدة، من بين أهداف أخرى، وبكلفة بلغت ٥٦ مليوناً و٢٥٠ ألف دولار أمريكي (فقط ثمن صواريخ توماهوك الخمسة والسبعين التي بلغت كلفة إطلاق الواحد منها ٧٥٠ ألف جنيه استرليني)، مصنع الشفاء للأدوية في السودان، بعد أن زُعم أنه مصنع لإنتاج غاز الأعصاب يملكه الشيخ بن لادن. والواقع أن المصنع كان ينتج ٥٠ في المئة من الأدوية التي يستهلكها الشعب السوداني الفقير. وبالتالي، فقد ألهبت الضربة مشاعر المسلمين في جميع أنحاء العالم وحرّضت العديد منهم على الانضمام إلى القاعدة في جبال هندوكوش الأفغانية.

وجاء تفجير مدمّرة كول السوفياتية في العام ٢٠٠٠ على يد انتحاريين من القاعدة فجّرا نفسيهما في زورق صغير ليعزز رؤية القاعدة من منظور داود في مواجهة جالوت، وهي رؤية خلبت ألباب العديد من المسلمين الذين شعروا على مدى وقت طويل برهبة أكثر القوى تفوّقاً في الغرب على مستوى الموارد المالية والتجهيزات العسكرية.

حركة طالبان

كان لحركة طالبان تأثير بالغ في النظرة العالمية للجهاد. وقد انبثقت هذه الحركة من

المجاهدين الأفغان الذين مجّدت الولايات المتحدة بطولاتهم منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين. وعندما أدركت الولايات المتحدة طبيعة المخلوق الذي ساهمت في خروجه إلى النور كان الأوان قد فات.

حققت حركة طالبان نجاحاً فريداً على المستوى الإسلامي يُعزى إلى أنها استطاعت إرساء نوع من الدولة الثيوقراطية المتقشفة والمتزمتة، المبنية على أحكام الشريعة والتي تنشدها القاعدة وغيرها من المجموعات السلفية الجهادية. وعلى الرغم من أن ثلاث دول فقط اعترفت بالخلافة المصغّرة في ظل حكم المُلاّ عمر ككيان دولي شرعي - إذ وحدها باكستان والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة قبلت أوراق اعتماد سفراء طالبان في العام ١٩٩٧ - فقد تُركت هذه الخلافة وحيدة لاختبار التجربة من العام ١٩٩٦ إلى العام ٢٠٠١.

وفّرت حركة طالبان لتنظيم القاعدة ملاذاً آمناً، وآوت معسكرات التدريب التي أفرزت أعداداً هائلة من المجاهدين لأجل الجهاد الشامل المنتظر ضد ما كانوا يعتبرونه العدو الجديد للعالم الإسلامي، أي الولايات المتحدة. كذلك أقامت مجموعات جهادية وميليشياوية أخرى معسكراتها هناك. لكن جدول أعمال القاعدة المناهض للولايات المتحدة الذي انتشر على نطاق واسع وإيثار «العمليات الاستشهادية» استقطبا أشد المتطوعين حماسة وأكثرهم جرأة.

أخبرني الشيخ بن لادن بأنه وصل إلى جلالاباد قادماً من السودان في ١٨ أيار / مايو العام ١٩٩٦ تحت حماية الشيخ يونس خالص. وكان هذا الأخير يترأس مجموعة من المجاهدين ويشتهر بأنه على خلاف مع حركة طالبان. وعلى الرغم من أن الشيخ بن لادن نفسه كان من حركة طالبان، فإنه قد أدرك سريعاً أنه في حال سيطرت الحركة على البلاد كلها، وهو ما بدا مرجحاً، سيكون من الصعب عليه البقاء في أفغانستان إن لم يوطد علاقته بطالبان.

انبعثت حركة طالبان في قندهار التي كانت تعيش حالة من التمزّق سببها زعماء القبائل المتحاربون. وفي العام ١٩٩٤، عمد أحد أمراء الحرب إلى اختطاف فتاة من قندهار

واغتصابها. إذ ذاك، هبّ الطالبان ـ وكان كثيرون منهم طلاباً في المدرسة المحلية (طالبان تعني «طالب يتابع علومه في الدين الإسلامي») ـ وشنّوا ثورة ناجحة على أمراء الحرب. وسرعان ما انضمّ السكّان المحليون إلى صفوف الثوّار.

فرضت طالبان أحكام الشريعة فوراً على قندهار، وأشاعت نوعاً من النظام في محاولة للحدّ من الفوضى المستشرية. وإذ حذت حذوها بلدات وقرى أخرى ثارت ضد أمراء الحرب، يُقال إن هذه القرى والبلدات طلبت المساعدة من طالبان. هذا وانقلب جهاز الاستخبارات الباكستاني على حكومة رئيس الوزراء برهان الدين رباني، وبدأ يدعم حركة طالبان ويمدّها بالأسلحة.

وعندما وصل الشيخ بن لادن إلى أفغانستان في أيار / مايو العام ١٩٩٦، كانت حركة طالبان قد أقامت معاقل لها في عدة أنحاء من البلاد. وأخبرني الشيخ بأنه أمضى بعض الوقت في تقييم الوضع ليخلص إلى استحسان مواقف طالبان. فقد بدت له هذه الحركة بعيدة عن الفساد وصادقة في تطبيق أحكام الشريعة. وبناءً عليه، اتصل بأنصار الحركة في حزيران / يونيو العام ١٩٩٦، وبدأ شيئاً فشيئاً يوطّد علاقته بهم. وعندما استولت طالبان على جلالاباد في الحادي عشر من أيلول / سبتمبر العام ١٩٩٦، كان الشيخ بن لادن قد أصبح حليفها. آنذاك، رضخ الشيخ يونس خالص بتردد لحكم طالبان وسُمح له بالبقاء في داره.

وأخبرني الشيخ بن لادن بأنه اضطلع بدور فاعل في النصر الأخير الذي حققته طالبان في كابول في السابع والعشرين من أيلول / سبتمبر العام ١٩٩٦. فقد نجح الشيخ بن لادن في إقناع جلال الدين حقاني، وزير العدل في حكومة رباني، وكان لا يزال آنذاك يتمتع بنفوذ عسكري هائل، بأن ينقل ولاءه إلى طالبان ويحضر معه عدداً من القادة العسكريين والوحدات العسكرية. آنذاك، كانت حركة طالبان تفتقر إلى الخبرة العسكرية، بل لم تكن تمتلك أدنى فكرة عن كيفية توظيف أو تشغيل التجهيزات العسكرية الحديثة على اختلاف أنواعها، بما في ذلك الطائرات الحربية والصواريخ التي في حوزتها ـ وكان أنصار طالبان قد استولوا على بعض هذه التجهيزات من الحكومة الأفغانية، وحصلوا على بعضها

الآخر من باكستان والمملكة العربية السعودية. وإذ ذاك، تدخل حقاني ورجاله لتدريبهم على استخدام تلك الأسلحة.

فضلاً عن ذلك، علمت من الشيخ بن لادن أنه عندما عزّزت حركة طالبان موقعها بعد سقوط كابول وأرست في جميع أنحاء أفغانستان ما شكّل بحكم الواقع، خلافة، منح البيعة للملا عمر، الشخص الوحيد الذي أعطاه الشيخ يوماً عهداً بالولاء. ونذكر مؤشراً آخر على العلاقة الوثيقة التي ربطت القاعدة بحركة طالبان هو «انشقاق» أبي مصعب المصري الذي شغل منصب المستشار الإعلامي للملا عمر وأسس محطة إذاعية باللغة العربية للبثّ في أنحاء المنطقة.

في نيسان / إبريل العام ٢٠٠١، اتصل بي مصدر مقرّب من تنظيم القاعدة في قندهار ليسألني هل أرغب في إجراء مقابلة مع الملاّ عمر. فحركة طالبان كانت تتوق آنذاك للحصول على بعض التغطية الموضوعية في الصحافة العربية، خصوصاً أنها شعرت بأن هذه الصحافة قد أساءت تصويرها على الرغم من اعتراف المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، وأيضاً باكستان، بشرعية حكومتها. والواقع أنني كنت مهتماً جداً بالقيام برحلة ثانية إلى أفغانستان، بل إن الأمل بلقاء ثانٍ مع الشيخ بن لادن دغدغ مخيلتي، وإذ ذاك، حصلت على تأشيرة دخول من السفارة الباكستانية، لكنني عدلت عن رأيي في اللحظة الأخيرة. فقد راودني آنذاك شعور قوي بأن بعض عملاء الاستخبارات سيقتفي أثري. وكانت هذه الرحلة لتكون أكثر خطورة بالنسبة إليّ وإلى الشيخ بن لادن والمُلاّ عمر من زيارتي الأولى إلى أفغانستان في العام ١٩٩٦. وبناءً عليه، قررت ألا أقوم بهذه الرحلة.

تحت راية الرسول

في كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠١، نشر الظواهري، الذي هو اليوم الرجل الثاني في تنظيم القاعدة، كتاباً سمّاه «فرسان تحت راية النبي» (في إشارة متعمّدة إلى «فرسان القبر المقدس»، وهو اللقب الذي كان يُطلق على أولئك الذين تصدّوا للصليبيين في

العصور الوسطى). وفي خلال هذه المرحلة، كان الظواهري قد أصبح على نحو لا يقبل الجدل المنظّر وراسم الاستراتيجيات الرئيس في تنظيم القاعدة ويُعتقد أن الجزء الأكبر من الكتاب وُضع قبل تنفيذ الهجمات على أمريكا في الحادي عشر من أيلول / سبتمبر.

ولا مخاطرة على الأرجح في الافتراض أن محتويات هذا المستند الناطق لا تعكس الأفكار والتكتيكات الجهادية الآخذة في التطور لدى الظواهري فحسب، بل أيضاً لدى الشيخ بن لادن. كذلك يكشف الكتاب عن تصوّر الرجلين لكيفية تطوير تنظيم القاعدة والحركة الجهادية عموماً.

وفي هذا الكتاب، يحثّ الظواهري على اتحاد مختلف المجموعات الجهادية، مبلوّراً إذ ذاك مفهوم الولاء والمناصرة، الذي يصفه محمد المصري، الخبير السعودي المعارض، بالعنصر الأساسي في مستقبل الحركة الجهادية. فالمصري يعتقد بأن حركة طالبان وتنظيم القاعدة قد تجاوزا أخيراً الاختلافات الأيديولوجية التي كانت قائمة بينهما من قبل، ومن ثم يمكن اعتبارهما اليوم «كياناً واحداً».

وإذ يتحدّث الظواهري عن عولمة «أعداء» الإسلام، يؤكد في الكتاب ضرورة أن تشكّل الحركة الجهادية نفسها نوعاً من «الائتلاف». «فالقوات الغربية التي تكنّ العداء للإسلام قد حدّدت خصمها بوضوح، وهي تشير إليه باعتباره «التطرف الإسلامي». وقد انضمّ إليها في ذلك عدوها القديم، أي تحديداً روسيا. ولا بد للحركة الجهادية من أن تدرك أنه بالإمكان قطع نصف الطريق إلى النصر من خلال الاتحاد».

فضلاً عن ذلك، يرسم الظواهري الخطوط العريضة لطموحات القاعدة الطويلة الأمد بدقة وعناية. فلا بد أولاً من إنشاء دولة إسلامية في المنطقة تقوم على أحكام الشريعة وتشكل قاعدة يتم الانطلاق منها لإعادة إحياء الخلافة و«مجد الأمة الغابر». وفي هذا السياق، يعود الظواهري بالذكر إلى عصر صلاح الدين الأيوبي، واصفاً كيف نجح مؤسس السلالة الأيوبية باستعادة أراضي المسلمين تدريجاً في القرن الثاني عشر. ويقول الظواهري تحديداً: «وفقط عندما أضيفت القدس إلى الانتصارات المحققة، انقلبت دورة التاريخ ضد الصليبيين». وعلى الرغم من أن تنظيم القاعدة لم ينشط إلى الآن في

فلسطين، فكثيراً ما أشارت قيادة التنظيم إلى ضرورة تحرير المسجد الأقصى في القدس كشرط مسبق لإعادة إرساء الخلافة. وفي الختام، يحدد الظواهري العدو الصليبي مشيراً بصريح العبارة إلى أنه يتمثل «بالأمريكيين واليهود».

أما فكرة استهداف «العدو» في عقر داره، فأُثيرت على بساط البحث للمرة الأولى في هذا الكتاب، وشكّلت استشرافاً لأحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١ التي بتنا نعرف اليوم أن التخطيط لها بدأ منذ العام ١٩٩٨. وقد صرّح الظواهري في هذا الإطار بالآتي: «ينبغي أن ننقل القتال إلى أرض العدو لنحرق أصابع أولئك الذين أشعلوا النار في بلادنا». مضيفاً بما يشبه الإنذار أن «المجموعات الصغيرة قادرة على بث الذعر في نفوس الأمريكيين».

ويتحدث الظواهري بصراحة، وعلى نحو يجاري ماضيه، عن إيمانه بمشروعية استخدام أقصى درجات العنف. وفي إطار تبرير موقفه هذا، يؤكد أن أساليب أخرى قد جُرِّبت ـ فعلى سبيل المثال نظّم الشيخ بن لادن حملات لمقاطعة البضائع الأمريكية، وفي الجزائر حاولت جبهة التحرير الإسلامية العمل ضمن إطار الديموقراطية. ويعلّق الظواهري على ذلك قائلاً: «اعتقدوا أن بوّابات الحكم قد شُرِّعت أمامهم، لكن ما حدث عوضاً من ذلك هو دفعهم عبر بوّابات معسكرات الاعتقال والسجون والزجّ بهم في زنزانات النظام العالمي الجديد».

وفي مناقشة التكتيكات، يقول الظواهري: «إن الغرب الذي تقوده الولايات المتحدة الخاضعة لنفوذ اليهود، لا يفقه لغة آداب السلوك والأخلاقيات والحقوق المشروعة. إنه لايتقن إلا لغة المصالح المدعومة بالقوة العسكرية الغاشمة. فإن كنا بالتالي نرغب في محاورة الغرب وحمله على إدراك حقوقنا، فلا بد من أن نحادثه باللغة التي يفهمها».

أضف أن الظواهري يوصي باستخدام القنابل البشرية «لإيقاع أكبر عدد من الإصابات في صفوف العدو بأدنى كلفة ممكنة من حيث الإصابات في صفوف المجاهدين». وهو يقدّم الحجج الداعمة لاستهداف الشعب الأمريكي، كنوع من الردّ ربّما على الشكوك الأولية التي عبّر عنها الشيخ بن لادن في ما يتعلق بهذه المسألة تحديداً في العام ١٩٩٨.

فيقول الظواهري في هذا الإطار: «المواطنون الأمريكيون يقومون بخيارات حرة. وصحيح أنهم قد يتأثّرون إلى حد بعيد بالإعلام الانحيازي والمشوّه للحقائق، إلا أنهم في نهاية المطاف يدلون بأصواتهم في الانتخابات لاختيار الحكومات التي يريدونها... وهؤلاء نادوا طواعية بقيام دولة إسرائيل وبقائها، ودعموا ذلك».

وعندما خاطب الشيخ بن لادن الشعب الأمريكي في شريط مصوّر قبل أربعة أيام من موعد الانتخابات الرئاسية في تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٤، قال لهم: «إن أمكنهم ليس بيد (جون) كيري John Kerry أو بوش أو القاعدة، إن أمكنهم بأيديكم وحدكم، إن كل ولاية لا تعبث بأمننا فإنها تلقائياً قد ضمنت أمنها». ويقضي التكتيك الطويل الأمد الذي تعتمده القاعدة بجعل الشعوب الغربية تنقلب على قادتها، بحيث يوجّه اللوم إلى هؤلاء القادة في ما يتعلق بالهجمات التي تُنفّذ على أراضيهم باعتبارها حصيلة حتمية لسياساتهم المضللة في الشرق الأوسط. وفي شريط مصوّر بثّته محطّة «الجزيرة» الفضائية في الرابع من آب / أغسطس العام ٢٠٠٥، أي عقب تفجيرات لندن التي نُفّذت في ٧ تموز / يوليو من العام نفسه، خاطب الظواهري الشعب البريطاني قائلاً: «جلب رئيس الوزراء طوني بلير عليكم الدمار إلى وسط لندن وسيجلب المزيد منه إنْ شاء الله». واستطراداً في التحليل المنطقي، يعتبر الظواهري أنه إن كان بالإمكان تحريض الشعب على التمرد، فهذا يعني أن المجتمعات الغربية ستنفجر داخلياً وتسقط.

ونذكر أيضاً من الجوانب المثيرة للاهتمام في كتاب الظواهري الاستراتيجية النفسية التي رُسمت معالمها بوضوح من أجل كسب استحسان الشعب المسلم عموماً ومشاركته. ويوصي الظواهري «بأن تخصص الحركة الجهادية أحد أجنحتها للعمل مع الجماهير عبر مختلف الطرق المتوافرة على مستوى العمل الخيري والتربوي. فمن الضروري أن نكسب احترام الناس وثقتهم ومودّتهم. ولن يحبّنا الناس إلا إن شعروا بمحبتنا لهم واهتمامنا بهم واستعدادنا للدفاع عنهم». وربما انطلاقاً من إدراك الظواهري للغضب العام وبالتالي لخسارة المجموعات الجهادية في مصر الدعم الذي كانت تحظى به بعد مجزرة الأقصر المروّعة في العام ١٩٩٧، نراه يقرّ بأن تنظيم القاعدة «يمكن أن

يكسب الأمة إلى جانبه عندما نختار هدفاً تستحسنه، أي هدفاً يمكن للأمة أن تتعاطف مع أولئك الذين استهدفوه. فالأمة قد أثنت على الجهاد ضد الأمريكيين».

وبحسب الظواهري، تحظى القضايا الشعبية مثل «تحرير الأمة من أعدائها الخارجيين» ومناصرة الفلسطينيين بمزيد من الاستحسان «عندما تُصوّر على أنها معركة الإسلام ضد الضلال والكافرين». كذلك يشكّل تطوير العلاقات العامة الجيّدة والاستراتيجية النفسية لتجنيد المجاهدين وتحريضهم جزءاً من جدول أعمال القاعدة الطويل الأمد: «فلكي تتحرّك الجماهير، تحتاج إلى قيادة يمكنها الوثوق بها واتباعها وفهمها، وإلى عدو واضح توجه ضرباتها إليه؛ ولا بد أيضاً من كسر أصفاد الخوف والتخلص من عقبة الوهن الديني».

وإذا اعتُبر القتال جهاداً دفاعياً، فهذا يعني أنه فرض عين على كل مسلم، «وإذا طُلب إليه ذلك من قبل قائد عادل وتقي، لا يمكنه أن يردّ طلبه». وإذ ذاك، ترتدي نوعية القيادة دلالة عسكرية بالغة الأهمية. ويؤكّد الظواهري في هذا السياق أن «أي خلل قيادي قد يلحق بالأمة جمعاء كارثة تاريخية». وما دام الشيخ بن لادن والظواهري «عادلين وتقيين»، لا يجوز لأي مسلم حقيقي، بحسب هذا المنطق، أن يتجاهل نداءهما إلى الجهاد.

وتعتبر القاعدة، المنخرطة في حرب لا تماثلية مع أمريكا، أن الطريقة الوحيدة التي تمكّنها من إحداث أي تأثير عسكري تتمثّل بتجنيد عدد لا متناهٍ من المجاهدين المستعدين للموت في سبيل قضيتهم.

ما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر

تركت أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١ أثراً لا يمكن محوه في العالم. فقد أصبحت القاعدة تنظيماً متفرداً من حيث خطورته في تاريخ حرب العصابات، خصوصاً وأنها كانت المجموعة الأولى التي تصرّح علانيةً بدعمها لقتل المدنيين الجماعي وتشجّع عليه، بل إنها واظبت على هذا التوجّه من خلال ارتكاب فظاعات مروّعة منها على سبيل الذكر لا الحصر التفجيرات في بالي ومدريد ولندن.

لكن الحادي عشر من أيلول / سبتمبر شكل بالنسبة إلى الحركة الجهادية تاريخاً لانتصار ما كان أحد ليحلم به، بل إنه حدد طبيعة القاعدة كقوة عسكرية لا يُستهان بها وجعل من الشيخ بن لادن قائداً رمزياً يجسّد انبعاث الأمة الإسلامية. فقد ضرب رجال القاعدة العدو في عقر داره واستهدفوا، من الناحية الرمزية، أعز الأماكن إلى قلبه، أي تحديداً مركز التجارة العالمية الذي يمثّل قوته المالية، ومبنى البنتاغون رمز القوة الأمريكية العسكرية. ولو أن الطائرة الثالثة بلغت هدفها المنشود، أي البيت الأبيض، لاستطاعوا أن يزيلوا مركز الديموقراطية الأمريكية عن وجه الأرض.

آنذاك، انكمش المشاهدون الأمريكيون خوفاً وهم يشاهدون شريطاً مصوراً للشيخ بن لادن يصف فيه ضاحكاً انهيار البرجين ويحتفل بانتصاره. أما من المنظور الجهادي، فقد شكل الهجوم نصراً عسكرياً بالغ الأهمية.

والواقع أن الكثير من المسلمين العاديين شعروا، ربّما رغماً عنهم، بإحساس النصر لرؤية أمريكا تتلقى هذه الضربة. وفي مقابلة متلفزة أجرتها شبكة التلفزيون الأمريكي سي بي أس س بعد أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر مع صحافية يمنية شابة اسمها رحمة هجيرة، قالت هذه الأخيرة:

لم أفكر يوماً في أنني قد أدعم العنف. عندما شاهدت مركز التجارة العالمية ومبنى البنتاغيون يحترقان، بكيت وأُغمي عليّ من الفرح. تضرّعت إلى الله عزّ وجلّ ليعين القاعدة... وإن كنت لا أملك شيئاً آخر لأقدمه، فإن وسيلتي الأخيرة هي أن أُنشىء طفلين أو ثلاثة ليكونوا من أنصار الشيخ أسامة بن لادن. فما نراه جميعاً في الشيخ أسامة بن لادن هو الرجل الذي استطاع أن يثأر لنا ويمسح الدموع التي تُذرف منذ وقت بعيد من أجل أخواننا في فلسطين والعراق. فبفضله تحققت العدالة الإلهية عندما اهتزت أمريكا في الحادي عشر من أيلول / سبتمبر.

آنذاك ارتفع معدل التجنيد وتعززت صدقية القاعدة. فقد بات ملايين المسلمين يرون في الشيخ بن لادن القائد المخلّص.

ولا بد من الإشارة إلى أن أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر أحدثت تحوّلاً في

العلاقة بين تنظيم القاعدة والعامة في الدول الغربية. فمن خلال القتل الجماعي المباشر والوحشي، بدأت القاعدة حواراً مع الشعوب بدلاً من حكوماتها.

ومنذ أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر، أصبح لتنظيم القاعدة تأثير كبير جداً في الشؤون الداخلية في بعض الدول الغربية. ففي إسبانيا على سبيل المثال، فرضت التفجيرات التي استهدفت وسائل النقل في مدريد في ١١ آذار / مارس العام ٢٠٠٤ وأودت بحياة ٢٠٠ شخص، إجراء تغيير حكومي. وفي النتيجة، صوّت الناخبون في الانتخابات العامة لمصلحة قائد الحزب الاشتراكي خوسيه لويس رودريغيز زاباتي José Luis Rodriguez Zapatero الذي وعد بسحب القوات الإسبانية من العراق. فمن الجليّ أن الشعب الإسباني ربط مباشرة بين دعم بلاده لغزو العراق وهجوم القاعدة على بلاده (خلافاً لطوني بلير الذي رفض أن يفعل بالمثل عقب تفجيرات لندن). وتمثّل ردّ الشيخ بن لادن بمنح الشعب الإسباني هدنة.

أما في بريطانيا والولايات المتحدة، فأدت نشاطات القاعدة إلى فرض القوانين الصارمة. فبحجة حماية المواطنين من «الإرهاب»، عمدت حكومتا بوش وبلير إلى الانتقاص عملياً من حقوقهم المدنية. وما يثير السخرية أن هذه المقاربة غذّت استراتيجية القاعدة التي تسعى علانيةً إلى التحريض على التمرّد في أوساط المواطنين الغربيين الذين تزايد شعورهم بالقمع والسخط.

شيخ المحاربين المقدسين

جسّدت القاعدة على الصعيد العسكري مقاربة تزداد تصلباً منذ ظهور الأمير الشرس «لتنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين» (أي العراق)، الراحل أبي مصعب الزرقاوي. والواقع أن أي شكوك ساورت الشيخ بن لادن والظواهري في ما يتعلق بمشروعية استهداف المسلمين الشيعة أو القتل الموازي للمواطنين العراقيين، ذهبت أدراج الرياح جراء الدفق المستمر للهجمات الدموية التي شنّها الزرقاوي وأكملها من بعده خلفه عبد الله بن رشيد البغدادي.

والجدير ذكره أن رقعة الحضور العام للقاعدة ونفوذها قد اتسعت على نحو دراماتيكي بعد تحوّل التنظيم إلى شبكة من فروع متحالفة وغير محكمة تنشط بشكل مستقل إلى حد ما عن قيادة فارّة. وبما أن إيديولوجية القاعدة واستراتيجيتها الطويلة الأمد وموادها التدريبية وحججها المبرِّرة للجهاد، متوافرة كلها مجاناً على شبكة الأنترنت، يمكن أيّ خلية أو مجموعة مستقلة أن تنشط في إطار عمل التنظيم. ولا حاجة اليوم إلى قاعدة مركزية كتلك التي كانت قائمة في أفغانستان، بل إن قلة من المجاهدين فقط تتواصل شخصياً مع النواة الداخلية للقادة. لكن هذا لا يعني أن الدلالة التي يمثلّها الشيخ بن لادن لبعض المسلمين قد تناقصت.

بحث المسلمون على مر التاريخ عن قادة نموذجيين يحتذون بهم، ووجدوا في شخصيات مختلفة، بدءاً من صلاح الدين الأيوبي إلى جمال عبد الناصر، مصدراً للإلهام. ومن الواضح أن التوق إلى الراحة الروحانية والغذاء الروحاني يتجليان في زيارات الحج إلى المقامات والقبور، حتى ما كان يخص منها رجالاً مقدّسين مغمورين نسبياً. ويبدو أن الشيخ أسامة بن لادن يشكل للكثيرين آخر رجل في قائمة القادة الرمزيين لجهة الحفاظ على التقليد الإسلامي.

كان الراحل أبو مصعب الزرقاوي يلقبّه «بشيخ المحاربين المقدسين». ويبدو أن هذه المكانة النموذجية (بعض أتباعه يستخدم حتى مصطلح «المخلص») التي يتمتّع بها الشيخ بن لادن هي ما يثبّت هوية القاعدة ويضمن استمراريتها ونموها. وإن حدث وقُتل الشيخ بن لادن (هو أقسم على ألا يسمح بالقبض عليه حيّاً)، فإن صورته ستظل تزيّن الملصقات واليافطات والقمصان والأكواب في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وسيبقى الشيخ بن لادن القائد الصوري لحركة عالمية، مجسداً بذلك الطموحات السياسية لنسبة كبيرة من المسلمين، هذه الطموحات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإيمانهم الديني.

لكن لا بد من الإشارة إلى أن الظواهري أصدر تحذيراً في ما يتعلق بهذه المسألة، منبّهاً إلى المبالغة في رفع مكانة الرجل. فكتب في العام ٢٠٠١: «إذا بلغ الولاء للقيادة حد اعتبارها مقدسة، فستُصاب الحركة بالعمى المنهجي».

الفصل الثالث

القنابل البشرية ومفهوم الشهادة

«ما لا يفهمه القوم في الغرب ببساطة هو أننا نحب الموت أكثر مما يحبّون الحياة. ولكم يؤسفني أني لم أستشهد بعد لأن هذه الدنيا فاسدة».

الشيخ أسامة بن لادن،

تشرين الثاني/نوفمبر العام ١٩٩٦

عندما قابلت الشيخ بن لادن، حدّثني وقد بدا متأثّراً بسبب رفاقه المجاهدين الذين قضوا في ساحات المعركة. وسرعان ما أدركت أن عينيه لم تغرورقا بالدمع لأنه كان حزيناً لوفاتهم، بل لأنه كان فرحاً باعتقاده أنهم في الجنة.

لا شك في أننا اعتدنا رؤية أشخاص يناضلون من أجل هدف يأملون تحقيقه في خلال حياتهم، بل إن معظم الجنود يحرصون عندما يخاطرون بحياتهم في سبيل ما يؤمنون به، على حماية أنفسهم كي يستمتعوا بنشوة النصر الذي يتوقون إليه.

لكن الكثير من المجاهدين وبينهم الشيخ بن لادن، يهتمون بالموت أكثر منه بالحياة، ذلك أنهم يؤمنون إيماناً قاطعاً وواضحاً بالحياة ما بعد الموت. وهم يؤمنون أيضاً بأن الشهادة تجعل الأمة أقرب إلى تحقيق أهدافها المشتركة وتضمن للشهداء الدخول الفوري إلى الجنة.

الواقع أن هجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر، والثورة المتصاعدة في العراق،

وتفجيرات لندن التي وقعت في ٧ تموز / يوليو العام ٢٠٠٥ جعلت أنظار العالم تتركّز على ظاهرة «المهمة الانتحارية». ومن الناحية الموضوعية، تُعتبر اليوم القنبلة البشرية أكثر الأسلحة فاعلية في ترسانة المحاربين الجهاديين وأقدرها على تدمير العدو وترهيبه.

ولا بد من الإشارة إلى أن المهمة الانتحارية ليست مجرّد حدث مادي، بل إن لها تأثيراً نفسياً وإيديولوجياً هائلاً. فالمهاجم الانتحاري يقدّم نفسه كسلاح بالغ الفعالية، ويثبت في الوقت نفسه عزمه على الموت في سبيل قضيته. وبحسب منطق علم النفس الاجتماعي، قد تكون هذه القضية محقّة في أقلّ تقدير. أما المصطلح الذي يستخدمه المسلمون للإشارة إلى من يسمّيهم معظم الغربيين «انتحاريين» (علماً بأن الإعلام الفرنسي آثر استخدام المصطلح «كاميكازي Kamikazi»، فهو «استشهاديون». وقد اشتُق هذا المصطلح من كلمة «شهيد» الواردة في القرآن الكريم (الشهيد أو الشاهد على الإيمان الديني). وغنّي عن القول إن التاريخ يزخر بسِيَر شهداء كثر عبر القرون ماتوا في سبيل ما يؤمنون به أو لأجل إنقاذ آخرين. وفي الديانة المسيحية، يُسمّى هؤلاء الشهداء عادةً قديسين. أما ظاهرة «الاستشهادي» الحديثة فمختلفة، باعتبار أن الشهيد يقرّر طوعاً التضحية بحياته، لكنه في سياق ذلك يلحق الموت أو البؤس بآخرين.

واللافت أن استعداد المجاهدين للموت في سبيل قضيتهم يتناقض إلى أبعد حدود مع مقاربة الحفاظ على الحياة التي يعتمدها خصمهم الرئيس المتمثّل بالجيش الأمريكي. ولطالما سخر الشيخ بن لادن مما سمّاه «جبن» الجنود الأمريكيين، مقارناً بينهم وبين القوات السوفياتية التي حاربها في أفغانستان وامتدح شجاعتها. وفي هذا الإطار، ينظر الجهاديون إلى تقاعس الجنود الأمريكيين عن الموت في سبيل قضيتهم، أو على الأرجح قضية رؤسائهم، باعتباره موطن ضعف معنوي وعسكري.

لا يمكن تحقيق انتصار يُذكر في مواجهة مهاجم لا يكتفي بإبداء استعداده للموت، بل يسعى فعلياً إلى الموت، إنه في الواقع سلوك مخيف وغير منطقي لا يمكن أي تهديد بالعقاب أن يردعه، وقلة من التدخّلات قد تنجح في إحباطه.

تاريخ العمليات الاستشهادية

خلافاً للمعتقد الشائع، لا يشكل مفهوم الهجمات الانتحارية ظاهرة حديثة. ويشير د. زكي بدوي، رئيس المجلس الأعلى للأئمة والمساجد والزعيم غير الرسمي لما يصفه بالتيار الرئيس لمسلمي بريطانيا، إلى أن أول إشارة لهجوم من هذا النوع وردت على الأرجح في الرواية التوراتية لإقدام شمشون على تدمير معبد الفلسطينيين، مما أودى بحياتهم وحياته على السواء. وفي العام ٦٦ ميلادي، عمدت فرقتان من اليهود، هما عصبة حملة الخناجر (سيكاري Sicari وفرقة الغيورين (قثائيم Zealot)، إلى ترهيب الرومان في سياق سعيهم إلى تحرير يهوذا. وبما أن أتباع هاتين الفرقتين كانوا يقعون غالباً في الأسر، فيُصلبون فوراً أو يُحرقون أحياء، كان الموت جزءاً مقبولاً من مهمتهم.

ولربما أكثر المحاربين الانتحاريين الأوائل شهرة هم الإسماعيليون الحشّاشون وهم ملّة إسلامية شيعية متطرفة أنشأها «عجوز الجبال» حسن بن الصبّاح. وعلى مدى قرنين من الزمن، استمرت هذه المجموعة المتمركزة في جبال البورز في شمال غربي بلاد فارس، في حملة الإرهاب المنظم التي شنّتها ضد السلاطين المحليين (السُنَّة تحديداً) والصليبيين المسيحيين. ولما كان سلاحهم الوحيد هو الخناجر، فقد أدّت هجماتهم الشرسة والجريئة على الأهداف الخاضعة للحراسة المسلحة إلى موتهم الحتمي. واللافت أن هذا التكتيك كان ناجحاً، فأوقع الحشّاشون المثيرون للرعب العديد من الضحايا بين العام ١٠٣٤ والعام ١٢٥٥ميلادي، وهذا ما سمح لهم في نهاية المطاف بإنشاء دولتهم الإقليمية الخاصة والاستيلاء على القلاع والحصون في المنطقة.

أضف أن هذه الملّة ازدادت قوة بفعل المعتقدات والممارسات التي يتشاطرها أتباعها. وكان هؤلاء يقسمون على الولاء بعضهم لبعض ولقادتهم في سياق احتفالات دينية وطقسية. وإذ كانوا يحرصون بفطنتهم على أن تحظى هجماتهم بأكبر دعاية ممكنة، اعتادوا اختيار مكان عام لتنفيذ هذه الهجمات، مؤثرين تنفيذها في أيام العطل. ولا شك في أن سمعتهم كقتلة انتحاريين منحتهم قوة لا تناسب البتة حقيقة عددهم وحجم تسلحهم، مما

أجبر خصومهم الأقوياء على التخلّي عن شنّ الحملات ضدهم، ودفعهم في غالب الأحيان إلى تقديم تنازلات هائلة لإبرام اتفاقات سلام طويلة الأمد معهم.

وعلى غرار انتحاريي اليوم، كان الحشّاشون يسعون إلى الموت متلهفين. ويُقال إن أول حشّاش نجح في مهمته صرخ قائلاً: «قتل هذا الشيطان هو بداية النعيم» وهو يطعن وزير شاه إيران في العام ١٠٩٢ حتى الموت. ويفترض بعض المؤرخين أن وقود تلك العمليات الاستشهادية الأولى كان الإسراف في استهلاك الحشيش ـ ومن هنا مصدر الكلمة «حشيشيون» ـ أكثر منه الحماسة الدينية.

ومن الجلي أن بالإمكان مقارنة استراتيجية الحشّاشين هنا بتلك التي تعتمدها القاعدة من حيث التركيز على الولاء وقوته والرغبة في الشهادة واعتمادها كسلاح فاعل في حرب لا تناظرية.

وصحيح أن الهجوم الانتحاري من الناحية التاريخية ليس تكتيكاً مميزاً للمسلمين وحدهم، لكن المسلمين يبقون أصحاب أطول تاريخ في استخدام هذا التكتيك في نزاعاتهم مع القوى الغربية. فعلى مدى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، انخرط المسلمون في عمليات جهادية انتحارية ضد قوى الاستعمار الأوروبية، ولا سيّما في آسيا وجنوب غربي الهند وشمال سومطرة والفيليبين الجنوبية. ولمّا كان المهاجمون الانتحاريون الأوائل يفتقرون إلى المقدرة العسكرية التي تخوّلهم إقحام خصمهم بفعالية في قتال تقليدي، كانوا بكل بساطة يلقون بأنفسهم بتهوّر بين صفوف العدو ويقتلون أكبر عدد من جنوده مستخدمين ما يتوافر بين أيديهم من الأسلحة، قبل أن يُقتلوا هم أنفسهم ويكون الموت مصيرهم المحتوم.

فضلاً عن ذلك، نفّذ الفوضويون الأوروبيون العديد من الهجمات الجريئة والاغتيالات المصحوبة بدعاية كبيرة بدءاً من العام ١٨٧٠ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وبما أن الديناميت دخل المعادلة للمرة الأولى آنذاك، قد بدا وصف أولئك الفوضويين بالانتحاريين الأوائل مغرياً، لكن المفارقة أنهم كلهم حاولوا الفرار ولم يخسروا حياتهم إلا نتيجة إخضاعهم للمحاكمة القضائية. أما الطيارون الانتحاريون

اليابانيون الذين اشتهروا في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية (١٩٤٣ ـ ١٩٤٥)، فقاموا بأكبر عدد من المهمات الانتحارية عبر التاريخ، ونفذوا في تلك المرحلة أكثر من ٣٠٠٠ هجوم انتحاري. لكن اليابانيين لم يكتفوا بالطائرات الانتحارية، بل عمدوا أيضاً إلى تدريب مهاجمين انتحاريين في الطائرات الشراعية والغوّاصات والزوارق الآلية. وقد حصدت العمليات الانتحارية اليابانية بمختلف أشكالها ما يزيد على ٥٠٠٠ حالة وفاة في صفوف البحرية الأمريكية.

نتيجة تطور المتفجرات العالية التقنية، أصبح زرع متفجرة وتفجيرها من مكان آمن لا يقل فاعلية عن العمليات الانتحارية التي باتت أقل شيوعاً. وفي خمسينيات القرن العشرين وستينياته وسبعينياته. شاع خطف الطائرات، فشهدت هذه العقود الثلاثة اختطاف نحو مئتي طائرة، وبلغ الأمر ذروته بين العام ١٩٦٨ والعام ١٩٧٢ إذ بلغ معدل اختطاف الطائرات نحو طائرة واحدة أسبوعياً. وعندما بدأت قوات أمن المطار تشدّ أحزمتها، اضطرت المنظمات الإرهابية إلى التفكير مجدداً في مخططاتها؛ فشكّلت إعادة اعتماد الهجمات الانتحارية جزءاً من استراتيجية التكيّف.

لكن الاستثناء الملحوظ على هذا الركود في الهجمات الانتحارية تمثّل بالجبهة الوطنية لتحرير فييتنام «Viet Co» ففي خلال حرب فييتنام، استخدمت الجبهة الانتحاريين بشكل منتظم؛ وكان هؤلاء يقودون الدرّاجات النارية أو سيارات الجيب المسروقة مباشرة باتجاه الهدف قبل أن ينسفوا المتفجرات المربوطة إلى أجسادهم. فضلاً عن ذلك، استُخدم الانتحاريون على نحو استثنائي في خلال ما عُرف بهجوم تيت Tet (تيت عيد فييتنامي رسمي للاحتفال برأس السنة القمرية) في أواخر كانون الثاني / يناير العام ١٩٦٨. فقد هزّت سلسلة من الهجمات مدينة سايغون وأودت بحياة ٢٣٢ جندياً أمريكياً، وأوقعت إصابات بالغة في صفوف الناجين. آنذاك، فجّر تسعة عشر انتحارياً أنفسهم في السفارة الأمريكية. كذلك ضرب المهاجمون الانتحاريون القاعدة الجوية الأمريكية في بين هوا Bien Hawa، محطة توليد الطاقة الكهربائية في محافظة ثو دوي Thu Due، فاستهدفوا حشداً كبيراً من القوات الأمريكية العسكرية، فضلاً عن أهداف أخرى بالغة الأهمية.

وكانت الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام تضمّ في صفوفها عدداً من «القوات الخاصة» المدرّبة التي أنشئت لتنفيذ الهجمات الانتحارية. كانت هذه القوات تتألف من الرجال والنساء على السواء، وكثيرون من هؤلاء وشموا على أذرعتهم الشعار «مولود في الشمال لأموت في الجنوب» بالأحرف الصينية. أما في الشرق الأوسط، فعادت المهمّات الانتحارية لتنطلق بزخم في مطلع ثمانينيات القرن العشرين. ففي الخامس عشر من كانون الأول / ديسمبر العام ١٩٨١، اقتحمت سيارة محمّلة بالمتفجرات السفارة العراقية في بيروت وأودت بحياة واحد وستين شخصاً. آنذاك أعلنت، حركة أمل (تنظيم شيعي مناصر لسوريا) مسؤوليتها عن الحادث. وفي خلال الحرب الإيرانية العراقية التي اندلعت أوائل الثمانينيات، جنّدت إيران ما سمّي «بالموجات البشرية» من الشهداء المراهقين الذين يتقدّمون طوعاً لتفجير الألغام المزروعة في الأرض، يتلقون سفع الانفجار في أجسادهم ويسمحون إذ ذاك للجنود بأن يسيروا قدماً من دون التعرض لأي أذى.

والجدير ذكره أيضاً أن استخدام حزب الله للاستشهاديين ضد قوات الاحتلال في جنوب لبنان أجبر القوات الأمريكية والفرنسية على الانسحاب الكامل في العام ١٩٨٣، ودفع بالإسرائيليين إلى الانسحاب الجزئي في العام ١٩٨٥. وقد تلقى منفذو العمليات في هذا التنظيم الشيعي تدريباتهم على أيدي حراس الثورة الإيرانية الذين أرسلتهم طهران لهذه الغاية تحديداً.

وفي سيريلانكا، نفّذت حركة نمور التحرير تاميل إيلام Tamil Eelam (المعروفة أيضاً باسم نمور تاميل) هجومها الانتحاري الأول في العام ١٩٨٧. ولمّا كان مقاتلو نمور التحرير لا يقلون إبداعاً عن الانتحاريين اليابانيين، فقد ابتكروا نسخاً هجينة مدمّرة مثل الدرّاج الانتحاري والغطّاس المستقل الانتحاري.

ومنذ تسعينيات القرن العشرين، تحوّلت منظمات عدة، وبينها تنظيم القاعدة، إلى العمليات الانتحارية. فشاحنات القاعدة المحمّلة بالمتفجرات التي استُخدمت في تفجير سفارتَي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام استُبدلت في الحادي عشر من أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١ بأربع طائرات محمّلة بالركاب. وفي هذا اليوم، قتل تسعة

عشر انتحارياً نحو ثلاثة آلاف شخص.

هذا وكانت حركة حماس أول منظمة فلسطينية تستخدم القنابل البشرية بدءاً من العام ١٩٩٤. وفي أيامنا هذه، باتت العمليات الانتحارية ظاهرة مألوفة في الأراضي المحتلة. ووفقاً لعبد العزيز الرنتيسي، وكان أحد قادة حماس (اغتالته إسرائيل في ١٧ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٤)، اعتمدت الحركة الفلسطينية هذا التكتيك «انطلاقاً من الحسّ العميق بغياب المناعة وبالعجز في وجه قوات الجيش الإسرائيلي وميليشيات المستوطنين المدجّجة بالسلاح». وكانت مجزرة الخامس والعشرين من شباط / فبراير العام ١٩٩٤ التي استهدفت جموع المصلّين الفلسطينيين في المسجد الإبراهيمي في مدينة الخليل هي التي حرّضت الإسلاميين الفلسطينيين على إرسال انتحاريين، وذلك بحسب الرنتيسي «أملاً بإجبار الإسرائيليين على القبول باتفاقية هدنة».

أما غزو العراق الذي قادته الولايات المتحدة، فأطلق العنان لموجة عاتية لا سابقة لها (في الشرق الأوسط) من التفجيرات الانتحارية. ومنذ آذار / مارس العام ٢٠٠٣، شهد العراق ٥٠٠ هجوم انتحاري على الأقل حتى تاريخ وضع هذا المؤلَّف.

الانتحار والشهادة

الانتحار يُعتبر خطيئة في الدين الإسلامي كما في المسيحية واليهودية. وفي أقل تقدير، يبقى الانتحار مرفوضاً في الثقافة الإسلامية أكثر منها في الغرب. وتشير الإحصاءات إلى أن الدين الإسلامي يحدّ من احتمالات الانتحار، خصوصاً أن معدلات الانتحار في الدول الإسلامية هي ضمن المستويات الدنيا في العالم. وفي خلال السنوات الأخيرة، راوح المعدل الوسطي العام لحالات الانتحار، بين١١ و١٥ شخصاً لكل مئة ألف نسمة. أما المعدل الأعلى للانتحار، فيبلغ ٧٠ منتحراً لكل مئة ألف نسمة في روسيا وليتوانيا. ونشير في الإطار نفسه إلى أن فلسطين هي الدولة الإسلامية الوحيدة التي تتميّز بمعدل انتحار مرتفع يبلغ ٢٢ منتحراً لكل مئة ألف نسمة. فالإحصاءات تبيّن أن المواطنين الفلسطينيين يعانون صدمات نفسية خطيرة إلى حد يستوجب المعالجة. في المقابل، لا يتجاوز معدل

الانتحار في الأردن ومصر وإيران وسوريا شخصاً واحداً لكل مئة ألف نسمة. كذلك في الكويت وتركيا وأذربيجان وألبانيا والبحرين لا يتجاوز معدل الانتحار خمسة أشخاص لكل مئة ألف نسمة.

والواقع أنه ما من استعداد ثقافي مسبق للانتحار لدى المسلمين، تماماً كما لا تناسب بين معدلات الانتحار الوطنية وعدد الانتحاريين الذين يفجّرون أنفسهم من حملة جنسيات الدول الإسلامية، إلا في حالة فلسطين.

يعرِّف المتخصّصون بعلم النفس الاجتماعي الانتحار بمفهومه المألوف «بالانتحار الأناني». وهو يتجلّى في العادة لدى الفرد التعيس، وربما المصاب بصدمة نفسية، الذي ينعزل عن المجتمع إلى حد الإفراط ولا يجد هدفاً لاستمرار وجوده. وكثيراً ما يتمّ الفعل النهائي لتدمير الذات في عزلة وعلى انفراد، ما خلا مواثيق الانتحار النادرة التي لا تشكل أكثر من واحد في المئة من حالات الانتحار كافة.

في المقابل، ينفذ أشخاص يعملون معاً في العادة الهجمات الانتحارية. وقد استخدمت القاعدة، بمعزل عن عملياتها في العراق، فرقاً يضم كل منها انتحاريَين أو أكثر في ٨٩ في المئة من هجماتها. وفي العادة، يتورط في التفجير الانتحاري، حتى وإن كان الهجوم منفرداً، عدة أشخاص يضطلعون بمهمات تحضيرية ولوجستية مختلفة ويعملون معاً كفريق، فيبدون إذ ذاك تفاعلاً اجتماعياً مكثفاً وسعياً إلى هدف مشترك.

تنظر غالبية المجتمعات إلى «الانتحار الأناني» باستخفاف. في المقابل، وربما يصعب على الكثيرين تقبّل ذلك، تلقى التفجيرات الانتحارية استحساناً واسع الناطق في أوساط المجموعة الاجتماعية التي خرج الانتحاري من صفوفها. ولا شك في أن الاستحسان هو أحد دوافع الطامح إلى الشهادة. ففي بعض الدول (كفلسطين مثلاً)، يطمح الأطفال إلى الشهادة تماماً كما يطمح الأطفال في الغرب إلى أن يصبحوا نجوم غناء أو لاعبي كرة قدم. أضف أن الاستحسان يعني ضمناً أن الفعل المنشود مفيد ويخدم مصالح المجتمع.

والجدير ذكره أن الاختلاف الأساسي بين الانتحار والشهادة يكمن في واقع أن الانتحار يحدث نتيجة قلق الفرد على ذاته، في حين أن الشهادة إيثارية بالضرورة (من

وجهة نظر المقدم عليها). أخيراً، وخلافاً للانتحار، الشهادة تشكل فعلاً دينياً وفي العادة سياسياً إلى حد بعيد.

في ما يأتي مقتطفات من «اعترافات انتحارية» نشرتها على الموقع الإلكتروني للصوت العربي الحر امرأة فلسطينية اتخذت لنفسها اسم «هجيرة العربي» وكانت على وشك تنفيذ هجوم انتحاري ضد الإسرائيليين.

القنبلة البشرية مثال على الإيثار وإثبات لا لبس فيه على أنه لا يمكن النظر إلى أي حياة باعتبارها أغلى من مستقبل شعبنا. المرء الذي يجعل من نفسه قنبلة بشرية يعمل من أجل الجميع وليس من أجل نفسه. هو يقول: «لأكن سلاحاً يحقّق مشيئتكم. دعوني أضحي بحياتي لأجل مستقبل شعبنا». من المؤكد أن هذا ليس بسلوك شخص ينتحر. فالانتحار فعل أناني، فعل شخص يرفض الحياة ويعانق الموت باعتباره الحل. أما القنبلة البشرية، فلا ترفض الحياة على الإطلاق. القنبلة البشرية تعانق الموت كرفيق سلاح وتعمل كسلاح من أجل قضية العدالة والتحرر من الاحتلال.

الشهادة والإسلام

صرّح بعض علماء المسلمين البارزين بأن «العمليات الاستشهادية» تشكل انتحاراً، فعمدوا إلى حظرها. ففي آب / أغسطس العام ٢٠٠٥، أصدر المنظّر السوري أبو ناصر الطرطوسي فتوى جاء فيها أن «المهام الانتحارية تعني أن يقدم الشخص على الانتحار، وفي ذلك ما يتعارض مع عشرة من النصوص الدينية الصحيحة والمفسّرة التي تحرّم الانتحار مهما كانت الدوافع إليه. فقد قال الله تعالى: ﴿وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (سورة البقرة، الآية ١٩٥)؛ كذلك قال الرسول (ص) في حديث نبوي مسند: «من قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم القيامة».

أما عزّام تميمي، فله وجهة نظر مختلفة في هذا الموضوع، يقول: «الانتحار غير مقبول في المجتمعات الإسلامية، ومن الضروري بالتالي أن يقتنع من يطمح إلى أن يصبح شهيداً بأن ما يقوم به ليس انتحاراً وإنما تضحية بالنفس من أجل قضية نبيلة في الجهاد

المشروع». ويشير عزّام تميمي في هذا السياق إلى أن النبيّ محمد (ص) وأتباعه أثبتوا استعدادهم للموت في سبيل الإسلام، فيقول: «الأمر القرآني بالجهاد في ظل ظروف معيّنة يشكل عنصراً أساسياً لفهم العمليات الاستشهادية».

في الإيديولوجية الجهادية، تُعتبر الشهادة التعبير الأسمى عن الجهاد، سواء استشهد المجاهد في سياق مهمة انتحارية أم قتله العدو. ووحده هذا الشكل من أشكال الجهاد يضمن للمجاهد الحياة الأبدية. فقد جاء في القرآن الكريم (سورة آل عمران، الآية ١٦٩): ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

أما الأشكال الأخرى من الجهاد، فتشمل بحسب الترتيب التنازلي «لقيمتها»: دعم المجاهدين مالياً، توفير الدعم والمحاربين من أجل الجهاد (يتم الجزء الأكبر منه في المساجد وعبر وسائل الإعلام)، والإعلان عن دعم الجهاد والإيمان به من دون المساهمة فعلياً بالمال أو بحمل السلاح.

بالنسبة إلى الظواهري، تتعرّض الأمة للهجوم من زوايا عدة في آنٍ واحد. وقد حدد في كتابه «فرسان تحت راية الرسول» ما يعتبره هو (وعلى الأرجح الشيخ بن لادن أيضاً) التجليات المختلفة للعدو، مشرِّعاً إذّاك استهداف كل ما يمثِّل العدو بعمليات انتحارية أو بأي هجوم آخر:

اعتمدت القوات الغربية عدداً من الأدوات لمحاربة الإسلام، بما في ذلك:

١ ـ الأمم المتحدة.

٢ ـ أصدقاؤها من حكّام الشعوب المسلمة.

٣ ـ الشركات المتعددة الجنسيات.

٤ ـ النظام الدولي للاتصالات وتبادل البيانات.

٥ ـ وكالات الأنباء الدولية.

٦ ـ وكالات الإغاثة الدولية التي تُستخدم للتجسس والتبشير والتخطيط للضربات العسكرية ونقل الأسلحة.

في أيامنا هذه، أي بعد مرور أكثر من أربع سنوات على كتابة ما ورد أعلاه، وفي ظل

الفرص المتوافرة بفعل الغزو العراقي الذي قادته الولايات المتحدة، يمكن الظواهري أن يشير إلى كل نقطة في «قائمة أمنياته» المرعبة.

وبحسب الظواهري، تم تجريب وسائل أخرى لمقاومة «الصليبيين الجدد»، بدءاً من مقاطعة البضائع الإسرائيلية التي دعا إليها الشيخ بن لادن في العام ١٩٨٧، مروراً بمحاولات إطلاق مفاوضات السلام، وصولاً إلى الشكاوى المرفوعة لدى المحاكم الدولية من أجل تحقيق العدالة. لكن الظواهري يرى أن هذه الوسائل انتهت إلى فشل لا يمكن إصلاحه، «والحل الوحيد اليوم هو الجهاد». والواقع أن هذا هو الموقف الذي يتبنّاه رجال الدين المتطرفون ومن بينهم أولئك المتمركزون في بريطانيا، والذي حدده الشيخ بن لادن بوضوح تام في فتواه الصادرة في العام ١٩٩٨ «ضد اليهود والمسيحيين»، وفحواه أن «الصليبيين كافة أهداف مشروعة».

عندما يتعلق الأمر بالجانب الديني للجهاد، نلاحظ انقساماً في أوساط الطائفة السُنيَّة. فوفقاً للدكتور زكي بدوي، القائد غير الرسمي لما يصفه بالتيار الرئيسي لمسلمي بريطانيا، «الدين الإسلامي بشكله الذي تعتنقه القاعدة لغو. فقتل المدنيين يناقض أحكام الشريعة. هم يستخدمون القوة حيث التعقل قد يكون كافياً. أسامة بن لادن ليس مرجعاً دينياً، ولا يحق له أن يصدر الفتاوى أو يعلن الجهاد ضد أمريكا باسم الأمة جمعاء»[١].

لكن عندما يتعلّق الأمر بالجانب السياسي للتفجيرات الانتحارية، تضيق الفجوة بين المتطرفين والمحافظين إلى حد كبير. يقول بدوي: «أن يضحي الناس بأنفسهم في المعارك ليس بالأمر غير المألوف. في فلسطين والعراق هم محاربون ظروفهم صعبة، ذلك أن قوات ضخمة تتصدى لهم وتقمعهم. لا بد من أن ننظر إلى هؤلاء بكثير من التقدير للتضحية العظيمة التي يقومون بها». والواقع أن وجهة نظره هذه مألوفة حتى في أوساط المسلمين المعتدلين. ففي العديد من الدول الإسلامية، يقدّر عدد كبير من المواطنين العمليات الاستشهادية ويبدون إعجابهم بها تحديداً لأنهم يعتبرون هذه العمليات السلاح

---

(١) مقابلة مع د. زكي بدوي، لندن، ١١ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥.

الوحيد المتوافر للتصدي للتفوق العسكري الهائل. فعلى سبيل المثال، كانت انتفاضة الحجارة هي الانتفاضة الأولى في فلسطين. أما الثانية، فهي انتفاضة الشهيد.

ونلاحظ موقفاً مشابهاً لدى العالم المسلم الشيخ يوسف قرضاوي الذي يُعتبر شديد التطرف، حتى إنه لم يعد يُسمح له بدخول المملكة المتحدة، ويقول: «الله عادل. وانطلاقاً من حكمته اللامتناهية، أعطى الضعفاء ما لا يملكه الأقوياء، أي المقدرة على تحويل أجسادهم إلى قنابل كما يفعل الفلسطينيون».

التأثير العسكري

غني عن القول إن استمرار حزب الله في اعتماد العمليات الانتحارية في لبنان منذ العام ١٩٨٣ أجبر القوات الأمريكية والفرنسية على الانسحاب الكامل. وفي العام ١٩٨٥، أدّت حملة مشابهة إلى جلاء الإسرائيليين (الذين يلقون دعماً هائلاً من الولايات المتحدة) عن قسم كبير من الأراضي اللبنانية. كذلك في العامين ١٩٩٤ و١٩٩٥، ضمنت الحملة الانتحارية التي شنّتها حركة حماس انسحاب القوات الإسرائيلية من قطاع غزة ومن جزء من الضفة الغربية. ويبدو واضحاً بالتالي أن المهمّة الانتحارية تشكل تكتيكاً إكراهياً ناجحاً يكاد التصدي له يكون مستحيلاً. ففي الحرب اللاتناظرية، حيث أحد الطرفين أقوى عسكرياً من الطرف الآخر، يُنظر إلى المهمة الانتحارية كاستراتيجية فاعلة.

يطلق الشيخ بن لادن في «إعلان الجهاد ضد الأمريكيين...» التحذير الآتي: «بفعل انعدام توازن القوى بين قواتنا المسلحة وقوات العدو، لا بد من اعتماد وسيلة قتالية ملائمة... غاية شبابنا الوحيدة هي دخول الجنة عن طريق قتلكم».

تجدر الإشارة إلى أن للتفجيرات الانتحارية منافع عسكرية مختلفة. تتمثل المنفعة الأولى بعنصر المفاجأة. فعلى الرغم من أننا نسمع مراراً وتكراراً عن مثل هذه الهجمات، فإنها تبقى عصية على الفهم لدى غالبية البشر المحكومين بغريزة البقاء القوية، مما يعني أن رصدنا أو استشرافنا تفجيراً انتحارياً يبقى احتمالاً ضعيفاً. أضف أن الانتحاري قادر على بلوغ هدفه بسهولة كأنه فرد غير محارب، سواء أكان هذا الهدف مسجداً شيعياً أم

مركزاً لتجنيد القوات العراقية أو حاجز تفتيش إسرائيلياً. هذا ويمكن أن يحصل التفجير الانتحاري بدقة بالغة، إذ ما على المهاجم إلاّ أن يتوقف بالقرب من الهدف ويفجّر نفسه.

ولعل المنفعة العسكرية الكبرى للتفجيرات الانتحارية تتجلى في رؤية الظواهري الذي يتحدث ببراغماتية مروّعة عن «العمليات الاستشهادية» معتبراً أنها «السبيل الأنجح لإلحاق الضرر بالخصم والأقل كلفة بالنسبة إلى المجاهدين على مستوى الإصابات التي يمكن أن تلحق بهم». ففي العادة، توقع الهجمات الانتحارية إصابات تتجاوز بعشر مرات إلى خمس عشرة مرة ما يمكن تحقيقه في التفجيرات والكمائن التقليدية».

والواقع أن تنظيم القاعدة يوقع باستمرار العدد الأقصى من الإصابات في صفوف عدوه في حين أن خسارته تبقى متدنية. ففي هجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١، بلغت نسبة الانتحاري إلى الإصابة المعدل الأعلى، إذ أودى تسعة عشر انتحارياً بحياة ٢٩٥٥ شخصاً، أي بمعدل ١٥٥,٥ ضحية لكل مهاجم كحد وسطي.

وعلى الرغم من صعوبة القيام بإحصاءات يومية في العراق، نقل تقرير نُشر في صحيفة «بوسطن غلوب» Boston Globe في ١٠ حزيران / يونيو ٢٠٠٥ تصريحاً لمسؤولين في البنتاغون (طلبوا عدم ذكر أسمائهم) جاء فيه أن ما يزيد على ٥٠ في المئة من هجمات التمرّد التي تبلغ نحو ٧٠ هجوماً يومياً (كحد وسطي) ينفذّها اليوم مهاجمون انتحاريون. وصحيح أن معدلات الإصابة تتفاوت على نحو ملحوظ، إلا أن معدلها الوسطي يبلغ تقريباً اثنتي عشرة حالة وفاة في كل هجوم انتحاري، إلا في حال الهجمات الاستثنائية التي يرتفع فيها عدد الإصابات ففي تموز / يوليو العام ٢٠٠٥ على سبيل المثال، فجّر انتحاري نفسه تحت صهريج أطلق كتلة نارية هائلة أودت بحياة أكثر من مئة شخص.

من الناحية اللوجستية، يقود في العادة المهاجم الانتحاري مركبة محمّلة بالمتفجرات ويتجّه بها مباشرة إلى الهدف أو ينسف المتفجرات المثبّتة إلى جسده، أحياناً في حقيبة أو جعبة ظهر (كما حدث في تفجيرات لندن) أو في سترة أو حزام ناسف. والواقع أنه من السهل إعداد حزام ناسف، بل إن مواقع إلكترونية عدة على شبكة الإنترنت تقدّم إرشادات مفصلة عن كيفية تزويد قطعة مستطيلة من نسيج قوي بجيوب تُخبّأ فيها

المتفجرات والصواعق. وإذ يرتدي الانتحاري الحزام الناسف تحت ملابسه، يصبح من الصعب رصده. وأشير في هذا السياق إلى أن نمور تاميل كانوا هم الرائدين في استخدام الحزام الناسف في العام ١٩٩١. فقد أقدمت آنذاك شابة اسمها دانو Dhanu على اغتيال رئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي بعد أن اقتربت منه حاملةً إكليلاً من الزهور. لكن عوضاً من أن تزيّن عنقه بالإكليل، فجّرت نفسها معه. وتماماً كما فعل رجال القاعدة التابعون للزرقاوي في بلاد ما بين النهرين بعد اثني عشر عاماً، حرص نمور تاميل على تسجيل مثل هذه الهجمات على شرائط فيديو لأغراض تتعلق بالمراجعة والتعبئة.

في العراق، تنبثق الهجمات الانتحارية بمعظمها من القاعدة في بلاد ما بين النهرين، ولا ينفّذها عموماً العراقيون، وإنما المجنّدون المتحمسون الذين تدفقوا إلى العراق بالمئات قادمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي ولا غاية لهم إلا الشهادة. ويتبيّن في غالب الأحيان أن هؤلاء الشبّان لم يتلقّوا أي تدريب عسكري، بل لا يجيدون استخدام المسدّس.

أضف أن المنظمة السلفية الجهادية الراعية «جيش أنصار السُنَّة» قد نفّذت هي أيضاً هجمات انتحارية عدة. كذلك اشتهر جيش المهدي التابع لرجل الدين الشيعي مقتدى الصدر بتنفيذ مهمات انتحارية إنما فقط في الحالات المستعصية وعندما لا يكون بالإمكان تحقيق نتيجة مماثلة عبر الوسائل التقليدية.

اللافت أن معظم الثوّار بعثيون سابقون علمانيون أو أفراد سابقون في الجيش يناهضون التفجيرات الانتحارية ويفضلون اعتماد وسائل تقليدية للهجوم، تتمثل في العادة بالقنّاصين ونصب الكمائن وإطلاق قذائف آر بي جي المضادة للدروع. لكن بعض الحقائق الميدانية يشير إلى ظاهرة جديدة تتمثل «بجيل العقوبات» من الانتحاريين العراقيين المولودين في أرض الوطن، أي الشبّان الذين نشأوا في ظل الشدائد التي فرضتها العقوبات الأمريكية عقب حرب الخليج الأولى. وقد تآلف هؤلاء مع جو الإسلام أكثر من آبائهم بفعل السياسة التي اعتمدها صدّام حسين في تسعينيات القرن العشرين، والتي سمحت للإسلام بأن يكون أشد تأثيراً في الحياة اليومية. ويوضح د. هيثم زبيدي،

وهو أكاديمي عراقي يعيش اليوم في لندن، أن «هذا الجيل أكثر انفتاحاً على المعتقدات الجهادية. فشباب هذا الجيل ذاق مرارة الذل نتيجة القمع الأمريكي، وأصغى إلى الأصوات التي كثيراً ما ترتفع في المساجد مطالبة بالثأر».

كانت غالبية الهجمات الانتحارية التي سبقت أحداث ١١ أيلول / سبتمبر تستهدف أهدافاً عسكرية أو مالية أو إدارية توصف «بالأهداف الصعبة». أما استهداف المدنين في المجمّعات السكنية والمطاعم والنوادي الليلية والمساجد وغيرها من «الأهداف السهلة» فثبُت أنه يقوّض الدعم الشعبي للقاعدة (وقد تجلّى هذا الواقع بوضوح شديد في المملكة العربية السعودية في العامين ٢٠٠٣ و٢٠٠٤). لكن القاعدة في بلاد ما بين النهرين تتميّز بحضور مختلف عديم الشفقة فرضه في البدء الراحل أبو مصعب الزرقاوي، وتكشّف عن لا مبالاة مطلقة «بالضرر الثانوي». وفي بعض الأحيان، يعمد الانتحاري الذي ينوي مهاجمة هدف عسكري إلى تفجير نفسه في وقت مبكر أو بشكل غير دقيق، مما يوحي أن رغبة الانتحاري الشخصية في الاستشهاد تستحوذ عليه أكثر من التأثير الاستراتيجي المنشود من هجومه. لكن القاعدة اعتمدت أخيراً في العراق سياسة جديدة تقضي بتوسيع نطاق الأهداف التي تعتبرها مشروعة لتشمل الشيعة، وهذا ما يعزّز احتمالات اندلاع حرب أهلية مذهبية. ولا بد من الإشارة إلى أن الشيخ بن لادن كان في البدء يعترض على الهجمات ضد الشيعة، حتى إنه حثّ الزرقاوي على تفادي إيقاع ضحايا في صفوف المدنيين. لكن الاختلافات بين الرجلين انتهت بإعلانهما التحالف وتأسيس القاعدة في بلاد ما بين النهرين في أواخر العام ٢٠٠٤. ويبدو أن الشيخ بن لادن قد عدل عن رأيه وبات مقتنعاً بأن استراتيجية الزرقاوي في العراق صائبة. هذا ومن الصعب تقويم مستوى الدعم والتعاون بين الثوار العلمانيين والقاعدة. إنما يبدو أن كلاً من الطرفين لا يعوّق بأي حال من الأحوال الطرف الآخر.

في فلسطين، تمتلك اليوم غالبية فصائل المقاومة وحدات انتحاريين. ولعل أكثرها نشاطاً منذ اندلاع الانتفاضة الثانية حركة حماس وكتائب شهداء الأقصى (جزء من حركة فتح) والجهاد الإسلامي الفلسطيني. وحتى عندما تكون المنظمة علمانية، يشكل الجانب

الديني للاستشهاد عاملاً أساسياً في «وحدة الانتحاريين». وتشمل هذه الوحدة خلايا مستقلة عدة، تضطلع إحداها بمهمة تجنيد الأشخاص المناسبين من بين المتطوعين الكثر، في حين تتولى خلية أخرى تدريب «الشهداء الأحياء» (وهو الاسم الذي يُطلق على أولئك الذين على وشك القيام بهجوم انتحاري) وإعدادهم، وتُعنى خلية ثالثة بتحديد «الأهداف».

تبدو هذه البنية التنظيمية متشابهة في فلسطين والعراق والقاعدة. فلكل خلية قائد لا ينفِّذ في العادة العمليات الاستشهادية بنفسه إنما يمهّد الطريق للمجنّدين. وتُعدّ خبرة هذا القائد وتجربته أكثر فائدة من موته. لكن الاستثناء البارز على هذا الواقع تمثّل بمحمد عطا، قائد الفرقة المنفّذة لهجمات ١١ أيلول / سبتمبر الذي قاد الطائرة الأولى بنفسه إلى مركز التجارة العالمية.

من هم الانتحاريون؟

اللافت أن المحاربين الشباب الذين يتدفقون إلى العراق أفواجاً يأتون بأعداد متزايدة من أقرب حلفاء الولايات المتحدة في العالم الإسلامي، وليس من «الدول الراعية للإرهاب» المدرجة على قائمة وزارة الشؤون الخارجية الأمريكية. فأعضاء تنظيم القاعدة كانوا ولا يزالون بمعظمهم يأتون من المملكة العربية السعودية، التي هي ربما أهم صديق للولايات المتحدة في المنطقة. وينظر هؤلاء السعوديون إلى الولايات المتحدة باعتبارها قوة غازية ومحتلة، ومستعمراً مقنّعاً صودف أيضاً أنه مسيحي. والواقع أن لهذا المفهوم تأثيراته النفسية والسياسية المهمة. وبالتالي، فإن أولئك الذين يستجيبون نداء القاعدة من أجل توحيد الصفوف إنما يفعلون ذلك انطلاقاً من رفضهم لما يعتبرونه الغازي الأجنبي الكافر.

ولما كانت الدول الإسلامية منفردة لا تتمتع بالقوة الكافية لصدّ الجيش الأمريكي، فقد يجذب مفهوم اتحاد الأمة من أجل هزم «الغزاة» أولئك الذين يشعرون بإذلال التاريخ لهم

وبالإحباط من واقع أنهم «مضطهدون». لكن استخدام الهجوم الانتحاري، إذا ما ترافق مع الوحدة الدينية للأهداف، يغذّي التوجه القائل إن النصر ممكن في هذه الحرب اللاتناظرية.

أضف أن المواقع الإلكترونية حيث ترد أسماء الشهداء الذين ماتوا في العراق تشكّل خير دليل على التنوّع الكبير للدول التي جاء منها أولئك الشهداء، وضمناً اليمن والجزائر وسوريا والأردن وباكستان والمملكة العربية السعودية والكويت. وتجمع مصادر مختلفة على أن صفوف المجنّدين تضم أعداداً هائلة من المتطوعين «ذوي العيون الزرقاء والشعر الأشقر». وقد وصف خبير أمريكي في الإرهاب(٢) العِرَاق «بمكة الإرهابيين باعتبار أن الغزو الأمريكي حوّل العراق إلى دولة ضعيفة الأمن فيها رخو، ما جعل منها بيئة مثالية للمتطرفين». وإذ ذاك، انتشرت معسكرات التدريب في الجبال شمالي البلاد وفي الصحراء الغربية.

لا شك في أن وجود عدو لا يهاب الموت ولا يقلق على سلامته الشخصية، ولا يسعى إلا إلى تدميرك، مشهد نراه في العادة في أفلام هوليوود المرعبة. فمن الصعب على الكثيرين الاعتراف بأن المهاجم الانتحاري قد يكون شخصاً «طبيعياً» وليس معتلاً نفسياً كما تتصوّره العامة ويصوّره الإعلام. وقد شكّل رسمان للحالة النفسية للمهاجمين الانتحاريين كثيراً ما يتم الاستناد إليهما موضوع تقريرين مظلمين صدرا في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته. فقد خلص عالم النفس الإسرائيلي آرييل ميراري Ariel Merari إلى استنتاج مفاده أن «انتحار الإرهابي... هو في الأساس فعل فردي أكثر منه ظاهرة جماعية. إذ ينفّذه أشخاص يرغبون في الموت لأسباب شخصية». وشخّص

---

(٢) آشلي تيليس Ashley Tellis، مقتطف ورد في مجلة سان فرانسيسكو كرونيكل The San Francisco Chronicle، ٢٠ آذار / مارس العام ٢٠٠٥ («صحراء العراق تتحول إلى مقر رئيسي للتدريب على قتل الأمريكيين " Iraq Desert Becomes Chief Training Ground for Killing Americans"

البروفسور جيرولد بوست Jerrold Post من جامعة جورج واشنطن الحالة «بالذهان الارتيابي»[٣]. وقد صوّر الرجلان المهاجم الانتحاري النموذجي غير متعلم، عاطلاً من العمل، منعزلاً اجتماعياً وغير متزوّج، أي بتعبير آخر كنموذج عن «الغريب» أو «الانعزالي» أو «الفاشل»، وهو نموذج كثيراً ما يجري ربطه بالقاتل النسقي في الدول الغربية. ولا شك في أن هذا التوصيف يعكس الحاجة إلى تصوير التفجيرات الانتحارية «كاضطرابات» غير منطقية.

ويُشار غالباً إلى أن الكبت الجنسي يحفِّز المهاجمين الانتحاريين، ومن هنا الهوس بالحور العين الإثنتين والسبعين الموعود بهن على ما يبدو كل شهيد ذكر لدى دخوله الجنة. فالقرآن الكريم يعد بالطبع بالكثير من الأمور الرائعة في الجنة، على غرار كتب الديانات كافة. ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ [سورة محمد ، الآية: ١٥]. لكن ذكر الحور العين لا يرد في كل وصف للجنة في القرآن الكريم، وإن ورد فعلى الشكل الآتي: ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ [سورة محمد، الآية: ٤٨]. وهؤلاء هن الزوجات المثاليات و«الشريكات المحبات».

هذا ولا ترد في القرآن الكريم أي إشارة إلى عدد الحور العين اللواتي يسكنّ في الجنة، أو إلى كيفية توزيعهن. وإن كان المهاجم الانتحاري مكبوتاً جنسياً، فلا سبب يبرر عدم إقدامه على الزواج بدلاً من تفجير نفسه إلى أشلاء، خصوصاً وأن الإسلام يسمح للرجل بأن يتخذ لنفسه أربع زوجات. فضلاً عن ذلك، كيف يمكن هذه المكافأة أن تحفّز الأعداد المتزايدة من المهاجمات الانتحاريات في فلسطين والعراق؟

يشير قائد الجهاد الإسلامي الفلسطيني رمضان عبد الله شلح إلى أن بعض النصوص

(٣) راجع آرييل ميراري .Merari A، «الاستعداد للقتل والموت: الإرهاب الانتحاري في الشرق الأوسط» The readiness to kill and die: Suicidal terrorism in the Middle East، لدى دبليو رايخ W. Reich (ناشر)، جذور الإرهاب: الحالات النفسية، الأيديولوجيات، الدراسات الدينية، الحالات العقلية Origins of Terrorism: Psychologies، Ideologies, Theologies, States of Mind (واشنطن العاصمة: دار نشر مركز وودرو ويلسون Woodrow Wilson، ١٩٩٠، ص ١٩٢ ـ ٢١٩)، وروبرت أس روبنز Robert S. Robins وجيرولد بوست Jerrold Post، الذهان الارتيابي السياسي: السياسة النفسية للكره Political Paranoia: The Psychopolitics of Hatred (نيو هافن New Haven منشورات جامعات يال Yale University Press, ١٩٩٧).

المعتمدة لدى السُنَّة تشير إلى اثنتين وسبعين من الحور العين، لكنه يضيف منبهاً: «هذا جزء من المكافأة المخصصة للذي يهب حياته لما يعتقده قضية نبيلة في الدفاع عن الحقيقة والعدالة. بمعنى آخر، إن ما يحفّز المهاجمين ليس المكافأة وإنما التنبّه إلى غياب العدالة أو هيمنة النفاق».

ويتمثّل أحد العوامل النفسية التي يستصعب الكثيرون فهمها بواقع أن الحياة والموت يكتسبان قيمتين مختلفتين نسبياً عندما يصبح القتل ظاهرة مألوفة. ففي فلسطين والعراق، لم يعد القتل استثنائياً كما هي الحال في أوروبا مثلاً، بل إنه أصبح شائعاً وجلياً. وقد يكون من الصعب أن نعثر على فلسطيني في قطاع غزة (أو إسرائيلي في القدس) لم يشهد ذبح شخص مقّرب منه. وفي ظل هذه الظروف المتطرفة، لا نستغرب أن ينظر بعض الشباب إلى حياة الفرد ليس باعتبارها شيئاً ينبغي الحفاظ عليه وإنما كتفصيل صغير يمكن التخلص منه في المعركة الفوضوية الواسعة النطاق التي تحيط بهم.

ولا بد من الإشارة إلى أن المهاجمين الانتحاريين لا يملكون جميعاً خلفية اجتماعية واحدة. فهم قد ينتمون إلى النخبة المثقفة في المملكة العربية السعودية كما إلى الأزقة الباكستانية التي تؤوي الأميين والفقراء. وقد أجرت السيدة نصرة حسن العاملة في وحدة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة في قطاع غزة، مقابلات مع ٢٥٠ فلسطينياً يطمحون إلى القيام بهجمات انتحارية واكتشفت أن «أياً منهم لم يكن غير مثقف أو فقيراً إلى حد البأس أو ساذجاً أو ذا ميول انتحارية أو مصاباً بالاكتئاب»(٤).

تبيّن التوصيفات النفسية أن نماذج المهاجمين الانتحاريين تختلف باختلاف الأشخاص. وقد أجرى روبرت آي بايب Robert A. Pape، في دراسة عن الإرهاب الانتحاري تحت عنوان «الموت من أجل الانتصار» Dying to Win، أبحاثاً مكثفة عن الأوضاع الديموغرافية للمهاجمين الانتحاريين. واستنتج بايب أنهم من الناحية النفسية أشخاص طبيعيون تماماً، علماً بأن بعضهم (ولا سيّما في فلسطين) قد تعرّض ربما لصدمة نفسية. واكتشف بايب أيضاً أن العمر الوسطي للمهاجمين يتفاوت بين مجموعة وأخرى.

---

(٤) نصرة حسن، www.electronicintifada.net/v2/article263.shtml, ٧ أيار / مايو العام ٢٠٠٤.

وبالتالي، فإن استنتاجات بايب لا تثبت الرسم الشائع للمهاجمين الانتحاريين كأشخاص في عمر المراهقة (يسهل إذ ذاك التلاعب بهم). والجدير ذكره أن شهداء حزب الله كانوا الأصغر سناً، إذ يبلغ المعدل الوسطي لأعمارهم ٢١,١ سنة فقط، في حين يرتفع هذا المعدل لدى الفلسطينيين إلى ٢٢,٥ سنة. في المقابل، احتل منفّذو عمليات القاعدة المرتبة الثانية في قائمة المهاجمين الأكبر سناً بمعدل وسطي بلغ ٢٦,٧ سنة. أما المعدل العمري الوسطي للانتحاريين الشيشان، فبلغ ٢٨,٨ سنة. ويبدو عموماً أن المهاجمات الانتحاريات أكبر سناً من المهاجمين الذكور، إذ يبلغن في العادة منتصف العقد الثاني من العمر وما فوق.

وفي ما يتعلق بالمستوى التعليمي ومعدل الدخل، اكتشف بايب أن لدى المهاجمين الانتحاريين في العادة مؤهلات علمية تفوق ما يتمتع به الشخص العادي في بلادهم، كما أنهم أقل فقراً منه. فما يزيد على ٥٠ في المئة من المهاجمين الانتحاريين تابعوا تحصيلهم العلمي بعد المرحلة الثانوية، ونحو ٨٠ في المئة يعملون أو ينتمون إلى الطبقة الوسطى، في حين أن نسبة أصحاب الدخل المنخفض أو العاطلين عن العمل لا تتجاوز العشرين في المئة. وعلى سبيل المقارنة، لا تتجاوز نسبة العاملين أو المنتمين إلى الطبقة الوسطى من مجمل الشعب الفلسطيني ٥٠ في المئة، في حين تبلغ نسبة أصحاب الدخل المنخفض ٣٠ في المئة.

أضف أن المهاجمين الانتحاريين ليسوا من المدنيين فحسب. فقد وقعت أخيراً تفجيرات انتحارية نفّذها أفراد من قوى الأمن في المملكة العربية السعودية وباكستان، حيث عمد ثلاثة من رجال الشرطة إلى تفجير أنفسهم في هجمات على مسجد شيعي في كراتشي (في ٧ أيار / مايو ٢٠٠٤) وآخر في كيتا (في ٤ تموز / يوليو ٢٠٠٤). كذلك نفّذ شرطي فلسطيني عملية انتحارية في العام ٢٠٠٤.

اللافت أن لغالبية التنظيمات معايير صارمة في ما يتعلق باختيار المرشحين للمهمات الانتحارية. فعندما كان تنظيم القاعدة متمركزاً في أفغانستان، كان يختار أفضل المرشّحين لهذه المهمات بناءً على توصيات قادة المعسكرات التدريبية. وقد كشفت محادثات مع قادة

حماس ورمضان شلح قائد الجهاد الإسلامي الفلسطيني أنهم يتوقعون توافر الميزات الآتية:

١ ـ الحماسة الدينية التي توفّر للشهيد الاقتناع المعنوي وتشدّ من عزمه على تنفيذ المهمة وتضمن له الحياة بعد الموت.

٢ ـ الشجاعة (يُفضّل اختبارها في حالة قتالية).

٣ ـ التوازن العقلي.

٤ ـ سجل نظيف، باعتبار أن ذلك يقلّص من احتمالات التعرّض للمراقبة.

٥ ـ بلوغ الثامنة عشرة من العمر على الأقل.

٦ ـ ضرورة أن يكون المهاجم الانتحاري أعزب (بالإضافة إلى تفضيل العازبين، يُرفض عادةً في فلسطين الذين لا أشقاء لهم، وأولئك الذين يُعتبرون المعيلين الوحيدين لعائلاتهم).

هذا وتفيد التنظيمات كلها أن «مئات» الشبّان (وأعداداً متزايدة من النساء) يتطوّعون للقيام بعمليات استشهادية.

ويبدو أن لا حاجة فعلية إلى التعبئة الناشطة في فلسطين. فقادة التنظيمات يقولون إن الشبّان يتقدّمون أفواجاً بعد كل غارة أو اغتيال تنفّذه إسرائيل طالبين أن يصبحوا شهداء. وقد صرح باسم عبد الخالق، وهو مدرّس في مدرسة ثانوية في غزّة، بالآتي:

المراهقون يعلّقون على جدران غرف نومهم صور آخر الشهداء بدلاً من صورة النجم أمينم Eminem، والصغار يكتبون بالأقلام اسم الشهيد على أذرعتهم. وعندما يُسأل الأطفال ـ الذين كانوا في السابق يأملون أن يصبحوا أطباء وأساتذة ـ عمّا يرغبون في فعله عندما يكبرون، يجيب الواحد منهم «أريد أن أصبح شهيداً». وفي الملاعب، وبدلاً من التلهي بألعاب «غايم بوي» Game Boy الشهيرة أو بأي لعبة حديثة تلقى رواجاً، يعيد أطفال المدارس الابتدائية تمثيل الاحتفالات التكريمية للشهداء ويتشاجرون حول هوية من سيؤدي الدور الرئيسي(٥).

(٥) مقابلة أجراها المؤلف، كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠١.

لا بد من الإشارة إلى أن العديد من المتطوعين الذين يتوافدون إلى العراق ومراكز تنظيم القاعدة الأخرى يحملون مؤهلات علمية عالية. وقد تخلّوا عن عائلاتهم ومهنهم. فضلاً عن ذلك، يُعتقد أن «المتخرجين» من معسكرات التدريب التابعة للقاعدة في أفغانستان، ولا سيّما الباكستانيين والجزائريين منهم، ينشطون في تجنيد المجاهدين الشباب في أوطانهم(٦).

إلى ذلك، يزداد التوجه إلى تجنيد المجاهدين في أوروبا. ففي العام ٢٠٠٣، وفي إيطاليا تحديداً، جرى التنصت عبر الهاتف على الإمام التونسي مراد طرابلسي وتسجيل حديثه عندما كان يقوم بالترتيبات لإرسال مهاجرين أكراد وآخرين من شمال إفريقيا إلى أنصار الإسلام في شمالي العراق. وفي إيطاليا أيضاً، يخضع اليوم الجزائري عبد الرزاق محجوب للمحاكمة بتهمة المساعدة على إرسال نحو ٢٠٠ مجاهد من أوروبا إلى الزرقاوي في العراق. وقد اتُهم كل من الزرقاوي وأبي مصعب السوري (الخبير الاستراتيجي في القاعدة الذي يُعتقد أيضاً بأنه ناشط في تجنيد المجاهدين) بإرساء شبكة من الاتصالات الأوروبية، تماماً كما فعل د. أيمن الظواهري الذي كان متورطاً شخصياً في توجيه الانتحاريين منفّذي تفجيرات لندن وتدريبهم.

وكثيراً ما يتحدّث هؤلاء المجنّدون الدوليون عن تأثير الشيخ بن لادن الهائل عليهم، مرددين كلامه كمصدر الإلهام الأقوى لإقبالهم على الجهاد. وقد تحدّثت الصحافية اللبنانية هلا جابر عن شاب سافر إلى العراق في العام ٢٠٠٥ للانضمام إلى جماعة الزرقاوي ووصف شعوره «بالتغيّر» بعبارة تعكس على نحو مخيف الرصيد اللغوي المسيحي المتطرف، وأشار إلى أنه «أصبح واحداً من رجال الشيخ أسامة». وإذ أثارت اهتمامه في البداية إحدى الخطب المسجّلة للشيخ بن لادن، راح يتعقّب كل ما يتعلق بالشيخ على شبكة الإنترنت قبل أن يعقد العزم على تقديم نفسه شهيداً.

---

(٦) وكالة الأنباء أ.ف.ب. AFP، ٧ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٢.

لمَ يفعلون ذلك؟

﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾ [سورة التوبة، الآيتين: ٣٨ ـ ٣٩].

تشكل هاتان الآيتان من سورة «التوبة» في القرآن الكريم نموذجاً للحضّ الديني المستخدم في نداءات الشيخ بن لادن والزرقاوي المتكررة إلى الجهاد، والتي يُنشر معظمها اليوم على شبكة الإنترنت. ولا ينبغي التقليل من شأن قوة هذا التشديد على الشرف والواجب الديني والرغبة في الموت ونعيم الآخرة.

يشير الدكتور إياد سرّاج، وهو طبيب نفسي في غزة، إلى أن المهاجمين الانتحاريين «لا يؤمنون بأنهم سيموتون، بل بأنهم سينتقلون إلى حياة جديدة هي بالنسبة إليهم حياة أفضل». لكن هذا لا يعني أن المهاجمين الانتحاريين يتصرفون بدافع من اليأس الشخصي. فالدكتور سرّاج يشير أيضاً إلى أن المهاجمين يكونون في العادة أشدّ تصميماً في عائلاتهم. وهم ينظرون إلى عملهم باعتباره تحركاً إيجابياً الغاية منه فرض التغيير في واقع آخر بائس، وهو تحرك سيعود أيضاً على المهاجم بالمكافأة الشخصية الموعودة، أيّ الجنة.

لكن الزخم الديني ليس نهاية المطاف. فالتحفيز السياسي ضروري أيضاً، وتزداد أهميته أو تقلّ بحسب السياق التاريخي. وقد كتب الشيخ بن لادن في «إعلان الجهاد ضد الأمريكيين...» ما يأتي: «إن إرهابنا لكم وأنتم تحملون السلاح على أرضنا هو أمرٌ واجبٌ شرعاً ومطلوبٌ عقلاً». وفي حالة كل من فلسطين والعراق، يواجه المهاجمون الانتحاريون قوة محتلة. وكما سبق أن أشرنا أعلاه، يستنكر الشيخ بن لادن على نحو صريح فكرة تمركّز القوات الأمريكية في شبه الجزيرة العربية. وقد كان الهدف من تفجيرات مدريد ولندن إخراج قوات التحالف من العراق. وفي حالة إسبانيا، حقق الهجوم الهدف المنشود.

ويبدو أن العاملين الظرفيين الأبرز اللذين جعلا من الهجوم الانتحاري يتجلى كسلاح في عصرنا هما وجود قوة محتلة والإسلام المتطرف، لكن العامل الأول هو الأساسي. فمقاتلو نمور تاميل أو الجبهة الوطنية لتحرير فييتنام ليسوا مسلمين. ولعل واقع الاحتلال هو ما يولّد ظاهرة التفجيرات الانتحارية. فالكره الشائع للولايات المتحدة في العديد من الأراضي الإسلامية لا تحفّزه فقط الاختلافات الدينية، بل يشكل أيضاً رد فعل على جدول الأعمال الأمريكي الجلي في هذه الأراضي.

ولعله من المثير للاهتمام أن نلاحظ التوازن بين المقتضيات الدينية والسياسية في «الرغبات والوصايا الأخيرة» لثلاثة من المهاجمين الانتحاريين ترد أدناه. ويتعلق المثال الأول بمقتطف آخر من «الوصية الأخيرة» للمهاجمة الانتحارية الشابة الفلسطينية هجيرة العربي:

لا أريد الموت. أنا لست مغرمة بالموت، بل «لست نصف مغرمة بالموت المريح» على غرار الشاعر الإنكليزي. أنا أريد أن أعيش. أريد أن يكون لي بيت يضج بالأطفال، وما زلت أريد أن أصبح طبيبة. فمنذ كنت في السادسة من العمر تقريباً وأنا أحلم بأن أصبح طبيبة قادرة على إنقاذ الآخرين. أردت أن أقوم بعمل حقيقي ينقذ حياة شعبي. لكنني أدرك الآن أن إنقاذ حياتهم قد يكون بطرق عدة، وأن القضاء على حياة البعض قد يكون جزءاً من مسار إنقاذ حياة آخرين. وها أنا اليوم أتحضر للقضاء على حياة البعض كي أنقذ شعبي.

وفي ما يأتي مقتطف من «الوصية الأخيرة» لأحد خاطفي الطائرات في أحداث ١١ أيلول / سبتمبر وهو أحمد الحزناوي السعودي المولد. وقد كتب الحزناوي هذه الوصية قبل الهجوم بخمسة أشهر:

لقد ولّى زمن الذلّ والاستعباد وآن الأوان لقتل الأمريكيين في ديارهم، بين أطفالهم وعلى مرأى من قواتهم العسكرية والاستخباراتية. يا الله أنا أهب نفسي إليك، فاقبلني شهيداً. اقبلني في جنّات عدن... عسانا ننضم فيها إلى الأنبياء والمقدسين والشهداء والأتقياء. وهؤلاء هم أفضل الأصحاب.

أما المحتوى الديني والبلاغي للوصية الأخيرة، فمطبوع بنهج الشيخ بن لادن وتنظيم القاعدة. ويبدو جلياً أن الأسلوب والمحتوى كانا قد شهدا المزيد من التحسينات في الوقت الذي أدلى المهاجم الانتحاري بروا الكردي في العام ١٩٩٤ بالتصريح المسجّل التالي قبل هجومه على قافلة للجيش الأمريكي في العراق، مودياً بحياة أكثر من ثلاثين جندياً ومتسبباً بتدمير عدد من الدبّابات والآليات المدرّعة:

سأقوم بتنفيذ هذه العملية الانتحارية؛ ويجدر بالمسلمين كافة أن يعلموا بأنه لم يعد لديهم أي حجة للتقاعس عن مواجهة الكفّار فيما نرى المسلمين يتعرّضون للذل والهوان على أيدي هؤلاء الصليبيين تحت إمرة الولايات المتحدة التي تلطخت يداها بدماء آلاف المسلمين. لقد أصبح الجهاد اليوم واجباً فردياً للمسلمين كافة، من أجل إعادة حكم شريعة الله عزّ وجلّ. وليعلم المسلمون أن الكفّار أضعف مما يتصوّرون. آمل أن يتقبّل الله شهادتي.

يعتبر معظم مقاتلي القاعدة أنهم أفراد في الأمّة يسعون إلى غاية طويلة الأمد هي إعادة إرساء الخلافة. أما طرد الولايات المتحدة من العراق، فليس إلا خطوة أولى على طريق رحلتهم الإيديولوجية هذه، فالمقاتلون الذين يتدفقون إلى العراق أفواجاً يسعون بعزم إلى خوض المعركة؛ وفي فلسطين، هم يشعرون بأن لا خيار آخر لديهم.

أضف أن للتشريفات التي تُغدق بسخاء على الشهيد سحرها الخاص، خصوصاً أنها ترتقي بالشاب العادي إلى منزلة البطل الخارق. ففي فلسطين، تطوّرت ثقافة احتفالية كاملة في ما يتعلق بالشهادة على الرغم من أن إسرائيل تردّ الإساءة بمثلها، فتسوّي دباباتها منزل عائلة الشهيد بالأرض بغض النظر عما إذا كان المنزل مأهولاً أم لا. هذا وتُعلق صور آخر الشهداء على الجدران وتُنصب قرب منزل العائلة خيمة للشهيد تُعرض فيها صوره و«وصيته الأخيرة». وبدلاً من النحيب، تجتمع عائلة الشهيد وأصدقاؤه ورفاقه في التنظيم للاحتفال. وفي العادة، يدفع التنظيم الذي كان الشهيد ينتمي إليه ثمن الخيمة والطعام الذي يُقدّم في الاحتفال عن روحه.

تزخر شبكة الإنترنت بشرائط مصوّرة لعمليات انتحارية نُفِّذت في العراق. أما الغاية من

هذه الشرائط، فهي تمجيد العمل وتكريم الشهيد وإثبات الفوز في المعركة وحثّ آخرين على القيام بالمثل. وقد أدرك الراحل الزرقاوي ما لهذه التسجيلات من تأثير هائل، حتى إن كل مهاجم انتحاري في العراق يُرسل اليوم مع ثلاث آلات تصوير لالتقاط صورة الهجوم من زوايا عدة مختلفة. وكثيراً ما تكون الصور في الشرائط شديدة الدقة، ويتم إنتاجها وإعدادها بشكل متقن لتنشر على شبكة الإنترنت بعد مرور بضع ساعات فقط على التقاطها.

ولعل أكثر أنواع الهجمات المصوّرة في العراق شيوعاً هو تفجير السيارات أو الشاحنات. وفي العادة، فيما يقود المهاجم الانتحاري السيارة أو الشاحنة باتجاه «الهدف»، ترافق المشهد أناشيد جهادية حماسية تُغنى بتآلف من دون أن يصحبها عزف (الآلات الموسيقية محط استنكار السلفيين). ويتوجّه المهاجم مباشرة صوب هدفه من دون تردد على وقع صيحات متكررة ومبجّلة يطلقها طاقم التصوير ورفاقه.

وفي سياق إشادة الشيخ بن لادن بشهداء أحداث ١١ أيلول / سبتمبر عبر شاشات التلفزة(٧)، سمعناه يصف المهاجمين الانتحاريين التسعة عشر «بالرجال الذين طهّروا تاريخ الأمة عبر الهجمات على نيويورك وواشنطن». ويؤكد الشيخ بن لادن أن «تضحيتهم هي السبيل الوحيد لوقف طغيان الكفّار». وإذ يعيدنا الشيخ بن لادن بالذاكرة إلى التاريخ الإسلامي الأول عندما كانت الأمة تزداد قوة وتوسّع دائرة نفوذها بفعل الجهاد المستمر عبر القرون، يستحدث حاجة تاريخية ملحمية وحسّاً جماعياً بالهوية التاريخية والدينية. فمن الجلي أن ما قاله الشيخ بن لادن كان يعبّر عما يشعر به العديد من المسلمين.

وفي البثّ المتلفز نفسه، أطرى الشيخ بن لادن المزايا الشخصية «للشهداء» مستخدماً أوصافاً شعرية موجزة ومعززاً الغموض الذي يحيط بهم عبر تصويرهم أشخاصاً متفوقين أخلاقياً وفكرياً وروحياً. وجاء في توصيفه: «محمد عطا، الذي فجّر البرج الأول، رجل رزين ومبدع؛ لقد كان صادقاً وحمل آلام الأمة. نأمل أن يقبله الله تعالى شهيداً... مروان الشهي، مفجّر البرج الثاني، كانت الحياة تريده لكنه هرب منها سعياً وراء ما يخبّئه الله

(٧) قناة الجزيرة الفضائية، ١٢ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠٢.

تعالى له». كذلك يصف الشيخ بن لادن الشهداء الآخرين «بالطاهر» و«العاقد العزم والحازم والبطل والشجاع» و«المتواضع» و«الصبور» و«المحب للجهاد». وفي مناوشة نادرة مع العالم الحديث، يصف الشيخ بن لادن خاطف طائرة آخر كان رجل علم بالقول «لقد تحرر الآن من كونه أسير رواتبهم».

ويرى الشيخ بن لادن أن شخصية الشهيد تُهذّب على نحو لا عيب فيه من خلال الواجب الديني والشهادة التي تشكّل «التضحية العظمى»، وهي سيف ذو حدين يضمن نجاة الفرد الشخصية من الضلال فيما يلحق ضرراً مميتاً بالعدو.

في تنظيم القاعدة، حتى العمليات العسكرية المدمِّرة لا تخلو من مسحة تصوّف. وكثيرة هي الروايات التي تتحدث عن إيمان الشيخ بن لادن بصحة الأحلام، على أن هذه الأحلام تشكّل موضوعاً لأحاديث متكررة بين أتباعه. وأكثر من ذلك، زعم رمزي بن الشيبة، أحد المخططين لعملية ١١ أيلول / سبتمبر أن اختيار تاريخ الهجوم جاء نتيجة أحد أحلام محمد عطا. ويقول بن الشيبة في هذا الإطار: «لقد رأى عصوين بينهما خط. ورأى قالب حلوى تتدلى منه عصا». وإذ أدرك أن ما رآه يجسّد الرقمين ١١ و٩، نقل الخبر إلى الأخ أبي عبد الله (الشيخ بن لادن) الذي اعتبره «بشرى سارة»[٨].

أما في فلسطين، فالمقاربة دنيوية أكثر، والغاية أكثر تحديداً وارتباطاً بالواقع المحلي، والتجربة شخصية أكثر. فالمهاجمون الانتحاريون الفلسطينيون يعملون في العادة بدافع من شعورهم بالغضب والظلم الناجم عن شدائد الحياة تحت نير الاحتلال الإسرائيلي الذي يذيقهم ألوان الذل والقهر عند نقاط التفتيش، فيما فرص العمل تبقى بعيدة المنال على نحو مغيظ حتى بالنسبة إلى أصحاب المؤهلات العلمية العالية. والواقع أن العديد من الشهداء يتحدثون عن الرغبة في «تحرير» الأرض والشعب من «الطغيان» الإسرائيلي. وبالتالي، لا بد من الثأر. وقد حكى والد الشاب رائد زكارني البالغ من العمر تسعة عشر عاماً أن جيش الدفاع الإسرائيلي عذّب ابنه في السجن وهدده بالاغتصاب. ويقول الوالد إن «رائد كان قد تغيّر إلى حدّ صعب التعرّف إليه» لدى خروجه من السجن.

(٨) مقابلة مع قناة الجزيرة، ١٥ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠٢.

وبعد فترة وجيزة، هاجم بسيارة محمّلة بالمتفجرات محطة باصات إسرائيلية. والواقع أن مقتل طفل أو زوجة أو صديق يشكل مكوّناً شائعاً في «كوكتيل مولوتوف» الذي يختمر في نفس الشهيد. وإذ ذاك، لا يمكن إلا أن تُستتبع الاعتداءات والاغتيالات الإسرائيلية بمهمّات انتحارية انتقامية.

أضف إلى ما تقدم أن الصحافة الغربية أبدت اهتماماً مبالغاً فيه، بالتعويضات المالية التي تُقدّم إلى عائلات المهاجمين الانتحاريين. فقيل في إحدى المراحل إن صدّام حسين يقدّم لكل عائلة شهيد مبلغاً قدره ٢٠ ألف دولار أمريكي بعد تنفيذ الهجوم. إنما لا معلومات وافية اليوم عن وجود أي تعويضات مالية. فمنذ أحداث ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١ تراقب الولايات المتحدة التبادلات والتحويلات المالية من المصارف العربية وإليها، لضمان عدم تقديم مثل هذه التعويضات. لكن لهذا التدبير انعكاسات أخرى غير متعمدة. فباعتبار أن الدول الإسلامية بمعظمها، تفتقر إلى نظام للضمان الاجتماعي، يشكل الإحسان جزءاً راسخاً في الثقافة. وعليه إن حدث على سبيل المثال أن أحسن أحدهم بمبلغ مالي إلى طالب فقير عمد لاحقاً إلى تنفيذ هجوم انتحاري، قد يتعرّض المحسن للسجن بتهمة تمويل الإرهاب ودعمه، علماً بأنه لم يكن على علم بنيّات الطالب. (وهذا هو تحديداً السيناريو الذي خبرته الأميرة هيفاء من المملكة العربية السعودية، زوجة السفير السعودي في واشنطن الأمير بندر. فقد تبرّعت بالمال نزولاً على رغبة طالب لا تعرفه تبيّن لاحقاً أنه من أفراد تنظيم القاعدة). لكن في أي حال، إن كان المكسب المالي هو ما يحفّز القنبلة البشرية، فإن التعاون مع قوى الأمن يدر المكسب نفسه ولا يتطلب الانتحار.

على أن الحقيقة أكثر تعقيداً. فالرجال والنساء الذين يتحولون مهاجمين انتحاريين يشعرون على ما يبدو، بأن بمقدورهم المقاومة واستعادة الكرامة المهدورة من طريق تنفيذهم العمليات الاستشهادية. وهذا ما يؤكده قول والد مهاجم انتحاري فلسطيني ومفاده: «إبني لم يكن متطرفاً، وما دفعه إلى التطرف هو الغضب والهوان... فنحن نعيش في سجن»[(٩)].

(٩) روبرت آي بايب Robert A. Pape، الموت من أجل الانتصار Dying to Win، ص ٢٣٣.

الاستشهادية ـ ظاهرة الشهيدة الأنثى

تشكّل الاستشهادية (أي الشهيدة الأنثى) سلاحاً فعّالاً خاصاً، ليس على المستوى الاستراتيجي فحسب (باعتبار أن بلوغها الهدف من دون إثارة الشبهات أكثر سهولة) إنما أيضاً على المستوى الدعائي. فمن الناحية التقليدية، وهكذا هي النزعة على ما يبدو، لا تذهب النساء عموماً إلى الحرب. وبحسب المنطق، لا بد من أن يكون وراء إقدام المرأة على القتل وأيضاً على التضحية بحياتها في سياق ذلك موجب محق.

والواقع أن ظاهرة النساء الانتحاريات ليست حدثاً غير مألوف. فما نسبته ٣٠ إلى ٤٠ في المئة من مجمل الهجمات الانتحارية التي يتبنّاها نمور تاميل، نفّذتها نساء. كذلك يجنّد الثوار الشيشان عدداً كبيراً من النساء المحاربات اللواتي يُعرفن باسم «الأرامل السود» المرعبات. وقد تحدثّت الروايات أخيراً عن أرملة من أوزبكستان تدرّب النساء الباكستانيات في الأقاليم القبلية في معسكرات خاصة للنساء فقط[(١٠)]. لكن عدد الاستشهاديات من المنظمات الفلسطينية ظل ضئيلاً حتى المدة الأخيرة (علماً بأن كل منظمة فلسطينية مقاومة قد عمدت حتى الآن إلى تجنيد مهاجمات انتحاريات ضد أهداف إسرائيلية).

أما القاعدة، فقد ظلت تعارض بشدّة استخدام المهاجمات الانتحاريات لأسباب دينية. لكن الثامن والعشرين من أيلول / سبتمبر شهد تحولاً جلياً في السياسة عندما أقدمت امرأة متنكرة بملابس رجل على نسف متفجرات ثُبتت إلى جسدها فيما كانت تقف في الصف مع المتطوعين للانضمام إلى الجيش في بغداد، فقتلت على الأقل ستة منهم وتسببت بجرح خمسة وثلاثين. وقد تحدّث الزرقاوي عن إقبال عدد كبير من المتطوعات النساء على القيام بمثل هذه المهمات، وسارع تنظيمه إلى تبنّي مسؤولية الهجوم واصفاً المرأة التي نفّذته بأنها «أخت مباركة». ولم يصدر آنذاك أي تعليق على الموضوع عن الشيخ بن لادن أو الظواهري.

---

(١٠) وكالة الأنباء Press Trust of India، ١٨ أيار / مايو العام ٢٠٠٤.

ولا بد من الإشارة إلى أن ظاهرة المهاجمات الانتحاريات أثارت بعض الجدل في أوساط المجتمع الإسلامي الذي يتوقع من المرأة أن تضطلع بدور التربية ويفرض عليها ذلك. أما على المستوى الديني، فالمسألة لا تزال موضع جدل كبير.

فبحسب حديث شريف نقله أحمد بن حنبل، سألت عائشة أم المؤمنين، زوجة النبيّ محمد (ص): «يا رسول الله هل على النساء جهاد؟»، فقال: «جهاد لا قتال فيه». وقد تمسّكت المجموعات السلفية الجهادية بالموقف الذي يقول إن على النساء دعم رجال العائلة وتشجيعهم على الجهاد، إنما لا ينبغي لهن أن يشاركن في القتال.

لكن في آب / أغسطس العام ٢٠٠١، أعلنت المحكمة الإسلامية العليا في المملكة العربية السعودية أنه يحق للمرأة أن تنضم إلى الجهاد، لا بل يجدر بها أن تفعل ذلك. وفي العام ٢٠٠٢، أقرّ الشيخ عبد الله نمر درويش، مؤسس الحركة الإسلامية في إسرائيل، ما جاء في هذا الإعلان بالقول «لقد وقّعت إسرائيل مذكرة موت ضد الفلسطينيين، وبالتالي من المنطقي أن تنضم النساء إلى الكفاح». لكن الجهاد الإسلامي الفلسطيني وحركة حماس ظلا يعترضان على مشاركة النساء في الجهاد حتى العام ٢٠٠٤.

هذا وانقسمت المنظمات الإسلامية الفلسطينية في شأن ما إذا كان ينبغي أن يرافق الاستشهادية أخوها أو أبوها حفاظاً على شرفها. فقد سارع بعض المعلقين الإسرائيليين إلى التشكيك في شرف أولى المهاجمات الانتحاريات زاعمين أن الدافع لإقدامهن على ذلك العمل هو الزنى أو الحمل أو غير ذلك من الخطايا.

أما أول مهاجمة انتحارية فكانت شابة في السادسة عشرة من العمر تُدعى سناء محيدلي التي قادت شاحنة متفجرات في العام ١٩٨٥ وفجرتها في قافلة لجيش الدفاع الإسرائيلي، فقتلت جنديين. وكانت سناء محيدلي شابة مسيحية تنتمي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي.

وفي كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٢، أصبحت وفاء إدريس، وهي مساعدة طبية من كتائب شهداء الأقصى، أول مهاجمة انتحارية فلسطينية. وقد نفّذت آنذاك هجومها في القدس، فقتلت مواطناً إسرائيلياً في الحادي والثمانين من العمر وجرحت أكثر من عشرة.

وفي العام ٢٠٠٣، أقدمت أول استشهادية للجهاد الإسلامي الفلسطيني، وهي هبة دراغمة ابنة التسعة عشر عاماً، على قتل ثلاثة أشخاص في مركز تسوّق إسرائيلي. ولعل أشهر استشهادية فلسطينية هي هنادي جردات من جنين، المحامية البالغة من العمر تسعة وعشرين عاماً والمنتمية أيضاً إلى الجهاد الإسلامي الفلسطيني، وقد فجّرت نفسها في تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٣ في مطعم مكسيم في حيفا، فقتلت ٢١ شخصاً. ولم تسمح حركة حماس بالهجمات الانتحارية النسائية إلا في الرابع عشر من كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٤، وكانت الانطلاقة مع ريم الرياشي التي قتلت أربعة جنود إسرائيليين عند إحدى نقاط التفتيش. وكانت ريم أماً لطفلين، أحدهما في الثالثة من العمر والآخر لا يزيد عمره على سنة واحدة(١١).

من الجلي أن المُهاجمات الانتحاريات الوحيدات اللواتي يمكن إجراء مقابلات معهن هنّ إمّا أولئك اللواتي يتحضرّن لتنفيذ هجوم انتحاري أو اللواتي فشلن في ذلك لسبب أو لآخر. وإذ سُئلن عن دوافعهن، أجابت نسبة كبيرة منهن بأن الدافع هو الثأر. والجدير ذكره أن حزب «الأرامل السوداوات» الشيشاني يضم في صفوفه العديد من الأرامل أو من النساء اللواتي فقدن أحباءهن في معركة الاستقلال عن روسيا.

أجرى التلفزيون الأسترالي في شباط / فبراير مقابلة مع الفلسطينية عبيدة خليل في زنزانتها في سجن حشرون في إسرائيل. وقد احتُجزت عبيدة خليل في ذاك السجن مع خمس وسبعين سجينة أخرى إما تمّ اعتقالهن في أثناء توجههن للقيام بعملية انتحارية وإما ساعدن أخريات على بلوغ الهدف، وتصف الأسيرة عبيدة الأسباب التي دفعتها إلى تنفيذ المهمة الانتحارية الفاشلة، فتقول: «كنت لا أزال صغيرة عندما انطلقت الانتفاضة الأولى، لكنني رأيت كيف كان الإسرائيليون يقتلون أطفالنا الصغار ويدمّرون منازلنا... وفي خلال الانتفاضة الحالية كنت مخطوبة، لكن الإسرائيليين قتلوا خطيبي قبل أربعة أيام من موعد الزفاف. أخي وابنة عمي سقطا أيضاً شهيدين».

---

(١١) معهد الدراسات الاستراتيجية، الجيش الأمريكي، حزيران / يونيو العام ٢٠٠٤.

كذلك أجرت صحيفة «العرب اليوم» مقابلة مع هنادي جردات قبل أن تفجِّر نفسها بأربعة أشهر. وفي المقابلة، شرحت المهاجمة الانتحارية كيف أن شقيقها الأصغر سناً استشهد، وكان من المفترض أن يتزوّج بعد ثلاثة أيام، قُتل على مرأى أفراد العائلة على يد وحدة سرية إسرائيلية جاءت لإعدام ابن عمها صالح الذي كان هو أيضاً حاضراً. وقد حاولت هنادي أن تحمي أخاها لكن الإسرائيليين انهالوا عليها بالضرب وأفرغوا رشاشاتهم في جسدَي أخيها وابن عمّها صالح. وقالت هنادي جردات في المقابلة: «منذ أن رأيت جسد أخي مضرجاً بالدماء، عقدت العزم على أن يكون لي دور في تحرير فلسطين. وهذا الهدف أكبر من ألمي الخاص وأهم».

وفي كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٣، أجرت الصحافية هلا جابر مقابلات مع تسع مهاجمات انتحاريات قيد التدريب. وكن قد غيّرن أسماءهن إلى «ثورة» و«جهاد» و«تحرير» و«نور» وما شابه ذلك من أسماء «استعداداً للموت». وكان بعضهن أمهات (إحداهن لديها خمسة أطفال) وأخريات في سن المراهقة. وأكثر ما كان يخيف أولئك المهاجمات لم يكن فكرة الضغط على زر الصاعق وإنما اكتشاف عائلاتهن لما يتدربّن على فعله ومنعهن من تنفيذ المهمة[١٢].

ويبدو أن الاستشهاديات قد أطلقن العنان للمخيلة الشعبية في جميع أنحاء العالم الإسلامي. فقد صفّق المسلمون لهن وكأنهن نسخ إسلامية عن جاندارك ومدحوهن في الأشعار. ومثال على ذلك أن غازي القصيبي، جرح مشاعر الكثيرين في بريطانيا في آب / أغسطس العام ٢٠٠١ ـ وكان آنذاك يشغل منصب السفير السعودي في لندن ـ عندما نشر في صحيفة «الحياة» قصيدة يمتدح فيها المهاجمة الانتحارية الفلسطينية آيات الأخرس. وعقب ذلك، عُزل من منصبه، مع العلم أنه «رُكل إلى أعلى» لدى عودته إلى الرياض لاحقاً إذ جرى تعيينه وزيراً في وزارة استُحدثت خصيصاً لأجله هي وزارة الطاقة المائية. وفي ما يأتي بضعة أسطر من القصيدة التي رأى فيها البريطانيون إساءة:

(١٢) هلا جابر، «المنتقمات» The Avengers، صحيفة صانداي تايمز Sunday Times، ٧ كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٣.

قل «لآيات» يا عروس العوالي
كل حسن لمقلتيك الفداء
حين يُخصى الفحول.. صفوة قومي
تتصدّى للمجرم الحسناء
تلثم الموت وهي تضحك بشراً

الإعداد

بعد سلسلة من النقاشات والمقابلات، توصلتُ إلى الحقائق الأساسية التالية في ما يتعلق بالإعداد للمهمات الانتحارية التي يتولاها تنظيم القاعدة والمجموعات الفلسطينية على السواء.

يخضع الذين تختارهم قادة المقاومة لتنفيذ الهجمات الانتحارية لتدريبات على النواحي العملية للمهمة، كما يتم إعدادهم نفسياً ودينياً بغية تمكينهم من وضع حد لحياتهم ولحياة آخرين. ويبدو أن الانضباط والحسّ بالمسؤولية ضروريان كما في كل حرب، إذ لا مجال لإبداء أي تعاطف أو شفقة في صراع حتى الموت. ولا شك في أن المصطلح الازدرائي المشترك «كافر» يسهم بشكل فعال في تجريد العدو من إنسانيته أو ذاتيته التي يمكن أن تثير تورطاً عاطفياً مع الضحية.

وفي معسكرات التدريب الفعلية، يحكم نظام صارم البرنامج اليومي الذي يبدأ بصلاة الفجر تليها التدريبات الرياضية الشاقة. أما فترات ما بعد الظهر، فيمضيها المتدربون في تعلّم كيفية تفكيك وتنظيف واستخدام المسدسات وقذائف آر بي جي وغيرها من الأسلحة الخفيفة. في المقابل، تبذل أجهزة الأمن الإسرائيلية جهوداً متزايدة لرصد المهاجمين الانتحاريين المحتملين، مما يجبر المهاجمين الفلسطينيين في غالب الأحيان على أن يشقّوا طريقهم بسرعة إلى الأهداف التي تلقى حماية شديدة. وإن لم تتفجر المتفجرات لسبب أو لآخر، يُتوقع بالمهاجم الانتحاري أن يطلق النار على نفسه لتفادي اعتقاله واستجوابه. وكما هي الحال في أي جيش، فإن الذوبان في المهمّة والحسّ بالهدف

المشترك والمعتقدات المشتركة والانضباط كلها عوامل تعزز الشجاعة المعنوية والعزم على الموت في سبيل القضية.

وقد عمد أخيراً الموقع الإلكتروني «البتار» الخاص بمعسكرات القاعدة التدريبية، وغيره من الموارد التدريبية على شبكة الإنترنت، إلى توسيع نطاق تجنيد المتطوعين. وبالتالي، لم يعد لزاماً على الشباب أن يحضروا شخصياً إلى المعسكرات. فقد بدأنا نشهد نشأة نموذج من مجموعات تضم شباباً يتشاركون في التفكير نفسه، يشكّلون «خلية» على المستوى المحلّي، ويتزودّون بالأسلحة والمتفجرات، ويدرّبون أنفسهم بالاستناد إلى كتيّبات القاعدة الإرشادية.

يتدرب المجنّدون على حمل ٢٠ إلى ٣٠ كيلوغراماً من المتفجرات يوزعونها حول أجسادهم أو يوضبونها في أحزمة أو سترات ناسفة. فمثل هذا الوزن الثقيل قد يؤثر في مشية الشخص، على نحو قد يثير الشكوك. كذلك يتعلّم المجنّدون كيفية التعاطي مع المتفجرات وربط بعضها ببعض قبل أن يتظاهروا بتفجير أنفسهم إلى أشلاء لدى الضغط على زر الصاعق. وفي العادة تُربط المتفجرات إلى زرين، إذ ربّما تعطّل أحدهما.

هذا وتشكّل شرائط الفيديو الخاصة بعمليات سابقة مصدر إلهام وإرشاد للمجنّدين الجدد. وفي السياق نفسه، يتم تفصيل لوجستيات الهجوم وتحليلها إلى جانب البحث في العوائق الفعلية والمحتملة والتعاطي معها من الناحية الفرضية.

وفي العادة، لا يعرف المجنّدون بأن الاختيار وقع عليهم للمهمة الانتحارية إلا قبل بضعة أيام من موعد التنفيذ. فهذا التدبير يسمح بتفادي إمكانية أن يجبن «الشهيد الحي» (وهو اللقب الذي يُطلق على أولئك الذين يستعدون لتنفيذ العمليات الانتحارية) أو يخبر عائلته التي قد تسعى في هذه الحالة إلى منعه من تنفيذ المهمة. وفي الحالة الوحيدة المعروفة عن «شهيد حي» (الفلسطيني محمد فرحات البالغ من العمر تسعة عشر عاماً) أخبر والدته بأنه على وشك القيام بعملية استشهادية، باركته الأم وأعطته نصيحة أخيرة عندما قالت له: «لا تتردد يا بنيّ وتذكّر أن الله تعالى معك في كل خطوة... اضرب بكل ما لديك من قوة ضد العدو». والواقع أن هذه المرأة، أم نضال، كانت قد رأت ولدين آخرين

لها يموتان لدى تنفيذهما هجومين انتحاريين.

أما معظم المعلومات الواردة أدناه، فتتعلق بالتنظيمات الفلسطينية، علماً بأن القاعدة تعتمد على الأرجح أساليب مشابهة عندما يسمح الوقت بذلك. ففي العراق، يوحي الدفق البشري المتواصل من المهاجمين الانتحاريين أن لا وقت للتحضيرات، وأن المجنّدين يصلون وهم إلى حد ما على أهبة الاستعداد للموت.

في فلسطين، يمضي «الشهيد الحي» بضع ساعات في حديث خاص مع القائد، فيناقش الرجلان ما سيحدث ويتلوان آيات من القرآن الكريم. ويطمئن القائد المجنّد إلى أن مهمته ليست انتحاراً ـ ذلك أن الانتحار خطيئة كبرى في الإسلام ـ وإنما شهادة يُستخدم فيها جسده كسلاح. هذا وتركز المناقشات والتلاوات بمعظمها على المكافأة التي تنتظر الشهيد في الجنة.

وفي إحدى مراحل الإعداد، يصوّر «الشهيد الحي» شريط فيديو عن «رغبته ووصيته الأخيرة». وبالإضافة إلى الدعوة التي يوجّهها الشهداء الأحياء إلى عائلاتهم وأصدقائهم بألا يحزنوا لرحيلهم، تضمن شرائط الفيديو هذه توفير دفق جديد من المجنّدين الذين يجدون فيها مصدراً ملهماً... أضف أن هذه الشرائط تجعل من الصعب على «الشهيد الحي» أن يتراجع عن قراره في حال رغب في ذلك.

وإذا تبيّن من التقييمات أن «الشهيد الحي» ملتزم وثابت في قراره ومستعد للإنطلاق، تبدأ مرحلة الإعداد الأخيرة التي يمكن أن تستمر بضع ساعات أو بضعة أيام يختلي خلالها «الشهيد الحي» بنفسه ومعه القرآن الكريم طلباً للتأمل الفردي. ويُقال إن «الشهيد الحي» يبلغ الذروة الروحانية للإيمان المطلق والراسخ الذي لا يمكن زعزعته والذي يمكّن «الشهيد الحي» من تفجير القنبلة التي يحملها أو قيادة المركبة المحمّلة بالمتفجرات مباشرة إلى الهدف من دون أي تردد. والجدير ذكره أن تقنيات الإعداد هذه تعود بجذورها إلى ممارسات «حزب الله» في أوائل ثمانينات القرن العشرين عندما جرى إرساخ المبدأ القائل إن الاستعداد الروحاني والنفسي من خلال الدين عامل أساسي.

إلى ذلك، تضطلع خلية مستقلة في وحدة الانتحاريين بمسؤولية الاستطلاع. فيحتفظ

القادة بقائمة بالأهداف المحتملة، علماً بأن المجندين قد يطرحون أفكارهم الخاصة في بعض الأحيان، ويقترحون على سبيل المثال هدفاً تعرض عنده أحد أفراد عائلتهم، أو هم أنفسهم، للإيذاء أو المهانة. وفي العادة يكون للهدف دلالة سياسية أو ارتباط بحدث يستوجب الثأر.

عندما يصبح «الشهيد الحي» جاهزاً، يتم إعلامه بموقع الهدف وكيفية بلوغه، ويجري إطلاعه في العادة على الموقع بواسطة صور أو رسوم أو مخططات إيضاحية. وما إن يصير المهاجم داخل نطاق الهدف، حتى يصبح هو صاحب القرار في تحديد المكان والزمان اللذين يضمنان أن يحدث التفجير أكبر تأثير ممكن. وإذ ذاك، يتحدد نجاح الهجوم بحسب عدد الأشخاص الذين يُقتلون في الهجوم، من دون أي توصيف شخصي لهؤلاء أو تصنيف بحسب كونهم رجالاً أو نساءً أو أطفالاً باعتبار أن ذلك قد يثير الندم. هذا ويحدث الموت فوراً وبصورة مروّعة، ويؤدي في العادة إلى قطع رأس المهاجم.

قد يحدث في بعض الحالات أن تفشل المهمة الانتحارية. وإن حدث ذلك بسبب عطل في المعدات أو نتيجة اعتقال قوى الأمن المهاجم، يُنظر إلى المهاجم الانتحاري بعين التقدير والإجلال نفسها كما لو كان فعلاً شهيداً.

في المقابل، إذا جبن المهاجم الانتحاري أو فقد رباطة جأشه في اللحظة الأخيرة، فإن المسألة تختلف. وفي الحالات النادرة التي حدث فيها مثل هذا الأمر، تم ترحيل المهاجم الانتحاري الفاشل عن بلدته الأم أو قريته أو مخيم اللاجئين الذي يعيش فيه. وإذ يتفاداه مجتمعه، يلحق فشله العار بالعائلة كلها.

صحيح أن ظاهرة المهاجمين الانتحاريين تزداد رواجاً، إلا أنها تبقى محيّرة ومربكة، وأكثر من ذلك مروّعة. فمفهوم القنبلة الانتحارية يقلب المعايير كلها في خبرتنا للعالم بغض النظر عن ثقافتنا أو تاريخنا. ففي حين يبدو لنا حب الحياة طبيعياً كما السعي إلى المحافظة عليها، يحب المهاجم الانتحاري الموت ويقبل عليه فاتحاً ذراعيه. ولا شك في أن الطبيعة الغريبة لهذه المجموعة من القيم تسهم في تعزيز المخاوف التي تبعث عليها هذه الظاهرة.

وقد لوحظ أن المهاجمين الانتحاريين هم نتاج توازن عسكري لا تناظري للقوى في سياق الاحتلال. فالأحداث التي وقعت في مدريد ولندن وجاءت رداً على احتلال العراق، تشير إلى توسع جغرافي لا بل إلى عولمة هذا الشكل من أشكال الاحتجاج والمهاجمة. أما الحقيقة القاسية فهي أن التصاعد الحالي في معدل الهجمات الانتحارية لن يخمد على الأرجح ما دامت الولايات المتحدة وحلفاؤها مستمرين في اعتماد سياسة تقوم على الاحتلال العسكري وتوصي به.

الفصل الرابع

الجهاد عبر الإنترنت

النزول إلى الميدان

كان الحادي عشر من آذار / مارس العام ٢٠٠٤ يوماً عادياً في مكاتب صحيفة «القدس العربي» تصدرت فيه المشكلات المالية جدول الأعمال. وفجأة، وردت إلى الصحيفة أنباء عن تفجيرات هائلة في مدريد أوقعت أكثر من ٢٠٠ قتيل ونحو ١٥٠٠ جريح. آنذاك، أيقنت على الفور أن تنظيم القاعدة يقف وراء هذا الهجوم الذي يرتبط حتماً بالانتخابات العامة المتوقع إجراؤها في إسبانيا في الرابع عشر من آذار / مارس. فالحكومة الإسبانية كانت قد دعمت الغزو الأمريكي للعراق، وتفجيرات مدريد كانت رسالة واضحة إلى الشعب الإسباني بضرورة أن يصوِّت على إعادة جنوده إلى ديارهم.

آنذاك، انهمكت الحكومات الإسبانية والبريطانية والأمريكية بالبحث عن مجرم بديل ووجّهت أصابع الاتهام إلى جماعة إيتا[1] الانفصالية في إقليم الباسك (ETA) والواقع أن وسائل الإعلام الرئيسية كافة تبنّت هذه الفرضية. في غضون ذلك، كانت الحقائق متوافرة مجاناً على شبكة الإنترنت التي تحوّلت بسرعة إلى أفضل مصدر للمعلومات المستقلة.

في تلك الأثناء، كانت القاعدة قد اعتادت أن تزوّد صحيفتنا برسائل إلكترونية تعلن من خلالها مسؤوليتها عن الهجمات. أما اليوم، فباتت تكتفي بنشر بيان على واحد من

(١) إيتا هو اختصار «دولة الباسك والحرية» Euskadi Ta Askatasuna .

المواقع الإلكترونية الجهادية المتعددة لتضمن أن يقرأه الملايين في العالم في غضون دقائق.

تعود أول رسالة تلقيناها من القاعدة عبر البريد الإلكتروني إلى تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٢. وكان موضوع الرسالة آنذاك تفجير قارب صغير على مقربة من ناقلة نفط في اليمن، مما أحدث فجوة كبيرة في جانبها. وفي تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٣، تلقينا رسالة إلكترونية ثانية يعلن تنظيم القاعدة فيها مسؤوليته عن هجمات وقعت في اسطنبول واستهدفت القنصلية البريطانية وفرع مصرف أتش أس بي سي HSBC التابع للمقر الرئيسي في لندن.

ولمّا كنت أتوقع أن تصلني أنباء من القاعدة في الحادي عشر من آذار / مارس، طلبت إلى الطاقم العامل لديّ مراقبة مجمل الاتصالات بدقة. وعشية اليوم نفسه، وردني اتصال هاتفي غامض من مكان ما في الخليج يعلمني بضرورة تعقب رسالة إلكترونية خاصة ستصلني في تمام الساعة السابعة والنصف مساءً، أي قبل موعد إرسال الصحيفة إلى الطبع بنصف ساعة فقط.

وفي الوقت المحدّد، تلقيت الرسالة الإلكترونية المنتظرة، وأدركت على الفور أنها بيان أصلي مصدره القاعدة. وقد بدا ذلك جلياً من خلال الأسلوب البلاغي والطريقة التي اعتُمدت في صوغ المعلومة. وكان البيان المذيّل بتوقيع كتيبة أبي حفص المصري يتبنّى تفجيرات مدريد.

وأكّدت الرسالة الإلكترونية التي تندرج في خمس صفحات وتصف إسبانيا «كإحدى دعائم التحالف الصليبي» أن «هذا الهجوم جزء من تصفية حسابات قديمة مع إسبانيا الصليبية حليفة أمريكا في الحرب على الإسلام». وقد شكل هذا البيان آنذاك موضوع صفحتنا الأولى. كذلك سارعت إلى إمرار الرسالة الإلكترونية إلى شبكات الأنباء ووكالات الصحافة. وفي اليوم التالي، كان البيان يتصدر العناوين في جميع أنحاء العالم.

آنذاك، نشب خلاف بيني، بصفتي محرر صحيفة «القدس العربي»، وبين محرّفي المعلومات في الحكومات الأمريكية والبريطانية والإسبانية الذين رفضوا التخلّي عن

أمنيتهم بإلقاء مسؤولية التفجيرات كذباً على جماعة إيتا. وإذ ذاك، اتُهمنا عبر شاشات التلفزة وفي الصحف بأننا مصدر غير موثوق به، فتم التشكيك في صدقيتنا على مرأى الملايين ومسمعهم وصُرف النظر عن الرسالة الإلكترونية بحجة أنها مزوّرة.

لكن على الرغم من ذلك، وبعد مرور نحو نصف ساعة على إمرارنا الرسالة الإلكترونية إلى وكالات الصحافة، أغارت أجهزة الأمن والشرطة البريطانية على مكاتبنا. ولمّا كان الوافدون يحملون مذكرة تفتيش، صادروا القرص الصلب في الكمبيوتر الذي تلقينا عليه رسالة القاعدة الإلكترونية. وفيما وقف رجال الشرطة المسلحون حرساً خارج مكاتبنا طوال الليل، راح بعضهم ينسخ جميع محتويات أجهزة الكمبيوتر إلى أقراص مرنة. وكان من الجلي أن قوى الأمن ترغب في تعقّب مصدر الرسالة مع الاستمرار في التأكيد أنها مجرّد خدعة.

لا بد من الإشارة إلى أن هذه الرسالة الإلكترونية كانت ذات بعد تاريخي لأسباب عدة. قد أدّت إلى إسقاط حكومة خوسيه ماريا أزنار José Maria Aznar الذي جرى التصويت على تنحيته من منصبه، كما ضمنت انسحاب القوات الإسبانية من العراق تماماً كما وعد الفائز في الانتخابات من الحزب الاشتراكي خوسيه لويس رودريغيز زباتيرو José Luis Rodriguez Zapatero كذلك تضمّنت الرسالة أول عرض لهدنة تقدمه القاعدة إلى أحد أعضاء «تحالف الصليبيين».

آنذاك، دخلت صحيفتي عن غير عمد ميدان المسرح الأخير للنزاع الإسلامي - الأمريكي أي شبكة الإنترنت.

الظاهرة الإسلامية والإنترنت

وصف حميد مير، الصحافي الباكستاني ومؤرخ السيرة الذاتية للشيخ بن لادن، كيف راقب رجال القاعدة مُدبرين جرّاء تعرّض معسكراتهم التدريبية للقصف الأمريكي في تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠١. وقال حميد مير: «كان كل رجل من رجال القاعدة يحمل جهاز كمبيوتر نقّالاً إلى جانب رشاشه الكلاشينكوف».

قد تبدو للوهلة الأولى مفارقة هائلة أن يعتمد تنظيم مثل القاعدة، وهو الذي وضع نفسه في مواجهة عنيفة مع العالم الحديث، اعتماداً متزايداً على التسهيلات الإلكترونية المتفوقة تقنياً التي يقدمها الإنترنت لكي يعمل ويتوسع ويتطور ويضمن بقاءه.

والواقع أن المنظمات الإسلامية المتطرفة بحثت في هذه المسألة للمرة الأولى في ثمانينيات القرن العشرين؛ وكان بعض المجموعات الوهابية في أفغانستان يعترض آنذاك على استخدام أي نوع من التكنولوجيا مصدره ابتكار غربي. لكن الشيخ عبد الله عزّام، الذي ترك لاحقاً تأثيراً بالغاً لدى الشاب أسامة بن لادن (راجع الفصل الثالث)، لم يلبث أن لفت إلى إمكانات هذه التكنولوجيا. وبحلول أواسط الثمانينيات، كان قد بدأ يشجع مجموعات المجاهدين على استغلال الإمكانات التي تزخر بها التقنيات الإلكترونية الآخذة في التطور.

وإذ ذاك، باتت شبكة الإنترنت عنصراً أساسياً تعتمده القاعدة في التدريب والتخطيط والعمل اللوجستي، وأصبح فضاء الاتصالات الإلكترونية ساحة مشروعة للقتال. وقد ذهب بعض المعلقين بعيداً في تصريحهم عندما قالوا إن القاعدة هي أول شبكة ميليشياوية تُدار عبر الويب.

في العام ٢٠٠٣، نشر كاتب أطلق على نفسه اسم «السالم» وثيقة على الموقع الإلكتروني «الفاروق» (اسم نطاق معروف للقاعدة في المملكة العربية السعودية) تحت عنوان «القاعدة: المبادىء التسعة والثلاثون للجهاد». ويمجدّ المبدأ الرابع والثلاثون «الجهاد الإلكتروني» لكونه «واجباً مقدّساً»: المؤمنون مدعوون للانضمام إلى الجهاد عن طريق المشاركة في منتديات الإنترنت للدفاع عن الإسلام وتوضيح «واجب» الجهاد للمسلمين كافة وتوصيتهم به. ويضيف السالم أن الإنترنت يوفِّر فرصة للرد الفوري على المزاعم الخاطئة والوصول إلى ملايين الأشخاص في غضون ثوانٍ. وهو يحثّ أولئك الذين يتمتّعون بمهارات استخدام الإنترنت على دعم الجهاد عن طريق التسلل إلى مواقع «العدو» الإلكترونية (أي الأمريكية والإسرائيلية) وتدميرها، والقيام بالمثل في ما يخص المواقع الإلكترونية «الفاسدة أخلاقياً» (كالمواقع الإباحية).

ويشير الشيخ عمر بكري محمد، مؤسس المجموعة الإسلامية المتطرفة «المهاجرون»، إلى «آلاف المناصرين للشيخ بن لادن الذين يتابعون علومهم حالياً في مجال علم الكمبيوتر كطريقة لدعم القضية». ويضيف أن «مختلف الوسائل التقنية، ومن بينها الإنترنت، تُدرس اليوم من منظور إمكانية استخدامها في حرب واسعة النطاق على الغرب».

وفي أيامنا هذه تستلزم المجموعة الجهادية توافر أربعة عناصر أساسية هي الأفراد والقائد والإرشاد الديني والمتخصّصون بتكنولوجيا المعلوماتية.

وقد يصبح المزيج المتناقض للإسلام المتطرف والخبرة في التقنيات المتطورة أقل غرابة إذا ما نظرنا إلى ما وراء الجانب الإلكتروني للإنترنت، ونسينا أمر الأقمار الصناعية التي تتيح الاتصالات عبر الإنترنت. وهذا يتركنا بإزاء مضمارين يبرع فيهما العالم الغربي هما الكتابة المشفّرة والسرية. أضف إلى ذلك أن هذين المضمارين أساسيان في أي حرب. ففي القرن الرابع، أشار الفيلسوف العسكري الصيني سون تزو «Sun Tzu» إلى أن «الحروب كلها ترتكز على الخداع».

ولا ينبغي لنا أيضاً أن نتغاضى عن الأهمية البالغة التي تشكّلها هذه المنصة للاتصالات المباشرة وغير الخاضعة للرقابة بالنسبة إلى شبكة القاعدة. في غضون ذلك، تشكل هذه المنصة ثورة على المستوى الإعلامي، وأيضاً على مستوى استغلال الجهاديين لها استغلالاً تامّاً. فللمرة الأولى في التاريخ، يملك أولئك الذين يعارضون النظام إمكانية بثّ أخبارهم وآرائهم بشكل مستقل على العموم في جميع أنحاء العالم. ولا مبالغة في القول إن الإنترنت هو العامل الوحيد الأكثر أهمية في تحويل المشاغل والنشاطات الجهادية المحلية إلى الشبكة العالمية التي تمثّلها القاعدة اليوم.

ويتجلّى هذا الواقع تحديداً في حالة أبي مصعب الزرقاوي. فقبل وفاته، باتت مكانته في القاعدة تضاهي مكانة الشيخ بن لادن، وأحد أسباب ذلك حسن استخدامه للإنترنت. فقد بلغ المعدل الوسطي لاتصالات القاعدة في بلاد ما بين النهرين على شبكة الإنترنت تسعة اتصالات يومياً. وفي الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر تموز / يوليو العام ٢٠٠٥،

نُشر على الأقل ١٨٠ تصريحاً. ويذكر أن ما من عملية تقوم بها القاعدة في العراق من دون أن تصوّرها وتُحمّل مباشرة على الإنترنت. وبفضل هذا العرض العالمي النطاق، أصبح الزرقاوي اسماً مألوفاً.

في ظاهرة لا سابقة لها لدى الميليشيات، نشر الزرقاوي في ٢٩ حزيران / يونيو العام ٢٠٠٥ عبر الإنترنت، شريطاً عالي الحرفية مدته ست وأربعون دقيقة وعنوانه «كل الدين لله». ويتضمّن هذا الفيلم المشغول بمهارة عمليات عدة، من بينها تفجيرات انتحارية وكمائن، جُمعت في ما يشبه الاحتفال الدموي. ولم يكن التوزيع يقلّ حرفيّة عن الإنتاج، وقد تم عبر صفحة ويب صُممت خصيصاً لهذه الغاية، وتضمّنت اثني عشر رابطاً بشريط الفيديو. وقد قدّمت «الوحدة الإعلامية» التابعة للزرقاوي الفيلم في هيئات مختلفة، فأنتجت نسخة ذات دقة عالية لأولئك الذين يستخدمون خطوط الوصل العريضة النطاق، وملفاً أصغر حجماً للذين يستخدمون خطوط الاتصال الهاتفية، بل كان بالإمكان تحميل الملف على الهاتف الجوّال. وفي ما يتعلق بالزرقاوي، ترتبط الحرب «الفورية» ارتباطاً وثيقاً بما بات يُعرف «بالجهاد عبر الإنترنت». وتبدو العمليات في فضاء الاتصالات الإلكترونية قيّمة من الناحية الاستراتيجية بقدر العمليات الميدانية. ولعل الزرقاوي هو الوجه الجديد للقاعدة في هذا المجال، الأمر الذي يفسّر استقطابه الهائل لجيل التكنولوجيا الحديثة الحالي.

الإنترنت سلاح وأداة متعددة الأغراض، ومن الممكن استخدام هذه الشبكة للاتصالات الثنائية أو للتواصل مع ملايين الأشخاص. كذلك يمكن استخدامها لنقل معلومات أو تعليمات أو خطط سرية. وباعتبار أن الكمبيوتر يحكم الجزء الأكبر من البنية التحتية للعالم المتطور، يشكل الإنترنت ثغرة في ترسانة الغرب التي يسهل على المتسللين المنقطعين إلى هذه المهمة اختراقها. والواقع أن الهجمات عبر الإنترنت قد تحدث ضرراً هائلاً بكلفة ضئيلة جداً بالنسبة إلى الجهاديين، وهذا مبدأ يقدرونه وسبق أن لاحظنا تطبيقه ونتائجه المدمرة من خلال تفضيل القاعدة الهجمات الانتحارية على القتال المسلح.

والواقع أن تنظيم القاعدة سخّر الإنترنت لأوجه استخدام متنوعة. صحيح أن الرقابة

المتشددة قد تضيّق الخناق حالياً على نشاطات القاعدة على الخط المباشر، لكن من الضروري أن نبحث في الأوجه السابقة والمحتملة مستقبلاً للجهاد عبر الإنترنت.

أسرار وجواسيس

بحسب تعريف موسوعة كامبريدج Cambridge Encyclopedia، إن الكتابة المشفّرة هي «تحويل شكل المرسلة إلى رموز وشيفرات لإخفاء معناها». وتشكل الأنظمة المعروفة باسم «الأنظمة المشفّرة» جزءاً مركزياً في الحرب عبر الإنترنت. وإذ ذاك، تبقى الرسائل مخفية أو مطمورة أو مشفّرة وبالتالي محجوبة عن العدو (وذلك باستخدام طرق مختلفة سنعرض لبعضها في ما يأتي)، في حين يمكن الحليف الوصول إليها بسهولة.

لكن الكتابة المشفّرة ليست ابتكاراً حديثاً، فالمسلمون نجحوا في استخدامها منذ القرن العاشر الذي شكّل «العصر الذهبي» للإسلام. آنذاك، استخدم الخلفاء العباسيون التشفير لتبادل أسرار الدولة على نحو آمن. كما أن الكتب التي وُضعت في تلك المرحلة، ومنها على سبيل الذكر «أدب الكتّاب»، تزخر بأقسام خُصصت للكتابة المشفرة.

ومن المفيد الإشارة إلى أن العرب لم يكونوا متأخرين كثيراً عن الغرب في ما يتعلق بالابتكار التكنولوجي. فصحيح أن شركة آي بي أم IBM أطلقت أول جهاز كمبيوتر شخصي في العام ١٩٨١، لكن بعد مرور سنة واحدة فقط تأسست شركة «صخر» لتكنولوجيا المعلومات في الكويت وطوّرت جهاز كمبيوتر شخصياً مزوّداً بواجهة خاصة للتشغيل. لكن إسراع شركة مايكروسوفت Microsoft إلى احتكار السوق قوّض موقع شركة صخر. (لا تزال صخر إلى اليوم أضخم شركة عربية لتكنولوجيا المعلومات).

لا شك في أن للمهارة والحماسة اللتين أبداهما العالم الإسلامي في انجذابه إلى فضاء الاتصالات الإلكترونية، وعلى وجه الخصوص الإسلاميون الذين شنّوا الجهاد عبر الإنترنت، بعداً ثقافياً. فالسريّة وضرورة الحفاظ على السرية، أو أقله التكتّم من أجل البقاء، شكّل على مر التاريخ جزءاً من التجربة العربية، تماماً كما المقدرة على تقويض العدو من خلال الرقابة الصامدة التي تسمح بفضح أسراره.

تسجيل الدخول

٥٠ في المئة من الجهاديين يأتي من منطقة الخليج حيث المواطنون الذين بلغوا مستويات علمية عالية ميسورون إلى حد جعلهم يمتلكون أجهزة الكمبيوتر الشخصية منذ أواخر ثمانينيات القرن العشرين. وفضلاً عن مهاراتهم البالغة في استخدام الإنترنت واستغلال إمكاناته، فهم يجيدون أيضاً العثور على مخارج لمشكلة تدخّلات الإدارة.

الجدير ذكره أن المملكة العربية السعودية لم تسمح رسمياً باستخدام الإنترنت إلا بحلول العام ١٩٩٩. وهي لا تمتلك إلى يومنا هذا سوى مزوّد واحد لخدمات الإنترنت يخضع لرقابة حكومية صارمة ويتم توجيهه من خلال مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. وإذ ذاك، توجّه حركة مرور المعلومات عبر مرشح بحيث تخضع للرقابة. والواقع أن المملكة ظلت وقتاً طويلاً تقاوم الضغوط المحلية والخارجية الداعية إلى السماح بولوج الإنترنت. ويوضح المعارض السعودي المصري في هذا الإطار «أن ذلك يعني كسر الاحتكار الصلب للعقول المؤثرة، وألا تعود مملكة الصمت مملكة الصمت». لكن الرقابة على الإنترنت صارمة جداً، وكثيراً ما يجري حظر ملايين الصفحات. وليس مستغرباً بالتالي أن يلقّب الإسلاميون مدينة الملك عبد العزيز «بمدينة الظلام».

الحقيقة أن المواطنين السعوديين استطاعوا ولوج الإنترنت منذ أواخر الثمانينيات باستخدام خطوط اتصالات دولية تربطهم بمزوّد لخدمات الإنترنت يشتركون فيه خارج المملكة، أو باستخدام برنامج تطبيقات يدخلونه خلسة إلى المملكة. واللافت أنه من السهل حتى على ذوي المعرفة العملية المحدودة في هذا المجال أن يتحايلوا على رقابة المرشح المركزي.

أما في العراق، فكان الوضع متأخراً أكثر مما هو عليه في المملكة العربية السعودية، خصوصاً أن الإنترنت كان محظوراً تماماً في ظل نظام صدام حسين. لكن عقب غزو العراق، زوّدت الولايات المتحدة العراقيين بأحدث تكنولوجيا على الخط المباشر، ومن بينها الإنترنت العامل بالأقمار الصناعية. وإذ عكف الثوار العراقيون وحلفاؤهم بدأب على الإلمام بالتكنولوجيا الجديدة، راحوا يحمّلون يومياً أعداداً ضخمة من الصور وشرائط

الفيديو والتقارير المكتوبة عن نجاحاتهم العسكرية ضد الجيش الأمريكي الغازي. وتشكل هذه المواد اليوم أدوات أساسية للتعبئة، خصوصاً أنها تلهم الآلاف بالانضمام إلى الجهاد في العراق وتحثّ آخرين على ارتكاب فظاعات مثل تلك التي شهدناها في لندن في ٧ تموز / يوليو ٢٠٠٥.

الصفحة الرئيسية

يشير الخبراء إلى وجود أكثر من ٤٥٠٠ موقع إلكتروني جهادي علني اليوم، وهي مواقع تساعد القاعدة على الحفاظ على موقعها كحركة أيديولوجية عالمية تضمّ أشخاصاً من جميع أنحاء العالم متشابهين في الأفكار والأمزجة.

منذ العام ١٩٩٥، بدأت المجموعات الجهادية والإسلامية، ومن بينها لجنة الشورى والإصلاح التي أنشأها الشيخ بن لادن في لندن وترأسها خالد الفواز، تستخدم قوائم البريد الإلكتروني لنشر المعلومات. ومن المنطقي الافتراض بأن الشيخ بن لادن والفوّاز كانا يتواصلان بهذه الطريقة. فالرقابة على الإنترنت كانت لا تزال آنذاك حديثة العهد، ولا شك في أن الرجلين كانا يدركان ذلك.

وفقاً لألبرخت هوفينز Albrecht Hofheinz، وهو باحث رائد في مجال استخدام التكنولوجيا الجديدة في العالم العربي الإسلامي، إن مصطلح «الجهاد عبر الإنترنت» استخدمه للمرة الأولى طلاب مسلمون يعيشون في الولايات المتحدة شرعوا يبنون مواقع إلكترونية إسلامية منذ أواسط تسعينيات القرن العشرين. ولعل أول موقع إلكتروني جهادي علني هو الموقع الخاص بالثوّار الشيشان» الذي ظهر في العام ١٩٩٩ على العنوان "kavkaz.org" (لا ينبغي الخلط بينه وبين موقع الحكومة الشيشانية) "kavkaz.com" وقد تصدر الموقع عناوين الصحف ونشرات الأخبار الدولية عندما راح يحثّ القرّاء على دعم حركة طالبان مالياً ويعرض تفاصيل عن طريقة تسليم المال ومكانه.

ويُعتقد أن أول موقع إلكتروني للقاعدة هو «maalemaljihad.com» (معالم الجهاد) الذي أنشأه في شباط / فبراير العام ٢٠٠٠ المتعاطف مع حركة الجهاد الإسلامي في مصر

«السيد محمد علي» الذي سافر إلى جنوبي الصين لهذه الغاية تحديداً. ولعله لم يختر الصين بسبب خبرة الصينيين التكنولوجية فحسب، بل أيضاً لأن مصممي صفحة الويب الذين تعاون معهم «السيد علي» ما كانوا يملكون أدنى فكرة عما يكتبه. وفي مقابلة مع صحيفة «وولستريت» Wall Street Journal نُشرت في تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٢، قال شين رونغبين Chen Rongbin الذي كان يعمل لدى مزوّد خدمة الإنترنت: «الحروف العربية كانت تبدو أشبه بديدان الأرض بالنسبة إلينا». ويُعتقد أن الجهاديين عبر الإنترنت عمدوا في المدة الأخيرة إلى استخدام المزوّدات اليابانية وحتى غرف المحادثة اليابانية للسبب نفسه.

تعرض الصفحة الرئيسة لموقع «maalemaljihad.com» شعار القاعدة المكوّن من سيفين يتصل أحدهما بالآخر ليشكلا صاروخاً مجنّحاً، وفي ذلك استعارة مجازية ملائمة تجسّد محتويات الموقع الذي أدمج الدين الإسلامي المتطرف بالتكنولوجيا الحديثة. وقد أُنشىء موقع بديل في باكستان بعد مرور بضعة أشهر (الموقع البديل في مأمن من التعطّل، أي في حال عطّل ملقّم الموقع الأول، لا يتوقّف الموقع الثاني).

أما محتوى الموقع، فكان يتوافر من على بعد بضعة أميال في أفغانستان. وقد شمل الموقع تصريحات للشيخ بن لادن والظواهري، والنشرة الدورية «المجاهدون»، وملخصات عن الأخبار، ومعرضاً لصور «الشهداء» ومصادقة دينية في خمس وأربعين صفحة على مشروعية «العمليات الاستشهادية». كذلك كان التحميل مهمة عالمية، بحيث تُرسل المعلومات على أقراص وتُنشر على الموقع الإلكتروني من أجهزة كمبيوتر مختلفة في أوروبا.

تعطّل موقع «maalemaljihad.com» في الصين في شباط / فبراير العام ٢٠٠١ عندما نسي «السيد علي» تسديد قيمة تجديد الاشتراك في الوقت المحدد، وكانت هذه غلطة لا تتناسب مطلقاً مع مثل هذه المغامرة العالية التقنية. أما الموقع التوأم في باكستان، فتعطل في صيف العام ٢٠٠١.

إلى ذلك تقول مصادر مقرّبة من القاعدة أن التنظيم كان يبحث يائساً في العام ٢٠٠١

عن ملقّم خاص آمن في لندن، وفي ذلك دلالة واضحة على الأهمية التي بات يشكلها الإنترنت بالنسبة إلى عمليات القاعدة في وقت كانت التحضيرات لهجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر تجري على قدم وساق. وإذ أنفقت القاعدة أربعة آلاف جنيه استرليني (آنذاك نحو ٥٧٥٠ دولاراً أمريكياً) على ما كانت تبحث عنه، اكتشفت بعد بضعة أيام أن قوى الأمن أوقفت ملقّمها ودمّرته. وبعد بضع محاولات فاشلة، قررت القاعدة تفادي استخدام الملقّمات الموجودة في المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة، علماً بأن العديد من المواقع التابعة للقاعدة لا يزال يستخدم ملقمات مركزها الولايات المتحدة.

بعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر، تكاثرت المواقع الجهادية والإسلامية التي تعرض صور «الشهداء التسعة عشر». وازدادت آنذاك غطرسة المسؤولين عن صفحات الويب، حتى إن مالك موقع «الجهاد على الخط المباشر» jihad-online التابع للقاعدة عمد إلى تسجيل الموقع باسم عبد الرحمن الرشيد، المحرر السابق للصحيفة السعودية اليومية «الشرق الأوسط»، والمسؤول حالياً عن قناة العربية الفضائية الخاضعة للغرب. آنذاك، شعر عبد الرحمن الرشيد بالخزي لدى اكتشافه الأمر.

أضف أن لفروع القاعدة الإقليمية مواقعها الإلكترونية ومجلاتها الخاصة على الخطّ المباشر. فموقع القاعدة في المملكة العربية السعودية «البتار» الذي أسسه في أواخر العام ٢٠٠٣ قائد التنظيم في المملكة آنذاك يوسف العيري (قُتل في مرحلة لاحقة من ذاك العام) كان لا يزال ناشطاً لدى وضع هذا الكتاب. ويمكن نسخ «البتار» التي تزيد على ١٠٠ نسخة وتتضمن إرشادات صريحة عن التدريب العسكري، أن تزوّد أيّاً كان بما يلزم لإنشاء ميليشيا خاصة به وإطلاق حملته العسكرية. كذلك نشر موقع «البتار» قصائد تمجّد الجهاد والشهادة.

وفي موقع إلكتروني مشابه هو موقع «ثروة السنام» الذي أنشأته القاعدة التي كان يتزعمها الزرقاوي في بلاد ما بين النهرين تفاصيل عن عمليات نُفِّذت في العراق، وكتابات تمتدح الشهداء ونصائح من الزرقاوي نفسه إلى المسلمين الشباب للانضمام إلى الجهاد. وقد نشر الزرقاوي على الموقع رسالة مفتوحة إلى وسائل الإعلام العربية يسألها فيها أن

تصوّر نشاطات الثوّار بمزيد من التعاطف. وتتوافر في هذا الموقع أيضاً معلومات مفصلة عن التقنيات العسكرية، بما في ذلك طريقة تصنيع المتفجرات والسموم.

هذا وتجسّد مواقع الجبهة الإعلامية الدولية للإسلام حضور الشيخ بن لادن على الإنترنت. وإذ تشهد هذه المواقع تغيّرات مستمرة، يتم تقديمها في كل مرة بشكل مختلف في نهاية سلسلة من الروابط من مواقع أخرى وعبرها. ويذكر أن أكثر من ٢٠٠ موقع إلكتروني يتضمن روابط إلى مواقع الجبهة الإعلامية الدولية للإسلام. وفي أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠٥، أطلقت الجبهة، بجرأتها المعهودة، برنامجاً إخبارياً خاصاً بها. ومنذ ذلك الحين، أصبح «صوت الخلافة» يظهر على نحو منتظم ويزوّد المطلعين على الموقع بأخبار يومية عن الثورة العراقية وأيديولوجية القاعدة، بل يعرض أيضاً إعلانات للمتطوعين من أجل المساهمة في محاولة البث هذه.

وليس خافياً أن لكل فرع من فروع القاعدة قسماً معلوماتياً يُعنى «بالإصدارات على الإنترنت». وفي غالب الأحيان، يسجّل قادة الحلقة الداخلية للقاعدة بياناً على قرص يرسلونه مع رسول إلى ناشط عادي يتولّى تحميل المادة مستعيناً بجهاز كمبيوتر في أحد مقاهي الإنترنت. لكن الناشطين الذين يعملون بهذه الطريقة قد يكونون موضع اشتباه في مقاهي الإنترنت أو ربما ترصد كاميرات المراقبة سلوكهم؛ بل إن العديد منهم قد اعتُقل جراء افتضاح سلوكه. فعلى سبيل المثال، أرسلت المجموعة الباكستانية التي اختطفت المراسل دانيال بيرل Daniel Pearl (قُتل لاحقاً) صوراً عن رهينتها من مقهى إنترنت في كراتشي. وإذ نجح رجال الاستخبارات الأمريكية في تعقّب موقع المقهى عبر عنوان بروتوكول الإنترنت IP address، صادروا شريط كاميرا المراقبة الخاصة بالمقهى وتعرّفوا إلى المذنبين، علماً بأن الأوان كان قد فات للحؤول دون قتل الضحية.

والواقع أن قيادة الحلقة الداخلية في القاعدة ما عادت تستخدم الإنترنت مخافة أن يتم تعقّبها. لكن الشيخ بن لادن والظواهري يطلعان باستمرار على نشاطات التنظيم على الإنترنت. فالمواد ذات الصلة تُحمّل على أقراص أو تُطبع وتُسلَّم إليهما في مخابئهما بواسطة رسل موثوق بهم.

لا شك في أن الاستخدام الناجح للإنترنت في الجهاد عبر شبكة الويب يعتمد كلياً على السرية والتضليل من جهة، وعلى الحذر والذكاء من جهة أخرى. وفي ما يأتي، سنبحث الجوانب الرئيسة للعبة «الغميّضة» التي يشكلها الجهاد عبر الإنترنت قبل الإضاءة على الطرق المختلفة للانضمام إلى المعركة على الخط المباشر.

الاختباء

يستحيل ضبط شبكة الإنترنت، ويبدو أن التنظيمات الجهادية السريّة أدركت سريعاً الفرص التي توفّرها هذه الوسيلة. وفي هذا الإطار، قال عالم الفيزياء والخبير في تكنولوجيا المعلومات الدكتر محمد المساري، وهو أيضاً معارض سعودي يقيم في لندن: «يستخدم الإنترنت سنوياً ٩٠٠ مليون شخص. ومن المستحيل إخضاع هذه الشبكة لرقابة عشوائية». وأكثر من ذلك، تتوافر جملة طرائق تسمح حتى للمعروفين لدى أجهزة الاستخبارات بأن يخفوا الرسائل السرية التي يرغبون في إرسالها عبر فضاء الاتصالات الإلكترونية.

وكما هي الحال في أي حرب تقليدية، يشكل اعتراض الرسائل المهمة عنصراً أساسياً في الاستراتيجية الدفاعية. ومن الضروري أن يجد المهاجم طرقاً لإخفاء معنى هذه الرسائل. ولعل أبرز مثال تاريخي على هذا الواقع هو فك شيفرة «اللغز» Enigma code لم في بليتشلي بارك Bletchley Park (المركز الوطني للشيفرات) في خلال الحرب العالمية الثانية، مكّن بريطانيا من إحباطه هجمات سلاح الطيران الألماني (لوفتواف Luftwaffe، وهذا ما عزّز حتماً انتصار الحلفاء.

ويعتقد الكثيرون أن القاعدة استخدمت الإنترنت بطريقة أو بأخرى لتنسّق هجماتها الرئيسة كافة منذ تفجير السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام في العام ١٩٩٨.

وقبل وقوع أحداث ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١ بنحو سبعة أشهر، بدأ المحققون في مكتب التحقيقات الفدرالي الـ«أف بي آي» FBI يزدادون تخوّفاً من قدرات الشيخ بن لادن على استغلال الإنترنت. وفي شباط / فبراير العام ٢٠٠١، أفادت صحيفة «يو أس إيه

توداي» USA Today أن الشيخ بن لادن وآخرين «يخبئون خرائط وصوراً لأهداف إرهابية وينشرون التعليمات... على غرف المحادثة الرياضية ولوحات النشرات الإباحية وغيرها من المواقع الإلكترونية».

وقد صادر رجال الاستخبارات الأمريكية جهاز الكمبيوتر الخاص بأبي زبيدة (الذي يُعتقد بأنه خطط وأدار هجمات ١١ أيلول / سبتمبر) وزعموا بأنهم عثروا على عدد كبير من الرسائل الإلكترونية المشفّرة، وكان آخرها يعود إلى التاسع من أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١.

يشكل التشفير أسهل الطرق وأكثرها شيوعاً لإخفاء رسالة إلكترونية. ويستخدم برنامج التشفير «مفاتيح» رياضية لبعثرة الرسالة وإعادة ترتيبها. والواقع أن كل شخص بمقدوره تحميل البرنامج التطبيقي الملائم لذلك مجاناً عن شبكة الإنترنت، علماً بأن العديد من البرامج التجارية بات مزوّداً اليوم «بباب خلفي» ضمني يسمح للوكالات الحكومية بالوصول إلى «المفاتيح»، ومن ثم اعتراض المحادثات الإلكترونية والتنصت عليها. ويقتضي الدخول إلى محادثة مشفّرة أن يعتمد كل من الطرفين كلمة سرية و«مفاتيح» ويتبادلاها. ومن الناحية النظرية، لا يمكن أحداً غيرهما أن يفك شيفرة الرسالة. لكن المشكلة تكمن في واقع أن «المفاتيح» تُرسل عبر الإنترنت. أما التشفير الأكثر أمناً فيقتضي إمرار «المفاتيح» بطريقة غير إلكترونية، أي من شخص إلى آخر مثلاً أو في رسالة. ويُعتقد أن ترتيبات التشفير هذه يستخدمها على نطاق واسع الناشطون في تنظيم القاعدة من أجل إنشاء الخلايا النائمة أو الاتصال بها على سبيل المثال.

ويشير الخبراء إلى إمكان أي تنظيم إرهابي أو إجرامي يمتلك الكثير من الأسرار ومعرفة يسيرة بالبرمجة، أن ينتج برنامجه التشفيري(٢) السري والآمن تماماً. وبالتالي، لا مبرر يجعلنا نتصوّر أن القاعدة - بما لديها من شبّان متخصصين في تكنولوجيا المعلومات - قد تتوانى عن استغلال هذا الجانب من الجهاد عبر الإنترنت، خصوصاً أن الابتكارات

(٢) بروس شاير Bruce Scheier، خبير في التجسس عبر الإنترنت، www.theregister.co.uk، ٣ تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠١.

التكنولوجية الأخيرة قد تكون السبيل إلى تحقيق النصر المنشود. ولدى إتمام تطوير برنامج التشفير الملائم، ينبغي إمراره إلى أعضاء مجموعة الاتصالات في سرية تامة.

ونذكر طريقة أخرى ارتدت على مرّ التاريخ أهمية بالغة لدى تنظيم القاعدة، هي الستيغانوغرافيا Steganography فباستخدام هذا البرنامج التطبيقي، يتم إخفاء رسالة - تكون هي نفسها مشفّرة في غالب الأحيان - داخل ملف صورة أو فيديو أو قطعة صوتية تبدو طبيعية، أو حتى في عنوان بروتوكول الإنترنت الخاص بموقع أو بريد إلكتروني ما. ومن ثم، تسمح الستيغانوغرافيا بإمرار رسالة مخفية تماماً، ولا يمكن أن يرصدها أي شخص لا يعلم بوجودها في هذا المخبأ. وبالنسبة إلى المتلقّي الذي يُبلَّغ بوجودها، يمكنه اكتشاف محتوى الرسالة بعدم استخدام كلمة سر بسيطة.

هذا وكثيراً ما تُستخدم رسالة بريدية لا طائل منها كمؤشر في الصندوق البريدي. وقد تظهر الرسالة كرابط إلى موقع للجنس تُنشر فيه صورة إباحية تحتوي على رسالة ستيغانوغرافية. وفي كل مرة تظهر الرسالة التي لا طائل منها، يدرك المتلقّي المقصود أن رسالة جديدة قد أُرسلت. أما ما تبقى من قائمة العناوين غير المشتبه فيها، فمجرد كتابات عادية مزعجة. (لا يجد الإسلاميون أي حرج في استخدام الصور الإباحية لإخفاء الرسائل. ويقول المساري في هذا الإطار: «إنها حرب؛ وفي الحرب يُسمح حتى باستخدام المواد المسيئة لتمويه الآثار»).

والواقع أنه من السهل على أي معترض أن يكتشف وجود رسالة ستيغانوغرافية في ملف ما، لا بل تتوافر برامج خاصة لتحليل الرسائل الستيغانوغرافية تكشف عن وجود رسالة مخفية. لكن من الصعب جداً استخراج الرسالة من دون توافر كلمة السر.

ولا أحد يعلم تحديداً كيف تمكن مكتب التحقيقات الفدرالي من معرفة ما كان يتم إمراره بين ناشطي القاعدة في شباط / فبراير العام ٢٠٠١ من خلال رسائل مشفّرة تُخبأ في ملفات ستيغانوغرافية. لعله كان مجرد تخمين مستنير تبيّن أنه كان على الأرجح صائباً. وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف إذاً تمحورت المؤامرات حول العديد من المواقع الجغرافية المتباينة، وتحديداً ألمانيا وأفغانستان والولايات المتحدة؟

ويُعتقد أن الستيغانوغرافيا لم تعد تُستخدم بالوتيرة نفسها اليوم بسبب اعتماد ناشطي القاعدة بشكل متزايد على مقاهي الإنترنت. ومن المستبعد أن يكون بالإمكان فتح البرنامج التطبيقي، أو حتى إنشاء رسائل ستيغانوغرافية، من مقهى للإنترنت.

أضف أن الجهاديين عبر الإنترنت يميلون أكثر فأكثر إلى استخدام حلول غير متطورة تقنياً في محاولة للتغلب بالمكر والدهاء على أجهزة الاستخبارات التي تتصوّر بطبيعة الحال أن الجهاديين يستخدمون أحدث برنامج تشفيري. واللافت أن إحدى أكثر الطرق أمناً وبساطة لنقل مرسلة ما من دون الخوف من اعتراضها، تلقى رواجاً كبيراً في أوساط المجموعات السرية والناشطة على اختلاف أنواعها. وتقتضي هذه الطريقة إنشاء حساب على البريد الإلكتروني وتشارك الكلمة السرية بين مختلف الذين سيتواصلون عبر هذا الحساب. وإذ ذاك، يمكن أياً منهم أن يدوّن رسالة إلكترونية ويحفظها على مصنّف المسوّدات الذي بإمكان كل شخص يمتلك كلمة السر الوصول إليه من أي جهاز كمبيوتر في أي مكان في العالم. وباعتبار أن الرسالة الإلكترونية لم تُرسل فعلياً، لا يمكن أحداً اعتراضها أو الاطلاع عليها.

ثم إن استخدام الجهاديين حساب البريد الإلكتروني لمرة واحدة فقط. وبالتالي، هم يستخدمون خدمة Yahoo أو Hotmail لإنشاء عنوان جديد من أحد مقاهي الإنترنت حيث يستخدمونه مرة واحد فقط لإرسال الرسالة ثم يعمدون إلى تدميره. وبحسب الخبير في شؤون القاعدة الدكتور الفقيه إن هذه الطريقة تلقى أيضاً رواجاً لدى عصابات المافيا وغيرها من التنظيمات الإجرامية. ويقول الفقيه: «إنها وسيلة ميسرة وغير متطورة تقنياً للتضليل. أما السؤال عن كيفية ردّ المتلقّي على الرسالة، فجوابه بسيط لأن الطرفين يكونان قد اتفقا سلفاً، وعلى الأرجح في خلال لقاء فعلي، على شيفرة معينة. وبالتالي، إن استخدم أحدهما عنوان بريد إلكتروني يبدأ بالحرف «ط»، فسيعلم الشخص الآخر أي عنوان سيُنشأ عندئذٍ لتلقّي ردّه».

كذلك تشكل المواقع الإلكترونية القصيرة الأمد طريقة شائعة أخرى لتبادل المعلومات. وفي هذه الحالة، يتمّ تحميل المعلومات على موقع إلكتروني موقّت،

ويجري إعلام أعضاء المجموعة بعنوان الموقع عبر رسالة إلكترونية مشفّرة. وعندئذٍ، يمكن الأعضاء استرجاع المعلومات الواردة في الموقع قبل أن تتنبّه أجهزة الاستخبارات إلى وجوده، إذ يُدمّر الموقع مباشرة بعد ذلك. والجدير ذكره أن هذه الطريقة يستخدمها على نطاق واسع المجاهدون العراقيون لعرض شرائط مصوّرة عن العمليات التي ينفّذونها، مستعينين بملقّمات في إيران أو سوريا أو تركيا كي لا يتمكن رجال الاستخبارات من تحديد أماكنهم عن طريق تعقّب عنوان بروتوكول الإنترنت.

ولا بد من الإشارة إلى تكتيك شائع آخر مثير للسخرية يتمثّل بسلب مواقع إلكترونية تعود إلى أفراد آخرين أو إلى منظمات أخرى. ففي العام ٢٠٠٤ مثلاً، اكتُشفت شرائط مصوّرة للجهاديين على ملقّمات تعود إلى وزارة الطرقات السريعة والنقل في أركنساس. كذلك هلع هاوٍ أنشأ موقعاً إلكترونياً لتكريم أعمال كاتب القصص الخيالية كلايف باركر Clive Barker عندما أُبلغ (في تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٢) بأن رسالة من الشيخ بن لادن كانت مخبأة في مصنّف خفي على الموقع . ويوضح الخبير في أمن الإنترنت مايك سويني Mike Sweeny سهولة القيام بذلك قائلاً: «تتسلل إلى موقع إلكتروني وتستحصل على إذن بإنشاء مصنّف، ثم تضيف ملفاً ما وتمحو آثارك. قد يبدو الملف عادياً، إنما بإمكانك اكتشافه إن كنت تعرف المسار». ولا يمكن في الواقع الوصول إلى الملف المخفي إلا من خلال الشيفرة الصحيحة التي يتم إعطاؤها مسبقاً للمتلقين المقصودين مع تزويدهم بالرابط الذي يصلهم بالملف ذي الصلة على الموقع الإلكتروني.

أما عمليات التعقب التي تتولاها سلطات الرقابة، فتجري ببساطة من خلال عنوان بروتوكول الإنترنت الذي يتوافر لدى تسجيل حساب على الإنترنت. وإن كان عنوان البروتوكول أصيلاً، فقد يتضمن المعلومات الضرورية للتعرف على أجهزة الكمبيوتر الفردية المستخدمة في النشاط على الخط المباشر وتحديد موقعها الجغرافي. لكن الجهاديين عبر الإنترنت باتوا مدركين لهذه الأخطار، حتى إنهم اليوم يغيّرون باستمرار عناوين بروتوكول الإنترنت والملقمات التي يستخدمونها.

ويمكن كذلك تفادي الرصد عبر عنوان بروتوكول الإنترنت من خلال استخدام مخدم

وكيل proxy server، والمخدم الوكيل عبارة عن جهاز كمبيوتر وسيط بين المستخدم والإنترنت. وعندما يطلب جهادي عبر الإنترنت ملفاً ما، يمر هذا الملف عبر المخدم الوكيل الذي يمحو جميع المعلومات المتعلقة ببروتوكول الإنترنت الخاص بعنوان المستخدم ويستبدله ببروتوكول الإنترنت الخاص به. أضف إلى ذلك أن المخدم الوكيل يُستخدم أيضاً لتفادي العراقيل التي تضعها أجهزة الأمن للحؤول دون ولوج إحدى الدول موقعاً معيّناً. فعلى سبيل المثال، تصد المملكة العربية السعودية ولوج الموقع الإلكتروني «tajeed.com» الخاص بالمساري من المملكة. ويقول المساري موضحاً: «لولوج موقعنا، يمر المستخدمون عبر مخدم وكيل. وعندما ننشيء موقعاً إلكترونياً جديداً ونغيّر عنوان بروتوكول الإنترنت، نرسل التفاصيل الجديدة إلى المشتركين والزوّار الدائمين».

فضلاً عن ذلك، يمكن استخدام تفاصيل بروتوكول الإنترنت لتضليل أجهزة الاستخبارات وأيضاً لحجب هوية المستخدم الحقيقية من خلال خدمة تُعرف باسم «اللاعثور» Find-Not وتسمح هذه الخدمة بإزالة تفاصيل بروتوكول الإنترنت الأصلية وتستبدلها بتفاصيل زائفة بحيث يظهر أن العنوان في الصين مثلاً. والواقع أن لخدمة «اللاعثور» الشائعة في أوساط الجهاديين عبر الإنترنت ملقّمات في قارات عدة لكي تبقى في مأمن من التعطيل. وهي توفّر أيضاً خدمة البريد الإلكتروني التي تضمن مستوى عالياً من الأمن إذا ما رافقها التشفير. هذا وتتولى رزمة برمجيات أخرى تغيير عنوان بروتوكول الإنترنت المرئي (وإن كان غير حقيقي) مرّة كلّ ثانية، مما يجعل تعقبه مستحيلاً.

تزعم أجهزة الاستخبارات في الولايات المتحدة أن غالبية التبادلات المالية الخاصة بالقاعدة تتم عبر البريد الإلكتروني. لكن معظم المعلقين الإسلاميين الذين استشرتهم في شأن هذه المسألة، عمدوا إلى دحضها وأكدوا أن هذه الاتصالات تنطوي على الكثير من المخاطر وقد أصبحت جزءاً من الماضي. كذلك أشاروا إلى أن النقد هو الوسيلة الفضلى، ويُرسل حقائب ينقلها موفدون خاصون. لكن بعض التبادلات يجري إلكترونياً باستخدام بطاقة الاعتماد الجديدة التي لا يدوّن فيها تاريخ سداد محدد. وتتم تعبئة هذه البطاقة بالنقود عبر شراء القسائم. ويوضح المساري هذه المسألة قائلاً: «لنفترض أن

أحدهم يريد دعم الجهاد الذي يقوده الزرقاوي في العراق. سيكون الزرقاوي قد فتح حساباً مصرفياً ببطاقة اعتماد مسهّلة الدفع بأي اسم كان - وحتى باسم حمار في الشرق الأقصى - ويمكنك إذ ذلك شراء قسائم وإرسال الأرقام المرجعية الخاصة بها إلى الزرقاوي عبر البريد الإلكتروني. وعندئذٍ، يستخدم الزرقاوي هذه الأرقام لتعبئة بطاقة الاعتماد ليستخدمها لاحقاً في شراء ما يريده».

في الماضي، كانت المواقع المرتبطة بالقاعدة تحتوي على روابط مشفّرة إلى مواقع أكثر أمناً. والواقع أن لعبة القط والفأر في الروابط تبدو مألوفة كلما جرى نشر موقع جديد للقاعدة، علماً بأن هذه المواقع لا تكون مشفّرة على الدوام وترتكز عوضاً من ذلك على الحاسة السادسة للزائر المتحمّس. ولعل المترجمين الفوريين المعتمدين لدى أجهزة الاستخبارات يتقنون اللغة العربية، لكنهم في المقابل لن يفهموا على الأرجح الإحالات المشفّرة الثقافية أو الإسلامية أو الجغرافية أو الجهادية التي تشير إلى الرابط المعلم.

ولدى نشر مادة جديدة، لا يحتاج الجهادي المتمرس في مجال الجهاد عبر الإنترنت إلى أكثر من خمس دقائق كي يتعقّب الروابط إلى أحدث موقع للقاعدة. ويقول الخبراء إن رجال الاستخبارات الأمريكية والبريطانية يحتاجون إلى ما بين ٢٤ و٤٨ ساعة للوصول إلى الموقع بالطرق التقليدية، وعندئذٍ تكون القاعدة قد عطّلت الموقع.

وفي غالب الأحيان، تكون نقطة الانطلاق غرفة محادثة في أحد المواقع الجهادية الرئيسة. وغرف المحادثة هذه أصيلة، وهي تعج بالتفاعل والمعلومات والخطط في إطار كثيراً ما يتميّز بطبيعة شديدة العنف. لكن العين المجرّبة تستطيع اكتشاف «التشعّب» (نقاش على الخط المباشر) الذي يقودها إلى مكان آخر. وإذ ذاك، سيعلم الزائر الموهوب على أي الروابط «المعالم» يجب أن يضغط لينطلق في رحلة طويلة عبر مواقع إلكترونية عدة قبل أن يصل في النهاية إلى الموقع الذي يسعى إليه. وقد عمد أخيراً متخصّصون بتكنولوجيا المعلومات متعاطفون مع الجهاديين إلى تطوير رزمة برمجيات جديدة تسمح بولوج البلاغات الجهادية الأخيرة مباشرة عبر توجيه الزائر على الخط

المباشر إليها بشكل آلي، وتم توزيع الرزمة عن طريق المواقع الإلكترونية الجهادية على المعارف المختارين من لوائح الاتصال. وما إن يصبح عنوان الويب الجديد معروفاً على نطاق واسع، حتى يتم التسلل إليه أو تعطيله.

لكن بعض المواقع الإلكترونية الجهادية ينجح في الحفاظ على بقائه بفضل السرية المطلقة، إذ يتم تشارك كلمة السر - التي يتم تغييرها بمعدل مرّة كل بضعة أيام - مع مجموعة صغيرة فقط من الزوّار الموثوق بهم. فعلى سبيل المثال، عندما تحاول الدخول بالطرق الاعتيادية إلى موقع «الأنصار» الإلكتروني التابع لتنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين، قد يبدو لك أن أحدهم تسلل إلى الموقع وعطله، في حين أن الذين يمتلكون كلمة السر الحالية يبقون قادرين على ولوج هذا الموقع. أما الموقع الإلكتروني «الفردوس» (الذي يعرض لعمليات في العراق ترتبط بجيش أنصار السُنَّة). فيغيّر مخدمه مرّة كل بضعة أيام ويرسل تفاصيل العنوان الجديد عبر رسائل إلكترونية مشفّرة فقط إلى مجموعة صغيرة من الأشخاص المختارين، وبينهم بعض الصحافيين.

ويشير الدكتور الفقيه إلى أن الحماية المادية قد تشكل عاملاً حيوياً في الجهاد عبر الإنترنت، موضحاً أن «الجهاديين في المثلّث السُنِّي (في العراق) يحظون بحماية الثوّار هناك. ولنفترض أن أجهزة الاستخبارات الأمريكية أو العراقية اكتشفت مقهى الإنترنت أو الخط الهاتفي المستخدم في البريد الإلكتروني أو الاتصالات عبر الإنترنت... وماذا في ذلك؟ فسيكون عندئذٍ من الصعب جداً عليها الإغارة على المكان». لكن في المقابل، من المحتمل توقيف أي شخص يدخل إلى المواقع الجهادية من مقهى إنترنت في بغداد لأن لمالكي المقاهي المتيقظين خطوط اتصال مباشرة مع أجهزة الأمن. وبالتالي، فإن السبب الرئيس الذي يمنع الشيخ بن لادن وغيره من قادة تنظيم القاعدة الفارين من المجازفة باستخدام الإنترنت يُعزى إلى واقع أنهم ما عادوا يحظون بحماية مادية تؤمنها دولة متعاطفة، خلافاً لما كانت الحال عليه في أفغانستان.

البحث

الواقع أن الرقابة الفاعلة في مجال تعقّب المواقع الجهادية لا يتولاها مكتب التحقيقات الفدرالي أو جهاز الاستخبارات البريطاني M16، وإنما مجموعات خاصة. ولعل أكثر هذه المجموعات شهرة ونجاحاً موقع هاغانا (الذي سنورد المزيد عنه لاحقاً)، وموقع site تديره ريتا كاتز Rita Katz وتشمل قائمة زبائنه ـ التي تستفيد من خدماته مقابل بدل معيّن ـ مكتب التحقيقات الفدرالي ووسائل إعلامية عدة في جميع أنحاء العالم) وموقع مراقبة الجهاد Jihad.watch وربّما لا يتمتّع الموقع الإلكتروني «itshappening.com» بالفعالية أو الشهرة نفسها، لكنه يبقى مثيراً للاهتمام لسبب مختلف تماماً. ويعود هذا الموقع الإلكتروني إلى منتج سابق للمواد الإباحية اسمه جون ميسنر Jon Messner صوّب اهتمامه إلى المواقع الجهادية الإلكترونية بعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١. ويشتهر ميسنر تحديداً بهجومه على الموقع الإلكتروني «al-neda.com» التابع للقاعدة، حتى إنه تسلل إلى هذا الموقع وأحدث فيه تعديلات تحيل الزوّار إلى صفحات «أبرز المطلوبين» الخاصة بمكتب التحقيقات الفدرالي. (لكن يبدو أن الجهاديين هم من ضحك أخيراً، خصوصاً حين بدأوا يستخدمون غرفة المحادثة الخاصة بموقعه ويعرضون فيها عنوان الموقع البديل عن «al-neda.com» ويبدو أن هذه الحرب لا تخلو من حسّ الدعابة وإن كان لهذا الحسّ طعم مرّ).

هاغانا (وتعني «الدفاع» باللغة العبرية) موقع إلكتروني مناصر للصهيونية مركزه الولايات المتحدة الأمريكية. ويتولّى هذا الموقع الذي يديره آرون وايسبورد Aron Weisburd تعقب المواقع الجهادية وإبلاغ مزوّديها خدمات الإنترنت أنهم يستضيفون موقعاً «إرهابياً»، الأمر الذي يضمن في العادة إقفال الموقع فوراً. ويعتقد بعض المراقبين أن موقع هاغانا يتسلل أيضاً إلى مواقع الجهاديين ويدمّرها. وقد نددت المجموعة الإعلامية «يوتا إندي ميديا» Utah Indymedia المتمركزة في الولايات المتحدة ـ جراء اعتقادها بأنها كانت ضحية تسلل موقع هاغانا ـ بوايسبورد مشيرة إلى أن دافعه الوحيد «الكره العنصري» وبغضه أي شكل من أشكال التفكير المستقل. علماً أن كثيراً ما يدخل

جهادي متحمّس عنوان موقعه المفضّل ليكتشف أنه استُبدل بموقع للتسوّق على الخط المباشر في أمريكا أو بأي موقع مشابه مثير للسخرية.

ويوضح وايسبورد أنه متقدّم نحو أسبوعين على أجهزة الاستخبارات والأجهزة المعنية بتطبيق القانون من حيث تعقّب المواقع الإلكترونية واكتشاف هوية المسؤولين عنها. وقد نجح موقع هاغانا إلى اليوم في إقفال ما يزيد على ٧٠٠ موقع جهادي. لكن وايسبورد كان هو أيضاً ضحية المتسللين. وعندما نجح هؤلاء في تعقّب عنوان منزله، نشروه على المواقع الإلكترونية المناصرة للجهاديين. ويقول وايسبورد إنه يتلقى على الدوام تهديدات بالقتل.

في خلال تسعينيات القرن العشرين، فُرضت قيود على تصدير برمجيات التشفير من الولايات المتحدة وقد صُنّف بعض البرامج في فئة الأسلحة[٣]. وبعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر، حاول عناصر من الإدارتين الأمريكية والبريطانية فرض تدابير صارمة على التشفير عبر الإنترنت. وتمثّلت إحدى الأفكار التي طُرحت على بساط البحث في أواخر العام ٢٠٠١، باعتماد «المفتاح المودع» بحيث تتوافر المفاتيح الضرورية لتشفير الرسائل أو فكّ شيفرتها لدى طرف ثالث يسمح للهيئات الحكومية باستخدامها إذا ما طلبت ذلك. وفي حين اعترضت وكالات حقوق الإنسان كمنظمة الخصوصية الدوليةPrivacy International على هذا الاقتراح بحجة أنه يشكل انتهاكاً للحريات المدنية، ثبُت أن الحجة المالية أكثر إقناعاً. فقد أشار بعضهم إلى أن هذا التدبير سيشكل خطراً على أمن التبادلات التي تجري على الخط المباشر بواسطة بطاقات الاعتماد، مما يعني أن الناس سيكفون عن التسوّق عبر الإنترنت. وإذ ذاك، تم التخلّي بسرعة عن هذه الفكرة.

لكن من المؤكد أن العديد من برامج التشفير التجارية المتوافرة يشتمل على «باب خلفي» يسمح لسلطات المراقبة بالوصول إلى المفاتيح. وما يثير السخرية أن ليس هنالك أحد لديه ما يخفيه سيعمد في المقام الأول إلى ابتياع مثل هذا البرنامج غير الآمن، بل إنه

---

(٣) ويل نايت Will Knight، «العالم الجديد» The New Scientist، ١٨ تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠١.

سيطوّر عوضاً من ذلك برنامجه الخاص أو يستثمر في التكنولوجيا الأحدث التي تقدّم له إمكانية التشفير بمعدلات تصل إلى ٢٠٤٨ بتاً (ولوضع الأمر في نصابه الصحيح، تجد الإشارة إلى أن التشفير بدأ بمعدل ٤٠ بتاً وكان يُعتقد حينئذٍ أن من الصعب تحطيم شيفرة عند هذا المستوى) وتضمن له عدم وجود «أبواب خلفية».

أضف أن أجهزة الكمبيوتر المحمولة التي صودرت لدى اعتقال ناشطين من تنظيم القاعدة تشكل مصادر معلومات لا تُقدّر بثمن بالنسبة إلى أجهزة الأمن. فبمقدور الخبراء الجنائيين في مجال الإنترنت تحميل المعلومات، وتحديد المواقع الإلكترونية التي جرت زيارتها، وتعقّب المراسلات، واكتشاف البرنامج التشغيلي الذي يستخدمه الجهاديون، ومعرفة الاستراتيجية التي تعتمدها القاعدة حالياً في العالمين الحقيقي والافتراضي.

وبحسب الفقيه، يُعتقد أن الولايات المتحدة زوّدت السلطات السعودية ببرنامج مراقبة متطور لأن الجهاديين عبر الإنترنت يتمركزون بغالبيتهم (٧٠ في المئة منهم) في المملكة. ولم يُستخدم هذا البرنامج ضد القاعدة فحسب، بل أيضاً ضد كل من يعبّر عن آرائه المعارضة للنظام.

ومن غير المستبعد أيضاً أن يكون لدى السلطات المصرية فريق مختص في فضاء الاتصالات الإلكترونية. فبحسب الإسلامي ياسر السيري الذي تعرّضت مواقعه الإلكترونية أكثر من مرة، للتسلل والتعطيل والتدمير، تتمثّل الطريقة الفضلى لدى قوى الأمن المصرية بتدمير المواقع عبر تحفيز «نفي الخدمة» Denial of Service، وهو عبارة عن هجوم على الخط المباشر يعطّل شبكة ما بإغراقها بحركة مرور بيانات عقيمة، وذلك باستخدام برنامج تشغيلي مصمم خصيصاً لهذه الغاية. يقول ياسر السيري في هذا الإطار: «إن التدابير الأمنية التي نعتمدها بحسن نيّة تصبح بمعظمها عقيمة في وجه متسلل مثابر. فالبرنامج التشغيلي الخاص باكتشاف كلمات السر يمكّن أي جاسوس من معرفة كلمة السر الخاصة بك (التي لا يزيد عدد حروفها على ثمانية) في غضون ثوانٍ. أما بالنسبة إلى كلمة السر الأكثر تعقيداً، فإن برنامجاً تطبيقياً يُعرف باسم «متعقب المفاتيح» Key-tracker يحوّلها على الفور إلى الجاسوس حالما تقدم على إدخالها».

تجدر الإشارة إلى أن غالبية المواقع الجهادية الإلكترونية يعطّلها إمّا متسللون وإمّا أصحابها في غضون أسابيع. أمّا المواقع التي تبقى ناشطة، فإما يحميها برنامج تشغيلي متعدد الطبقات بالغ الفعالة وإما يُسمح لها بالبقاء لدواعي المراقبة.

إذا كان الموقع يتضمّن غرفة محادثة قوية ومزدحمة، فهذا يعني أن في إبقائه ناشطاً قيمة أكبر بالنسبة إلى أجهزة الاستخبارات مما لو عمدت إلى إغلاقه. في المقابل، ليس بعض المواقع الجهادية سوى مواقع زائفة أوجدتها أجهزة الاستخبارات لخداع المقاتلين البسطاء ودفعهم إلى الكشف عن هوياتهم أو نياتهم. لكن المستخدمين المجرّبين يكتشفون في العادة هذه الخديعة إذ يلاحظون أن الموقع مشغول بمهارة مبالغ فيها أو باهظ الكلفة أو «غربي» إلى حد مبالغ فيه نوعاً ما، ربما لأنه يشتمل على إعلانات أو منتجات للبيع. أضف أن لمحة سريعة على هوية أولئك الذين شاركوا في لوحات النشرات تشكل وسيلة أخرى لتقييم مدى صحة الموقع ـ فمن الأسماء المتكررة على سبيل المثال «المعجب التونسي بالشيخين».

وكما هي الحال في أي حرب فعلية، تشكل الجاسوسية جزءاً أساسياً في الحرب الإلكترونية. فأجهزة الاستخبارات تتجسّس على المواقع الجهادية الإلكترونية بطرق مختلفة. ولعل أكثر هذه الطرق شيوعاً دخول الجاسوس غرف المحادثة مدّعياً أنه شاب مسلم متحمس يبحث عن طريقة تمكّنه من الانضمام إلى الجهاد. والغاية من هذه الخدعة نصب كمين للمجنِّدين واكتشاف ما إذا كان يتم الإعداد لعملية ما، أو بكل بساطة الإيقاع بزائر بالغ الحماسة لكي يكشف عن هويته. لكن هذه المحاولات تبدو لسوء الحظ، أقرب إلى نهج المحقق كلوزو Inspector Clouseau منها إلى أسلوب جايمس بوند، حتى إن الزائرين على الخطّ المباشر يلقون الدعابات حول ازدحام غرف المحادثة الجهادية برجال التحرّي السعوديين الفاشلين الذين يُدفع لهم لإجراء محادثات عبر الإنترنت طوال اليوم. وتكثر في الواقع الروايات المسلية عن عميل سرّي محتال يفضح نفسه من خلال حماسته الدينية الزائفة أو استخدامه لغة غير لائقة أو إقدامه في لحظة غضب تخرج عن نطاق سيطرته، على الإفصاح عن وجهة نظره الحقيقية.

لكن على الرغم من أن الحيلة لا تنطوي على العين المجرّبة، فإن المبتدىء يقع في الفخ بسهولة أكبر. وما إن تفضي المعلومات الاستخباراتية إلى اعتقال أحدهم حتى يستولي رجال المباحث على هوية المعتقل على الإنترنت وكلمة السر الخاصة به في محاولة للإيقاع بالمزيد من الزوّار غير المتيقظين.

في أيامنا هذه، يحترس الجهاديون الحقيقيون من الكشف عن الكثير من المعلومات في غرف المحادثة، إلا في حالات محددة يتم فيها إعطاء كلمة سر لعدد ضئيل من الأشخاص الموثوق بهم أو عندما يُستكمل النقاش خارج الموقع ويتّخذ شكل رسائل مشفّرة بين الأفراد.

لا بد من الإشارة إلى أن الحكومات الغربية لا تزال تسعى إلى شبكة الإنترنت من دون الإضرار بنطاق تطبيقاتها التجارية الواسع. وفي الولايات المتحدة مثلاً، سُنّت قوانين تهدف إلى جعل مزوّد خدمات الإنترنت أكثر حذراً. فإن استضاف مزوّدو خدمة الإنترنت موقعاً لإحدى الميليشيات، يمكن اتهام صاحبه بالتآمر ومساعدة الإرهاب والتحريض عليه.

وفي الولايات المتحدة، وُجّهت إلى بدر أحمد الذي كان يعيش في لندن تهمة مباشرة بالتآمر على أساس أنه على مر السنوات الممتدة من العام ١٩٩٧ إلى العام ٢٠٠٤ «وفرّ، من خلال استحداثه مواقع إلكترونية عدة، وسيلة للاتصال عبر البريد الإلكتروني... والنصيحة والمساعدة، وأجهزة الاتصالات والمواد العسكرية والنقود... والأفراد المولجين تجنيد المجاهدين الشيشان وجهاديي طالبان ومساعدتهم، وجمع التبرعات للجهاد المسلح العنيف».

الأمة على الخط المباشر

يشير ألبرخت هوفينز إلى أن «المواقع التي تعتمد اللغة العربية فريدة على المستوى العالمي من حيث أن ١٠ من المواقع المئة الرئيسية والأكثر شعبية تتميّز بتوجّه إسلامي حاسم». وخلافاً لمستخدمي الإنترنت الغربيين ذوي الاهتمامات الغزيرة والمتنوعة، يمكننا التوقف عند الملتقى الإسلامي الفريد للثقافة والدين حتى في عالم الإنترنت الافتراضي.

ويستطيع المسلم في أي مكان في العالم أن يشعر بأنه جزء من الأمة بمجرّد ولوجه أحد المواقع أو انضمامه إلى إحدى غرف المحادثة. فالمواقع الجهادية الإلكترونية تمكّن المجتمع المسلم في فضاء الاتصالات الإلكترونية من الدخول في صراعات أيديولوجية ومادية على السواء؛ وهذا يشكل عاملاً أساسياً في تطوير القاعدة وبقائها المستمر.

والواقع أن مشكلة القاعدة لا تكمن في العثور على مقاتلين مدرّبين ـ فآلاف الجهاديين الجدد وأولئك العائدون من ساحات القتال الفعلية في أفغانستان والبوسنة والشيشان والعراق يبدون استعدادهم للحرب ـ إنما في التنسيق المركزي لهذه الجيوش المتأهبة ونشرها. لكن يبدو أن شبكة الإنترنت توفر الحل لهذه المشكلة القديمة عبر السماح للطامحين إلى القتال بتحديد مكان المعركة التي يمكن الانضمام إليها والاطلاع باستمرار على العمليات لدى حدوثها.

والجدير ذكره أن المواقع الجهادية تضم بمعظمها أقساماً عدّة. وفي العادة، يخصص القسم الأكبر والأكثر أهمية «للدين»، فيتضمّن هذا القسم فتاوى توضح الأهداف التي تعدّ مشروعة، ومراجع قرآنية في شأن الجهاد، والطرق المختلفة التي يمكن أن يتجسّد بها، وجوانب الشهادة. وكثيراً ما تتوافر استشارات فقهية مباشرة يقدّمها شيوخ متديّنون، وتُنشر أسئلة ـ بدءاً من صحة إجراء مكالمات هاتفية مع الخطيب أو الخطيبة، وصولاً إلى معرفة هل كان من الجائز ضرب رأس الرهينة بالمنشار بدلاً من السكين أو السيف (هذان السؤالان وردا حقيقة على مواقع إلكترونية وجدها الباحثون في صحيفة «القدس العربي»).

ويشجّع قسم «الجهاد» الخاص بالموقع الطامحين إلى أنّ يتم تجنيدهم على الانضمام إلى الحرب. ويُزوّد زوار الموقع ببعض النصائح العامة، كالطرق الفضلى التي يمكن أن يسلكها المتطوعون لبلوغ العراق، أو حتى أسماء ومواقع المساجد المؤيدة للمجاهدين في الدول المجاورة، علماً بأنه لا تتم المجازفة بأي معلومات خطيرة وحساسة. وتُعرض أيضاً صور للشهداء مرفقة بوصاياهم الأخيرة التي تُسجل في العادة على شريد فيديو.

أضف أن غالبية المواقع بمعظمها تشتمل على قسم «تكنولوجيا المعلومات» وظيفته

حضّ المساهمين على المشاركة في معرفتهم وتطوير طرائق جديدة لاستخدام فضاء الاتصالات الإلكترونية على نحو يعزز قضية الجهاد. وكثيراً ما تلقى هذه التحديات تجاوباً من الجيل الأكثر شباباً، والناشط بحماسة في فضاء الاتصالات الإلكترونية كما ينشط في الحياة الفعلية.

هذا وتبقى لوحات النشرات أو غرف المحادثة أكثر المنتديات شعبية على المواقع الجهادية الإلكترونية. وفي هذا القسم، يمكن الزوّار أن يضيفوا تعليقاً أو رداً على محادثات ونقاشات مباشرة على الخط. وفي بعض الأحيان، يردّ «خبير» على الخط المباشر على الأسئلة، ولا سيّما في المواقع التي توفّر تدريباً عسكرياً وخدمات لوجستية.

فضلاً عن ذلك، تضم مواقع جهادية عدة «قسماً للنساء» يتم فيه حض الزوجات والأمهات على دعم رجالهن في الجهاد ومساعدتهم في المعركة النفسية ضد ما يصفه أحد المواقع «بذاك الداء، ذاك الضعف الذي يجعل المرء يحب الحياة ويكره الموت».

في أيار / مايو العام ٢٠٠٥، ظهر على الإنترنت موقع صُمِّم خصيصاً للنساء. ويشجع موقع «الخنساء» المتمركز في المملكة العربية السعودية النساء على دعم أزواجهن المتطرفين وإعداد أطفالهن للمضي قدماً في الجهاد. (كانت الخنساء شاعرة إسلامية درجت على كتابة قصائد تمجّد ذكرى الشهداء المسلمين الذين قُتلوا في المعارك مع «الكفّار»). كذلك يوفّر موقع «الخنساء» النصائح في شأن التدريب الجسدي للنساء اللواتي يرغبن حقيقة في القتال، وإن كان الموقع يذكّرهن بأن دورهن الرئيسي يتمثّل بالتضحية «بدماء أزواجهن وأجساد أطفالهن».

بعيداً عن الرقابة

سيثبت حتماً أن المنفعة الرئيسية التي سيوفّرها الإنترنت للمجموعات الجهادية على الأمد البعيد تكمن في المنصة غير الخاضعة للرقابة التي يوفّرها الإنترنت على صعيد نشر الأخبار والمعلومات. فعلى سبيل المثال، يسمح إطلاق البرنامج الإخباري «صوت الخليفة» للشبكة بالتحايل على القرارات التحريرية الخارجية، فيحررها من

الاعتماد القديم على قناة «الجزيرة» تحديداً لتتمكن من بثّ مراسلاتها وشرائطها المصوّرة.

في نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥، نشرت القاعدة وثيقة على الإنترنت مصدرها الخبير الاستراتيجي الرائد لديها، المصري محمد مكاوي. وقد حددت الوثيقة المعنوية «استراتيجية القاعدة للعام ٢٠٢٠» مشروع التنظيم الطويل الأمد الذي بدأ مع أحداث ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١. ولا شك في أن الهدف الجلي لنشر هذه الوثيقة الطويلة على الخط المباشر هو تمكين الخلايا المستقلة التابعة للقاعدة من الاطلاع على السبل المثلى للمساهمة في تحقيق استراتيجية الشبكة الطويلة الأمد.

ومن أكثر الإعلانات أهمية التي جرى نشرها قبل فترة غير بعيدة على شبكة الإنترنت، نذكر بياناً أصدره الزرقاوي في العام ٢٠٠٤ ليعلن ولاءه للشيخ بن لادن والقاعدة. وما إن شاع هذا الخبر في أنحاء العالم حتى شكّل دعوة مفتوحة إلى مختلف الجهاديين المستقبليين المؤيدين للقاعدة ليتوجهوا وفوداً إلى العراق، وهذا ما قاموا به بالفعل.

ومن المفيد الإشارة إلى أن الغياب المذهل للرقابة على شبكة الإنترنت يشكل في ذاته عامل جذب هائلاً للملايين من المسلمين الذين يعيشون في ظل أنظمة جائرة. وعندما تتعلق المواد المعروضة على الإنترنت بموضوع يبلغ اهتمامهم به حد الولع، يصبح من الصعب عليهم مقاومة هذا المزيج.

استطاع سعد الفقيه، على الرغم من وجوده في لندن، أن ينظّم على الأقل تظاهرة واحدة ضد نظام الرياض عبر الإنترنت. والواقع أن السلطات بدت عاجزة عن منع ترتيبات يجري الإعداد لها في فضاء الاتصالات الإلكترونية، علماً بأنها ردّت بملاحقات وعقوبات قاسية عندما وقعت التظاهرات الفعلية المحظورة في المملكة.

هذا ويتمّ تقريباً تصوير كل عملية ينفّذها الثوار في العراق ثم نشرها على عدد من المواقع ولوحات النشرات مرفقة بأناشيد جهادية. وفي هذا السياق، يجري تصوير إراقة الدماء كعمل بطولي عظيم. وفيما تنفجر القنبلة أو يطلق القناص النار، يرتفع صوت المصوِّر هاتفاً: «الله أكبر». وإذ لم تعد المجموعات الجهادية تعتمد على قرارات قسم

التحرير في الصحف أو المحطات التلفزيونية، فقد باتت العمليات كافة التي تنفذها المجموعات المتطرفة تحظى بأكبر قدر من الدعاية الإعلامية. أضف أن الحرية المسموح بها عبر شبكة الإنترنت لا تقتصر على المحتوى فحسب، بل تشمل أيضاً طريقة العرض. فغياب أي رقابة أو إذن خارجي يعني أن بمقدور المجموعات الجهادية أن تحدد الطريقة التي تقدم بها نفسها لمختلف الجماهير المستهدفة. وخير مثال على ذلك الشريط المصوّر الذي أعدته القاعدة في بلاد ما بين النهرين وعنوانه «كل الدين لله». فقد انتشر هذا الشريط على نطاق واسع وبحرفية عالية عبر شبكة الإنترنت. وفي شهر آب / أغسطس تبع الفيلم مقطع مصوّر مدته سبع عشرة دقيقة يحمل عنوان «العشرة الأوائل» ويصوّر هجمات الثوار في العراق. وقد روِّج لهذا المقطع باعتباره ملائماً «لأولئك الذين يحبّون رؤية الدم الأمريكي الصليبي يتدفق».

زدْ أن الجهاديين يستخدمون الإنترنت أيضاً كسلاح في الحرب النفسية. فالغربيون، كما الجهاديون والمسلمون العاديون، يطلعون هم أيضاً على صور تظهر عمليات تعذيب الرهائن من الأمريكيين والأوروبيين وأحياناً ضرب رؤوسهم من قبل رجال مقنّعين مدججين برشاشات الكلاشينكوف. وهذه بالطبع مشاهد بالغة القوة في تأثيرها وتشكّل كابوساً مروعاً في الغرب وفي أي مكان آخر.

الواقع أن أجهزة الاستخبارات الغربية تبذل جهوداً مضنية لإغلاق هذا النوع تحديداً من المواقع الإلكترونية الأيديولوجية. والغريب أن هذه الأجهزة نفسها تسمح ببقاء مواقع عدة تعرض محتويات عسكرية مفصّلة جداً. وقد كتب أخيراً غابرييل وايمان Gabriel Weimann تقريراً لجامعة حيفا وصف فيه شبكة الإنترنت باعتبارها «أفغانستان الجديدة للتدريب على الإرهاب والتجنيد وجمع الأموال».

يشتمل الموقع السعودي «البتّار» على مقرر تدريبي عسكري على الخط المباشر في أقسام تُعرف باسم «سيف النصر». ويتم حثّ الطامحين إلى الجهاد على درس المقرر في المنزل أو ضمن مجموعات، والحصول على أسلحة (يُفضل رشاش كلاشينكوف) والحفاظ على مستوى عالٍ من اللياقة استعداداً لاتخاذ الخطوات اللازمة على طريق

الانضمام إلى المجاهدين الفعليين. أما المواضيع الواردة في المقرر، فتشمل الخطف والأسلحة وتصنيع المتفجرات والسموم ومعالجتها، وتعليمات تفصيلية عن كيفية إعداد حزام ناسف (حتى إن التعليمات توضح درجة السماكة الملائمة للحزام)، وطريقة زرع الألغام في الميدان وتفجير قنبلة عن بعد بواسطة هاتف جوّال، بالإضافة إلى معلومات في الطوبوغرافيا وتعيين الاتجاهات (وضمناً عبور الصحراء ليلاً) وقراءة الخرائط ومهارات البقاء على الحياة.

كذلك اشتمل الموقع الإلكتروني من باكستان mojihedum.com، الذي كان لا يزال ناشطاً وقت وقوع التفجيرات الانتحارية في لندن، قسماً يُدعى «كيف تضرب مدينة أوروبية؟»، ويتضمّن معلومات تفصيلية ومقترحات حول الهجمات.

أما المنتدى الجهادي «الفردوس» المحميّ بكلمة سرّ، فيوفّر إرشادات مفصلة عن إعداد الزيوت المتفجّرة، موصياً باستخدام مادة النيتروغليسيرين لأنها «تفوق بقوتها التفجيرية قوة تي أن تيTNT».

علماً أن المواقع الجهادية الإلكترونية التي توفّر ما يشكل فعلياً أمة إلكترونية تسمح للشبان المسلمين المعزولين بالانضمام إلى شبكة عالمية من الأفراد الذين يشاركونهم في أفكارهم وأمزجتهم ويناضلون ضد من يعتبرونه عدواً مشتركاً، كما يمنحهم غاية واحدة موحّدة. فمن السهل الاتصال محلياً بشبكة الإنترنت، لا بل يُعتقد أن العديد من الخلايا التي تطبع النشاط الحالي للقاعدة يتشكّل بهذه الطريقة.

أما لوحات النشرات، فتوفّر النصائح العملية لأولئك الذي يرغبون في الانضمام إلى الجهاد الفعلي. وقد نصح شاب في الولايات المتحدة المسلمين الأمريكيين الراغبين في المشاركة في القتال في العراق «بأن ينضموا إلى قوات البحرية الأمريكية، على أن يبدلوا موقعهم لاحقاً لدى وصولهم إلى العراق». ويقترح شاب آخر أن يلج الطامح إلى الجهاد غرف المحادثة السورية ليقيم علاقة صداقة مع شاب سوري يُفضل أن يكون من سكان قرية قريبة من الحدود العراقية. ويقول هذا الشاب: «يمكنك بعد فترة أن تسأله عن رقم هاتفه ثم تهاتفه ـ مرة واحدة فقط ـ على أن تخفي عنه غايتك الحقيقية. أخبره بأنك ترغب

فعلاً في زيارته وعائلته». وما إن يدعو السوري الغرّ، الجهادي حتى يُطلب إليه أن يتسلل عبر الحدود إلى العراق المجاور وينضم إلى الثوار.

كذلك يمكن أن يستغل الطرفان الإنترنت لنشر معلومات مضللة. وقد يتحول هذا الأمر أحياناً إلى لعبة معقدة جداً ومتعددة المستويات. ففي حزيران / يونيو العام ٢٠٠٥م على سبيل المثال، نشر الزرقاوي رسالة ناطقة على موقع إلكتروني يرد فيها على شائعات تتحدث عن إصابته أو مقتله. وقد تناولت وسائل الإعلام هذه الرسالة على نطاق واسع على أنها «إعلان أن الزرقاوي بخير وأن إصابته كانت طفيفة وقد تعافى منها». لكن التدقيق عن كثب في الرسالة يكشف عن تضمّنها رسالة مباشرة إلى الشيخ بن لادن تقول: «لقد أرسلت لك الخطة، وأنا أنتظر أوامرك». فهل كان الزرقاوي يحاول سراً التواصل مع الشيخ بن لادن آملاً ألا تلاحظ الولايات المتحدة ذلك، أم أنه كان، كما يبدو على الأرجح، يراهن على أن تدقق أجهزة الاستخبارات الأمريكية في الرسالة بحثاً عن بعض الأدلة وتستنتج أن هجوماً كبيراً كان على وشك الوقوع؟

المعارك الإلكترونية

تشتمل غالبية المواقع الجهادية الإلكترونية على قسم خاص بالتسلّل. وأوضح لأولئك الذين يفتقرون إلى المعرفة الكافية بالمفردات الخاصة بالفضاء الإلكتروني أن التسلل هو مقدرة شخص يتمتّع بمستوى عالٍ من الخبرة في مجال الأنظمة على استكشاف أحد المواقع بحثاً عن ثغرات أمنية ليتمكن بعدئذٍ من دخول الموقع وسرقة المعلومات أو إقحام فيروس أو «دودة» خبيثة. والواقع أن البرامج التطبيقية للتسلل متوافرة على شبكة الإنترنت ويمكن تحميلها مجاناً.

وقعت أولى المعارك الإلكترونية الخطيرة في خلال الصراع الصربي في العام ١٩٩٩، عندما استهدف متسللون مناصرون للصرب الشبكات الدفاعية الخاصة بالولايات المتحدة ومنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو). كذلك انخرط المتسللون الفلسطينيون والإسرائيليون في صراع إلكتروني شرس منذ اندلاع الانتفاضة الثانية. وقد عمد

المتسللون الإسرائيليون إلى تعديل موقع حزب الله واستبداله بالعلم الإسرائيلي. كذلك تسلل الإسرائيليون إلى قاعدة بيانات فلسطينية، فاستحصلوا على أرقام الهواتف الجوالة الخاصة بالقادة الفلسطينيين كافة وعمموها. لكن هذه الخطوات تبدو قليلة الشأن إذا ما قورنت بالضرر الذي أحدثه متسللون فلسطينيون في الشرق الأوسط والولايات المتحدة عندما انتقلوا إلى التصعيد وهاجموا بنجاح مواقع إلكترونية إسرائيلية يفوق عددها عدد المواقع الفلسطينية التي تعرضت للتسلل بخمسة أضعاف. ونذكر من المواقع الإسرائيلية التي تعرضت للتسلل بنك إسرائيل وبورصة تل أبيب وموقع الجيش الإسرائيلي، بالإضافة إلى مواقع لمناصري إسرائيل في الولايات المتحدة، ومن بينها مجموعة الضغط المتمركزة في واشنطن المعروفة باسم لجنة العمل السياسي الإسرائيلي الأمريكي. وباعتبار أن الاقتصاد الإسرائيلي يعتمد إلى حد بعيد على التجارة الإلكترونية، فإن هذه النوبة من النشاط المدمّر قد تسببت بتراجع كبير في سوق الأسهم الإسرائيلية بلغت نسبته ٨ في المئة.

أضف أن قناة «الجزيرة» الفضائية تشكل هدفاً جلياً لأولئك الذين يعارضون اختيارها للمحتويات التي تبثّها. ففي آذار / مارس العام ٢٠٠٣ على سبيل المثال، تعطّل موقعها الإلكتروني نتيجة سلسلة دفق من الهجمات المنهجية على نظام اسم النطاق Domain Name System بعد أن بثّ الموقع صوراً لجنود أمريكيين أُسروا في العراق. والواقع أن هذا النوع من الهجمات يجعل الموقع عرضةً لمستويات من حركة مرور البيانات يعجز عن معالجتها، مما يجعل المخدم يتعطّل. ونذكر نوعاً مشابهاً من الهجمات يتمثّل بهجمات «الإنسان الآلي» Bot أو «الروبوت» robot على «حديث التواصل على الإنترنت» Internet Relay Chat وتشكل هذه الهجمات ما يشبه الاعتصام الافتراضي حيث يعمل نحو ٢٠ ألف جهاز كمبيوتر كرجال آليين أو «جثث زومبي» تنفّذ أوامر رئيسها مراراً وتكراراً إلى أن يُطلب منها أن تتوقف. والجدير ذكره أن تنفيذ مثل هذه الهجمات يتطلب توافر فريق من المحاربين الإلكترونيين الذين يكرّسون وقتهم لهذه الغاية، كما يقتضي توافر تمويل كبير. أما الشكل الوحيد الممكن

للدفاع عن الموقع الإلكتروني، أي الاستمرار في توسيع عرض نطاقه، فباهظ الكلفة هو أيضاً.

في حزيران / يونيو العام ٢٠٠٣، نجح كندي في الرابعة والعشرين من العمر يعمل منفرداً في التسلل إلى موقع قناة «الجزيرة» على الإنترنت. وإذّ ذاك، وجّه زوّار الموقع إلى مواقع مؤيدة للحرب تمجّد وجود القوات الأمريكية في العراق. وجل ما فعله ذاك الشاب كان الاتصال بالقيمين على استضافة الموقع والادعاء أنه المدير المسؤول عن صفحة الويب الخاصة بـ«الجزيرة»، طالباً منهم اعتماد كلمة سرّ جديدة. والواقع أن موقعنا الإلكتروني الخاص في صحيفة «القدس العربي» كان هو أيضاً عرضة للتسلل في عدد من المناسبات، حتى إن القرّاء ظلّوا في إحدى المرات عاجزين عن تصفح الموقع طوال ثلاثة أيام.

«المتسللون الإسلاميون» هو موقع إلكتروني استحدثته أخيراً مجموعة تحمل اسم الموقع وتضم أشخاصاً يعرّفون عن أنفسهم كجهاديين عبر الإنترنت ويمتلكون التكنولوجيا الأمنية وأكثر التجهيزات تطوراً. وقد نجحوا في أيار / مايو العام ٢٠٠٥ في التسلل إلى الموقع المسيحي الأصولي «Joy Junction» بكثير من الدقة الشمولية، حتى إنهم محوا الحساب كاملاً عن المخدم. كذلك عمدت مجموعة أخرى من الجهاديين عبر الإنترنت تدير موقعاً اسمه« o-h-cjb.net» إلى إطلاق حملة لتدمير مختلف المواقع التي تنشر معلومات سلبية عن الإسلام، ودعت الزوّار إلى اقتراح أهداف للهجمات عُرضت لاحقاً ليتم التصويت عليها. وكان الاقتراح الفائز «المحظوظ» في إحدى الحالات موقعاً لبعثة مسيحية تبشيرية ناطقاً باللغة العربية تحت اسم «الحقيقة». وقد جرى لاحقاً تعطيل هذا الموقع باستخدام برنامج تطبيقي خاص اسمه «متسللون إلى الويب» Webhakerz.

الجدير ذكره أن الأسلحة التي تشتمل عليها الترسانة الإلكترونية متنوعة تنوعاً يصعب معه إيرادها كاملاً هنا، بما في ذلك سلاح يكرّم الشيخ بن لادن. فعندما بدا أن الغزو الأمريكي للعراق بات وشيكاً، عمد جهادي عبر الإنترنت يحمل اسم «ملهاكر» Melhaker(ويُعرف أيضاً باسم «كميل») إلى تطوير دودة سمّاها «ندال» Nedal (تُقرأ في

الاتجاه المعاكس «لادن» (laden) وأرسلها إلى آلاف العناوين في الولايات المتحدة. كذلك أقدم جهادي مجهول الهوية على إرسال دودة تحمل اسم VBS.OsamaLaden@mm وتشتمل على شيفرة تخلّف رسالة متعلقة بأحداث ١١ أيلول / سبتمبر قبل أن يُغلق نظام المستخدم وتمحو الملفات كافة(٤).

المستقبل

على الرغم من أن التكنولوجيا الأكثر تطوراً في متناول الشيخ بن لادن، فإن وسيلة الاتصال المفضلة بالنسبة إليه هي الرسول الشخصي. فالحلقة الداخلية في القاعدة تتخذ جانب الحذر على ما يبدو من تكنولوجيا الاعتراض المتطورة التي تستخدمها أجهزة الاستخبارات التابعة للولايات المتحدة ولغيرها من الدول.

والواقع أن العديد من الشخصيات الرئيسية المرتبطة بالقاعدة ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر، يخضع لدرجة معينة من الرقابة بحيث يشكّل توافر «باب خلفي» لاتصالاتهم عبر الإنترنت مجازفة دائمة يبدو أنهم بعيدون عن اتخاذها. وبناءً عليه، اتخذت القيادة المركزية المؤسسة للقاعدة خطوة إلى الوراء، وباتت حالياً عاجزة عن الإفادة كلياً من المنافع الحربية للإنترنت.

لكن العكس هو الصحيح حين يتعلق الأمر بالشبكة العالمية للقاعدة في بلاد ما بين النهرين تنشط بقوة في فضاء الاتصالات الإلكترونية كما في ميادين القتال. ولا شك في أن حضورها الدائم على الخط المباشر يثبت أن قائدها حيّ ويتمتّع بصحّة جيدة، وأن الثوار يخوضون معركتهم، لا بل يفوزون فيها كما يزعم الكثيرون. هذا ويعتقد عدد من الخبراء في مجال الأمن أن تنسيق الهجمات التي وقعت أخيراً في لندن ومدريد جرى عبر الإنترنت.

الواقع أن إمكانات توسع الجهاد الإلكتروني هائلة. ويمكن الهجمات الإلكترونية على البنية التحتية الأمريكية أن تتسبب بضرر واسع النطاق،وذلك بكلفة بخسة جداً. وإذا

(٤) www.pcworld.com 20 تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٢.

ترافقت هذه الهجمات الإلكترونية مع هجوم فعلي، فمن الممكن أن تكون النتيجة كارثية. وفي تقرير حول الدفاع الإلكتروني أصدرته استخبارات البحرية الأمريكية في العام ٢٠٠٣، قدّر الخبراء إمكانية أن ينجح هجوم منسّق ومعد جيداً يشنّه فريق لا يزيد عديده على ثلاثين متسللاً متمركزين استراتيجياً في أنحاء مختلفة من العالم ويمتلكون موازنة قدرها نحو ١٠ ملايين دولار أمريكي، في تركيع الولايات المتحدة عبر تعطيل شبكات خطوط الطاقة وأنظمة مراقبة حركة المرور الجوية وخدمات الطوارىء والمؤسسات المالية.

ومن الواضح أن إدارة بوش تخشى تصاعد وتيرة الحرب الإلكترونية. فقد استهدفت محاولات المتطفلين وزارة الدفاع في العام ٢٠٠٤م ٧٥ ألف مرة فقط[٥]. وأشير في هذا السياق إلى أن وزارة الدفاع في الولايات المتحدة تضمّ وحدة متخصّصة بالأمن الإلكتروني. وفي نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥، أطلق الجيش الأمريكي قيادة المقومات التشغيلية المشتركة لحرب الشبكة Joint Functional Component Command for Network Warfare المتمثلة «بطاقم المتسللين النخبة» الذي تقتضي مهمّته الدفاع عن شبكات وزارة الدفاع كافة وتطوير المهمّة البالغة السريّة المعروفة باسم الهجوم على شبكات الكمبيوتر "Computer Network Attack"

في المقابل، قد يستغل السياسيون الراغبون في الحد من حرية الأفراد هذه المخاوف. ففي العام ٢٠٠٣ مثلاً، قُطعت إمدادات الطاقة كلها عن الساحل الشرقي للولايات المتحدة وجزء من كندا. وقد نشرت آنذاك صحيفة «الحياة» من مقرها في بيروت ما زُعم أنه رسالة إلكترونية تعلن فيها القاعدة مسؤوليتها عن هذا الحادث. (لكن القاعدة لم تكن مسؤولة بأي شكل من الأشكال عن انقطاع التيار الكهربائي).

تبقى شبكة الإنترنت متحررة نسبياً من أي رقابة أو تدخّل. لكن مجموعات حقوق الإنسان، كمنظمة الخصوصية الدولية Privacy International مثلاً، تخشى أن يكون الأمر

(٥) جون لاسكر John Lasker، «طاقم المتسللين النخبة في الجيش الأمريكي» US Military's Elite Hacker Crew، مجلة وايرد Wired، ١٨ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥.

مسألة وقت فقط قبل أن يتم التذرّع «بالإرهاب» للحدّ من الحريات المدنية في هذا المجال كما هي الحال في العالم الفعلي. إنما يبقى على الولايات المتحدة أن تجد طريقة لوقف نشاطات العدو غير التجارية على الخط المباشر من دون الإضرار بالسوق الحرّة المزدهرة في فضاء الاتصالات الإلكترونية.

وفيما تستمر القاعدة في التطور والتوسع أفقياً في سياق شبكة من الفروع المحلية المتنامية على نحو لا سابق له، يزداد دور الإنترنت أهمية كمنتدى عالمي للتواصل ونشر الأيديولوجيا والتعبئة والتدريب والخدمات اللوجستية. وتماماً كما جرى تدريب منفّذي هجمات ١١ أيلول / سبتمبر على قيادة الطائرات، أصبح جيل جديد من المجاهدين خبيراً في تكنولوجيا المعلومات.

وفي عرض قُدم في تموز / يوليو العام ٢٠٠٥ لمحللي الإرهاب في الحكومة الأمريكية، خلص الخبير العامل في وزارة الخارجية الأمريكية منذ زمن بعيد دينيس بلوشينسكي Dennis Pluchinsky إلى القول إن القاعدة بدأت تتحول سريعاً إلى أول شبكة مليشياويّة في العالم تُدار عبر الويب.

الفصل الخامس

القاعدة في المملكة العربية السعودية

«الحكم عقد بين الإمام والشعب الذي سيحكمه. وينطوي هذا العقد على حقوق وموجبات لكل من الطرفين، كما يشتمل على شروط لإلغائه وإبطاله. ومن الشروط التي تجعل العقد ملغًى خيانة الدين والأمة. وهذا تحديداً ما فعلتموه... لقد استيقظ الشعب من سباته وأدرك فداحة الانتهاكات والفساد والتطاول على ممتلكاته وأمواله. المسلمون في بلاد الحرمين الشريفين عازمون على استرجاع حقوقهم مهما كان الثمن».

أسامة بن لادن،
«بيان إلى الحكّام السعوديين»،
١٦ كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤.

بعد وقوع هجمات ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١، التقيت نسيبة للراحل الملك فهد بن عبد العزيز، ولكم فوجئت عندما أسرّت المرأة إليّ بإعجابها الشديد بالشيخ بن لادن وبهجوم القاعدة الأخير على الولايات المتحدة. وباعتبار أنها كانت تعلم بأني قابلت الشيخ، انهالت عليّ بوابل من الأسئلة عن الرجل ورفاقه ومحيطه.

الواقع أن العامة في المملكة العربية السعودية تتشاطر هذه الحماسة للشيخ بن لادن. فبعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر، كشف استطلاع للرأي أجراه جهاز الاستخبارات السعودي أن ٩٥ في المئة من عيّنة تضم سعوديين مثقفين تراوح أعمارهم بين ٢٥ و٤١ سنة أعربوا

عن دعمهم قضية الشيخ بن لادن[1]. وفي كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤، بثّت شبكة سي أن أن CNN تقريراً عن استطلاع للرأي العام أُجري في المملكة وأظهر أن شعبية الشيخ بن لادن فاقت شعبية الملك الفهد[2].

ومن المُفيد الإشارة إلى أن سلوك العائلة الحاكمة صبّ إلى حد ما في مصلحة القاعدة. فأمراء المملكة البالغ عددهم ستة آلاف أمير يتلقون راتباً شهرياً منذ الولادة. كما أنهم يعيشون مع ٢٤ ألف شخص من أقاربهم وأبنائهم حياة ملؤها الرخاء الذي يبلغ حد التبجّح. ويعتقد كثيرون أن هذا الثراء الفاحش ناجم بجزء منه عن الفساد. وفي مقابلة تلفزيونية، لم يتأثر الأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي السابق في واشنطن، لدى طرح مسألة الرشاوى والفساد. بل علّق على الموضوع قائلاً: «هذا من طبيعة البشر. وإن قلتم لي إننا أسأنا استخدام ٥٠ مليار دولار في عملية بناء هذه البلاد وفي إنفاق ٣٥٠ مليار دولار من أصل ٤٠٠ مليار، سأقول لكم: أجل، وماذا في ذلك؟».

ولطالما دان الشيخ بن لادن ورجال الدين المتطرفون أفراد العائلة السعودية المالكة لأنهم من وجهة نظرهم ينهبون الثروة النفطية التي تُعتبر حقاً مشروعاً من حقوق الشعب وليس ملكية خاصة للنخبة الحاكمة. وبحسب بيان القاعدة، «إنها أكبر عملية نهب لثروة الأجيال الحالية والمستقبلية يشهدها التاريخ». فباعتبار أن عائدات النفط بلغت ذروتها في العام ٢٠٠٤ مسجّلة ١١٠ مليارات دولار أمريكي سنوياً، كان بإمكان هذه الفورة أن تسمح لكل مواطن سعودي بأن يحظى بمستوى جيّد من الحياة الكريمة. لكن عوضاً عن ذلك، انغمست العائلة الحاكمة في ترف بلغ حد الإسراف وتجلّت مظاهره في القصور الفخمة والسفن وطائرات بوينغ ٧٤٧ الخاصة المرصّعة بالذهب، في حين تراجع الدخل الفردي في المملكة إلى ٧٦٠٠ دولار أمريكي.

---

(١) المسح الذي أُجري في تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠١ ذُكر في وثيقة مبوّبة للاستخبارات الأمريكية كما ورد في صحيفة نيويورك تايمز The New York Times في ٢٩ كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٣. وأشارت الصحيفة أيضاً إلى أن الأمير نوّاف بن عبد العزيز، مدير جهاز الاستخبارات السعودي، أكد وجود الوثيقة، إلا أنه لم يحدد مستوى الدعم الذي يحظى به الشيخ بن لادن والذي عزاه الأمير نوّاف إلى الشعور المعادي للأمريكيين.

(٢) تقرير لنيك روبرتسون Nick Robertson بثته شبكة سي أن أن CNN في ٩ كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤.

وبالتالي، تبدو إمكانية وقوع خلافات متأصلة في هذا النظام الاجتماعي غير المتكافىء واضحة، لا بل تعززها مشاعر الانزعاج التي يضمرها أولئك المستثنون من الامتياز الأميري. أضف أن معدل البطالة يرتفع حالياً إلى ما نسبته ٢٥ في المئة. وباعتبار أن نسبة المواطنين الذكور الذين لمّا يتجاوزوا العقد الثاني من العمر تشكل ٦٠ في المئة من مجموع عدد السكان، تُخرّج الجامعات جيلاً جديداً من الشباب الضجر والعاطل عن العمل بمعدل ٤٠٠ ألف شاب في السنة الواحدة سرعان ما يتحررون من الأوهام والآمال الكاذبة. وبسبب ارتكاز النظام التربوي السعودي إلى حد بعيد على الوهّابية (راجع أدناه)، لا يبدو أن الشهادات الجامعية الصادرة عن المملكة تؤهّل الخريجين لأي شيء باستثناء الانضمام ربما إلى القاعدة عبر بعض المساجد المحلية التي تشدد على الجهاد. وفي هذا الإطار، كتب المؤلف السعودي المتحرر رائد قسطي في العام ٢٠٠٤: «إن نظامنا التربوي، الذي لا يركّز على التسامح مع الديانات الأخرى يحتاج إلى إعادة تقييم شاملة من أعلاه إلى أسفله»(٣). وما يزيد المشكلة سوءاً غياب أي وجهات نظر بديلة، علماً بأنه قد تم تصويب ذلك إلى حد ما مع دخول الإنترنت وقناة «الجزيرة» الفضائية إلى منازل السعوديين. ولا عجب بالتالي أن يحظى الشيخ بن لادن بتأييد شعبي في المملكة العربية السعودية عندما يتحدث ويتصرف بدافع من الغضب والإحساس العارم بالظلم الذي يحسّ به الشعب إنما لا يجرؤ على التعبير عنه.

الإدانة

منذ أيار / مايو العام ٢٠٠٣، نشط في المملكة العربية السعودية فرع جديد للقاعدة تحت اسم «القاعدة في شبه الجزيرة العربية»، وجنّد مساعيه لتقويض النظام من خلال حملة منظّمة من الهجمات على أهداف وطنية وأجنبية على السواء.

ويبدو أن القاعدة تخطط لحملة مطوّلة في المملكة. ففي السادس عشر من كانون

---

(٣) رائد قسطي، «كم من الوقت سيمر قبل القيام بالخطوة الأولى؟» How Long Before the First Step، جريدة أخبار العرب اليومية Daily Arab News، ٩ كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤.

الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤، أصدر الشيخ بن لادن البيان التهديدي: «ليكن معلوماً أن المجاهدين في بلاد الحرمين الشريفين (المملكة العربية السعودية) لم يبدأوا بعد حربهم ضد الحكومة. وإذا بدأوا بها، فإن الانطلاقة ستكون حتماً من رأس الكفار، أي حكّام الرياض». وبناءً عليه، يتوقّع معلّقون كثر هجوماً وشيكاً على العائلة الحاكمة.

تعيش المملكة العربية السعودية مرحلة صعبة. فالنظام الاستبدادي المتبع كل ما فيه يجري وراء الأبواب المغلقة، بل إن أبسط انتقاد يُعاقب عليه في أحسن الأحوال بالجلد العلني وعقوبات السجن القاسية، وفي أسوأ الأحوال يضرب العنق علناً.

صحيح أن الرواسب النفطية في أرض المملكة بإمكانها أن تجعل الشعب ثرياً، إلا أن المدارس والمستشفيات والبنى التحتية عموماً تتهمّش. وأكثر من ذلك، لا تزال حاجات أساسية كثيرة مثل المياه والصرف الصحي غير متوافرة، علماً بأن أرقام منظمة الأوبيك (منظمة الدول المصدّرة للنفط) تبيّن أن ١٢٠٠ مليار دولار أمريكي من عائدات النفط دخلت الخزينة السعودية إلى يومنا هذا، مع تدفّق بلغ ١٥٠ مليار دولار في العام ٢٠٠٥ وحده(٤). وعلى الرغم من النهج القمعي، فإن الأصوات المحتجة لم تخفت كلها.

يواجه النظام السعودي تهديدين على المستوى الداخلي. وتتمثّل غالبية المعارضة الليبرالية بأولئك الذين تابعوا تحصيلهم العلمي في الجامعات الأمريكية والأوروبية في خلال ذروة الثروة النفطية (على مر عشرين عاماً من أواخر الستينيات). ففي إحدى المراحل، كان ما يزيد على ١٧ ألف سعودي يتابعون دراساتهم في الجامعات الأمريكية لنيل الإجازات أو الشهادات العليا. وعندما عادوا إلى ديارهم واكتشفوا أن بلادهم تتقوّض فيما الحكم الاستبدادي لآل سعود يفرض أكثر المحظورات المتشددة صرامة على شعب صامت، راحوا ينادون بالإصلاح السياسي والديموقراطية. وكان هؤلاء المعارضون الليبراليون يعبّرون عن مطالبهم في الرسائل والمقالات والعرائض.

---

(٤) www.eia.doe.gov/emeu/cabs/saudhtml.

أما المعارضة الأخرى المتمثلة بالجهاديين، فتطالب بالتغيير بقوة السلاح. فإثر عودة المقاتلين العرب الأفغان منتصرين من «جهادهم»[٥] ضد «الكفار» السوفيات، راعهم أن يجدوا جيوش «الكافر» الكبير الآخر، أي الولايات المتحدة، تحشد قواها على أرضهم، خصوصاً أن حرب الخليج الأولى اندلعت بعد ذلك بعام واحد تقريباً، وغني عن التوكيد إن الإصلاحات التي يسعى إليها الجهاديون تختلف بالطبع عن مطالب الليبراليين. فهم يريدون تطبيق أحكام الشريعة المفسّرة تفسيراً صحيحاً ـ وهذا ما لا يفعله آل سعود والعلماء[٦] المتواطئون معهم على حدّ قول الجهاديين ـ ويطالبون أيضاً بإزالة مختلف التوجهات والعناصر الغربية من «بلاد الحرمين الشريفين» (أي مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة) ورحيل الموظفين الغربيين عنها.

والواقع أن المناخ ملائم جداً لازدهار القاعدة في المملكة العربية السعودية. وأكثر من ذلك، قد يصح القول إن القاعدة ما كانت لتبصر النور لولا المملكة في المقام الأول. أضف أن محل ولادة الرسول (ص) ومركز الإسلام أنتجا الحركات الإسلامية التي تطوّرت وتحوّلت إلى تنظيم القاعدة.

والجدير ذكره أن الشيخ بن لادن يعتنق الوهّابية ـ وهي فرع من الإسلام خاص بالمملكة ـ اعتناقاً كاملاً. علماً أن المملكة كانت على الدوام المقرّ الرئيسي الذي تعتمده القاعدة للتعبئة. ففي ظل التشجيع العلني والصريح للنظام، انضم نحو ٤٥ ألف سعودي إلى مجاهدي الشيخ بن لادن لطرد الغزاة السوفيات من أفغانستان في أواخر الثمانينيات. وعندما رجع هؤلاء إلى المملكة، أثبتوا أنفسهم كمجنِّدين ملهمين لجيل جديد من الجهاديين. أما التقديرات التي تفترض أن السعوديين يشكلون نحو ٧٠ في المئة من أعضاء القاعدة، فيؤكدها واقع أن نسبة خاطفي الطائرات السعوديين إلى غير السعوديين في هجمات ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١ بلغت ١٥ سعودياً مقابل ٤ غير سعوديين.

---

(٥) الجهاد في هذا السياق يعني «الحرب في سبيل الإسلام»، علماً بأنه قد يعني أيضاً النضال على المستوى الأخلاقي، ضد الإغراء على سبيل المثال.

(٦) العلماء هم قادة دينيون مسلمون يصدرون مجموعة مراسيم يسترشد بها الحكم السعودي.

ومن سخرية الأقدار أن يكون محل ولادة الشيخ بن لادن وتنظيم القاعدة هو أرض أقرب حليف لأمريكا في منطقة الخليج. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة قد سحبت ربما جيوشها في العام ٢٠٠٣، فإن التغلغل الاقتصادي والتغلغل الثقافي اللذين كانا سيطبعان انضمام المملكة العربية السعودية إلى منظمة التجارة العالمية (كما كان متوقعاً في أواخر العام ٢٠٠٥) أثارا حتماً حفيظة الشيخ بن لادن وأمثاله من المناضلين الإسلاميين. فالأمر الذي فرضه الرسول بقوله: «لا لاجتماع دينين في شبه الجزيرة العربية» بات مهدداً بخطر الشركات المتعددة الجنسيات والكنائس المسيحية.

أما أصل الجفاء المميت بين الشيخ بن لادن وعائلة آل سعود وتاريخ هذا الجفاء، فيشكلان عنصرين رئيسيين لفهم الاستراتيجية الحالية للقاعدة وطموحات هذا التنظيم على المستويين المحلي والعالمي.

العلاقة بين آل سعود والوهّابيين

الواقع أن العقيدة الوهّابية هي التي تدعم النظام السعودي وأيضاً المجتمع السعودي وتضفي عليهما صفة شرعية. في المقابل، لولا الدعم المالي والمصادقة الدستورية اللذان قدمهما آل سعود للوهّابيين الذين كانوا يشكلون في الأصل ملّة حنبلية مغمورة، لاختفى هؤلاء من دون أن يخلّفوا وراءهم أي أثر.

أما هذا التكافل المعقّد بين آل سعود والوهّابية، فتمتد جذوره إلى عصر بناء المملكة العربية السعودية كدولة ووطن. وقد نشأت الوهّابية على يد العلامة السُنّي محمد بن عبد الوهّاب (١٧٠٣ ـ ٩٢) في منطقة نجد التي شكّلت لاحقاً ما يُعرف بالمملكة العربية السعودية. آنذاك، اعتنق حاكم الدرعية (وكانت واحة صحراوية) محمد بن سعود عقيدة عبد الوهّاب الجديدة الصارمة التي امتدت إلى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية. وفي العام ١٧٤٥، أقسم الرجلان على أن يغزوا معاً شبه الجزيرة (التي كانت تشكل آنذاك جزءاً من الإمبراطورية العثمانية) ويؤسسا فيها مملكة وهّابية.

وكان من الطبيعي أن تعزز زيجات عدّة اتحاد العائلتين (الزواج السياسي استراتيجية

يعتمدها أيضاً الشيخ بن لادن الذي زوّج على سبيل المثال نجله إلى ابنة مساعده آنذاك أبي حفص المصري في العام ٢٠٠١). وعلى الأثر، تتوّجت المغامرات العسكرية الأولى لعبد الوهّاب وابن سعود والمتحدرين منهما بالاستيلاء على مكة. وبحلول العام ١٨١١، كان القادة الوهّابيون قد شنّوا الجهاد ضد شعب أخرى من الإسلام اعتبروها ضالة، ونجحوا في توحيد القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية تحت مظلتهم. لكن في العام ١٨١٨ اجتاحت قوات مشتركة من الإمبراطورية العثمانية ومصر شبه الجزيرة وأعدمت الأمير الحاكم حفيد ابن سعود.

من المثير للاهتمام أن نلفت إلى أن الاحتجاجات التي تصدر اليوم عن الأصوليين الإسلاميين المحاربين، هي صدى للكثير من العوامل التي غذّت نشأة الوهّابية عبر القرن الثامن عشر. فتأثير الإسلام كان قد بدأ يتراجع في ظل توسّع المصالح الاقتصادية الأوروبية في الشرق (وتحديداً في الهند). في موازاة ذلك، رأى الوهّابيون أن الإسلام يتعرّض للدمار من الداخل على أيدي أولئك الذين لا يتّبعون «الدين الحق»، مما جعلهم يشنّون الجهاد ضدهم. ومن الجلي أن هذا التاريخ أعاد نفسه على نحو فظيع في التسعينيات على يد الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر وأخيراً في العراق حيث استهدف رجال الزرقاوي الشيعة.

في العام ١٩٠٢، سقطت الرياض بين يدي عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود. وبحلول العام ١٩٢٦، بسط آل سعود سيطرتهم على نجد والحجاز مستعينين بقوة الأخوان، أي المحاربين الوهّابيين، وأعلنوا في العام ١٩٣٢ قيام المملكة العربية السعودية. وبدا أن الحلم بمملكة وهّابية الذي ألهم سعود عبد العزيز قد أصبح حقيقة، في حين أن الشيخ بن لادن صرّح علانية بأن المملكة لم تُنشأ «لأجل إرساء حكم الإسلام وإنما لأجل عائلة عبد العزيز»(٧).

وعندما توفّي عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في العام ١٩٥٣، حكم على التوالي

(٧) مقابلة مع أسامة بن لادن أجراها روبرت فيسك، الصحيفة البريطانية ذي إندبيندنت The Independent، ٦ كانون الأول / ديسمبر العام ١٩٩٦.

أربعة من أبنائه مملكة تفتقر إلى دستور مكتوب أو برلمان منتخب أو نظام قضائي مستقل، وتقل فيها الحريات المدنية وتنعدم الأحزاب السياسية؛ وهذا واقع لم يتغير إلى يومنا هذا. وقد شكلت الوهّابية جزءاً متأصلاً في الدولة بحيث أن السلطة الوحيدة التي كان يحتاج إليها آل سعود لتنفيذ الواجبات الدستورية كانت الموافقة الدينية. فالعلماء الذين يعيّنهم آل سعود يحددون المسائل كلها، بما في ذلك السياسة الخارجية، بناءً على تفسيرهم للقرآن الكريم والشريعة. أضف أن العلماء كانوا في مرحلة ما يصنعون الملوك. ففي العام ١٩٦٤ مثلاً، أصدر العلماء فتوى قضت بعزل الملك سعود وتنصيب الأمير فيصل مكانه. وكما كانت الحال عليه منذ بدء مغامرة آل سعود والوهّابيين، يدعم العلماء سيطرة آل سعود على السلطة ويشرّعونها في حين يحرص آل سعود بما لديهم من بيروقراطية متنامية دوماً على التزام المجتمع السعودي بالأعراف والممارسات الوهّابية الشديدة التزمت، مما يعني بالتالي دعم العلماء.

الواقع أن الشيخ بن لادن لم يكن يعترض على الجانب البنيوي لكل ما ورد أعلاه. فلطالما صرّح علانية بأنه يعارض الديموقراطية لمصلحة الحكم وفقاً للشريعة. لكن ما يعترض عليه الشيخ بن لادن حتماً هو شمولية النظام السعودي الحالي إذ يشكل الدين مجرّد عباءة لإخفاء كل سلوك سيىء وتبريره.

أما بداية خلافات الشيخ بن لادن مع آل سعود، فتعود إلى العام ١٩٣٣ عندما وقع السعوديون اتفاقاً مع الشركة الأمريكية للنفط «ستاندرد» Standard Oil ومنحوها حقوق استغلال آبار النفط وتطويرها. وفي العام ١٩٣٨، أدركت الشركة، ومثلها المملكة، أنهما يجلسان على منجم من الذهب السائل.

النفط والمال والولايات المتحدة

بدأت الولايات المتحدة تقلق بشأن استنفاد مواردها النفطية المحلية منذ عشرينيات القرن الماضي. وبالتالي، فإن العلاقة الجديدة مع المملكة العربية السعودية. لا بل الجزء

الأكبر من الخطة الأمريكية للمنطقة منذ ذلك الحين، ارتكز إلى حد بعيد على حاجة الولايات المتحدة إلى تأمين مخزون جاهز من النفط والسيطرة عليه وحمايته.

في خلال الحرب الثانية، التي شهدت إقبال دول الحلفاء على طلب النفط، كان لحماية مخزون النفط السعودي والسيطرة عليه أهمية استراتيجية كبيرة. وفي العام ١٩٤٣، صرّح الرئيس فرانكلين دي روزفلت Franklin D. Roosevelt بأن الدفاع عن المملكة العربية السعودية يخدم مصالح الولايات المتحدة الحيوية، مما يجعل المملكة أهلاً للإفادة من المساعدة بموجب اتفاق الإعارة ـ التأجير[٨]، علماً بأنها لم تكن بأي شكل من الأشكال طرفاً في الحرب.

وبعد انتهاء الحرب، ترسّخت بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية روابط اقتصادية وأيضاً دفاعية. وأثمر اجتماع عقد في العام ١٩٤٥ بين روزفلت والملك عبد العزيز بن سعود على متن سفينة في قناة السويس تعهد الولايات المتحدة توفير الأمن والتكنولوجيا في مقابل ضمانات سعودية بتوفير مخزون مستمر من النفط بأسعار مقبولة.

وفي أواخر أربعينيات القرن العشرين، بنت الولايات المتحدة القاعدة الجوية في الظهران، لكنها استعاضت عموماً قبل العام ١٩٩٠، عن الوجود العسكري الفعلي الضروري لحماية مخزونها النفطي ببناء القواعد وتأمين السلاح وتدريب قوى الأمن المحلية.

أما الازدياد الهائل في ثروات النظام السعودي بعد انطلاقة الإنتاج التجاري للنفط في العام ١٩٤٥، فكان له مفعولان طويلي الأمد إنما متنافران. فمن جهة، أطلقت الحكومة السعودية برنامجاً لتصدير الوهّابية إلى العالم الإسلامي وحتى إلى المسلمين في أوروبا، ومن جهة أخرى اكتشف أمراؤها قوة المال والعالم الحديث والمادية الغربية.

(٨) بدأت الولايات المتحدة تمد حلفاءها بالمساعدات بموجب اتفاق الإعارة ـ التأجير في خلال الحرب العالمية الثانية بدءاً من العام ١٩٤١. وبموجب هذا البرنامج، «أعارت» الولايات المتحدة حلفاءها المعدات في ظل تفاهم ينص على أن يدفعوا لها لاحقاً. وقد خُصص مبلغ ٥٠ مليار دولار أمريكي لهذا البرنامج الذي سمح أيضاً باعتماد الإعارة ـ التأجير بطريقة معاكسة بحيث يتمكن الحلفاء من أن يسددوا القروض للولايات المتحدة في هيئة معدات وخدمات بدلاً من النقود.

في غضون ذلك، تكاثرت المدارس والكليات والمراكز الجامعية الخاضعة لرعاية الوهّابيين. ولعله من المفيد أن نذكّر بأن التعليم الرسمي محدود في العديد من الدول الإسلامية، كما أن هذه المدارس ذات التمويل السعودي تؤمن التعليم الوحيد المتوافر. لكن بما أن المنهاج التربوي محكوم بالتفسير الوهّابي للإسلام، خرّج بعض هذه المدارس، ولا سيّما في باكستان والمملكة العربية السعودية، الجهاديين الذين يشكلون اليوم، ولسخرية القدر، أكبر تهديد عرفه النظام السعودي يوماً. ففي إبّان ستينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، روّجت هذه المدارس للمبادىء الدينية الصارمة التي ترتكز عليها الوهّابية ودعمتها في الخارج، في حين كان تفسير هذه المبادئ يشهد الكثير من التحولات في الداخل.

منذ الأيام الأولى للثروة الوطنية العظيمة، سعى آل سعود إلى توزيع الفوائد المالية المتراكمة من إنتاج النفط العائد للأمة عبر توفير التعليم المجاني والخدمات الصحية المجانية(٩). لكن الرخاء المتزايد والجلي الذي كان ينعم به أفراد العائلة الحاكمة سلط الضوء على مظاهر التباين الاجتماعي وزرع بذور الشقاق. فالعائلة الحاكمة لم تكن بحاجة إلى السعي وراء استحسان الشعب، خصوصاً أن أفرادها ما كانوا يحتاجون إلى أصوات رعاياهم كي يبقوا في السلطة، وما كانوا يفرضون عليهم ضرائب على الدخل من أجل تمويل النظام. لكنهم في المقابل كانوا يدركون أن الاستياء يقوّض هيمنتهم.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن النقطة المركزية للتعليم الديني في المملكة (الذي باتت تمليه اليوم بشكل متزايد الحاجات السياسية للعائلة الحاكمة أكثر منها دراسة الدين) بدأت تركّز على طاعة الملك. وإذ ذاك، أصبح العلماء أكثر مسايرة، حتى إن سعد الفقيه يقول إنهم «استغلوا الدين للسيطرة على الشعب، ونجحوا في تحويل أي معارضة أو خلاف سطحي مع العائلة الحاكمة إلى جريمة نكراء». ويؤكد الفقيه أن هذا الجو خلق

(٩) لا يزال المواطنون السعوديون يستفيدون من مجانية التعليم والرعاية الصحية، لكن النقص في الاستثمار المستمر أدى إلى تراجع كارثي في مستوى الخدمات المتوافرة.

ثقافة فطرية من السرية موضحاً أن «الشعب يتحاشى اليوم ـ بحكم الطبيعة أكثر منه بدافع الذكاء أو الحكمة ـ التورط في السياسة».

والواقع أن مسار حياة الملك فيصل يجسّد بإيجاز النزاعات التي تكمن في صميم المجتمع السعودي. فعلى الرغم من أنه كان محدثاً، فقد كان قلقاً أيضاً من قيام نظام جمهوري في العالم العربي يهدد مستقبل حكم آل سعود. وإذ ذاك، حاول أن يمسك العصا من الوسط، فدعا في العام ١٩٦٥ إلى مؤتمر أعاد من خلاله تأكيد التمسك بالالتزام بالمبادىء الإسلامية في مواجهة الموجة المتصاعدة للابتكارات التكنولوجية. لكنه سمح في العام نفسه بدخول التلفزيون إلى المملكة، مما أثار غضب الوهّابيين المحافظين في أوساط الشعب؛ بل إن واحداً من أبناء أخ الملك نفسه شن هجوماً على محطة التلفاز فتصدّى له رجال الشرطة بالرصاص وقتلوه. والواقع أن الملك فيصل دفع الثمن باهظاً جراء هذه الحادثة، إذ قُتل في العام ١٩٧٥ على يد ابن أخ آخر له.

في العام ١٩٧٩، شهدت المملكة العربية السعودية أول حركة تمرد علنية للوهّابيين. ففي العشرين من تشرين الثاني / نوفمبر، استولى مئات المتعصبين وعلى رأسهم الإمام المتطرف جهيمان العتيبي على المسجد الكبير في مكة المكرّمة متهمين آل سعود بالانحلال والفساد. ولم تستطع السلطات المعنية إبعاد هؤلاء المتمردين إلا بعد ١١ يوماً. وقد اضطر آل سعود آنذاك إلى طلب المساعدة من شرطة مكافحة الشغب الفرنسية، مما أثبت اعتمادهم على قوى الأمن الغربية لقمع أي فتنة داخلية، وهذه عادة درجوا عليها دوماً. وعقب ذلك، ضُربت أعناق ثلاثة وستين رجلاً من الذين شاركوا في ذلك التمرد على مرأى من العامة كي يكونوا عبرة لكل من تسوّل له نفسه معارضة السلطة الحاكمة.

في غضون ذلك، كان الاتحاد السوفياتي يستعدّ لاجتياح أفغانستان (في ٢٥ كانون الأول / ديسمبر العام ١٩٧٩)، الأمر الذي حفّز على الجهاد وأدى ربما إلى تأجيل تطوير الشقاق الذي تجسّد عند عتبة المسجد الكبير في شهر تشرين الثاني / نوفمبر.

وسرعان ما أقحمت الولايات المتحدة السعوديين في الحرب الأفغانية، علماً بأن

الأصوات المعارضة لذلك في صفوف الحكام لم تكن كثيرة. فهم كانوا بحاجة إلى الدعم الأمني المستمر الذي توفّره لهم الولايات المتحدة، تماماً كما كانوا حريصين على تنفيذ التزاماتهم (خصوصاً أنهم رأوا كيف تم التخلّي عن الشاه في إيران على الرغم من أنه كان الحليف الآخر لأمريكا في المنطقة). فضلاً عن ذلك، بدا لهم أن الجهاد الأصيل سيعيد إرساء نزاهة آل سعود وموثوقيتهم الدينية.

آنذاك، تقاسم النظام السعودي كلفة الحرب الأفغانية مع الولايات المتحدة مناصفة، وساهم بمبلغ قدره ٢٠ مليار دولار أمريكي. لكن في موازاة ذلك، جُمعت تبرعات بملايين الدولارات من الأفراد الأثرياء في جميع أنحاء الخليج لتمويل المجاهدين في أفغانستان وتسليحهم.

من الابن المدلل إلى العدو الفتّاك

توجّه الشيخ بن لادن إلى باكستان بعد مرور فترة وجيزة على اندلاع الحرب في أفغانستان في العام ١٩٧٩. وعلى غرار العديد من العرب الأفغان، كان في البدء ناشطاً في توفير الدعم أكثر منه في القتال الفعلي. لكن بحلول العام ١٩٨٦، كان قد شارك في معارك عدة، وقد ذاع صيته في منطقة الشرق الأوسط كمليونير تحوّل إلى مجاهد بطل. ولمّا كان الشيخ بن لادن يتمتع بفطرة طبيعية للدعاية، شارك في العديد من البرامج الوثائقية التي عززت النمو المطرد لمكانته وشعبيته.

في تلك الأثناء، شجّع النظام السعودي مواطنيه الشباب على الانضمام إلى الجهاد وجعل من الشيخ بن لادن مثالاً ملهماً. كذلك انضمت وسائل الإعلام السعودية والمساجد في جميع أنحاء المملكة إلى الحملة المخصصة لجمع التبرعات وتعبئة المقاتلين من أجل المساعي في أفغانستان. وتشير التقديرات إلى أن نحو ٣٥ إلى ٤٥ ألف سعودي حصلوا على تأشيرات دخول إلى باكستان في أواخر الثمانينيات[١٠]. وقد توجّه هؤلاء إلى قواعد

(١٠) سعد الفقيه، بالاستناد إلى وثائق رسمية خاصة بالحكومة السعودية.

العرب الأفغان التي أنشأها عبد الله عزّام (ولاحقاً الشيخ بن لادن) في شرقي وجنوب شرقي أفغانستان وفي بيشاور. وفي حين كان البعض يسعى إلى الإفادة من التدريب العسكري المعروض، كان البعض الآخر يريد اختبار الجهاد لبضعة أشهر. في المقابل، التزم آخرون بالجهاد وقتاً طويلاً وأصبحوا أعضاء أساسيين في شبكة القاعدة التي انبثقت من الجهاد الأفغاني.

وعلى مر الثمانينيات، أُقيمت في المملكة العربية مراكز ضيافة عدة خُصِّصت لاستقبال المجاهدين الذين سقطوا جرحى في أفغانستان قبل إرسالهم للمعالجة في مستشفيات جدة والرياض. وكانت هذه المراكز تموّل من الحكومة والجمعيات الخيرية الإسلامية وكانت مجهّزة بشرائط فيديو عن الجهاد وبكتب عن الإسلام. وكان كل تلميذ سعودي مُلزم بدراسة كتاب «التوحيد» لمحمد بن عبد الوهّاب الذي يعتبره الكثيرون مصدر الحركة الإسلامية النضالية. والجدير ذكره أن الجهاد كان جزءاً من المفردات اليومية، مما أوجد آنذاك جيلاً متطرفاً أصلاً هوّن على القاعدة مهمة التعبئة عندما عادت إلى المملكة بعد بضع سنوات.

أضف أن الأموال التي توافرت من الولايات المتحدة والنظام السعودي والمتبرعين الخاصين ساهمت في تمويل بناء العديد من القواعد في أفغانستان حيث أُنشئت معسكرات تدريب ظلّت ناشطة على مر التسعينيات بعد النجاح في طرد الجيوش السوفياتية عن الأراضي الأفغانية في العام ١٩٨٩. وقد خرّجت هذه القواعد الجهاديين الذين تدرّب معظمهم على يد القاعدة وانتشروا لاحقاً في جميع بقاع الدنيا لينفّذوا عملياتهم الخاصة ويجنّدوا آخرين في أوطانهم. كذلك استورد الشيخ بن لادن التجهيزات والخبرات من شركة البناء التي تملكها عائلته في المملكة العربية السعودية بهدف إعداد هذه المعسكرات وتدعيمها.

تجدر الإشارة إلى أن عائلة بن لادن كانت مقرّبة من آل سعود على مدى زمن طويل، بل إن الروابط التي جمعت العائلتين لم تقتصر على العمل، إنما تجاوزته إلى الصداقة.

وأكثر من ذلك، عندما قُتل محمد بن لادن في حادثة تحطم طائرة في العام ١٩٦٧، أبلغ الملك فيصل أيتامه الأربعة والخمسين أنهم جميعاً باتوا أبناءه.

لكن يبدو أن الشيخ بن لادن بدأ يرتاب بآل سعود في مرحلة مبكرة. ولا شك في أن كرهه للولايات المتحدة، أقرب حليف للمملكة العربية السعودية في الحرب الأفغانية، كان يتنامى. وكان منذ أواسط الثمانينيات قد بدأ يخبر رفاقه المجاهدين بأن أمريكا هي عدو الإسلام. وفي العام ١٩٨٧، أطلق الدعوة لمقاطعة السلع الأمريكية والإسرائيلية دعماً للانتفاضة الفلسطينية الأولى.

أما الجفاء الفعلي بين الشيخ بن لادن وآل سعود، فيعود إلى العام ١٩٨٩. فعندما بلغ الجهاد الأفغاني نهايته، وجد الشيخ بن لادن نفسه على رأس جيش مدرّب من دون معركة فورية يخوضها. وكان العديد من مجاهديه قد أتى من اليمن الجنوبي الذي كان خاضعاً آنذاك للحكم الشيوعي. وشرع هؤلاء اليمنيون المدرّبون والمسلحون يحلمون باسترجاع الأراضي التي صادرتها منهم الحكومة الماركسية. ولا شك في أن أحلامهم هذه انسجمت مع طموحات الشيخ بن لادن آنذاك. ففي الحديث الشريف نبوءة تتحدث عن جيش إسلامي قوامه ١٢ ألف رجل يخرجون من اليمن. وإذ ذاك، عقد العزم على قلب الحكومة بالقوة.

وما إن استقر المحاربون اليمنيون، حتى بدأ الشيخ بن لادن يمدّهم بالسلاح والمال. ويشير بعض المصادر إلى أن حقائب ملأى بالنقود كانت تمرّ على الطريق بين الرياض واليمن الجنوبية[١١]. وكان الشيخ بن لادن قد أطلق مفاوضات مثمرة مع قادة القبائل في البلاد وسعى ـ بحسب ما قالته مصادر رفيعة الشأن ـ إلى جعل اليمن الجنوبي القاعدة الجديدة للعرب الأفغان. والواقع أن الشيخ بن لادن نفسه أخبرني بذلك عندما التقيته في العام ١٩٩٦ إذ قال لي: «ألقيت سلسلة من المحاضرات في المساجد اليمنية لأحث

(١١) جوناثان راندل Jonathan Randal، «أسامة» Osama، صفحة ١٠٠.

المسلمين على الانتفاض ضد نظام اليمن الجنوبية. وقد دفع ذلك بالحكومة السعودية إلى منعي من إلقاء الخطب والمواعظ».

وفيما كانت الجمهورية اليمنية العربية في الشمال تقوم مقام المصد بين المملكة العربية السعودية واليمن الجنوبية، شكلت طموحات الشيخ بن لادن تهديداً جدياً لأمن المملكة. فالولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية كانتا قد تدخلتا من قبل في اليمن في معرض نزاع حدودي وقع في العام ١٩٧٩ وساهمتا في تسليح جيوش جمهورية اليمن العربية وتدريبها. وبعد مرور أحد عشر عاماً، عندما بدأت الأنظمة الشيوعية التي يدعمها الاتحاد السوفياتي تتراجع بشكل جلي في جميع أنحاء العالم، قررت الولايات المتحدة اعتماد مقاربة مختلفة ودخلت في وساطة لتوحيد اليمن في العام ١٩٩٠. وإذ ذاك أُحبطت مغامرة الشيخ بن لادن بشكل فاعل.

أما ارتياب النظام السعودي بنيّات الشيخ بن لادن، فاتخذ طابعاً جدياً مع تورّط الشيخ في شؤون اليمن. فهو لم يكن يتدخل في شؤون دولة جارة فحسب، بل كان أيضاً ناشطاً في وطنه. وفي هذا الوطن حيث توجيه الانتقاد يضاهي الخيانة، شرع الشيخ بن لادن يشكك في النظام السعودي. وفي رسالة وجّهها في العام ١٩٨٩ إلى الملك فهد، ألح على ضرورة الإصلاح والتطبيق الأمين لأحكام الشريعة في المملكة. كذلك حذر الشيخ بن لادن من الخطر الوشيك الذي يمثّله العراق، جار المملكة العربية السعودية. وقد زعم في هذا الإطار أن صدّام حسين «الجشع والعدواني» يتطلّع إلى الاستيلاء على الكويت، وفي الختام على آبار النفط في المملكة. وقد أغضب الشيخ بن لادن السلطات السعودية أكثر عندما ندد علانيةً بصدّام حسين مصرحاً بأنه كافر. فآل سعود كانوا يخشون غضب صدّام حسين، وكانت لديهم أسباب مبررة لذلك. وإذ ذاك، ردّت العائلة الحاكمة على الشيخ بن لادن بتحذير نبّهته فيه إلى أنه سيتعرض للاعتقال إن استمر في أي نشاط سياسي علني أو سرّي. وبعد فترة وجيزة، صادرت السلطات السعودية جواز سفره في ما يشبه العقاب المذل وإن كان ملطفاً.

وفي آب / أغسطس العام ١٩٩٠، اجتاح العراق الكويت. وعلى الأثر، سارع الشيخ

بن لادن إلى توجيه رسالة أخرى إلى آل سعود يحدد فيها استراتيجيته للدفاع عن المملكة في وجه العدوان العراقي الحتمي. وقد أخبرني الشيخ بن لادن بنفسه عن هذه الرسالة. والواقع أنه عرض أيضاً خدمات محاربيه العرب القدامى الذين سيقومون بدورهم بتدريب المتطوعين السعوديين للمشاركة في الحرب. وإذا كانت العائلة الحاكمة قد غضّت الطرف عن البصيرة الملحوظة التي تبدّت لدى الشيخ بن لادن في مرحلة مبكرة، فإن الرد الملكي ارتدى هذه المرة طابع الاستهزاء. فقد سخر آل سعود من الرسالة وكاتبها وحذروا الشيخ بن لادن من التدّخل. ولا شك في أن إذلاله للمرة الثانية شكل أرضاً خصبة لبذور العداوة. (كتب معلّقون كثر عن مواجهة عاصفة بين الشيخ بن لادن ووزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، لكنني لم أجد أي مصادر تثبت هذه المعلومة).

وإذ احتشد ١٠٠ ألف جندي في الكويت المجاورة، في حين كان المزيد من الجنود الأشاوس في جيش البلاد البالغ عدده نحو مليون جندي يستعدّون للانضمام إليم، بدا جلياً أن المملكة ستعجز عن الدفاع عن أرضها بمفردها في حال قرر صدّام حسين اجتياحها. فعلى الرغم من غنى الدولة السعودية، فإنها كانت ضعيفة عسكرياً وغير محصّنة في وجه الهجوم. وصحيح أن الولايات المتحدة باعتها الأسلحة وأعانتها على إنشاء بنية تحتية عسكرية، لكن ألف جندي فقط من جيش المملكة العربية السعودية القليل الشأن والبالغ عدده ٧٠ ألف رجل كانوا يتمركزون على طول الحدود الشمالية مع العراق والكويت.

آنذاك، استدعى آل سعود نحو نصف مليون جندي أمريكي إلى أرض المملكة، الأمر الذي روّع علماء المملكة وغالبية المواطنين. ومنذ تلك اللحظة، تحوّلت المملكة العربية السعودية بالنسبة إلى الشيخ بن لادن إلى «مستعمرة أمريكية». وقد عبّر الشيخ عن ذلك بالقول: «نعتقد أن أمريكا اقترفت كبرى الكبائر بدخولها شبه الجزيرة التي لم يطأها أي دين من الدول غير الإسلامية طوال أربعة عشر قرناً. البريطانيون وغيرهم كانوا يحترمون مشاعر أكثر من مليار مسلم، فلم يعمدوا إلى احتلال أرض الحرمين الشريفين. وما كانت المصالح الأمريكية لتتضرر لو أن الولايات المتحدة لم تطأ بقدميها هذه الأرض.

والواقع أن رؤية الشيخ بن لادن لأحداث العام ١٩٩٠ ترد بإيجاز في اللغة الشاعرية لإعلان الجهاد ضد الأمريكيين الذي أصدره في العام ١٩٩٦:

منذ بسط الله تعالى شبه الجزيرة العربية، فخلق صحراءها وأحاطها بالبحار، لم تحلّ بها أي كارثة مثل هذه الجيوش الصليبية التي انتشرت فيها كالجراد، فملأت أرضها وأكلت خيراتها ودمّرت خضرتها، وكل هذا في وقت تناضل الأمم ضد المسلمين كأنها مدعوة إلى العشاء تتدافع من حول زبدية طعام.

وقد نجح النظام في استصدار فتوى مترددة من كبير العلماء عبد العزيز بن باز يعلن فيها هذا الأخير الموافقة على الوجود المؤقت للجنود الأمريكيين بحجة أنهم هنا «للدفاع عن الإسلام». وقد أكدت الولايات المتحدة آنذاك للحكومة السعودية، أنها ستسحب قواتها كلها نزولاً عند طلب الحكومة عندما تنتهي الحرب. لكن ما حدث في الحقيقة هو أن الولايات المتحدة أبقت على وجودها العسكري في المملكة حتى العام ٢٠٠٣ عندما، ولسخرية الأقدار، أجبرتها هجمات القاعدة على قواعدها العسكرية والعاملين فيها، على أن تعيد حساباتها وتكتشف أن الأمر لا يستحق عناء البقاء.

في ذلك الحين، شهدت المملكة موجة من الاضطرابات. فقد جمع الشيخ بن لادن وآخرون العديد من رجال الدين والعلماء الوهّابيين في البلاد تحت مظلة واحدة وحثوهم على التعبير عن رأيهم، فارتفعت إذ ذاك الأصوات المعارضة لفتوى بن باز. وعلى الرغم من أن الحكومة السعودية عمدت إلى نفي العديد من هؤلاء الرجال، فإن روح الشقاق والمعارضة تنامت حالما بدأت تترسخ. وعندما لم تغادر القوات الأمريكية أرض المملكة بعد تحرير الكويت، بعثت مجموعة من ١٠٩ أشخاص من المفكرين والأساتذة ورجال الدين إلى الملك فهد بعريضة شورى وإصلاح وردت في ست وأربعين صفحة. وقد انتقدت هذه الوثيقة الصادرة في العام ١٩٩٢ الحكومة متهمة إياها بالفساد وانتهاك حقوق الإنسان، فضلاً عن السماح بالوجود المستمر للقوات الأمريكية. وكان رد الملك فهد أن طلب إلى هيئة كبار العلماء، التي تضم سبعين عضواً وتشكل أعلى سلطة دينية في

المملكة، أن تشجب الوثيقة. أما الأعضاء السبعة الذين رفضوا الانصياع لهذا المطلب، فقد سارع الملك إلى إقالتهم.

شنّت الولايات المتحدة هجومها على العراق في كانون الثاني / يناير العام ١٩٩١. وعلى الرغم من المخاوف من الإرهاب الداخلي، فقد تركّزت الأنظار على حادثة واحدة تمثّلت بإصابة طيّارين أمريكيين وحارس سعودي في هجوم على حافلة عسكرية في جدة.

آنذاك، رأى الشيخ بن لادن أن آل سعود ارتكبوا أشنع جريمة ضد الإسلام، معتبراً أن الأرض المقدسة في مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة قد تدنست وباتت ترزح تحت نير «الاحتلال الأمريكي الإسرائيلي المزدوج». والواقع أن الشيخ بن لادن وجد الكثير من الأسباب الأخرى التي تبرر كرهه لآل سعود على مر السنوات الخمس عشرة التالية. وفي السادس عشر من كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤، طرح الأسئلة الآتية:

* من أمدّ ياسر عرفات بمئة ألف دولار أمريكي لقمع الانتفاضة الفلسطينية الأولى ضد اليهود؟
* من تحالف مع اليهود ضد الضعفاء في شرم الشيخ في العام ١٩٩٦؟
* من سمح بإقامة قواعد عسكرية (في المملكة العربية السعودية) استُخدمت في غزو العراق؟
* من تعهّد دفع تكاليف تدريب قوات الشرطة العراقية لكي تتمكن من محاربة المجاهدين في العراق وقتلهم؟

ألستم أنتم من أطلق بفخر مبادرة بيروت التي اعترفتم من خلالها بوجود إسرائيل وأقررتهم بشرعية احتلالها فلسطين؟ أفقدتم صوابكم؟ أفقدتم كرامتكم وشرفكم كبشر؟

هذا وقد اعتبر الشيخ بن لادن أن رابطاً لا يمكن حله يجمع بين آل سعود والولايات المتحدة. وإذ ذاك، أعلن الحرب على الطرفين. وعلى الرغم من أن الشيخ بن لادن عقد العزم على إسقاط النظام، فإنه لم يتحدث ضده علانية في العام ١٩٩١ واستعاض عن ذلك بالصبر المميّز. لكن السلطات فسّرت تمنّعه خضوعاً. وعندما مُنح الشيخ بن لادن جواز سفر موقّتاً يخوّله السفر إلى باكستان، غادر ولم يعد قط إلى المملكة.

الثأر

عندما وصل الشيخ بن لادن مجدداً إلى بيشاور، اكتشف أن العلاقات التي كانت قائمة بين زعماء الميليشيات الأفغانية الذين تعاونوا معاً بفاعلية خلال الحرب على السوفيات قد تدهورت وتحولت إلى صدامات عنيفة ومدمّرة. وإذ خاب أمله بالواقع الأفغاني الجديد، أعدّ العدّة للانتقال إلى السودان حيث كان يتوقّع أن يقيم قاعدة لمجاهديه من دون أن يُواجه بأي تدخل. ففي حزيران / يونيو العام ١٩٨٩، أدّى انقلاب عسكري قام به الكولونيل عمر البشير ومجلس قيادة الثورة للإنقاذ الوطني إلى تشكيل حكومة تربطها علاقات وثيقة بالجناح السياسي للأخوان المسلمين والجبهة الإسلامية الوطنية. وكانت هذه الحكومة تسعى آنذاك إلى بناء دولة على أسس الشريعة.

وإذ غادر الشيخ بن لادن باكستان على متن طائرة نفّاثة خاصة، وفي جو من السرية التامة، نقل أصدقاءه والمجاهدين المختارين إلى السودان. وكان الشيخ قد تدبّر بدافع من تبصّره إخراج مبالغ طائلة من المال من المملكة العربية السعودية؛ بل إنه أخبرني بأنه أخرج ما مقداره ٣٠٠ مليون دولار أمريكي. وعلى الفور، شرع الشيخ بن لادن في تأسيس شركة بناء في الخرطوم من أجل تمويه غايته الحقيقية المتمثلة في التخطيط للجهاد الشامل ضد الولايات المتحدة ووضعه موضع التنفيذ. كذلك انتقلت تنظيمات قتالية أخرى مثل الأخوان المسلمين إلى السودان حيث ارتفعت على الفور معسكرات التدريب.

وعلى الرغم من أن الشيخ بن لادن نُفي في الظاهر من وطنه، فقد أخبرني بأن العديد من مشاريع البناء الرئيسية التي نفّذها لمصلحة الحكومة السودانية جرى بتمويل محض من الدولة السعودية التي عيّنت شركته كمتعهد مقاولات. وإذ ذاك، تمكّن الشيخ بن لادن من نقل الأموال وتجهيزات البناء الثقيلة من شركة العائلة في المملكة العربية السعودية. ويبدو أن علاقته بالحكومة السعودية ظلّت مبهمة طوال سنوات عدة.

هذا وأخبرني الشيخ بن لادن بأن بعض أفراد العائلة الحاكمة عبّر علانيةً عن دعمه القاعدة ومعارضته الوجود الأمريكي العسكري في المملكة العربية السعودية. لكن الشيخ

رفض تزويدي بأسماء هؤلاء. وبما أن معظم الأمراء (باستثناء الملك عبد الله) مصممون على صون نمطهم الحياتي المميّز الذي يعتمد على بقاء العلماء المهندسين الرئيسيين للبنية الاجتماعية والاقتصادية في المملكة، فهم يعارضون أي تغيير قد يفرضه عليهم المصلحون. ولهذا السبب نراهم يبيحون تعاليم رجال الدين الإسلاميين المتشددين (وأحياناً يصادقون عليها بفاعلية)، وربما امتد هذا الأمر في الماضي إلى القاعدة.

في الواقع أعتقد أن اتفاق هدنة غير مكتوب عُقد بين الشيخ بن لادن وآل سعود مفاده أن النظام سيغض الطرف عن نشاطات القاعدة ما دام التنظيم لا يستهدف العائلة الحاكمة أو المواطنين السعوديين. لكن الهدنة سقطت على الأرجح عقب هجمات ١١ أيلول / سبتمبر عندما فرضت الولايات المتحدة ضغوطاً هائلة على العائلة الحاكمة لتطهّر أرضها من الإرهابيين وتقطع مصادر تمويل نشاطاتهم.

في السودان، تعاون الشيخ بن لادن مع مجموعات إسلامية أخرى مثل الأخوان المسلمين والجهاد الإسلامي (في مصر واليمن)، فبنى معهم شبكة تمتد عبر أنحاء المنطقة استعداداً للبدء بالتحرّك متى بدا الوقت ملائماً.

وكما تنبّه الشيخ بن لادن ببصيرته إلى نيّات صدّام حسين في الخليج ـ خصوصاً أنه يتابع الأخبار عن كثب، بل إنه اشترك في عدد من الوكالات الصحفية قبل أن تسمح شبكة الإنترنت بتوفير خدمة بث آنية وعالمية ـ بات مقتنعاً في العام ١٩٩٢ بأن الولايات المتحدة تخطط للانتقال إلى الصومال. وإذ ذاك، نسّق مع مجموعات أخرى سلسلة من الهجمات تهدف إلى إخراج القوات الأمريكية من الصومال بأسرع وقت. وفي هذا الإطار، رتّب الشيخ بن لادن عودة الفضلي (أحد قادة الأخوان المسلمين) من لندن إلى اليمن. وفي التاسع والعشرين من كانون الأول / ديسمبر العام ١٩٩٢، نفّذ الفضلي الهجوم الشهير على فندق غولدن مور Golden Moor في عدن. آنذاك، وقعت في الأسر مجموعة أخرى من المقاتلين التابعين للقاعدة والمدجّجين بقذائف آر بي جي عند سياج مهبط الطائرات حيث كانت وسائل النقل الخاصة بالقوات الجوية الأمريكية متوقفة. (حوصر عدد كبير من العرب الأفغان في اليمن بعد هذه العمليات، ثم نقلوا جواً في منتصف العام ١٩٩٣

على نفقة الشيخ بن لادن. وقد بلغت كلفة ذلك بحسب بعض المصادر ٣ ملايين دولار أمريكي).

أدركت آنذاك أجهزة استخباراتية عدة، ومن بينها تلك التابعة لمصر والولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، أن السودان أصبحت مرتعاً للمجموعات الجهادية والإسلامية المتطرفة. وإذ ربطت الحكومة السعودية، وإنْ متأخرة، بين الشيخ أسامة بن لادن ومثل هذه المجموعات، أوقفت تمويل مشاريعه الإنشائية في السودان. لكن هذا التدبير لم يردع الشيخ بن لادن الذي استثمر ٢٠٠ مليون دولار أمريكي من أمواله الخاصة، أي ما يوازي تقريباً ٦٥ في المئة من ثروته الشخصية في ذلك الحين.

في تشرين الأول / أكتوبر العام ١٩٩٣، أطلق العرب الأفغان التابعون للقاعدة هجمات استهدفت طوّافات من طراز الصقر الأسود في مقديشو. وقضى في هذه الهجمات ثمانية عشر جندياً أمريكياً، وجُرح ثمانية وسبعون ووقع واحد في الأسر تم جرّه عبر شوارع المدينة. وعقب تلك الهجمات، سحبت الولايات المتحدة مجمل قواتها من المنطقة في آذار / مارس العام ١٩٩٤ في خطوة بشّر بها الشيخ بن لادن باعتبارها «نصراً عظيماً».

وفي ظل الضغوط المتزايدة من جانب الولايات المتحدة، أدرك النظام السعودي أن عليه اتخاذ إجراء ما في ما يتعلق بابن السعودية المنشقّ. وإذ تحدث الرئيس بيل كلينتون عقب أحداث ١١ أيلول / سبتمبر، قال إنه أمر بقتل بن لادن منذ العام ١٩٩٤. والواقع أنه جرت بالفعل ثلاث محاولات مستقلة للنيل من حياته خلال وجوده في السودان، وكان أشدها خطورة في العام ١٩٩٤ عندما هاجم أربعة مسلحين مسجداً اعتقدوا أن الشيخ بن لادن يصلي فيه. وقضى في هذا الهجوم واحد وستون مصلياً. وإذ أدرك المهاجمون أن الشيخ بن لادن لم يكن في المسجد، هرعوا إلى مكاتب شركته حيث أطلقوا النار عليه واشتبكوا مع حراس أمن الشركة في نزاع مسلح. وعُلم لاحقاً أن شخصاً ليبياً كان يحرّك هؤلاء القتلة. لكن قوى الأمن السودانية قتلتهم على نحو غامض قبل التحقق من أصولهم ودوافعهم. إنما يُحتمل أن تكون وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية هي التي كلفتهم هذه المهمة.

وفي نيسان / إبريل العام ١٩٩٤، جرّدت الحكومة السعودية الشيخ بن لادن من جنسيته السعودية وجمّدت موجوداته في المملكة، بما في ذلك أرباح من شركة العائلة ظلت تدخل حسابات مصرفية لم يعد بمقدوره بلوغها.

والواقع أن إثارة الشيخ بن لادن بهذه الطريقة توّجت سلسلة من الأخطاء وقع فيها آل سعود، علماً بأن مشكلاتهم الفعلية مع الشيخ بن لادن كانت آنذاك لا تزال في بداياتها. وقد أخبرني الشيخ في العام ١٩٩٦ بالآتي:

عندما ضيّقت الحكومة السعودية الخناق على علماء البلاد في أيلول / سبتمبر العام ١٩٩٤، فأقالت أولئك الذين تجرأوا على الكلام من مناصبهم في الجامعات والمساجد ومنعت توزيع الشرائط المسجلة الخاصة بهم، أي منعتهم فعلياً من الحديث، اتخذت قراراً شخصياً بالبدء بقول الحق وشجب الباطل. لقد أنشأنا لجنة الشورى والإصلاح بهدف قول الحق وتوضيح الأمور.

وبين العامين ١٩٩٣ و١٩٩٨، سُجن نحو ٢٠٠ من صغار وكبار العلماء الذين اعتبرهم آل سعود منشقين لأنهم حضّوا على الجهاد ودانوا الوجود العسكري الأمريكي والتمثّل بالغرب في المملكة وفساد الحكومة. وفي محاولة لإسكاتهم أذاقتهم السلطات ألواناً من العذاب في السجن. لكن هذا الأمر ارتد على النظام. فعندما أُفرج عن العلماء، أراد هؤلاء الثأر. وإذ ذاك، نددوا بالحكومة واتهموها بالردة (الارتداد عن الدين)، وهي جريمة عقوبتها الموت بحسب الشريعة. والجدير ذكره أن معظم هؤلاء العلماء انضموا إلى القاعدة وبدأوا يبنون خلايا في المملكة ضربت بقوة مميتة في الأعوام ١٩٩٥ و١٩٩٦ و٢٠٠٣. وكان بعض هؤلاء العلماء يمتلك أصلاً خبرة عسكرية اكتسبها من المشاركة في الحرب في أفغانستان أو البوسنة. أضف أنهم كانوا قادرين على القيام بهجمات مباغتة على قوى الأمن. وفي غضون ذلك، كان الشيخ بن لادن يتحرّك ضد النظام السعودي من خارج المملكة:

أصدرت بيانات من السودان؛ وعندما أدركت الحكومة السعودية مدى التأثير البالغ

لهذه البيانات ومدى فاعليتها، تغلبت على خلافاتها مع النظام السوداني الذي كان يسعى منذ وقت طويل إلى تحسين علاقاته مع الرياض من دون أن يفلح.

بحلول العام ١٩٩٥، لم يكن الشيخ بن لادن مستعداً للتنديد بالنظام السعودي فحسب، بل أيضاً لمهاجمته. وإذ ذاك، بعث في آب / أغسطس رسالة مفتوحة إلى الملك فهد داعياً إياه إلى وضع حد للوجود العسكري الأمريكي المستمر في المملكة. وجاء في الرسالة: «مملكتكم ليست سوى محمية أمريكية، وأنتم ترزحون تحت نعل أمريكا». ولمّا لم يسر الشيخ بن لادن بالرد (الذي تمثّل بالصمت)، عمد إلى تنشيط «خلية نائمة» من قدامى المحاربين الأفغان في المملكة العربية السعودية. وكان أن أقدمت هذه الخلية على تفجير مركز تدريب الحرس الوطني الذي تديره الولايات المتحدة في الرياض، مما أدى إلى مقتل سبعة أشخاص. وقد أخبرني الشيخ بن لادن بأن الهدف من هذا الهجوم كان أيضاً الثأر لما عاناه العلماء من تعذيب وإذلال.

في ذلك الحين، بدأ آل سعود ومعهم الأمريكيون يمارسون ضغوطاً هائلة على السودان من أجل تسليم الشيخ بن لادن. وإذ ذاك، أعيد إرساء العلاقات الدبلوماسية على أعلى المستويات، وعرض السعوديون السلم مع السودان إنْ هي طردت الشيخ بن لادن ومنعته من إصدار البيانات. وقد أخبرني الشيخ بن لادن عن ذلك قائلاً: «أعلمتني السلطات العليا في الحكومة السودانية بوضعها الصعب ومدى الضغط السعودي الذي يُمارس عليها. وفي ذاك اليوم تحديداً، بدأت أبحث عن أرض بديلة تبيح قول الحق... وبعون الله تعالى، عدنا إلى خراسان (الاسم القديم لأفغانستان) فذاك الاحتمال كان قائماً على الدوام، لذلك احتفظنا بمعسكراتنا هناك».

في أيار / مايو العام ١٩٩٦، انتقل الشيخ بن لادن ومرافقوه من السودان إلى أفغانستان. وإذ أراد رجال القاعدة أن يوضحوا أنهم لا يغادرون السودان وهم يجرجرون أذيال الهزيمة والخيبة ـ على الرغم من أنهم أُخرجوا منها نتيجة ضغوط المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة ـ وجهوا ضربة جديدة تمثلت بتفجير أبراج الخبر في حزيران / يونيو من العام نفسه. آنذاك، سعت السلطات السعودية جاهدةً إلى توريط

مقاتلين شيعة تدعمهم إيران في هذا الهجوم، خصوصاً أنه لم يكن وارداً أن يقبل السعوديون بالحقيقة المحرجة المتمثلة بواقع أن المملكة تعاني مشكلة إرهاب محلي محض. ولم يكن السعوديون يريدون ترك انطباع بوجود معارضة محلية لانتشار القوات الأمريكية على الأرض السعودية.

في ما بعد، نعمت المملكة العربية السعودية بمرحلة من الهدوء الظاهري. لكن بعض المعلقين، ومن بينهم سعد الفقيه، يشير إلى أن القاعدة كانت في تلك المرحلة ناشطة جداً داخل المملكة حيث راحت تجنّد الأفراد وترسي بنية تحتية للعمليات المستقبلية.

لا شك في أن التفجيرات التي استهدفت في العام ١٩٩٨ السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام عززت التأييد الذي تحظى به القاعدة في المملكة العربية السعودية، بل إن أكثر من ١١ ألف مجنّد توجّهوا إلى المعسكرات التدريبية في أفغانستان بين العامين ١٩٩٨ و٢٠٠١. فقد عززت هذه التفجيرات أيضاً عمليات التعبئة للخلايا الجديدة التي كان يتم التخطيط لها داخل المملكة.

وعقب أحداث ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١، وافقت السلطات السعودية على مساعدة الولايات المتحدة في إطلاق هجومها على أفغانستان. وفي هذا السياق، عمدت إلى تجميد موجودات المشتبه فيهم من أفراد ومنظمات، وأقفلت أبواب الجمعيات الخيرية الإسلامية التي يُعتقد بأنها تموّل تنظيم القاعدة. فضلاً عن ذلك، رضخ آل سعود للمطالب الأمريكية الداعية إلى تغيير المنهج التربوي وإفراغه من الكتب والمراجع التي تؤيد الجهاد وتروّج للوهّابية. وفي الإطار نفسه، أقال آل سعود أكثر من ألف إمام وخطيب اعتُبروا منشقّين بسبب انتقادهم السياسات الغربية والأمريكية في المنطقة.

الواقع أن شعبية القاعدة ارتفعت إلى مستوى لا يُعلى عليه داخل المملكة. وامتدت هذه الشعبية بشكل حاسم إلى قوى الأمن، بدءاً من رجال الشرطة والحرس الوطني وصولاً إلى جهاز الاستخبارات. وقد اضطلع جهاز المباحث (أي قوى الأمن التابعة لوزارة الداخلية) بمهمة التصدي للقاعدة، مستعيناً في ذلك بمساعدة مكتب التحقيقات الفدرالي أف بي آي FBI ونصائحه والمعلومات المتوافرة لديه. لكن هذا الجهاز كان

يعاني مشكلة واحدة: فبحسب بعض المصادر، كان ٨٠ في المئة من أعضائه متعاطفين مع الشيخ بن لادن[١٢].

وقد فرّ العديد من رجال القاعدة السعوديين من القصف الأمريكي الذي استهدف أفغانستان بين تشرين الأول / أكتوبر وتشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠١، وعادوا إلى أرض الوطن لينضموا إلى الأعداد المتزايدة من الجهاديين المحليين. وما يثير السخرية أن الكتمان الذي بات جزءاً من الثقافة السعودية نتيجة جور النظام تحوّل عندئذٍ إلى عامل ذي تأثير عكسي في ظل العجز عن اقتلاع العدو الداخلي.

القاعدة تعود إلى الديار

في الوقت الذي شنّ الأمير الأول لتنظيم القاعدة يوسف العيري هجوماً صاعقاً داخل المملكة في آذار / مارس العام ٢٠٠٣، كانت القاعدة في شبه الجزيرة العربية قد أرست بنية تحتية من الخلايا والمخابىء والأسلحة والذخيرة الحربية. آنذاك، كانت الولايات المتحدة لا تزال متورطة في العراق (حيث أثبتت الحكومة السعودية مجدداً أنها حليف غير ممانع للأمريكيين) على الرغم من أن الرئيس بوش أعلن انتهاء المعركة الأساسية الكبرى في الأول من أيار / مايو.

وإذ ترسخ وجود القاعدة في المملكة العربية السعودية، تزعّم تركي الدندني أولى خلاياها، وقاد الخلية الثانية علي عبد الرحمن الفقعسي (المعروف أيضاً باسم أبي بكر الأزدي)، والخلية الثالثة يمني اسمه خالد الحاج (الذي يعتبره البعض القائد «الفعلي» لتنظيم القاعدة في المملكة العربية السعودية)، والخلية الرابعة عبد العزيز المقرن الذي شجّع أفرادها على إنشاء شبكاتهم المستقلة الخاصة ليعملوا باستقلالية تضمن لهم مزيداً من الأمن. في المقابل، بقيت الخلية الخامسة نائمة ولجأ إليها قادة الخلايا الأخرى التي تغلغل فيها أعضاء من قوى الأمن.

(١٢) ريتشارد بيستون Richard Beeston وآخرون، صحيفة التايمز The Times، ٩ تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٢ و٥ تموز / يوليو العام ٢٠٠٤.

والجدير ذكره أن الخلية الأولى كانت في البدء الأقوى والأفضل تمويلاً وتجهيزاً. وقد اضطلعت هذه الخلية بالهجوم الأول الذي وقع في ١٢ أيار / مايو العام ٢٠٠٣ وتمثّل بتفجير انتحاري جماعي متزامن نفّذه تسعة أفراد في ثلاثة مجمّعات سكنية لعمال أجانب في الرياض، مما تسبّب بمقتل خمسة وثلاثين شخصاً وإصابة مائتين آخرين. والواقع أن عدداً كبيراً من المواطنين السعوديين وغيرهم من المسلمين قُتل في هذه الهجمات، الأمر الذي أدى إلى تراجع شعبية القاعدة.

وجاء في تعليق لسعد الفقيه على هذا الأمر أن «المواطنين السعوديين غير معتادين العنف. وهم لا يتقبّلون فكرة أن يُستخدم العنف بهذه السهولة من أجل قتل مدني أمريكي أو أوروبي، وهم حتماً لا يقتنعون بالحاجة إلى قتل اثنين أو ثلاثة من السعوديين من أجل قتل أمريكي واحد».

في آب / أغسطس العام ٢٠٠٣، نفّذت الولايات المتحدة خطّتها المتمثّلة بنقل غالبية طاقمها العسكري المؤلف من سبعة آلاف جندي ومئتي طائرة حربية من قاعدة الأمير سلطان الجوية إلى الدوحة في قطر. وجاء في مواكبة الصحافة الأمريكية لهذا الحدث أن الشيخ بن لادن عجّل هذا التحرّك الذي اتفق عليه في أواخر نيسان / إبريل. وفي هذا الإطار، ذكرت صحيفة «يو أس آي توداي» USA today أن «البعض في المملكة كان يعترض على الوجود العسكري الأمريكي، وهذا واحد من الأسباب التي ذكرها أسامة بن لادن السعودي المولد في تبرير هجمات القاعدة على أمريكا في ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١».

هذا واتسع نطاق أهداف القاعدة في المملكة العربية السعودية ليشمل الأجانب كافة، ولا سيّما أولئك العاملين في صناعة النفط. فبحسب منطق القاعدة، إذا تم إفراغ هذا القطاع من العمال الأساسيين، فسيتضرر إنتاج النفط السعودي، مما سيقوّض النظام السعودي ومعه الولايات المتحدة المتعطّشة إلى البترول. وقد حث أيمن الظواهري الجهاديين على استهداف قطاع إنتاج النفط كوسيلة لمهاجمة الولايات المتحدة منذ العام ٢٠٠٢.

أما الهجوم الرئيسي الثاني الذي نُفِّذ في ٨ تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٣، فكان من تنظيم زعيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية آنذاك عبد العزيز المقرن، وهو مجاهد متمرّس قاتل في البوسنة والصومال. وتمثّل الهجوم بتفجير انتحاري استهدف مجمع المحيا السكني في الرياض. وعلى الرغم من أن هذا المجمّع كان يؤوي في السابق مواطنين أمريكيين (موظفين في شركة بوينغ Boeing)، فإن قلة منهم كانت لا تزال تقيم فيه لدى وقوع الهجوم. ومرة أخرى، كان معظم الضحايا الثماني عشرة من السعوديين أو غيرهم من المسلمين. وبما أن هذا الهجوم استُتبع بهجمات أخرى استهدفت أفراداً في قوى الأمن، يمكن القول إن هذه العمليات كانت خطأً استراتيجياً فادحاً من قبل القاعدة التي تدهورت شعبيتها أكثر، الأمر الذي أثار مشاكل جديدة على مستوى تجنيد أعضاء جدد.

يقول الدكتور الفقيه: «من غير المحتمل أن يكون الشيخ بن لادن قد أذن بمهاجمة مواطنين سعوديين أو مسلمين في ذلك الحين. إنما من الواضح أن مشكلات نشأت على مستوى التواصل، وكان الشيخ بن لادن والظواهري فارّين. فأعضاء القاعدة في المملكة العربية السعودية كانوا على الأرجح يستحصلون على موافقة غير مصقولة من القيادة. أي أنهم كانوا يبعثون إلى القيادة بطلبات غير مفصّلة للحصول على الموافقة المنشودة، فيجيبهم الشيخ بن لادن إجابات مقتضبة... من المستحيل إذاً أن يكون عالماً بالتفاصيل كافة أو أن يعطي تعليمات واضحة في شأن ما ينبغي فعله أو في شأن كيفية اختيار أفضل الأهداف».

وفي سياق الاستهداف العلني لصناعة النفط، هاجم أربعة مسلحين من القاعدة في ١ أيار / مايو العام ٢٠٠٤ مجمّع شركة ينبوع البتروكيميائية، مما أودى بحياة أمريكيَين وبريطانيَين وأسترالي واحد. وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه، وقع هجوم منظّم ومستمر على مجمّعات ومكاتب عدة تستخدمها شركة شل Shell وشركة لوكويل Lykoil وشركة الاستثمارات النفطية العربية. وفي خلال هذا الهجوم الذي استمر خمساً وعشرين ساعة، بذل الجهاديون على ما يبدو جهوداً حثيثة لتفادي قتل مسلمين بنيران أسلحتهم.

إنما على الرغم من ذلك، كان في عداد الضحايا الإثنين والعشرين ثلاثة مواطنين سعوديين.

وبين أيار / مايو وأيلول / سبتمبر العام ٢٠٠٤، أطلقت القاعدة حملة جديدة ومروّعة من الحرب النفسية مستهدفة الأفراد. وإذ ذاك، شهدت الشوارع فيضاً من القنص وعمليات الاختطاف التي قضى في خلالها ثمانية غربيين. وتمثّلت أشنع عملية بضرب عنق موظف أمريكي في شركة «لوكهيد مارتن» «Lockheed Martin» يُدعى جي آر بول جونسون Paul Johnson Jr. وكانت الغاية هذه المرة أيضاً ترويع العمّال الأجانب الأساسيين لدفعهم إلى مغادرة المملكة، وهذا من شأنه أن يقوّض الاقتصاد.

كذلك شهد كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤ تحوّلاً جديداً في الأهداف مع الهجمات الأولى للقاعدة على «أهداف صعبة». وكانت البداية في ٦ كانون الأول / ديسمبر لدى استهداف القنصلية الأمريكية في جدة وقتل خمسة موظفين من غير الأمريكيين. وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه، وقعت هجمات متزامنة استهدفت مكاتب التعبئة التابعة للقوات الخاصة ووزارة الداخلية.

في غضون ذلك، تأجج غضب المسلمين واستياؤهم جراء الاحتلال المستمر للعراق. وفي السادس من تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٤، وقّع ستة وعشرون عالماً من علماء الإسلام السعوديين رسالة مفتوحة دعوا فيها المسلمين إلى قتال الولايات المتحدة في العراق واعتبار ذلك جهاداً. وبحسب الفقيه، تظهر الأرقام السعودية الرسمية أن ثلاثة آلاف مواطن سعودي توجهوا إلى العراق منذ بداية التمرّد. ويزعم محمد المساري أن «النظام السعودي مسرور لرحيل الجهاديين إلى العراق بدلاً من بقائهم لتنفيذ عمليات في داخل البلاد». ويشير أيضاً إلى أن هذا ما يجعل أمن الحدود غير مضبوط بقدر ما تريد الولايات المتحدة[١٣].

لطالما أشارت المزاعم إلى أن أجهزة الأمن السعودية نفسها تضم العديد من

(١٣) د. محمد المساري، مقابلة أجريت معه في لندن في آذار / مارس العام ٢٠٠٥.

المتعاطفين مع تنظيم القاعدة. ووفقاً لسعد الفقيه، تؤكد الأرقام الرسمية المشار إليها أعلاه أن «خمسمئة مجند من الذين توجّهوا إلى العراق كانوا أفراداً في الحرس الوطني، وخمسمئة آخرين كانوا في الجيش وأجهزة الأمن».

كان الأمير السابق للقاعدة في شبه الجزيرة العربية صالح اليوفي (الذي قُتل في آب / أغسطس العام ٢٠٠٥) شرطياً سابقاً. كذلك كان قائد الهجوم على القنصلية الأمريكية في جدّة عوض الجهيني عضواً سابقاً في الشرطة الدينية. ويزعم بعض المعلقين أن الهجمات على المجمّعين في جدّة والخبر ما كانت لتقع لولا تواطؤ الحرس الوطني وقوات أمن أخرى، لا سيّما أن المجمّعين كانا يخضعان لحماية مكثّفة.

أما الاغتيالات التي وقعت في العام ٢٠٠٣ والعام ٢٠٠٤، فتثبت أن القاعدة كانت تستند إلى معلومات استخباراتية عن ضحاياها. فعلى سبيل المثال، كان روبرت جاكسون Robert Jackson موجوداً رسمياً في المملكة بصفة مهندس مدني، في حين أنه كان في الواقع «مستشاراً» عسكرياً سرياً متخصّصاً بطوافات أباتشي Apache والواقع أن المسلحين الذين أردوه كانوا يعرفون كيفية الوصول إليه، تماماً كما عرفوا لاحقاً كيفية العثور على الضحية الأخرى فرانك غاردنر Frank Gardner من محطة بي بي سي BBC الذي نصبوا له كميناً عندما كان يسجّل تقريراً مع المصوّر العامل معه.

في كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤، حظيت الحكومة السعودية بمساعدة قوات مكافحة الشغب الأردنية لقمع التظاهرات في الرياض وجدّة، وكافأتهم برواتب مرتفعة جداً، كما أمدّت الحكومة الأردنية بهدايا تمثلت بملايين الدولارات وبمؤن مجانية من النفط. وهذا في الواقع يثبت أن النظام لا يثق فعلياً بقوى الأمن التابعة له. وفي هذا السياق، يزعم د. المساري أن النظام لم يستعن بخدمات الحرس الوطني في الهجمات التي استهدفت معاقل القاعدة في الراس في نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥، وفي ذلك إشارة إلى أنه لا يمكن الوثوق بولائهم في عمليات كهذه.

هذا ويزعم المساري على نحو مثير للاستغراب أن بعض الرسميين السعوديين

متعاطف مع القاعدة. والواقع أن المساري ليس وحده من يقول ذلك. فقد ظهر الادعاء نفسه على سبيل المثال في المجلة الأكاديمية الأمريكية «شؤون أجنبية»[١٤] Foreign Affairs ويشير العديد من المعلقين إلى أن غزو العراق والتمرد الذي أعقب ذلك ونشأة القاعدة في بلاد ما بين النهرين بزعامة أبي مصعب الزرقاوي، أعادت إحياء نجاح القاعدة في المملكة العربية السعودية. وبحسب الفقيه، «كانت القاعدة عانت صعوبات جمة بسبب الأخطاء التي ارتكبتها في المملكة العربية السعودية، وكانت حملتها الشاملة تضررت لو لم تغزُ الولايات المتحدة العراق. فجل ما كان عليها فعله هو التخلص من صدّام حسين وتعبئة الشعب ضد الغزاة».

الجهاد الاقتصادي

الواقع أن عمليات القاعدة في المملكة العربية السعودية خلّفت تبعات خطيرة على المؤسسات المالية في العالم. وبدأ الإعلام الغربي إذ ذاك يتحدّث عن «ارتفاع مروّع» في قيمة النفط. وفي هذا السياق، قدّر جورج واشنطن، وهو خبير اقتصادي كبير في الصناعة النفطية، أن يبلغ هذا الارتفاع نحو ٨ دولارات أمريكية للبرميل الواحد في تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٤. وأضاف جورج واشنطن أن أي هجوم ناجح على إحدى المحطات الرئيسية لتصدير النفط في المملكة العربية السعودية من شأنه أن يتسبب بارتفاع هائل في الأسعار، معتبراً أن هذا هو أكبر خطر يتهدد الاقتصاد العالمي. لكن المملكة العربية السعودية ليست حتماً الدولة الوحيدة الغنية بالنفط على وجه الكرة الأرضية. وقد كُتب الكثير عن الأهمية المتزايدة لدول أخرى منتجة للنفط. إنما على الرغم من ذلك، أظهرت التحليلات الدقيقة أن المملكة العربية السعودية «دولة النفط التي لا غنى عنها» كما سمّتها مجلة «ذي إيكونوميست» The Economist ففي مقال

(١٤) مايكل سكوت دوران Michael Scott Doran، «المفارقة السعودية» «The Saudi Parade»، شؤون أجنبية Foreign Affairs، ص ٣٥ ـ ٥١، كانون الثاني / يناير ـ شباط / فبراير العام ٢٠٠٤.

نُشر في أيار / مايو العام ٢٠٠٤[١٥]، سلّطت المجلة الضوء على واقع أن المملكة العربية السعودية لا تزال تحتفظ بربع مخزون النفط المعروف في العالم. لكن المقال ذكّر القرّاء بأن دور البلاد كمنتج في قمة نشاطه سيكون أكثر أهمية لاحقاً. فبحسب المقال، «وخلافاً للدول الأخرى، يضع السعوديون يومياً عدداً من براميل النفط جانباً تحسّباً للحالات الطارئة». والواقع أن ما من دولة منتجة للنفط تكاد تقترب من المستويات السعودية على هذا الصعيد.

أما الاتفاق السعودي ـ الأمريكي الذي ينص على مبادلة النفط بالحماية، فلا يزال مطابقاً لواقع الحال، ووحدها التفاصيل تغيّرت، فأمريكا لم تعد بحاجة إلى وجود عسكري لتضمن لنفسها التحالف المستمر مع آل سعود الذين عزلوا أنفسهم في المنطقة من خلال عزمهم على المشاركة في الحروب التي قادتها الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق. ولا شك في أن النظام يحتاج إلى صديقته القوة العظمى اليوم أكثر من أي وقت مضى، تماماً كما تحتاج الولايات المتحدة، في ظل استمرار ارتفاع أسعار النفط، إلى الإبقاء على علاقاتها الجيدة مع السعوديين القادرين على التحكم بالأسعار من خلال تعديل مستويات إنتاج النفط لديهم. علماً أن رؤية جورج دبليو بوش والملك عبد الله يتصافحان في مزرعة بوش في تكساس في نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥ بددت أي شكوك في ما يتعلق برؤيتهما إلى مستقبل بلديهما المشترك. أضف أنهما باتا يواجهان عدواً مشتركاً هو تنظيم القاعدة.

إذا ألحقت القاعدة الضرر بصناعة النفط السعودية (أو حتى بمخزون النفط عموماً)، فإنها ستصيب أيضاً الولايات المتحدة. ولا بد من الإشارة إلى أن استغلال هذا التكافل الاقتصادي بات أخيراً يتصدّر جدول أعمال القاعدة. فالنفط يبقى مادة أساسية ليس للاقتصادين السعودي والأمريكي فحسب، إنما أيضاً للمشروع الأمريكي العالمي برمّته. فميزانية الرياض تعتمد على إيرادات النفط بنسبة ٨٠ في المئة، والولايات المتحدة لا تعتمد على النفط السعودي فقط لتأمين حاجتها الاستهلاكية، خصوصاً أنها إذ تتحكّم بمستويات البيع والتوزيع تستطيع درء أي منافسة متنامية من جانب دول كاليابان والهند والصين.

(١٥) «ماذا لو؟» What if، تقرير خاص، ٢٧ أيار / مايو العام ٢٠٠٤.

منذ العام ٢٠٠٢، يحضّ زعماء القاعدة وزراء الدول الأعضاء في منظمة الأوبيك على خفض إنتاج النفط بغية رفع الأسعار على نحو يثقل كاهل الاقتصاديات الغربية. وقد باتت الهجمات على خطوط أنابيب النفط في العراق حدثاً متكرراً منذ بدء التمرد، مما جعل أسعار النفط ترتفع إلى مستويات لا سابق لها، حتى إن سعر البرميل الواحد بلغ نحو ٧٠ دولاراً أمريكياً في آب / أغسطس العام ٢٠٠٥.

وفي رسالة مسجّلة بُثت على موقع إلكتروني إسلامي في ١٦ كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤، أعلن الشيخ بن لادن أن «أسعار النفط ينبغي أن تبلغ أقله ١٠٠ دولار أمريكي للبرميل الواحد». وعلى الأثر، سارعت القاعدة في شبه الجزيرة العربية إلى إصدار بيان تحثّ فيه الجهاديين على التركيز على استهداف النفط. والواقع أن هاتين الدعوتين وحدهما تسببتا بارتفاع أسعار النفط الخام في ذاك الشهر بنسبة خمسة في المئة بحسب سوق نواينكس Nynex للمواد الأولية.

الجدير ذكره أن بعض المحللين يشكك في مقدرة القاعدة على ضرب منشآت إنتاج النفط في المملكة العربية السعودية. فهذه المنشآت تخضع لحماية صارمة تتولاها قوى الأمن السعودية والأمريكية، كما أنها تقع بمعظمها في الجزء الشرقي الشيعي من البلاد على الخليج الفارسي حيث لا تمتلك القاعدة أي بنية تحتية لا تحظى بأي دعم. في المقابل، يزعم معلقون آخرون أن أميالاً عدة من أنابيب النفط غير المحمية تبقى غير منيعة في وجه أي هجوم. إضافة إلى ذلك، يتفق خبراء الاقتصاد على أن أي محاولة فاشلة قد تحدث خللاً في إنتاج النفط وتسبب تزايداً لولبياً في الأسعار يضرّ بالاقتصاديات الغربية. ومن الجلي أن لدى الولايات المتحدة مخاوفها الأمنية في هذا المجال، بل إنها عمدت سراً إلى تخزين نحو ٧٠٠ مليون برميل نفط في كهوف للملح في تكساس ولويزيانا. فهذا المخزون يكفيها ثلاثة أشهر. ويساعدها على قلب أي ارتفاع درامي وغير متوقع في أسعار النفط (١٦).

---

(١٦) جاين بادغام Jane Padgham، صحيفة إيفنينغ ستاندرد Evening Standard (لندن)، ٣ حزيران / يونيو العام ٢٠٠٤؛ وردت في «بابل السعودية» Saudi Babylon لمارك هولينغزويرث Mark Hollingsworth

وفي حين تعود أسعار النفط المرتفعة بالفائدة على الاقتصاد السعودي وتعزز مقدرة آل سعود على «شراء الولاء» كما يزعم المعلّق السعودي مداوي الرشيد، يبدو أن بقاء القاعدة ناشطة في المملكة قد يلحق كارثة بالاقتصاد. ويقول الرشيد الذي تحدث إلى العديد من رجال الأعمال الغربيين في سياق عرض الحجج المؤيدة والمضادة للاستثمار في المملكة: «صور الجثث المقطوعة الرؤوس... وتصيّد القاعدة للموظفين الأجانب... مربكة ومسببة للإزعاج. فالاستثمار وجذب رؤوس الأموال الأجنبية يعتمدان كلياً على توافر الأمن»(١٧).

ومن المفيد الإشارة إلى أن هذه المسألة تشغل اليوم الحكومة السعودية، خصوصاً أن توجّهاً ظاهراً بدأ يتنامى لدى المستثمرين الخليجيين لاسترجاع أموالهم من المشاريع الاستثمارية وأسواق الأسهم الغربية (مخافة أن تُجمّد مدخراتهم). وبالتالي، تشهد دول الخليج فورة اقتصادية تتجلى في المشاريع الإعمارية الناشطة والارتفاع الضخم في قيمة الأسهم في الأسواق المحلية. ففي المملكة العربية السعودية، سجّل «مؤشر تداول جميع الأسهم Tadawul All-Share Index» ارتفاعاً فاقت نسبته السبعين في المئة في العام ٢٠٠٥، وبات يشكل اليوم أكبر سوق متنامية للأسهم في العالم(١٨).

هذا وقد أدى الاعتماد الغربي على النفط السعودي إلى مشاركة غير معلنة في الفساد وانتهاك حقوق الإنسان. لكن انضمام المملكة العربية السعودية إلى منظمة التجارة العالمية قد يحسّن هذا الوضع. فالإصلاحات والتغييرات المطلوبة لاستيفاء شروط منظمة التجارة العالمية ستنطوي على تحدياتها الخاصة. ومن ثم، فإن حكم الشريعة لن يتناغم بسهولة مع العضوية في هذا النادي الخاضع للسيطرة الأمريكية. فضلاً عن ذلك، تتجلّى الحاجة إلى إعادة صوغ النظام القضائي برمّته بحيث يتضمن مفاهيم علمانية عن العدالة والمقاضاة. فالعديد من رجال الدين والمدنيين العاديين يذوون حالياً في السجون، علماً

(١٧) صحيفة «القدس العربي»، ٢ أيار / مايو العام ٢٠٠٥.

(١٨) مجلة ذي إيكونوميست The Economist، «الضخ المرتفع: أسواق الأسهم في المملكة العربية السعودية تشهد ارتفاعاً حاداً» Pumped Up: Saudi Arabia's Stock Market Soars، ٢٠ آب / أغسطس العام ٢٠٠٥.

بأن تهمة هؤلاء الوحيدة هي مشاركتهم في تظاهرات سلمية يحظّرها النظام. إنما تجدر الإشارة إلى أن المملكة شهدت بعض التحسينات الطفيفة على هذا المستوى منذ وفاة الملك فهد في آب / أغسطس العام ٢٠٠٥، فقد عفا خلفه الملك عبد الله عن العديد من السجناء السياسيين وأطلق سراحهم.

المرحلة النهائية

قام النظام السعودي بمحاولات غير منتظمة لإعادة الشيخ بن لادن إلى حظيرته، فعرض مثلاً في العام ١٩٩٦ أن يعيد إليه الجنسية السعودية مقابل إعلانه على الملأ أن الملك مسلم حقيقي. كذلك عرض آل سعود مضاعفة مبلغ المئتي مليون دولار أمريكي الذي قد جُمّد في حسابات الشيخ بن لادن المصرفية إنْ تعاون مع النظام. لكن الشيخ بن لادن رفض العرض. وبدا إذ ذاك أنه لم يعد من مجال للتفاوض في المعركة القائمة بين القاعدة (التي تصفها الآن الصحافة السعودية الخاضعة للسيطرة الحكومية) بـ«المجموعة الضالة» والنظام.

لا بد من الإشارة إلى أن المملكة العربية السعودية دولة أساسية لأسباب عدة. فبالنسبة إلى الشيخ بن لادن وإلى ١,٣ مليار مسلم، هي قلب الأمة الإسلامية والدين الإسلامي. أضف أن مواردها النفطية تُعتبر عاملاً حيوياً بالنسبة إلى المشروع الأمريكي العالمي، مما يجعل آل سعود يتصوّرون أن بمقدورهم استخدام «البترودولار» لشراء القوة والنفوذ في الداخل والخارج. كذلك على المستوى الجغرافي، تقع المملكة العربية السعودية في مركز إحدى أكثر المناطق أهمية وتفجّراً في العالم.

الواقع أن استراتيجية القاعدة في المملكة العربية السعودية تتغيّر بحسب الفرص والمصالح التاريخية. ويُجمع المعلّقون على أن الغاية المحلية القصوى تبقى إسقاط النظام، وعلى أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتوق الشديد إلى هزم أمريكا.

هذا ويتم التمييز بين مدرستين رئيسيتين للفكر على مستوى الغاية الطويلة الأمد للقاعدة في المملكة العربية السعودية. فإن تم استهداف نظام آل سعود وإسقاطه،

فسيقوّض ذلك المشروع الأمريكي في المنطقة. وفي المقابل، إذا تم استهداف الولايات المتحدة نفسها، فإن أولئك المعارضين لإدارة بوش سيميلون أكثر فأكثر، بحسب ما يعتقده راسمو الاستراتيجيات الجهادية، إلى المحاربة، فيولّد ذلك انقسامات وصراعات داخلية مضرّة وعندئذٍ، يصبح من السهل على القاعدة والمجموعات التابعة لها أن تنحّي آل سعود عن السلطة.

في كلتا الحالتين، يقول معظم المعلقين إنهم يتوقعون استهداف فرد أو أكثر من آل سعود في المستقبل القريب. فللقاعدة تاريخ في تنفيذ مثل هذه الهجمات التي يُقصد منها توجيه «رسالة» ما. وفي كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤، هدد الشيخ بن لادن علانية ببدء «عمليات مسلحة ضد حكّام الرياض».

أضف أن القاعدة في شبه الجزيرة العربية خبرت في غضون سنة ونيّف أربعة تغييرات متتالية على مستوى القيادة. فقد قُتل العيري في حزيران / يونيو العام ٢٠٠٣ في معركة حاسمة مع قوى الأمن السعودية عند أحد الحواجز، وإذ ذاك، خلفه خالد الحاج الذي نُصب له كمين أودى بحياته في الرياض في ١٦ آذار / مارس العام ٢٠٠٤. وحل المقرن محل خالد الحاج إلى أن قتلته الشرطة في الثامن عشر من حزيران / يونيو العام ٢٠٠٤. أما خلفه صالح اليوفي، وهو شرطي سابق، فقُتل في آب / أغسطس العام ٢٠٠٥. وفي حين تشير العمليات الناجحة لقوى الأمن السعودية إلى أنه لم يبقَ إلا قلة من قدامى المحاربين العرب الأفغان، تؤكد التقارير أن جيلاً جديداً من الجهاديين قد أبصر النور.

لكن من غير المحتمل أن يبلغ نشاط القاعدة في المملكة مستوى متقدماً ما لم تنتهِ حالة التمرّد في العراق، خصوصاً أن آلاف الجهاديين السعوديين يشاركون في المعارك هناك. وبحسب الفقيه، أعاد زعماء القاعدة في العراق مجموعة صغيرة من الجهاديين إلى المملكة العربية السعودية في أيار / مايو العام ٢٠٠٥ «تنفيذ بعض العمليات وتذكير السلطات السعودية بأنهم لم يرحلوا بعيداً». ولا شك في أن الروايات التي تحدثت أخيراً عن إيقاف قوى الأمن السعودية سيارة ملأى بالمتفجرات وأسلحة الكلاشينكوف عند أحد الحواجز تدعم هذا الادعاء.

وعندما يعود من العراق آلاف المجاهدين المدرّبين جيداً الذين زادتهم المعارك عزيمة وصلابة فباتوا مستعدين لتنفيذ أوامر زعماء القاعدة، سيكون لدى النظام السعودي ما يخشاه بالفعل. ويتنبأ المساري بأن ذلك اليوم سيكون «يوم تسوية الحسابات».

الفصل السادس

القاعدة في العراق

عندما قابلت الشيخ بن لادن في العام ١٩٩٦، شرح لي استراتيجيته الطويلة الأمد. وكان الشيخ يعلم أنه لن ينجح أبداً في هزم عدوّه - أي القوة العظمى العسكرية العملاقة التي تمثّلها أمريكا - على الأرض الأمريكية باستخدام أسلحة تقليدية. وإذ ذاك، اعتمد الشيخ خطة بديلة قد تحتاج إلى سنوات عدة لتؤتى ثمارها. والواقع أننا نشهد اليوم تحقيق جزء من تلك الخطة في ساحات القتال في العراق.

لطالما شكّل الصبر واحداً من الأسلحة الرئيسية في ترسانة القاعدة. ولا شك في أن الصبر عنصر لا بد من توافره إنْ كان الشيخ بن لادن ينوي تحقيق مرامه. ففيما كنا نسير معاً عبر الأحراج التي تتخلل الجبال الشاهقة في طورا بورا، قال لي: «نريد أن نجرّ الأمريكيين إلى محاربتنا على أرض إسلامية. فإن استطعنا مقاتلتهم على أرضنا، فسنهزمهم حتماً لأننا نحن من سيحدد ظروف المعركة في أرض لا يعرفونها ولا يفهمون طبيعتها».

والواقع أن وصول ١٥٠ ألف جندي أمريكي إلى العراق في آذار / مارس العام ٢٠٠٣ قد شكّل نقطة تحوّل في تاريخ القاعدة كان الشيخ بن لادن ينشدها.

القاعدة شبه مدمّرة

بعد مرور خمسة أعوام على زيارتي للشيخ بن لادن في مخبئه الأفغاني، ضُربت منطقة طورا بورا بوابل من القنابل العنقودية المدمّرة في إطار سعي الولايات المتحدة إلى الثأر

لأحداث ١١ أيلول / سبتمبر وتدمير القاعدة ونظام طالبان الذي يحتضنها. وقد أدى هذا القصف وما تلاه من غارات استمرت ١١ أسبوعاً منذ العاشر من تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠١ إلى مقتل ٢٠ ألف مدني أفغاني وتدمير ١٢٨ مدينة وبلدة أفغانية.

لكن زعيماً واحداً فقط من جماعة طالبان، هو وزير الأمن قاري أحمد الله، قُتل في هذا العرض للقدرات العسكرية. فالشيخ بن لادن والرجال الذين يشكّلون النواة الداخلية لقيادة التنظيم كانوا قد غادروا المنطقة من الباب الخلفي متوجهين إلى باكستان بمساعدة جهاز الاستخبارات الباكستاني (آي أس آي) كما يُزعم.

وعلى الرغم من أن قادة التنظيم قد نجوا من الاعتقال والقتل، فقد شكّلت تلك الأحداث بداية نهاية القاعدة. فالهجوم الأمريكي الكاسح على أفغانستان نجح في تدمير ما يزيد على ٨٠ في المئة من القدرات العسكرية للقاعدة وبنيتها التحتية. وإذ ذاك، خسر أعضاء التنظيم ملجأهم الآمن ومعسكراتهم التدريبية، تماماً كما خسروا الدعم الذي كانوا يحظون به في أوساط المسلمين الأكثر اعتدالاً الذين شعروا بتعاطف شديد مع ضحايا هجمات ١١ أيلول / سبتمبر. وكان من المحتّم أيضاً أن تنبت بذور الشقاق داخل القاعدة نفسها.

يذكر أن العديد من الشخصيات الرئيسية في التنظيم عارض هجمات ١١ أيلول / سبتمبر؛ ونذكر من هؤلاء أبا مصعب السوري(١)، وخصوصاً في سياق هذا الفصل أبا مصعب الزرقاي الذي اكتسب لاحقاً سمعة سيئة كأمير (زعيم) للقاعدة في العراق.

ووفقاً لعمر محمود عثمان أبو عمر، المعروف أكثر باسم أبي قتادة، وهو رجل دين متطرف يُعتقد أنه القائد الروحي للقاعدة في أوروبا، كان اعتراض الزرقاوي على عملية ١١ أيلول / سبتمبر السبب الرئيسي الذي جعله يعزف عن إعلان الولاء للشيخ بن لادن في تلك المرحلة ويؤثر العمل بشكل مستقل عن القاعدة(٢). وقد أشار أبو قتادة إلى أن ثمة

(١) أبو مصعب السوري هو الاسم الحركي للمنظر الأيديولوجي ومدرّب المجندين في تنظيم القاعدة مصطفى عبد القادر السوري الجنسية المعروف أيضاً باسم مصطفى ست مريم نصر وعمر عبد الحكيم.

(٢) كان أبو قتادة يقيم في السابق في لندن، لكن أمراً بترحيله صدر في أثناء وضع هذا الكتاب (آب / أغسطس العام ٢٠٠٥). مقابلة مع عبد الباري عطوان، لندن، حزيران / يونيو العام ٢٠٠٥.

أعضاء من الحلقة الداخلية للقاعدة تركوا التنظيم آنذاك نتيجةً لما اعتبروه قراراً كارثياً. فقد توقعوا أن ترد الولايات المتحدة على الهجوم بوحشية منقطعة النظير وتدمّر الدولة الإسلامية النموذجية لطالبان (كما كانوا يعتبرونها). والأهم أن القاعدة ستخسر عندئذٍ الملجأ الآمن الضروري لبقائها وتوسّعها.

في تلك المرحلة، سارعت الولايات المتحدة إلى إعلان انتصارها على القاعدة. لكن وعلى الرغم من أن قيادة التنظيم أُجبرت على التواري عن الأنظار، فقد ظلّ التنظيم يتمتع بحضور كافٍ على المستوى العالمي وبقدرة على تنفيذ هجمات عدة في العام ٢٠٠٢ من بينها عملية تفجير الكنيس في جربة بتونس في ١١ نيسان / إبريل، وتفجير نادٍ ليلي في بالي في ١٢ تشرين الأول / أكتوبر. وكان في ذلك إشارة واضحة إلى الولايات المتحدة بأنها قد أضرّت بعدوها، إنما لمّا تهزمه بعد.

وفي لحظة مطبوعة بسخرية التطورات التاريخية، وتحديداً بعد مرور ثمانية عشر شهراً فقط على اضطرار القاعدة إلى مغادرة أفغانستان مترنّحة، عادت الولايات المتحدة لتحيي آمال القاعدة المتعثرة باتخاذها قرار غزو العراق في التاسع عشر من آذار / مارس العام ٢٠٠٣. والواقع أن الولايات المتحدة ارتكبت آنذاك خطأً فادحاً إذ أساءت تقدير مستوى الغضب الذي سيثيره تحرّك كهذا في أوساط المسلمين. فلعلها اعتقدت أن الشعب سيكون سعيداً «بتغيّر النظام» لأن صدّام حسين كان قائداً علمانياً. ووفقاً لرئيس الوزراء الفلسطيني محمود عباس (في حزيران / يونيو العام ٢٠٠٣)، لم يلطّف من حدة الغضب ما نقله إليه جورج بوش عندما أخبره أن «الله» قد أوعز إلى الرئيس ليهاجم القاعدة والعراق. فهذه الملاحظة المزعومة التي انتشرت على نطاق واسع شكّلت تجديفاً صريحاً من وجهة نظر العديد من المسلمين وأعادت إلى الأذهان ذكرى الحملات الصليبية.

أضف أن المظالم التاريخية التي ترافقت مع شعور الأمة بالذل والغضب المكبوت عادت لتظهر على نطاق واسع نتيجة ما اعتبره العديد من المسلمين غطرسة المشروع الأمريكي. فقد بدا أن المشروع العسكري للولايات المتحدة يغفل الدلالة الدينية والثقافية

للعراق الغني بالنفط، والذي لا يشكل أرضاً إسلامية فحسب، بل يضم أيضاً أكبر عدد من الأماكن المقدسة والمزارات الإسلامية على وجه الأرض. وقد كانت العاصمة بغداد المقر القديم للخلافة[٣] العزيزة على قلوب الجهاديين السلفيين. وبالتالي، فإن العراق لم يكن يقل أهمية بالنسبة إلى المسلمين عن فلسطين أو المملكة العربية السعودية.

تغيير النظام

لم يكن التغيير في النظام من الناحية التاريخية غريباً على العراق الذي يضم المناطق العثمانية السابقة الثلاث، أي الموصل وبغداد والبصرة. ففي القرن العشرين وحده. انتقل العراق من الانتداب البريطاني (العام ١٩١٩) الذي أُخضع له عقب الحرب العالمية الأولى، إلى مملكة هاشمية بريطانية الأسس لدى نيل الاستقلال (العام ١٩٣٢). لكن الثورة الشعبية التي قامت في العام ١٩٥٨ أطاحت النظام الملكي ليتسلّم زمام الحكم نظام يساري عسكري بقيادة العميد عبد الكريم قاسم. وفي العام ١٩٦٣، اغتصب العقيد عبد السلام عارف الحكم من قاسم إلى أن جرت تنحيته هو ونظامه في العام ١٩٦٨ على أيدي حزب البعث العربي الاشتراكي. والجدير ذكره أن صدّام حسين شكل منارة الحزب، وجمع بين المبادئ القومية والعسكرية والاشتراكية العربية والعربية الموحّدة. وفي العام ١٩٧٩، أصبح رئيساً للعراق.

لا شك في أن صدام حسين كان ديكتاتوراً عديم الشفقة. وقد شهد حكمه مجازر بحق الأكراد والمنشقّين والشيوعيين والفارين من الخدمة العسكرية وغيرهم. فطريقته في التعاطي مع خصومه السياسيين كانت مطبوعة بالوحشية. ومثال على ذلك أنه في العام ١٩٧٩، وبعد أن أجبر سلفه أحمد حسن البكر على الاستقالة، أمر رفاقه القياديين في حزب

(٣) تأسست الخلافة بعد وفاة النبي محمد (ص) في العام ٦٣٢م، وكان الخليفة الأول للنبي حماه أبا بكر الصديق. وقد توسّع العالم الإسلامي في ظل الخلفاء الراشدين متجاوزاً حدود شبه الجزيرة العربية. وشكلت بغداد مقر الخلافة طوال الفترة الممتدة من العام ٧٥٠ إلى العام ١٢٥٨.

البعث بأن يتولّوا شخصياً إعدام ثمانية وستين مدنياً وقائداً عسكرياً (كانوا أيضاً أعضاء في حزب البعث) لأنه اعتقد أنهم قد يشككون في شرعية حكمه.

لكن أفظع جرائم صدام حسين ارتُكبت خلال الحرب مع إيران، منذ العام ١٩٨٠ إلى العام ١٩٨٨، وعقب ذلك بفترة وجيزة. ففي ربيع العام ١٩٨٨، استُخدمت القنابل الكيميائية لقتل نحو ٧٠٠٠ كردي في بلدة حلبجا. والواقع أن الولايات المتحدة والمملكة المتحدة كانتا على علم بالفظائع التي ارتكبها صدام حسين على مدى عشرات السنين، لكنهما لم تحرّكا ساكناً لمنع تلك الجرائم أو تحميل صدام مسؤولية ارتكابها. ما جرى حقيقة هو أن الولايات المتحدة ضاعفت في العام ١٩٨٨ المعونة المالية التي تقدّمها إلى العراق. وكانت المملكة المتحدة تواقة هي أيضاً إلى المساعدة، حتى إن دائرة ضمان اعتمادات التصدير التابعة للحكومة البريطانية تعهّدت في العام ١٩٨٨ منح صدام حسين قرضاً مقداره ١٧٥ مليون جنيه استرليني (أي ما كان يوازي آنذاك نحو ٣٠٠ مليون دولار أمريكي) ثم قرضاً آخر في العام ١٩٨٩ مقداره ٣٤٠ مليون جنيه استرليني (آنذاك نحو ٥٣٥ ألف دولار أمريكي).

الجدير ذكره أن تاريخ التدخّل العسكري الأمريكي والبريطاني في العراق يعود إلى تموز / يوليو العام ١٩٦١ عندما تحرّكت القوات البريطانية لحماية الكويت من الجيوش العراقية التي راحت تحتشد عند حدودها. وقد طالب العراق آنذاك بالكويت بحجة أنها كانت تخضع للسيادة العراقية عندما كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. لكن الكويت كانت أيضاً بلداً أساسياً بالنسبة إلى المصالح الأمريكية البريطانية. فشركة نفط الخليج Gulf Oil (التي تتقاسم ملكيتها المشتركة المصالح البريطانية والأمريكية) كانت تستخرج النفط من حقل برقان في الكويت منذ العام ١٩٤٦. وفي كانون الأول / ديسمبر العام ١٩٦١، نفّذ رئيس الورزاء العراقي الجنرال قاسم انتقامه من الغزو العسكري الفاشل على البلاد بأن حرم شركة النفط العراقي (التي تمتلك فيها شركات أمريكية نحو ٢٥ في المئة من الأسهم وشركات بريطانية أخرى نسبة أقل بعض الشيء) من ٩٩,٥ المئة من امتيازاتها في العراق. ويشكّ الكثيرون في إمكانية تورّط وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية لاحقاً في

الانقلاب الذي أطاح قاسم في شباط / فبراير العام ١٩٦٣. وفي تشرين الأول / أكتوبر من العام نفسه، اعترف خلفه الرئيس عبد السلام عارف بحق الكويت في الاستقلال. وبعد أن أمسك البعثيون بزمام السلطة في العام ١٩٦٨، أُممت المصالح النفطية كافة في العراق في حزيران / يونيو العام ١٩٧٢.

وبعد مرور سنة واحدة على تسلم صدام حسين السلطة، أقدم على مهاجمة إيران، فكانت الحرب العراقية الإيرانية معركة طويلة ودموية لم تلبث أن تحوّلت إلى حرب استنزاف انتهت ببقاء حدود كلا البلدين كما كانت عليه. وفي سياق تلك الحرب العقيمة، خسر العراق مليون شهيد، في حين ارتفعت قيمة ديونه إلى ٦٠ مليار دولار أمريكي. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة دعمت العراق عسكرياً ومالياً طوال فترة الحرب، فلم توفّر أي مساعدة مالية لإعادة بناء البلاد، ونُصحت المؤسسات المالية الدولية بألا تقدم القروض إلى الدولة أو تعيد جدولة ديونها.

آنذاك، بدأ يُنظر إلى صدّام حسين باعتباره مصدر خطر ناشئاً في المنطقة. فقد أكسبته حربه مع إيران خبرة واسعة على المستويين العسكري والاستراتيجي، كما أنه بدأ يطمح إلى تطوير قدرات بلاده النووية. وكان صدّام حسين قد خزّن ترسانة من أسلحة الدمار الشامل التي شكلت تهديداً مباشراً لإسرائيل ولموقعها كقوة متفوقة عسكرياً في الشرق الأوسط. وإذ ذاك، باتت الولايات المتحدة تنظر إلى صدام حسين باعتباره وحشاً من صنعها.

وإذ أغرقت دولتا الكويت والإمارات العربية المتحدة السوق بفائض من النفط، انعكست هذه الخطوة ضرراً بالغاً على الاقتصاد العراقي الذي كان يعيش أصلاً حالة سيئة (والذي يعتمد بشكل شبه كلّي على عائدات النفط). وفيما تدهورت أسعار النفط إلى ١٠ دولارات أمريكية للبرميل الواحد، سارعت الكويت على نحو مفاجىء إلى المطالبة باستعادة قرض مقداره ٣٠ مليار دولار أمريكي كانت قد منحته للعراق في خلال الحرب مع إيران. ولمّا كان صدام حسين يسعى يائساً إلى زيادة عائدات النفط في العراق ليتمكّن من سداد الديون المتوجّبة على بلاده، قرر ضمّ الكويت وأرسل ١٠٠ ألف جندي إلى

الحدود. لكن الولايات المتحدة سارعت إلى التدخل، فبدأت حرب الخليج الأولى في السابع عشر من كانون الثاني / يناير العام ١٩٩١ بعملية «عاصفة الصحراء» لتنتهي بعد ستة أسابيع فقط بالانتصار الحتمي للولايات المتحدة وحلفائها.

والواقع أن الولايات المتحدة كانت تخشى أن يتجاوز المدّ العراقي الكويت ليشكل تهديداً للمملكة العربية السعودية التي تُعتبر منتج النفط الرئيسي والحليف العربي الأساسي لأمريكا في منطقة الشرق الأوسط. وإذ ذاك، تحوّلت الولايات المتحدة بأنظارها إلى مخزون النفط في العراق، وكانت دوافعها لذلك مبررة.

لا بد من الإشارة إلى أن العراق يملك ثاني أكبر مخزون محتمل للنفط في العالم بعد المملكة العربية السعودية، مع فائض يبلغ نحو ٣٠٠ مليار برميل. وعلى غرار النفط في المملكة العربية السعودية، يُعتبر إنتاج نفط العراق الأقل كلفة لأنه يتوافر في حقول هائلة يمكن استخراج مخزونها عبر آبار قليلة العمق نسبياً. أضف أن معدل تدفّق النفط مرتفع بسبب نسبة الصرف ومعدل الضغط المرتفع من المياه ورواسب الغازات الطبيعية على خزانات النفط. وبحسب مجلة «النفط والغاز» Oil and Gas Journal، تقدّر شركات النفط الغربية أن بمقدورها إنتاج برميل واحد من النفط العراقي بكلفة لا تزيد على ١,٥٠ دولار أمريكي وربما لا تتجاوز الدولار الواحد، في حين أن كلفة إنتاج برميل من النفط في مناطق أخرى متدنية نسبياً، كماليزيا وعمان، ترتفع إلى ٥ دولارات أمريكية. كذلك تراوح كلفة إنتاج النفط في المكسيك وروسيا بين ٦ و٨ دولارات أمريكية للبرميل الواحد (وقد ازدادت هذه الكلفة نتيجة إجراءات الإنتاج الحالية التي اعتمدتها الشركات المحلية). أما في حقول تكساس وغيرها من حقول النفط الأمريكية والكندية، فترتفع كلفة الإنتاج بسبب عمق الآبار وصغر الخزّانات إلى ما يزيد على ٢٠ دولاراً أمريكياً. وعندما تنخفض أسعار النفط في السوق العالمية إلى ما دون ٢٠ دولاراً، لا تحقق حقول النفط الأمريكية الشمالية أي أرباح، في حين يبقى النفط العراقي رابحاً[٤].

---

(٤) www.globalpolicy.org/security/oil/2002/12heart.htm.

وبرهاناً أيضاً على مدى التوق للفوز بجائزة النفط العراقي، احتسب الخبير الاقتصادي الأمريكي جيريمي ريفكن Jeremy Rifkin الوقت الذي ستستغرقه آبار النفط المعروفة حالياً قبل أن ينضب مخزونها. وكانت النتائج التي توصّل إليها مثيرة للاهتمام. ففي الولايات المتحدة، لن يستغرق الأمر أكثر من ١٠ سنوات، وفي إيران ٥٣ سنة، وفي المملكة العربية السعودية ٥٥ سنة، وفي الإمارات العربية المتحدة ٧٥ سنة، وفي الكويت ١١٦ سنة. أما في العراق، فالمذهل أن مخزون النفط سيبقى متوافراً ٥٢٦ سنة(٥).

وبالنسبة إلى الولايات المتحدة، كان صدّام يشكل خطراً يتهدد مشروعها في الشرق الأوسط. أضف أنه أطلق في خلال حرب الخليج الأولى هجمات صاروخية على إسرائيل. وإذ ذاك، لم تعد المسألة تتعلق بما إذا كان ينبغي التخلص منه أم لا، وإنما بكيفية التخلص منه والوقت الملائم لذلك.

خلال تسعينيات القرن العشرين، أدّى برنامج العقوبات الذي فرضته الولايات المتحدة إلى موت آلاف المواطنين العراقيين شهرياً بسبب سوء التغذية والنقص في الأدوية. وعندما سُئلت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت Madeleine Albrigth عن موت نصف مليون طفل عراقي بسبب العقوبات، علّقت على الأمر بملاحظتها الشهيرة «كان الأمر يستحق ذلك»(٦). ولا شك في أن مرحلة العقوبات ساعدت على انتقال العراق من دولة حديثة تقدّم خدمات عامة ممتازة إلى أنقاض دولة ترزح تحت وطأة الفقر.

وإذ أدركت الولايات المتحدة أن صدام العصي على أي انقلاب لن يُزاح من منصبه عن طريق التمرّد الشعبي أو الثورة المحلية، قررت أن تستخدم ورقة أسلحة الدمار الشامل. وقد بتنا نعلم اليوم أن صدام لم يكن يملك أسلحة كهذه، ذلك أن الأسلحة دُمرت أو تحللت (فمدة صلاحيتها كانت تراوح بين سنتين وأربع سنوات فقط) بعد حرب

(٥) جيريمي ريفكن Jeremy Rifkin، اقتصاد الهيدروجين Hydrogen Economy، نقله عنه روبرت فيسك Robert Fisk، صحيفة ذي إنديبندنت The Independent، ١٨ كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٣.

(٦) برنامج «٦٠ دقيقة»، محطة سي بي أس CBS-TV، ٥ كانون الأول / ديسمبر العام ١٩٩٦.

الخليج الأولى وفي خلال مرحلة التدخل. لكن هذا الواقع لم يمنع الولايات المتحدة من اجتياح العراق في آذار / مارس العام ٢٠٠٣ بمشاركة كاملة من المملكة البريطانية.

في آب / أغسطس العام ٢٠٠٤، دُعيتُ إلى مناظرة في إحدى الجامعات الأوروبية. كان خصمي في تلك المناظرة خبيراً استراتيجياً عسكرياً سابقاً رفيع المستوى في جيش الولايات المتحدة، وفي حديث غير مسجّل، حدّثني الخبير عن «المعضلة» التي واجهتها الإدارة الأمريكية قبل اجتياح العراق، إذ كان عليها أن تختار صراحةً بين السماح لمفتشي الأمم المتحدة بإنهاء مهمتهم وبين القيام بغزو شامل تسخّر له مختلف الإمكانات المتاحة. وفي حال لم يجد المفتشون ما يثبت وجود أسلحة الدمار الشامل، ستضطر الولايات المتحدة إلى رفع العقوبات، مما يعني إعادة بعث صدام حسين كبطل عظيم في العالم العربي. وقد علمت من ذلك الخبير أن الأعضاء في البنتاغون انقسموا فئتين في ما يتعلق بالطريقة المثلى للتخلص من صدام حسين. فكانت الفئة الأولى تؤيد اعتماد مقاربة «الضرب والفرار» التي تقضي باجتياح القوات الأمريكية بغداد بسرعة وقتل صدام وأعوانه قبل أن تنسحب فوراً وتدع العراقيين يعالجون مشكلاتهم على طريقتهم الخاصة. أما الفئة الثانية، فأوصت باحتلال شامل يؤدي إلى تفكيك الدولة ومؤسساتها على نحو يسمح بإعادة بنائها وفقاً «للنموذج الديموقراطي».

وفي شباط / فبراير والنصف الأول من آذار / مارس العام ٢٠٠٣، نشطت الولايات المتحدة وبريطانيا للضغط على أعضاء مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة في محاولة لشرعنة الغزو المخطط له للعراق. لكن أحداً من الأعضاء لم يتعهّد آنذاك التصويت لمصلحة العمل العسكري باستثناء إسبانيا وبلغاريا. وبما أن صدور قرار بهذا الشأن يستوجب توافر تسعة أصوات مؤيدة وعدم استخدام حق النقض بين الأعضاء الخمسة عشر، قررت الولايات المتحدة بكل بساطة ألا تزعج نفسها بعرض الأمر على التصويت، وأن تسير قدماً في خطة الغزو التي وضعتها.

في التاسع عشر من آذار / مارس، أغارت طائرات الولايات المتحدة على مبانٍ اعتقدت أنها تؤوي صدام حسين وقادة آخرين، فقتلت عوضاً من ذلك أعداداً هائلة من

المدنيين. أما الغزو البري، فبدأ في العشرين من آذار / مارس مع دخول القوات الأمريكية إلى العراق عن طريق الكويت. آنذاك، تمثّل الردّ على حملة «الصدم والرهبة»، التي تجسّدت بالقصف المدفعي المتواصل وتقدّم الجيوش، بمقاومة محدودة إنما شجاعة. وبحلول التاسع من نيسان / إبريل، سقطت العاصمة بغداد ليعلن جورج دبليو بوش في الأول من أيار / مايو «انتهاء الأعمال الحربية الكبرى».

المقاومة

الواقع أن الحرب الفعلية بدأت بعد الأول من أيار / مايو العام ٢٠٠٣. فقد أدرك مختلف الثوّار المحتملين، من البعثيين إلى القاعدة والجماعات الجهادية الكردية في الجبال الشمالية، أن لا جدوى من التورّط في حرب تقليدية نظراً لتفوق الولايات المتحدة عسكرياً. ووفقاً لما نقلته المصادر، قررت تلك الجماعات بمعظمها أن تبقى بعيدة عن الأضواء وتنتظر الفرصة المناسبة.

أما صدّام حسين الذي أذعن للاجتياح الأمريكي الحتمي، فكان قد شرع يضع خططاً للطوارىء قبل بدء الغزو بأشهر عدة. وقد علمت من مصادر مقربة من النظام البعثي أن صدام كان يرسل مبعوثين إلى المزارعين في المناطق السُنِّية ويبتاع منهم مساحات صغيرة من الأراضي. في منتصف الليل، تعمل مجموعات من الجنود على دفن الأسلحة والمبالغ النقدية في تلك الأراضي لكي تستخدمها المقاومة لاحقاً والجدير ذكره أن صدام حسين ظل يوفّر المؤن للثورة المتنامية حتى في أثناء تواريه عن الأنظار وإلى أن قُبض عليه في ١٣ كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٣.

في الثامن والعشرين من نيسان / إبريل العام ٢٠٠٣، تلقت صحيفتي رسالة بالفاكس من صدام حسين ـ كان لا يزال متوارياً عن الأنظار ـ يشير فيها إلى أنه يعلم بأن الحرب الفعلية ستكون حرب الثورة، وبأنها ستبدأ عندما تعتقد الولايات المتحدة بأن الحرب قد انتهت. وقد حثّ صدام في رسالته تلك الشعب العراقي على التمرّد على الولايات المتحدة، فكتب يقول: «لن يحقق بوش النصر أبداً ما دامت المقاومة تسكن قلوبكم وعقولكم».

ولعل صدّام حسين كان يدرك أن المقاومة في العراق سترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحس الإسلامي بالهوية والأمة والجهاد، ذلك أنه طعّم نبرته في هذه الرسالة كما في رسائل لاحقة بآيات من القرآن الكريم. وبما أنه كان رجلاً علمانياً منذ وقت طويل، رأيت في توجّهه الجديد آنذاك مغزى بالغ الأهمية ومثيراً للاهتمام. والواقع أننا تلقينا منه رسائل عدة أخرى، كان آخرها في أوائل حزيران / يونيو العام ٢٠٠٣. بعد ذلك، بات صدام يتوجّه إلى شعبه عبر تسجيلات صوتية تُرسل إلى قناة «الجزيرة» الفضائية، تماماً كما كان يفعل الشيخ بن لادن آنذاك.

ولأن مجموعات الثوار لم تبدد طاقتها أو مواردها واختارت الوقت الملائم للبدء بالقتال، تجلّت فاعليتها على الفور مع بدء الحرب. وإذ ذاك، وجدت الولايات المتحدة نفسها في مواجهة مقاومة عنيدة لا تستكين، قوامها مجموعات عدة ذات خلفيات متنوعة.

ولكي نفهم الوضع ما بعد الحرب في العراق، لا بد لنا من أن ندرس بإيجاز المجموعات التي كانت ناشطة في العراق قبل الاحتلال الأمريكي.

خلفية المقاومة

قبل الغزو الأمريكي، عرف العراق تنظيمات سُنِّية عدة مناهضة لنظام صدام العلماني في كردستان شمالي البلاد على مقربة من الحدود مع إيران وتركيا.

كانت الحركة الإسلامية «تنظيم الحركة الإسلامية» التي تأسست في العام ١٩٨٨ تنظيماً جهادياً يميّزه وجود الملا كريكار، الذي تزعّم لاحقاً جماعة أنصار الإسلام، في المجموعة المركزية. والواقع أن أجهزة الاستخبارات الأمريكية بذلت جهوداً حثيثة لإيجاد أي رابط تنظيمي أو مالي محتمل بين أنصار الإسلام وتنظيم القاعدة في سياق سعيها إلى الربط بين صدام حسين والشيخ بن لادن وتوريط صدام في هجمات ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١، ومن ثم شرعنة الغزو الأمريكي للعراق.

التقيت الملا كريكار في أوسلو في نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥، فأنكر آنذاك أن تكون

القاعدة قد ساعدت أنصار الإسلام بأي شكل من الأشكال. لكنه أقر بأنه طلب مساعدة مالية من الشيخ بن لادن في العام ١٩٨٨ عندما ذهبت مع عضوين آخرين في الحركة الإسلامية إلى بيشاور بغية جمع التبرّعات للحرب ضد النظام البعثي. وقد التقى الرجال بدايةً عبد الله عزّام الذي أبدى دعمه الشديد للمجموعات الكردية الجهادية السلفية خصوصاً أنه كان يعتبر صدام «كافراً». وقد تولّى عزّام آنذاك تقديم الرجال الثلاثة إلى أمير سعودي أخبرهم باستعداده تمويل حركتهم في حال صدّروا حربهم لتستهدف الإيرانيين الذين يعتبرهم أشد خطورة. ففي ذلك الحين، كان صدام حسين يخوض حربه ضد إيران ويتلقى الدعم والتمويل من دول عدة، إحداها المملكة العربية السعودية.

أخبرني الملا كريكار أن أحدهم أشار بعد ذاك الاجتماع إلى رجل طويل القامة نحيل البنية ظل صامتاً طوال النقاشات على الرغم من أنه كان من المرافقين المباشرين للأمير. وقيل للملا: «إنه الشيخ أسامة بن لادن شيخ العرب في أفغانستان. ينبغي أن تطلب المال منه». وبناءً عليه، رتّب عزّام اجتماعاً آخر. وتعود الذكرى بالملا كريكار إلى ذاك الاجتماع، فيقول: «أخبرني الشيخ أسامة بن لادن أنه خصص أمواله كلها للمجاهدين العرب في أفغانستان. قال إنه لا يملك صلاحية إعطاء تلك الأموال لأي جهة أخرى، وكانت تلك المرة الأخيرة التي قابلته فيها». إنما تجدر الإشارة إلى أن مصادر عدة تشكك في صحة أن يكون ذاك اللقاء الاجتماع الأخير بين الملا كريكار والشيخ بن لادن.

انبثقت جماعة أنصار الإسلام في كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠١ من بضع مجموعات أخرى، وكان معقلها قرب الحدود مع إيران. وقد فرضت هذه الجماعة حتى آذار / مارس العام ٢٠٠٣ نمطاً حياتياً سلفياً على نحو ١٥٠٠ شخص كانوا يعيشون في القرى العشر الخاضعة لسيطرتها. فكانت المتاجر تُقفل أبوابها في أوقات الصلاة، كما كان تناول الكحول وبيعها محظورين. وفي موازاة ذلك، كانت الجماعة تحضّ أتباعها على الاستعداد للجهاد. وقد وصف أستاذ في سرغات اسمه برهام رهوف تلك التجربة قائلاً: «كانوا يرفضون السماح للنساء بمغادرة منازلهن من دون حجاب. وقد منعوا استخدام

لاقطات الأقمار الصناعية كافة، وحظروا الموسيقى والحفلات التي يختلط فيها الرجال بالنساء. أخبروا الناس بأن هذه هي القوانين وبأن علينا إطاعتها».

وعندما هرب العرب الأفغان من القصف الأمريكي لأفغانستان في تشرين الأول / أكتوبر وتشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠١، لجأ العديد منهم إلى أنصار الإسلام. ولعل هذا الواقع يشكل سبباً آخر للاستنتاج الخاطىء حول وجود علاقات تنظيمية (غير شخصية) بين هذه الجماعة وتنظيم القاعدة. والواقع أن المجموعتين متقاربتان على المستوى الأيديولوجي. فعلى غرار القاعدة، فإن أنصار الإسلام جماعة سلفية سُنِّية تدعو إلى الجهاد. أضف أنها متأثرة بأيديولوجية سيّد قطب ومجموعات مثل الجهاد الإسلامي المصري. أما على المستوى التنظيمي، فإن بنيتها تشبه بنية القاعدة أيضاً، خصوصاً وأن رأسها أمير ونائبان له، فضلاً عن لجان متنوعة تُعنى بالتخطيط العسكري والمعلومات والأمن والاستدلال بالشريعة، ومحكمة تعمل وفقاً لأحكام الشريعة.

إلى ذلك شهد العراق وجود بضع مجموعات مقاومة شيعية تناهض غلبة أقلية من المسلمين السُنَّة في الحكومة البعثية. واللافت أن هذه الأحزاب كلها، باستثناء أتباع رجل الدين المتطرف مقتدى الصدر (وهم كثر)، تعاونوا مع القوات الأمريكية الغازية في مرحلة من المراحل. وتتمثل المجموعتان الشيعيتان الرئيسيتان بجماعة الدعوة (التي أصبح الناطق باسمها إبراهيم جعفري رئيساً للحكومة العراقية) والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق التي تنهمك اليوم الميليشيا الشرسة التابعة لها «كتائب بدر» في محاربة الثوّار السُنَّة مع الولايات المتحدة وقوات التحالف.

أما في أوساط التنظيمات الكردية العلمانية، فكانت الهيمنة لاتحاد كردستان الوطني الذي يتزعّمه جلال طالباني، والحزب الكردستاني الديموقراطي بقيادة مسعود برزاني. وقد بات زعيما الميليشيين السابقتين يشغلان اليوم منصبَي رئيس دولة العراق ورئيس التجمع الكردي على التوالي. ويتعاون مقاتلو الميليشيا الكردية، البشمركة، هم أيضاً مع الولايات المتحدة وقوات التحالف من أجل سحق المتمردين.

وقد أخبرني الملا كريكار بأن جلال طالباني وافق، عندما دُعي إلى إجراء محادثات مع إدارة بوش قبل الغزو الأمريكي، على مساعدة القوات الأمريكية شرط أن تقضي هذه القوات على أنصار الإسلام. وقال إن طالباني أبلغ الولايات المتحدة أن تنظيم القاعدة يدير معسكرات تدريب في مناطق خاضعة لحكم أنصار الإسلام، وأن هذه الجماعة تملك المقدرة على تصنيع أسلحة كيميائية وتتعاون مع صدام حسين. وعلى الرغم من أن هذه المزاعم كلها لم تكن صحيحة، فقد بدأت الولايات المتحدة في الحادي والعشرين من آذار / مارس تقصف الأراضي التابعة لأنصار الإسلام، فقضى في ذاك القصف الذي استمر ثمانية أيام المئات، فيما أُجبر من تبقى من السكان على الهرب إلى الدول المجاورة.

وكان يمكن الولايات المتحدة، عوضاً من محاولة الربط بين صدّام وأنصار الإسلام وتنظيم القاعدة، أن تسلط الضوء على العلاقة الفعلية بين صدام والمجموعة الإيرانية المعارضة لرجال الدين المعروفة باسم «منظمة مجاهدين خلق»، والمدرجة على لائحة وزارة الخارجية الأمريكية للمنظمات الإرهابية منذ العام ١٩٧٧. فقد لقيت منظمة مجاهدين خلق، المتمركزة تمركزاً أساسياً في بغداد منذ العام ١٩٨٦، الدعم من الجيش العراقي الذي تولى أيضاً مهمة تدريب جيش التحرير الوطني التابع لها، والذي نفّذ جملة هجمات إرهابية ضد النظام الإيراني. وعلى الرغم من أن منظمة مجاهدين خلق بشّرت بهجمات ١١ أيلول / سبتمبر باعتبارها «انتقام الله تعالى من أمريكا»(٧)، فإن مكاتب جناحها العسكري «المجلس الوطني للمقاومة الإيرانية» في واشنطن ظلت ناشطة حتى العام ٢٠٠٣.

القاعدة في العراق ما قبل الحرب

يجمع معظم المعلقين على أن تنظيم القاعدة كان حاضراً في العراق قبل الغزو الأمريكي. لكن السؤال الأهم هو كم من الوقت مضى على وجود القاعدة في العراق قبل الغزو وإلى أي حد كانت ناشطة. كذلك تتفق المصادر على أن أبا مصعب الزرقاوي كان

(٧) صحيفة نيويورك تايمز The New York Times، ١ تموز / يوليو العام ٢٠٠٣.

يعمل آنذاك بشكل مستقل عن الشيخ بن لادن وعن تنظيم القاعدة. والواقع أنه كان يتمركز في ذلك الأوان في الشمال، وتحديداً في المنطقة الخاضعة لأنصار الإسلام، حيث أقام علاقات عدة مع المقاتلين الأردنيين الذين جاءوا إلى تلك المنطقة عقب قصف أفغانستان.

ووفقاً لمحمد المصري، كان صدام حسين قد أرسى شبكة من العلاقات مع العرب الأفغان منذ العام ٢٠٠١، اعتقاداً منه بأنه سيشكل هدفاً للولايات المتحدة حالما يتم القضاء على حركة طالبان. وبحسب هذه الرواية التي يشكك في صحتها معلقون آخرون، أدت المحادثات التمهيدية إلى قبول صدّام بتمويل الناشطين في القاعدة لينتقلوا إلى العراق قبل بدء عمليات القصف الأولى بستة أشهر. وكان شرطه أن يقتصر عمل هؤلاء على مهاجمة أهداف الولايات المتحدة وقوات التحالف من دون القيام بأي عمل من شأنه تقويض النظام البعثي.

وبحسب المصري، أدرك صدام أن الإسلام بدأ يتجلّى قوة جديدة موحدة للشعوب المسلمة، مستنتجاً أن زمن القومية العربية قد ولّى. فقد رأى بكثير من الوضوح أن الإسلام سيكون عاملاً أساسياً لتكوين مقاومة متماسكة في حال الغزو. وإذ ذاك، صدرت أوامر تفرض على قادة الجيش العراقي أن يصبحوا مسلمين ممارسين لفرائض الدين ويتبنّوا لغة الجهاديين وطبيعتهم، وجرى اتخاذ تدابير جعلت ناشطي القاعدة يبقون على اتصال مع هؤلاء القادة منذ وصولهم إلى العراق. وفي مرحلة لاحقة، تولت شبكة الضباط السابقين هؤلاء مهمة تسهيل توزيع أسلحة وأموال مصدرها مخازن صدّام على القاعدة وغيرها من مجموعات الثوار المختلفة. أما سعد الفقيه، فيخلص إلى القول إن ناشطي القاعدة بدأوا يتوافدون إلى العراق قبل الغزو ببضعة أشهر، إنما من دون أي تحريض من صدّام حسين، وعلى الأرجح من دون علمه. ويقول الفقيه إن ٣٠٠ رجل أرسلتهم قيادة القاعدة بغية أن يستقروا في المثلّث السُنِّي بين بغداد والموصل. ويوافق الفقيه على فرضية أن تعليمات وجّهت لتلك المجموعة لكي تتصل بأفراد من الجيش العراقي معروفين «بميولهم الإسلامية».

وفي المرحلة الممهّدة لاندلاع الحرب، وصل آلاف العرب من دول مختلفة لدعم العراق، فلم تتنبّه أجهزة الاستخبارات الأمريكية إلى عملاء القاعدة. وعلى غرار المجموعات الأخرى التي قادت حركة الثورة، كان ناشطو القاعدة مستعدين لإخفاء نيّاتهم بانتظار الفرصة المناسبة.

أبو مصعب الزرقاوي

قتلت القوات الأمريكية الزرقاوي في أوائل حزيران / يونيو العام ٢٠٠٦. ولكنني لست مقتنعاً بأن الحادث وقع في السابع من حزيران / يونيو ليتزامن مصادفة مع إعلان رئيس الوزراء الجديد نوري المالكي اكتمال تشكيل حكومته. إنما على الرغم من ذلك، وبما أن الزرقاوي كان مؤسس القاعدة وأميرها في بلاد ما بين النهرين، لا يمكن تجاهل دوره الرئيسي في تاريخ القاعدة والمقاومة العراقية عموماً. إنما لا بد من الإشارة بدايةً إلى أن الزرقاوي خرج إلى دائرة الضوء بعد أن كان يشغل موقعاً معتماً إلى حد ما. فهو لم يكن يُعتبر شخصية أساسية في صفوف القاعدة في أفغانستان حيث آثر أن يؤسس مجموعته المستقلة «التوحيد والجهاد» ويقيم معسكراً تدريبياً مستقلاً في حيرات. وعندما غادر أفغانستان متوجّهاً إلى العراق عن طريق إيران، بدا أنه يتحرّك من تلقاء نفسه «بحثاً عن مهمة» كما يقول أحد المعلقين(٨).

وقد يكون من المفيد أن ننظر في جذور هذا الرجل الذي يزعم البعض أنه أصبح لا يقلّ أهمية عن الشيخ بن لادن في تاريخ القاعدة، بل إنه ازداد خطورة قبل وفاته لأنه كان قادراً على الاضطلاع بعمليات عسكرية شبه يومية، في حين أن الشيخ بن لادن متوارٍ عن الأنظار. والواقع أنه في مرحلة ما من تأليف هذا الكتاب، عُرضت جائزة قدرها ٢٥ مليون دولار أمريكي مقابل رأس كل من الشيخ بن لادن والزرقاوي. ولعل ما يشهد على نفوذهما أن أحداً لم يشعر بالإغراء لخيانتهما بمبلغ كبير كهذا.

وعلى الرغم من أن صحيفتي نشرت نبذة عن حياة الزرقاوي، فقد بقيت تفاصيل كثيرة

(٨) مقابلة مع ياسر السرّي، لندن، ٢٧ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥.

مبهمة، خصوصاً أن كل مصدر كان يقدّم معلومة مختلفة، حتى إن عدد أطرافه يشكل هو أيضاً موضع جدل. فالبعض يشير إلى أنه خسر إحدى رجليه، فيما يؤكد البعض الآخر أنه لم يفقد أياً من أطرافه. وسأذكر المعلومات المتضاربة حيث يكون ذلك ضرورياً.

وُلد الزرقاوي في ٢٠ تشرين الأول / أكتوبر العام ١٩٦٦. صحيح أنه حمل أسماء مستعارة عدة، إلا أن اسمه الحقيقي هو أحمد فضل الخلايلة. والجدير ذكره أيضاً أنه وُلد في أحد أزقة مدينة الزرقاء الأردنية التي تقع على بعد ١٥ ميلاً من شمال شرقي عمّان. وبالتالي، فإن اسمه الحركي «الزرقاوي» يعني فقط أنه «من الزرقاء». ينتمي الزرقاوي إلى قبيلة أبو الحسن أبو بنو حسن، وهي قبيلة بدوية صغيرة من قبائل الصحراء.

وتجدر الإشارة إلى أن أصوله القبلية مهمّة لارتباطها بطابعه وشخصيته. فالبدو معروفون بطبيعتهم البراغماتية المبنية على التعاون والكرم، والتي طوّروها على نحو يسمح لهم بالبقاء في موطنهم الصحراوي الجاف. وهم يشتهرون أيضاً بشجاعتهم وروحهم القتالية. والواقع أن مصادر عراقية تؤكد أن البدو غير متسامحين على الإطلاق، بل يتربّون منذ نعومة أظفارهم على الانتقام لأي أذى يلحقه بهم عدوهم مهما طال الزمن. وإذا كان المثل الإنكليزي يقول: «الثأر طبق يؤكل بارداً»، فإن البدوي يقول إن الرجل يكون متسرعاً إن انتظر أربعين عاماً ليأخذ بالثأر. وقد عُرف الزرقاوي بصبره، على غرار أميره الشيخ بن لادن.

تختلف مهنة والد الزرقاوي باختلاف المصدر، فيقول البعض إنه كان ضابطاً متقاعداً في الجيش، ويزعم البعض الآخر أنه كان يمارس الطب التقليدي. وقد توفّي في العام ١٩٨٤ مخلفاً وراءه عائلة تعتاش من راتب تقاعدي صغير. ويُقال إن للزرقاوي سبع شقيقات وشقيقين. وعلى غرار الشيخ بن لادن، توفّي والده وهو لا يزال صغيراً، فازداد تعلقه بوالدته.

تخلّى الزرقاوي عن الدراسة وهو لا يزال في السابعة عشرة من العمر ليساعد على إعالة أسرته. لكن يبدو أنه انحرف فجأة بعد وفاة والده وأصبح أشبه بمجرم من عصابات الشوارع. ولمّا كان يُعرف بإسرافه في شرب الخمور ويُلقب «بالرجل الأخضر» بسبب

الأوشام التي تغطي جسده، فقد أثار على ما يبدو الخشية والاحترام في آنٍ واحد، وأبدى شجاعة شرسة في الشارع عندما يدافع عن نفسه أو عن أصدقائه. لكنه كان يميل على الدوام إلى العنف المتطرف الذي ميّزه لاحقاً حتى في صفوف القاعدة. وقد تحوّل الزرقاوي إلى مجرم من الدرجة الثانية أمضى بعض الوقت في السجن. فقد حُكم عليه مرة بتهمة «جرح أحدهم بواسطة سكين»، واعتُقل مرة أخرى بتهمة السطو على متجر وتوزيع المخدرات، واتُهم مرة ثالثة باغتصاب فتاة.

ويبدو أن التحوّل في طبعه حدث في أواخر الثمانينيات عندما بدأ فجأة يبدي اهتماماً بالإسلام المتطرّف. فحياته الإجرامية الضيقة النطاق كانت كثيراً ما تجعله يرتاد مخيم اللاجئين الفلسطينيين المجاور «الرصيفة» الذي كان يؤوي العديد من الرجال ذوي الميول الجهادية الصريحة. ويقول المراقبون إن ٣٠٠ شاب على الأقل من المنطقة المحيطة بالزرقاء والرصيفة انضموا إلى الجهاد في أفغانستان. كما يُعتقد أن المقاتلين الأردنيين في الثورة العراقية الحالية يتحدرون بمعظمهم من تلك المنطقة.

وبدأ الزرقاوي يرتاد مسجد ابن عباس حيث كان معظم المصلّين يرتبطون بمجموعات إسلامية متطرفة ويمجّدون فضائل الجهاد، محرّضين الشباب على الذهاب إلى أفغانستان من أجل القتال. آنذاك، كانت وسائل الإعلام العربية هي أيضاً تحتفي بالمجاهدين الأبطال الذين فازوا بدعم غالبية الأنظمة العربية، ومن عدادها الأردن. وكانت التبرعات تُجمع علانية في المساجد والأماكن العامة بغية تمويل المتطوعين الجدد. لكن أسرة الزرقاوي ذُهلت عندما غادر هذا الأخير إلى أفغانستان في العام ١٩٨٩ على نحو مفاجىء وبعد مرور فترة وجيزة على زواجه بابنة عمه. ويُقال إن من حرّض الزرقاوي على الرحيل هو عبد الرسول سياف (زعيم الاتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان) الذي ألقى آنذاك خطبة مثيرة في المسجد.

ولمّا تأخر الزرقاوي في الوصول إلى أفغانستان للمشاركة في أي قتال فعلي ضد الجيش السوفياتي، تلقى التدريبات العسكرية في المعسكرات وشارك في النضال اللاحق لإسقاط حكومة نجيب الله المؤيدة للسوفيات. ويشير بعض المصادر إلى أنه قاتل في معركة تحرير خوست في العام ١٩٩١، وحارب على جبهات المعارك الشرسة إلى

جانب زعيمي الميليشيا الأفغانيين الشهيرين جلال الدين حقاني وقلب الدين حكمتيار. وقد شهد الزرقاوي أيضاً قبل عودته إلى الأردن إسقاط المجاهدين لكابول في العام ١٩٩٢ ومن ثم سقوط نجيب الله.

وفي خلال وجوده في أفغانستان، التقى رجلين ثبت لاحقاً أن تأثيرهما كان أساسياً في تكوّن فكره الأيديولوجي، هما عبد الله عزّام وأبو محمد المقدسي. آنذاك، كان عزّام يدير مكتب خدمات المجاهدين في بيشاور حيث كان يتم تسجيل المجاهدين في طريقهم إلى أفغانستان. وقد أثبت عزّام مقدرته البالغة على التأثير في الشيخ بن لادن الذي كان كثيراً ما يعينه في عمله. ويبدو أن الزرقاوي هو أيضاً تأثّر أشد تأثير بعزّام، فبدأ يتابع خطبه ويقرأ كتبه وفي غالب الأحيان يردد كلامه.

أما المقدسي (واسمه الحقيقي عصام محمد طاهر البرقاوي)، فهو عالم سلفي ذائع الصيت يمضي حالياً عقوبة سجن طويلة في الأردن بسبب نشاطاته السياسية. أضف أنه فلسطيني يحمل الجنسية الأردنية، وقد انتقل إلى أفغانستان برفقة فلسطيني آخر هو أبو قتادة الذي كان يعيش في الأردن ويعرف الزرقاوي حق المعرفة. والواقع أن أبا قتادة هو من تولّى تعريف الرجلين أحدهما بالآخر.

أسس الزرقاوي والمقدسي، في خلال استقرارهما في أفغانستان، بيعة الإمام (قسم الولاء للإمام)، وهي منظمة أُنشئت من أجل التنسيق مع قدامى المحاربين الأردنيين وتنظيم صفوفهم بعد انتهاء الجهاد في أفغانستان. ولا شك في أن هذا التبصّر، فضلاً عن التشديد على التخطيط للمستقبل، ظلّ عنصراً رئيسياً في فاعلية الزرقاوي الخطيرة.

وعندما غادر المقدسي أفغانستان في العام ١٩٩٢، اكتشف أنه غير قادر على العودة إلى مسكنه في الكويت حيث قررت الحكومة طرد اللاجئين الفلسطينيين الموجودين على الأراضي الكويتية، والبالغ عددهم ٢٥٠ ألف نسمة. وكان المقدسي واحداً من ١٦٠ ألف عُرفوا باسم «العائدين من الكويت» ـ العديد منهم كان يمتلك رؤية جهادية سلفية ـ وتحوّلت أنظارهم إلى الزرقاء حيث وجدوا رفاقاً يشاركونهم في تطلعاتهم وآرائهم. إذ ذاك، بدأت تترسّخ جذور تيّار جهادي مزدهر.

أصبح المقدسي أمير مجموعة جديدة تُعرف باسم «التوحيد». وسرعان ما اضطلع الزرقاوي بدور ناشط في هذا التنظيم. وإذ اعتبر المقدسي مرشده الروحي، شرع يجنّد شباباً آخرين ويجمع الأسلحة، بدايةً من أجل تدريب المجاهدين وإنما سعياً إلى تحقيق الغاية القصوى المتمثلة بالجهاد، على الأرجح في فلسطين.

في تموز / يوليو العام ١٩٩٤، اكتشفت قوى الأمن الأردنية مخابىء عدة تحوي متفجرات وأسلحة، وبدا أنها جزء من مؤامرة منظمة لقلب النظام. كذلك عُثر على أسلحة في حوزة المقدسي والزرقاوي، فحُكم عليهما بالسجن ١٥ عاماً بتهمة التآمر، وقضى الحكم بأن يمضيا عقوبتهما في سجن سواقة الذي يقع في قلب الصحراء على بعد ٨٥ كيلومتراً جنوبي عمّان.

آنذاك، وضعت سلطات السجن جميع الإسلاميين في زنزانة واحدة كبيرة، ممّا أدّى إلى قيام إمارة خلف القضبان. ويشير معلقون إلى أن هذه المرحلة وليست الحرب الأفغانية، هي التي شكّلت النقطة الحاسمة في إعداد الزرقاوي ليكون زعيماً في تنظيم القاعدة. فقد انخرط في خلال وجوده في السجن في نقاشات دينية وأيديولوجية مطوّلة كان يديرها المقدسي، وشرع يحفظ آيات القرآن الكريم في خيمة استحدثها خصيصاً للتفرغ للدرس والتأمل عبر تعليق الملاءات في محيط سريره.

لا بد من الإشارة إلى أن تعيين الأمير أو الزعيم يشكل جزءاً لا يتجزأ من بنية أي جماعة إسلامية. وقد اضطلع بهذا الدور بدايةً المقدسي، إلا أن الزرقاوي احتل مكان العالم في غضون سنتين. فقد فضّل رفاق الزنزانة الشاب على المقدسي الأكثر اعتدالاً، خصوصاً أنهم كانوا ينظرون بعين التقدير إلى مقاربة الزرقاوي للسلطة على أساس المواجهة ويبدون إعجابهم بقوته الجسدية وفظاظته الجلية.

شارك يوسف ربابة الرجلين في سجنهما طوال ثلاث سنوات، ووصف النظام الصارم الذي فرضه الزرقاوي على الإسلاميين إذ حظّر على رجاله قراءة أي كتاب غير القرآن الكريم، واعتمد العقوبات العنيفة ضد كل من يجرؤ على الخروج على طاعته. ويقول ربابة

في هذا السياق: «لم يكن من حلّ وسط، فإما أن تكون مع الزرقاوي والمقدسي وإما أن تكون العدو»(٩).

كذلك احتُجز فؤاد حسين(١٠) مدّة وجيزة في سجن سواقة في صيف العام ١٩٩٦. وأخبرني فؤاد بأن الزرقاوي كان هادىء الطبع، متحفظاً، لا يتحدث إلا إن بادره أحدهم بالحديث. وإذ قلب القوانين لمصلحته، اعتاد التعامل مع السلطات بفظاظة مدروسة، حتى إنه لم يكن يسمح لها بأن تتوجّه بالحديث إلى أي عضو في مجموعته إلا عن طريقه هو كوسيط.

يبدو أن الزرقاوي كان يعيش آنذاك عملية تحوّل ذاتية متعمّدة خطط لها جيداً. وإذ أصبح ضبط النفس أساسياً بالنسبة إليه، راح يمارس التمارين الرياضية ساعات طويلة كل يوم مستخدماً دلاء تحوي صخوراً كأوزان تساعده على بناء قوته الجسدية. أما ساعات الصباح، فكان يقضيها في زيارة رفاقه السجناء المحتجزين بتهم مدنية أو جنائية. وكان يحثّه على ذلك مكر جمع فيه بين تقديم التوجيهات الإسلامية واستحداث حلقة من المجاهدين المحتملين على درجة من الإجرام والقسوة. ويبدو أنه نجح في مهمته تلك، وجمع نحو مئة من أكثر المجرمين صلابة في الأردن. وتشير بعض المصادر إلى أن معظم هؤلاء الرجال أصبحوا متدينين إلى حد الإسراف، والعديد منهم قُتل لاحقاً في المعارك في أفغانستان أو العراق.

بات الزرقاوي موضع احترام واسع النطاق في السجن، حتى إن أعمال شغب اندلعت في السجن عندما وضعته السلطات في السجن الانفرادي في العام ١٩٩٦. آنذاك حطّم السجناء كاميرات الأمن وفككوا الأسرة الحديدية ليصنعوا منها أسلحة خطيرة. وفي اللحظة الأخيرة، تراجعت السلطات ليعود الزرقاوي في اليوم التالي إلى الزنزانة هادئاً غير مضطرب ويستكمل مهمات الأمير التي اضطلع بها المقدسي في فترة غيابه الوجيزة. (ويبدو أن المقدسي كان سعيداً بالتفرّغ لأبحاثه وكتاباته).

(٩) حديث ليوسف ربابة نقله بول هاريس Paul Harris، «نبذة: أبو مصعب الزرقاوي» Profile: Abu Mus'ab al-Zarqawi صحيفة الأوبزرفر The Observer ٢٩ أيار / مايو العام ٢٠٠٥.

(١٠) صحافي أردني، مقابلة مع عبد الباري عطوان، نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥.

الواقع أن مصادر عدة تشهد على قدرة الزرقاوي الجسدية والفكرية على تحمل الضغوط. فقد تعرّض الزرقاوي للتعذيب حتى إنه فقد أظفار أصابع قدميه كلها، وصبر من قبل على السجن الانفرادي طوال ثمانية أشهر ونصف الشهر. علماً أنه لم يكن يبدي حاجة إلى صحبة الآخرين إلا إن كان ذلك يخدم أهدافه ونياته التي كانت تقتصر حتى ذلك الحين على الترويج للجهاد وتنظيمه.

ويبدو أن بُعده عن الآخرين أكسبه لقب «الغريب»، بل إنه تبنّى هذه الهوية من دون تحفّظ. وقد ظل الزرقاوي طوال حياته يفضل مناداته بهذا الاسم ويوقّع به الرسائل والبطاقات التي يوجهها إلى أفراد عائلته.

في العام ١٩٩٩، أصدر ملك الأردن الجديد عبد الله الثاني عفواً عاماً أُطلق بموجبه الزرقاوي. وإذ قررت أجهزة الأمن اعتماد سياسة مضايقة المقاتلين الإسلاميين المعروفين، عجز الزرقاوي عن إيجاد أي عمل أو القيام بأي مهنة. وعندما شخّص الأطباء حالة والدته معلنين إصابتها بداء ابيضاض الدم ونصحوا بنقلها إلى مكان جبلي يلائم وضعها الصحي، قرر العودة إلى أفغانستان. ووفقاً لبعض الروايات، كان الزرقاوي يخطط لتفجير فندق للغربيين في عمّان قبل أن يُحبط مخططه ويُجبر على الهرب من الأردن. وفي مختلف الأحوال، عاد الزرقاوي إلى دائرة الضوء في أفغانستان في العام ٢٠٠٠ بعد أن احتُجز في بيشاور مدة وجيزة بتهم غير محددة.

في أفغانستان، زار الزرقاوي معسكرات التدريب التابعة للقاعدة. لكنه لم يعلن البيعة للشيخ بن لادن وقرر، عوضاً من ذلك، أن يعمل بمفرده. واستطاع الزرقاوي، بمباركة نظام طالبان وتعاونه، أن ينشىء معسكره الخاص في حيرات غربي أفغانستان، أي في أبعد نقطة ممكنة على المستوى الجغرافي عن عمليات القاعدة في جلالاباد (في أقصى الشرق) وفي قندهار (في جنوب شرقي البلاد). ويبدو أن الزرقاوي كان يسعى من خلال اختياره حيرات إلى تسهيل انتقال المجنّدين سراً من أوروبا ومختلف الدول العربية إلى أفغانستان عبر إيران.

ضم المعسكر في حيرات نحو مئة سوري وفلسطيني وأردني كان العديد منهم يعيش

من قبل في أوروبا. وفي ذلك الحين، تحديداً، أسس الزرقاوي تنظيم «التوحيد والجهاد» الذي أصبح لاحقاً مرادفاً لأولى الهجمات الانتحارية وضرب الرؤوس المرعب في العراق. وكانت القيادة المركزية لهذا التنظيم تتكوّن بمعظمها من رجال أتوا من مدينة الزرقاء، ومن بينهم الفلسطيني عبد الهادي دغلس الذي قُتل لاحقاً في العراق، وأبو القاسم، والشيخ ياسين والد زوجة الزرقاوي الثانية. أما كيفية تمويل المعسكر، فكانت مدار تخمينات كثيرة، إذ زعم بعض المعلقين أنه جرى استخدام أموال القاعدة واتصالاتها لهذه الغاية(١١)، في حين أكد آخرون أن الزرقاوي رفض هبات مصدرها سعودي وتلقى الدعم من قائد ميليشيا أفغاني بقي اسمه طي الكتمان(١٢).

وكما أشرنا آنفاً، جزع الزرقاوي من قرار الشيخ بن لادن المضي قدماً بهجمات ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١. فهو كان يعلم أن الأمان الذي يتمتع به المجاهدون في أفغانستان سيذهب عندئذٍ أدراج الرياح. والجدير ذكره في هذا الإطار أن الزرقاوي كان يرى في معسكرات التدريب ونظام طالبان الداعم للمجاهدين مكوّنات أساسية لتطوّر جهاد عالمي. وبعد انقضاء فترة وجيزة على الهجمات التي استهدفت مركز التجارة العالمي والبنتاغون، وعلى ما يبدو قبل أن تقوم الولايات المتحدة بغزوها الانتقامي لأفغانستان في تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠١، فرّ الزرقاوي ورجاله إلى إيران عن طريق باكستان. وربما يوحي هذا الرحيل باجتماع في الخندق الأخير مع الشيخ بن لادن الذي كان لا يزال موجوداً في ذلك الوقت، في شرقي أفغانستان.

وفي نيسان / إبريل أو أيار / مايو العام ٢٠٠٢، طُرد الزرقاوي من إيران بعد اعتقال أحد عشر فرداً من جماعة التوحيد والجهاد في ألمانيا(١٣). وكان الزرقاوي قد نجح على مدى عدة سنوات في إرساء شبكة من العلاقات في أوروبا والحفاظ عليها. وكان يعزّز توثيق

---

(١١) صحيفة ذي أوبسيرفر The Observer، ٢٩ أيار / مايو العام ٢٠٠٥.

(١٢) بول ماك جوف Paul McGeough، مجلة غود ويك أند Good Weekend، ص. ٢٣، ١٦ تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٤.

(١٣) محطة بي بي سي الإخبارية BBC News، ٢٣ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٢.

هذه العلاقات أبو مصعب السوري الذي يُعتقد أنه يدير بضع مجموعات في شبكة القاعدة في الغرب. وفي الواقع يُشتبه في تورّط كلا الرجلين في الهجمات التي تبنّتها «القاعدة في أوروبا» على مدريد ولندن.

وإذ انتقل الزرقاوي إلى كردستان العراقية، وصل إلى معقل أنصار الإسلام. وأشير في هذا السياق إلى أن بعض أعضاء جماعة التوحيد السابقين من الأردنيين كانوا قد انضموا إلى أنصار الإسلام منذ صدور العفو العام في الأردن العام ١٩٩٩. لكن بعضهم الآخر فرّ إلى العراق بعد القصف الأمريكي لأفغانستان العام ٢٠٠١. ولا شك في أن هؤلاء الأفراد مهدوا الطريق للزرقاوي ليكسب دعم التنظيم وثقته ويؤسس معسكره الخاص في المنطقة الخاضعة له.

ولمّا كان الزرقاوي يعتبر أن الغزو الأمريكي للعراق بات حتمياً، شرع يؤسس شبكات دعم محلية في بغداد وفي المثلّث السُنِّي. واللافت أن القاعدة كانت تعتمد هذا التكتيك نفسه، مما يوحي إما بوجود مستوى من التعاون بين الزرقاوي والقاعدة، وإما بأن حدس الزرقاوي الاستراتيجي كان قريباً بطبيعته من حدس قيادة القاعدة. هذا وانهمك الزرقاوي أيضاً في التحقق من السبل المثلى التي يمكن أن يسلكها المجنّدون لدخول العراق حالما تبدأ المعركة. وقد ارتأى آنذاك اختيار سوريا لأن حدودها أقلّ حصانة من سواها.

في آذار / مارس العام ٢٠٠٣، التقى الزرقاوي خبير الاستراتيجيات العسكرية في تنظيم القاعدة محمد إبراهيم مكاوي، علماً بأننا لا نعلم على وجه التحديد هل تمّ اللقاء قبل بدء الغزو الأمريكي أم بعده. وفي هذا الاجتماع، وافق الزرقاوي على تسهيل دخول الناشطين في القاعدة إلى العراق.

وسرعان ما تعززت أهمية جماعة الجهاد والتوحيد بعدما راحت توفّر التنسيق والدعم اللوجستي للمجنّدين العرب الوافدين حديثاً إلى العراق، وضمناً لناشطي القاعدة، الذين اضطروا إلى الاعتماد على اتصالات الزرقاوي ومعارفه المحليين. هذا وقد سمحت قدرة الزرقاوي الراسخة على جمع المعلومات، بتسهيل الهجمات المنسقة التي سرعان ما أثبتت أنها أكثر فاعلية من العمليات العشوائية المستقلة.

ومنذ خريف العام ٢٠٠٣، أصبح الزرقاوي فعلياً أمير المجاهدين الأجانب في العراق، علماً بأنه انتظر مرور سنة أخرى قبل أن يعلن ولاءه للشيخ بن لادن أو ينضم إلى القاعدة.

التحرّش بوكر الدبابير

لم تدم الحرب التقليدية في العراق أكثر من ستة أسابيع . والواقع أن المقاومة بدت خجولة جداً في وجه القوة الهائلة لحملة «الصدم والرهبة» التي شنّتها القوات الأمريكية، في حين راحت تدكّ بغداد وكركوك والموصل والبصرة بقنابل عنقودية، لا بل بقنابل نابالم، المحظّر استعمالها بموجب اتفاق الأمم المتحدة للعام ١٩٨٠[١٤]. آنذاك، بُثّت الحملة كلها مباشرة عبر محطات التلفزة ليشاهدها المواطنون الأمريكيون بعد أن اقتطعت تقريباً جميع المشاهد التي تصور الحقيقة البشعة للموت. وفي تقدير متواضع لعدد القتلى الذين سقطوا في صفوف المدنيين العراقيين في تلك المرحلة، أُعلن مقتل سبعة آلاف مدني، في حين قُتل أو جُرح ٤٥ ألف جندي عراقي وسقط ١٤١ جندياً أمريكياً.

في تلك المرحلة، نشرت الولايات المتحدة وبريطانيا مخططاً تفصيلياً للعراق ما بعد الحرب. وفي هذه الوثيقة التي تبنّتها منظمة الأمم المتحدة في القرار ١٤٨٣ الصادر في ٢٢ أيار / مايو العام ٢٠٠٣، لم يكتفِ الحلفاء باعتبار أنفسهم «قوى محتلة»، بل ذهبوا إلى حد منح أنفسهم الحق بالسيطرة الكاملة على عائدات العراق النفطية بحجة أنها ستكون ضرورية لإعادة بناء البنية التحتية للعراق. لا شك في أن الولايات المتحدة كانت تعي أن خصخصة قطاع النفط ستواجه بمقاومة واسعة النطاق من أولئك الذين سيرون النفط العراقي يُسلّم إلى شركات متعددة الجنسيات. لكن بمعزل عن الحافز المالي المهم، تجلى أيضاً هدف سياسي أساسي. فإن نجحت الولايات المتحدة في فرض خصخصة قطاع النفط العراقي، فستتمكن من تقويض القوة الهائلة التي يتمتع بها التكتل الاحتكاري لمنظمة الأوبيك في سوق الطاقة العالمية، وربما قامت الدول الأعضاء في منظمة الأوبيك بالمثل، فتشهد منطقة الشرق الأوسط فورة على مستوى خصخصة القطاعات النفطية.

(١٤) ديليب هيرو Dilip Hiro ، أسرار وأكاذيب Secrets and Lies، ص ٥٤١.

عند انتهاء الحرب، كان الجنرال جاي غارنر Jay Garner هو حاكم العراق، الذي عيّنته إدارة بوش. لكن انتقادات وُجهت إليه لسوء إدارته الأوضاع في العراق، وضمناً إعطاء الانتخابات الأولوية وإرساء حكم عراقي ذاتي مستقل. وإذ ذاك، استُبدل ببول بريمر Paul Bremer المشاكس الذي وصل إلى بغداد في أيار / مايو العام ٢٠٠٣. وقد عبّر بريمر باقتضاب عن موقفه في مقابلة مع محطة بي بي سي BBC بُثّت في حزيران / يونيو، ومفاده: «نحن نتحكم بالمشهد وسنستمر في فرض إرادتنا على هذه البلاد»(١٥). وبعد مرور عام واحد، كان بريمر لا يزال يشغل منصبه رئيساً للإدارة الموقّتة التي أرستها الولايات المتحدة عندما عرض الشيخ بن لادن علانيةً جائزة قدرها «١٠ آلاف غرام من الذهب لمن يقتل المحتل بريمر».

أصدر بريمر في خلال تولّيه الإدارة أوامر تقضي بخصخصة القطاعات العراقية التي تملكها الدولة، ومن بينها قطاع النفط، فأُدرجت هذه الأوامر في القوانين الانتقالية للعراق. وفيما أكتب هذه الصفحات (آب / أغسطس العام ٢٠٠٥)، لا تزال هذه القوانين ملزمة للحكومة العراقية الحالية. هذا وتُمارس ضغوط ضريبية على الحكومة الحديثة العهد التي ورثت من نظام صدّام ديوناً أجنبية ضخمة تراكم معظمها نتيجة شراء عتاد حربي من الولايات المتحدة. (لم يتم شطب الديون، ربما لأنه من الأفضل استخدامها كأداة مساومة مفيدة تُضاف إلى الضغوط التي تمارس لجهة تطبيق قرارات الخصخصة وتوقيع اتفاقات مع شركات النفط المتعددة الجنسية بأسعار بخسة). وخشية أن تلقى خصخصة قطاع النفط معارضة من جانب آخر - هو في الواقع اتحاد عمال قطاع النفط العراقي الذي أُعيد إحياؤه حديثاً - أُبقي على قانون يحظّر إنشاء اتحادات في القطاع العام كان قد سُنّ في ظل نظام صدّام الديكتاتوري. ويزعم المعلقون أن الولايات المتحدة هي التي حرّضت على بقاء هذا القانون(١٦).

(١٥) مقابلة لمحطة بي بي سي BBC، برنامج «وجبة فطور مع فروست» Breakfast with Frost، ٢٩ حزيران / يونيو العام ٢٠٠٣.

(١٦) مناظرة بين حسن جمعة عوض الأسدي، رئيس الاتحاد العام للعمل في قطاع النفط في العراق ودايفيد بايكون David Bacon، الصحافي السابق المتخصص في شؤون العمال في صحيفة واشنطن بوست Washington Post، بُث في البرنامج الأمريكي التلفزيوني المستقل «الديموقراطية الآن» Democracy Now، ٣١ حزيران / يونيو العام ٢٠٠٥. راجع www.democracynow.org

منذ البداية، تحالف بعض المجموعات الشيعية والمجموعتان الكرديتان الرئيستان مع قوات الاحتلال، ظناً أنها الفرصة التاريخية للاستيلاء على السلطة. وإذ ذاك، ضمّ المجلس العراقي الموقّت الذي أسسه بريمر في تموز / يوليو العام ٢٠٠٣ كلاً من جلال طالباني ومسعود برزاني ورئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق آية الله محمد باقر الحكيم الذي قُتل لاحقاً في شهر آب / أغسطس. وفي المؤتمر الصحافي الذي انعقد للتعريف بأعضاء المجلس الموقّت، شكر نائب رئيس مجلس الوزراء أحمد جلبي الولايات المتحدة «باسم الشعب العراقي... لمساعدتنا على تحرير أنفسنا من بلوى صدّام».

آنذاك، رفض خصما الحكيم في صفوف القادة الشيعة، آية الله السيستاني ومقتدى الصدر، التعاون مع سلطات الاحتلال، علماً بأن السيستاني كان قد أصدر في ٣ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٣ فتوى أمر فيها العراقيين بألا يعرقلوا تقدّم قوات التحالف. ووحده مقتدى الصدر بقي، إلى يومنا هذا، معارضاً للاحتلال الأمريكي.

وفيما كانت الحرب مستمرة، بدأ انتشار شرارات المقاومة التي ظهرت لاحقاً. ففي الثامن من نيسان / إبريل، أصدر الشيخ بن لادن شريطاً مسجلاً حثّ فيه الشعب على التسلّح والانضمام إلى الجهاد ضد الحكومات المسلمة التي دعمت الغزو الأمريكي، وتحديداً باكستان وأفغانستان والبحرين والكويت والمملكة العربية السعودية. كذلك توجّه الشيخ إلى أولئك الذين بدأوا أصلاً بتنفيذ عمليات ميليشياوية داخل العراق داعياً إياهم إلى البدء بحملة من التفجيرات الانتحارية بالقول: «لا تخشوا دباباتهم وناقلات جنودهم المدرّعة؛ إنها آليات اصطناعية. إن بدأتم بالهجمات الانتحارية، ستشهدوا خوف الأمريكيين في سائر أنحاء العالم».

في الحادي عشر من نيسان / إبريل، استسلم الفيلق الخامس في الجيش العراقي مع دخول القوات الأمريكية إلى الموصل. وإذ ذاك، بدأ النظام القديم يتداعى. وبحلول الثاني من أيار / مايو العام ٢٠٠٣، كانت القوات الأمريكية قد اعتقلت سبعة عشر شخصاً من القادة الخمسة والخمسين «المطلوبين بشدة». (وقد ظهرت صور هؤلاء «المطلوبين

بشدة» على مجموعة من أوراق اللعب صدرت في الولايات المتحدة، مما جعل العديد من العراقيين يشعر بالمهانة وبتسخيف حرب كلّفت آلاف الأرواح).

لا شك في أن الإذلال لعبة خطيرة، خصوصاً أن العراقيين شعب معتد بنفسه. وعلى الرغم من أن معظم العراقيين ما كانوا يدعمون صدام، فقد كانوا جميعاً يكنّون حباً جماً لوطنهم. وهم عموماً يحملون مؤهلات علمية عالية (بلغ معدل معرفة القراءة والكتابة في العراق ٩٠ في المئة في الثمانينيات) وكثيرون منهم ينتمون إلى طبقة أصحاب المهن الحرة. وكما يقول عراقي يعيش حالياً في لندن، «كان من الصعب جداً أن نتحمّل أن يكون شعبنا وقادتنا السابقون ووطننا وثقافتنا وتاريخنا موضع شتائم الجنود الأمريكيين الذين يفتقرون على نحو يُرثى له إلى التاريخ والعلم والثقافة والاحترام».

وفي الثامن عشر من نيسان / إبريل، غصّت الشوارع بعشرات آلاف المواطنين العراقيين العاديين، من السُنَّة والشيعة على السواء، متظاهرين ضد الاحتلال. وعندما نظّم المواطنون العراقيون تظاهرة أخرى مناهضة لأمريكا بالقرب من بغداد بعد مرور عشرة أيام فقط، أطلق الجنود الأمريكيون النار على المتظاهرين، فقتلوا على الأقل ثلاثة عشر وجرحوا خمسة وسبعين(١٧). وبعد مرور يومين، شهدت شوارع الفلّوجة تظاهرة احتجاج على إطلاق النار على المدنيين في التظاهرة السابقة. لكن الرصاص انهال هذه المرة أيضاً على المحتجّين، فأودى بحياة اثنين من المدنيين العراقيين على الاقل.

وفي الأول من أيار / مايو، أعلن جورج دبليو بوش انتهاء «العمليات الحربية الكبرى» تزامناً مع وقوع أول حادث تمرّد فعلي انتقاماً لعملية إطلاق النار على المتظاهرين في الفلوجة. آنذاك، أقدمت مجموعة من المدنيين على رمي قنابل يدوية على قيادة للجيش الأمريكي في الفلّوجة، فأصابت سبعة جنود.

وبحلول يوم الإثنين الواقع فيه ٢٦ أيار / مايو، كانت حركة التمرد قد انطلقت بعزم، وشهد الأسبوع اللاحق سلسلة من الهجمات استهدفت القوات الأمريكية في بغداد

---

(١٧) سارة ليفت Sarah Left ووكالاتها، «الجنود الأمريكيون يقتلون متظاهرين عراقيين» US Troops Kill Iraqi Protesters، صحيفة ذي غارديان The Guardian، ٢٩ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٣.

والفلّوجة. أما الإصابات الأولى في صفوف الأمريكيين على أيدي المقاتلين غير العسكريين، فوقعت عندما قُتل جنديان وجُرح أربعة في هجمات بالبنادق والأسلحة المضادة للدروع في بغداد. وظل بريمر يؤكد مراراً وتكراراً طوال عدة أشهر على أن القادة المتبقين من نظام صدام هم الذين يقودون حركة التمرد، مشيراً إلى أن التخلّص منهم سيتمّ قريباً. وفي الثلاثين من أيار / مايو، ظهرت صور إذلال وتعذيب السجناء العراقيين، وبدا في إحداها سجين يتدلى خائفاً من رافعة شوكية فيما آخر يرقد ورأسه مدفون في برازه. والواقع أن هذه الصور زادت من حدّة الهياج الذي راح يحتاج أنحاء البلاد كافة.

كذلك ظهرت أدلة تثبت اعتماد التكتيكات التي يشتهر الإسرائيليون باستخدامها في الأراضي المحتلة. وأشار روبرت فيسك إلى أن الجنود الأمريكيين تبنّوا هذه التكتيكات في عمليات دهم شنّوها على بيوت المدنيين، منزلين عقوبات جماعية وحشية بهم عقب عمليات الثوار. وفي إحدى الحالات، أقدمت الجرافات على جرف غيضات النخيل وبساتين الحمضيات من جذورها في حين كان الجنود يبثّون الموسيقى عبر مكبّرات الصوت(١٨). وفي التاسع من كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٣، نشرت صحيفة ذي غارديان The Guardian تقريراً جاء فيه أن «مستشارين» عسكريين إسرائيليين قدّموا للقادة الأمريكيين في العراق ملخصاً عن تجربتهم في حرب العصابات. وكان أن وُضعت هذه النصيحة موضع التطبيق في خلال حصار الفلوجة الذي بدأ في السابع من تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٤.

خريطة العراق ما بعد الغزو

في الثاني من تموز / يوليو العام ٢٠٠٣، كانت حركة المقاومة قد بدأت بتنظيم صفوفها. فمنذ الأول من أيار / مايو، قتلت الهجمات المنتظمة بالبنادق والأسلحة المضادة للدروع، ثلاثين جندياً أمريكياً على الأقل. لكن السابع من آب / أغسطس بشّر بمرحلة

(١٨) ديليب هيرو، أسرار وأكاذيب، ص ٤١٤.

جديدة من الهجمات الرمزية الأشد فتكاً انطلقت مع سيارة مفخخة بالمتفجرات رُكنت خارج السفارة الأردنية في بغداد وأدت إلى سقوط تسعة عشر شخصاً.

وفي الحادي عشر من آب / أغسطس العام ٢٠٠٣، أصدرت إدارة بوش تقريراً تحت عنوان «مئة يوم في العراق» خلصت فيه إلى القول إن «الصراع المنخفض الحدة» مع المتمردين - الذين واظبت الإدارة الأمريكية على اعتبارهم من مخلّفات النظام البعثي - قد انتهى تماماً. وأشار التقرير إلى أن «الهدوء يعم معظم أنحاء العراق وتنحصر الهجمات في المناطق المعزولة فحسب». لكن بعد مرور ثمانية أيام على صدور التقرير، قاد انتحاري شاحنة محمّلة بنحو ١٠٦٠٠ ليبرة من المتفجرات وتوجّه بها إلى مقر الأمم المتحدة، فنسف المبنى وقتل ثلاثة وعشرين شخصاً من بينهم الممثل الخاص للأمم المتحدة في العراق سيرجيو فييرا دي ميللو Sergio Vieira de Mello (اعتُبرت الأمم المتحدة آنذاك هدفاً مبرراً ربما بسبب العقوبات التي فُرضت على العراق طوال ١٣ عاماً والتي أقرّتها الأمم المتحدة، مما ألحق أضراراً بالغة بالعراق. أضف أن الظواهري اعتبرها هدفاً مشروعاً للهجمات في كتابه «فرسان تحت راية النبي»). ومن شبه المؤكد أن هذا الهجوم كان من بنات أفكار الزرقاوي. وسواء أكان الهدف منه توجيه رسالة إلى المنظمات الدولية لمغادرة العراق أم لا، فإن صندوق النقد الدولي والبنك الدولي سارعا إلى إجلاء العاملين لديهما، في حين تراجعت الهند وباكستان وبنغلادش عن الموافقة السابقة على إرسال جنودها للمشاركة في قوات حفظ السلام. في المقابل، كانت حركة الثورة قد بدأت تتخذ طابعاً متعدد الجنسيات.

آنذاك، تفشّت أعمال التخريب مع إصدار إدارة بوش عقوداً رابحة لإعادة البناء خُصّت بها تكتلات وشركات متعددة الجنسية في الولايات المتحدة. وإذ ذاك، جرى تفجير الأنابيب الرئيسية لنقل المياه ونسف خطوط أنابيب النفط، ممّا عرقل الإنتاج الذي كان معدله قد تراجع إلى ٧٠٠ ألف برميل في اليوم، أي أقل من ثلث المعدلات التي سُجّلت في مرحلة ما قبل الحرب. وبما أن الولايات المتحدة كانت تعتمد على عائدات النفط العراقي لتمويل عملية إعادة البناء، فقد شكلت تلك الهجمات ضربة مدمّرة بالنسبة إليها.

وفي الثامن عشر من تشرين الأول / أكتوبر، نشر الشيخ بن لادن رسالة مسجّلة بالصوت والصورة على مواقع الإنترنت يحثّ فيها العراقيين على «شنّ حرب مقدسة ضد الصليبيين الأمريكيين في العراق». وفي إحدى الرسائل الإضافية الصادرة عن محاربين مجهولي الهوية، كتب أحدهم بلغة إنكليزية واضحة: «نريد من المسيحيين واليهود كافة أن يغادروا بلادنا المسلمة ويطلقوا سراح أخواننا من السجون ويتوقفوا عن قتل المسلمين، وإلا فسنعمد إلى قتلكم». ويضيف صاحب الرسالة «نتعهد ألا ندعكم تعيشون في أمان، ولن تروا منا إلا المتفجرات والنار والمنازل المدمّرة والرؤوس المقطوعة». ولا شك في أن هذه الرسالة كانت أشبه بعرض مسبق ومروّع لما حدث لاحقاً.

وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه الصفحات، أي تحديداً بعد مرور سنتين كاملتين، يبدو جلياً أن حركة الثورة تضم ثلاث مجموعات رئيسية:

الجماعات الإسلامية

في الخامس عشر من كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٦، أعلنت مجموعات إسلامية سُنِّية مختلفة تشكيل تجمّع مجلس شورى المجاهدين في العراق. وقد ضمّ هذا التجمّع جيش الطائفة المنصورة، وسرايا أنصار التوحيد، وسرايا الجهاد، وسرايا الغرباء، وكتائب الأهوال، والقاعدة في بلاد ما بين النهرين التي كان يتزعّمها آنذاك أبو مصعب الزرقاوي. والجدير ذكره في هذا الإطار أن الزرقاوي هو من ترأس المجلس بدايةً. وجاء هذا المجلس ليحلّ محلّ التجمّع السابق «جيش أنصار السُنَّة» الذي كان قد تشكّل بعد مرور خمسة أشهر على الاحتلال الأمريكي. واللافت أن مجموعة الزرقاوي السابقة «التوحيد والجهاد» لم تكن رسمياً جزءاً من جيش أنصار السُنَّة، علماً بأن أهداف مجموعات الثوار الإسلاميين بمعظمها كانت وتبقى متشابهة إلى حد بعيد وتُختصر بالسعي إلى إرساء دولة إسلامية في العراق بعد طرد قوات الاحتلال.

في نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦، جرى الحطّ من مكانة الزرقاوي فعلياً عندما حضّه الشيخ أسامة بن لادن على حصر عمله بالنشاطات العسكرية. فافتراضه أن بمقدوره

التحدّث باسم الشعب العراقي والمقاومة كان ينفر المقاتلين المحليين ويثير غضب الثوار الآخرين وعدداً من الأئمة. لكن يبدو جلياً أن استراتيجيا الزرقاوي في العراق شكّلت القاعدة الأساس لحركة الثورة منذ البداية:

١ ـ عزل أمريكا عن حلفائها ومؤيديها المحتملين؛ واستهداف الأمم المتحدة هو خير دليل على ذلك. ولا شك في أن القاعدة اتخذت من هذه النقطة إشارة مشجعة لتنفيذ تفجيرات لاحقة في الخارج وتحديداً في لندن، وفي مدريد حيث أدت التفجيرات إلى انسحاب القوات الإسبانية من العراق.

٢ ـ منع العراقيين من التعاون مع المحتلين. وفي هذا الإطار، أثبتت الهجمات الانتحارية المتكررة على مراكز تجنيد الجيش ومراكز الشرطة فاعليتها البالغة. أضف أن الزرقاوي كان يقف أيضاً وراء الاغتيالات ومحاولات الاغتيال التي استهدفت سياسيين تعاونوا مع الخطط التي وضعتها أمريكا للإدارة الجديدة.

٣ ـ ارتكاب اعتداءات وحشية ذات تأثير مزدوج بغية شن حرب نفسية من جهة، وعرقلة مساعي أولئك المعنيين بإعادة إعمار العراق من جهة أخرى. وكان الزرقاوي رائداً في عمليات الخطف والقتل الوحشي، بما في ذلك ضرب رأس رجل الأعمال الأمريكي نيكولاس بيرغ Nicholas Berg، إذ يزعم البعض أن الزرقاوي نفّذ هذه العملية بنفسه.

٤ ـ إثارة النزاع العلماني عبر استهداف الشيعة. وقد بدا في الأصل أن هذه الخطوة تهدف إلى تحذير الشيعة من الاستمرار في التعاون مع الولايات المتحدة. أما اليوم، فيبدو أن هذا التوجه يخفي وراءه نيّات قاتلة. وأعتقد أن الزرقاوي كان يسعى إلى جرّ الشيعة إلى حرب أهلية، بل إن هذا ما يؤكده اختياره أهدافاً استفزازية. فمن شبه المؤكد أنه كان يقف وراء المجزرة التي ذهب ضحيتها ١٨٥ حاجاً شيعياً قُتلوا على أيدي أربعة مهاجمين انتحاريين وفي انفجار خمس متفجرات في كربلاء وبغداد في ذكرى عاشوراء[١٩] في ٢ آذار / مارس العام ٢٠٠٤، فضلاً عن سلسلة هجمات أخرى استهدفت مدنيين من الطائفة الشيعية. إلى ذلك، أعلن الزرقاوي مسؤوليته عن اغتيال

(١٩) احتفال شيعي سنوي إحياءً لذكرى موت الإمام الحسين.

الزعيم الشيعي آية الله محمد باقر الحكيم في آب / أغسطس العام ٢٠٠٣. هذا وقد جرت عدة محاولات لاغتيال خلفه، الرئيس الحالي للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق عبد العزيز الحكيم.

الجدير ذكره أن اللغة التي اعتاد الزرقاوي استخدامها في الحديث عن الشيعة لاذعة جداً. ففي رسالة وجّهها إلى الشيخ بن لادن في ١٥ حزيران / يونيو العام ٢٠٠٤، وصفهم «بالأفعى المتربصة». مدعياً أنهم «أشد مقدرة من الأمريكيين على إلحاق الأذى بالأمّة». واستطرد الزرقاوي في الرسالة نفسها قائلاً بالحرف الواحد: «هؤلاء أناس أضافوا إلى هرطقتهم وكفرهم المكر السياسي والحماس الملتهب للتذرّع بأزمة الحكم وتوازن النفوذ في الدولة.. وهم يحاولون إرساء الخطوط الجديدة للحكم من خلال تنظيماتهم السياسية وبالتعاون مع حلفائهم الأمريكيين.. لقد شكّلوا طائفة الغدر والخيانة على مر التاريخ والعصور». وأكد الزرقاوي بوقاحة في رسالته تلك أنه لن ينضم إلى القاعدة إن لم يوافق الشيخ بن لادن والظواهري على شن حملة مناهضة للشيعة.

كان قد مضى نحو عام على المفاوضات بين الزرقاوي وقادة القاعدة قبل أن يعلنوا أخيراً تحالفهم في الثامن والعشرين من كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤. ولمّا كان الزرقاوي في الأصل زعيماً مهيباً لمجموعته الخاصة في العراق، فقد تريّث على ما يبدو للتفاوض من موقع قوة. وبما أنه كان مستقلاً تماماً، ولم يُعرف عنه أنه متواضع، فإن هذه كانت الظروف الوحيدة التي يقبل بها للتفاوض. ولعله كان يفضّل اغتصاب موقع الشيخ بن لادن كزعيم للقاعدة، تماماً كما اغتصب الإمارة من المقدسي في السجن. لكن حدسه الاستراتيجي جعله يدرك أن ما يطمح إليه لن يكون ممكناً، فقرر إذ ذاك الإذعان. فالزرقاوي كان بحاجة إلى المشروعية والمكانة اللتين يمكنه تحقيقهما عبر مباركة الشيخ بن لادن واسم القاعدة.

في تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٤، أعلن الزرقاوي استبدال اسم مجموعته «التوحيد والجهاد» بالقاعدة في بلاد بين النهرين. وفي كانون الأول / ديسمبر، بارك الشيخ بن لادن الزرقاوي أميراً لهذه المجموعة الجديدة التابعة للشبكة العلمية التي تزداد

انتشاراً. وقد أخبرني أبو قتادة في حزيران / يونيو العام ٢٠٠٥ بأن الزرقاوي لم يكن قادراً على إعلان بيعته للشيخ بن لادن شخصياً، خصوصاً أن الشيخ كان متوارياً عن الأنظار، فأرسلها إليه عن طريق أبي قتادة.

وينقسم المعلقون حول هويّة من خضع لمن في ما يتعلق بالإنذار الذي أطلقه الزرقاوي في حزيران / يونيو. لكن في ظلّ تصاعد الهجمات على الشيعة منذ إعلان التحالف، قد يبدو أن الزرقاوي حقّق مراده. وتفيد المعلومات التي حصلت عليها من مصادر مقربة من القاعدة بأن الشيخ بن لادن والظواهري وافقا على قتال الشيعة، فأعلن الزرقاوي إذ ذاك مبايعته للشيخ بن لادن.

الواقع أن جدول أعمال الزرقاوي ثبت أنه أكثر تطرفاً من قيادة القاعدة. ففي أيار / مايو العام ٢٠٠٥، صرّح الزرقاوي تحت راية القاعدة بأن «القتل الثانوي (للمسلمين) مبرر بحكم الضرورة». ومن الممكن أن نعزو إلى الزرقاوي نفسه إضفاء مستوى جديد من الترهيب النفسي على عمليات القاعدة، خصوصاً أنه اشتهر بوحشيته وأعماله الدموية.

في مرحلة التحالف الجديد، كانت مقدرات القاعدة قد بدأت تتراجع. فالهجمات على أفغانستان والتدابير الأمنية المتزايدة في العالم جعلت أعدادها تتضاءل، كما أن الهجمات التي استهدفت في العام ٢٠٠٣ قوى الأمن المحلية والمدنيين في المملكة العربية السعودية أثرت سلباً في شعبية القاعدة في المملكة. لكن الحضور الجديد في العراق، ولا سيّما في ظل وجود زعيم معروف وقوي النفوذ (وإن كان مرعباً) مثل الزرقاوي، كان يعد بفرصة جديدة للبقاء. ولم تكن قيادة القاعدة لتقبل بأن يخيب أملها.

أما مباركة الشيخ بن لادن، فمنحت بدورها الزرقاوي مشروعية جديدة ومكانة جديدة ضمنتا توافد آلاف المجنّدين الجدد من أنحاء العالم (وليس من الدول العربية فقط) إلى العراق بتحريض من الشيخ بن لادن والزرقاوي اللذين أصدرا عدة بلاغات يحضّان فيها المجاهدين الشباب على الانضمام إلى المعركة. وكانت مجموعة الزرقاوي تتولّى تدريب غالبية المقاتلين الأجانب الوافدين إلى العراق وتُعنى بتنظيم صفوفهم.

والجدير ذكره أن دراستين جديدتين، إحداهما أجرتها الحكومة السعودية والأخرى

لجنة خبراء إسرائيلية في سياق تحليل دوافع مئات الشباب الذين يقصدون العراق لمحاربة الولايات المتحدة، كشفتا أن معظم المقاتلين الأجانب لم يكونوا جهاديين قبل حرب العراق لكنهم «نزعوا إلى التطرف بسبب الحرب نفسها». ولا شك في أن هذا الاكتشاف يفسّر غياب أي قعر ينتهي عنده منجم المجندين الخام الذين يقدّمون أنفسهم كل يوم «للشهادة» في العراق.

ويشير بعض المعلومات إلى أن العراقيين من «جيل العقوبات» قد بدأوا ينضمّون إلى صفوف القاعدة في العراق. وهذا يولّد بالطبع الظاهرة غير المسبوقة للانتحاريين العراقيين. وتتوافر أدلة على ذلك في النشرات الإعلامية التي تُلقى بعد العمليات الانتحارية ويُعلن فيها أسماء «الشهداء». فعدد متزايد من الانتحاريين يحمل اسماً حركياً عراقياً، يتم اختياره في العادة نسبة إلى البلدة الأم للانتحاري، وذلك تماشياً مع العادة التي درجت عليها مجموعة الزرقاوي. فكما هو معلوم، أثارت حقبة العقوبات مزاجاً من الغضب والإحباط في أوساط الشباب العراقيين الذين يجذبهم اليوم الوعد بحياة فضلى بعد الموت. ولعل احتكاكهم بالإسلام عن كثب مقارنة بالأجيال السابقة، يفسّر تأثّر العراقيين الشباب البالغ بالأحاديث الجهادية.

وبالتالي، يمكن اختصار الوضع حتى يومنا هذا بوجود تيارين للثورة الإسلامية السُنِّية في العراق، أوّلهما يتمثّل بائتلاف جيش أنصار السُنَّة وثانيهما بالقاعدة في بلاد ما بين النهرين.

المجموعات العلمانية

تفيد مصادرنا بأن حركة المقاومة تضمّ مجموعة علمانية كبيرة قوامها ٥٠ ألف بعثي من الجيش العراقي السابق والأعضاء السابقين في قوى الأمن التابعة لصدّام والمدنيين المتطرفين.

وإذ انتظم هؤلاء بداية في كتائب اتخذت لنفسها أسماء مثل جيش المجاهدين وسرايا عمر والقيادة العامة للمقاومة العراقية المسلحة، فما لبثوا أن تجمعوا تحت لواء منظمة

راعية أُطلق عليها اسم المجلس الوطني للمقاومة. والجدير ذكره أن هؤلاء الثوار الذين يقودهم ضباط سابقون في جيش صدام يتميّزون بالانضباط وحسن التدريب والتسلح. وبما أن نظام صدام كان يفرض على كل شاب عراقي أداء الخدمة العسكرية، كان من الطبيعي أن يكون الثوار المحليون كافة مقاتلين بارعين في استخدام الأسلحة الخفيفة والمتفجرات. والواقع أن المجلس الوطني للمقاومة راح يجنّد الثوار من أوساط الشبان العراقيين الذين تزايد شعورهم بالسخط، والمواطنين العاديين الذين أغضبتهم الوحشية الأمريكية وروّعهم ارتفاع عدد الضحايا من المدنيين. أضف أن الموجب الثقافي بالثأر لموت النساء والأطفال حرّض عراقيين كثراً على التحرّك.

يشكّل المجلس الوطني للمقاومة منظمة على قدر عالٍ من الاحتراف، حتى إنه يخضع المتطوعين لتقويم رسمي بغية التحقّق من مدى مواءمتهم للانضمام إلى صفوفه وإنشاء معسكرات تدريب على امتداد الحدود السورية. والجدير ذكره أن ثوار المجلس الوطني للمقاومة يستخدمون تكتيكات حرب العصابات ويتجنّبون التفجيرات الانتحارية. وتشير السجلات إلى وجود ٢٤ مليون بندقية لدى المدنيين العراقيين. أضف أن قادة المجلس الوطني للمقاومة يعرفون أين تقع مخابىء الأموال والأسلحة، وهم يسيطرون على معظم شوارع العراق ويحرصون على ألا يكون أي منها آمناً لعبور قوات التحالف. هذا وتسهّل معرفة ثوّار المجلس في الميدان والتفاصيل الصغيرة للحياة اليومية في بغداد والمدن الأخرى، عمليات الاختطاف والقتل المتكررة.

الواقع أن مستوى التعاون بين الثوار العلمانيين والقاعدة ليس جلياً تماماً. لكن اللافت أن بياناً مشتركاً نصّه حزب البعث ووقّعته عدة مجموعات، من بينها مجموعة الزرقاوي، ظهر على عدد من المواقع الجهادية الإلكترونية في تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٤. وجاء في البيان: «نحن نلتزم تصعيد الهجمات المسلحة ضد قوات التحالف وجواسيسهم وعملائهم». لكن الإسلاميين أضافوا إلى البيان الآتي: «نحن لا نوقّع هذا البيان لأننا ندعم حزب البعث أو صدّام، وإنما للتعبير عن مطالب مجموعات المقاومة في العراق». ولا يُستبعد أن يكون بين الطرفين نوع من التعاون العملي. ففي الموصل

وسامراء والفلّوجة، يتبع المقاتلون الإسلاميون والبعثيون تعليمات اللجنة المحلية للقياديين الإسلاميين السنَّة[٢٠]. وفي خلال انتفاضة جهاديي الموصل (١٠ ـ ١١ تشرين الثاني / نوفمبر)، اتحد مقاتلوا جيش أنصار السُنَّة والمجلس الوطني للمقاومة في حربهم على القوات الأمريكية والحرس الوطني وميليشيا البشمركة الكردية.

لا بد من الإشارة إلى أن قادة الثورة لا يكفّون عن دعوة الجنود العراقيين ورجال الشرطة وقوى الأمن إلى الفرار من الخدمة بدلاً من التعاون مع قوات الاحتلال. ويبدو أن هذه الدعوات تؤتي ثمارها في غالب الأحيان. ففي خلال حصار الفلوجة مثلاً، فرّت كتيبة جيش كاملة من أصل أربع كتائب عراقية كانت قد أُدمجت بالقوات الأمريكية. وفي خلال انتفاضة الموصل، فرّ ما نسبته ٨٠ في المئة من رجال الشرطة البالغ عددهم أربعة آلاف رجل، وانضم بعضهم إلى الثوار[٢١].

فضلاً عن ذلك، تغلغل الثوار في صفوف قوى الأمن العراقية. ويشير بعض المصادر إلى أن قوات الشرطة في البلدات السُنِّية تضمّ في صفوفها من الجواسيس أكثر مما تضمّ من الضباط الحقيقيين. ونتيجة لهذا الواقع، درج الثوار على قتل رجال الشرطة بمعدل وسطي يبلغ ١٠٠ قتيل في الأسبوع الواحد. هذا وكثيراً ما شنّ الثوار هجماتهم مرتدين زيّ الشرطة الذي لا يمكن أن يتوافر لهم إلا عن طريق ضباط في الخدمة. كذلك يشيع الاعتقاد بأن عمليتَي اغتيال حاكمَي الفلوجة والموصل نُفّذتا بالتعاون مع أجهزة الأمن.

مجموعات المقاومة الشيعية

يبدو أن المجموعة الشيعية المحلية الوحيدة التي بقيت على معارضتها الشديدة للاحتلال هي مجموعة أنصار الصدر (أتباع رجل الدين المتطرف مقتدى مصدر) التي يُعرف جناحها العسكري باسم جيش المهدي. لكن من المفيد الإشارة إلى أن حزب الله

(٢٠) ديليب هيرو، أسرار وأكاذيب، ص ٤١٣.
(٢١) المرجع السابق،ص ٥١٥.

اللبناني نشط هو أيضاً في جنوب العراق[٢٢]. وقد أسس الصدر جيش المهدي في حزيران / يونيو العام ٢٠٠٣ كرد مباشر على الغزو الأمريكي.

وفي أيامنا هذه، ينتظم أنصار الصدر كحركة مناهضة للتعصب الطائفي ومعارضة للاحتلال تحظى بدعم شعبي كبير. والجدير ذكره أن والد رجل الدين مقتدى الصدر، آية الله محمد صادق الصدر، كان قد اغتيل في العام ١٩٩٩ عندما أغضب النظام البعثي بانتقاداته العلنية لسياسات النظام. وإذ ذاك، انتقل العديد من مؤيديه بولائهم إلى نجله.

قبل الغزو الأمريكي، كان مقتدى الصدر يحرص على البقاء بعيداً عن الأنظار مخافة أن ينتهي به الأمر كوالده. وإذ عاد للظهور عقب سقوط صدام، دعا إلى حمل السلاح، فانضمّ الآلاف من أتباعه إلى جيش المهدي. والواقع أن الصدر يتمتع بقاعدة نفوذ متينة ومورد تمولي مصدره شبكة من المؤسسات الخيرية الشيعية التي كان والده قد أسسها. أما جيش المهدي، فيمتلك ذخيرة وافرة من الأسلحة الخفيفة ورشاشات الكلاشينكوف والأسلحة المضادة للدروع.

وعلى الرغم من أن الصدر جاهر بمعارضته للغزو الأمريكي منذ البداية، فقد كان يدعو في البدء إلى الاحتجاج السلمي والابتعاد عن العنف. لكن عندما حظّرت سلطات الاحتلال الأمريكي صدور صحيفته «الحوزة» في الرابع من نيسان / إبريل العام ٢٠٠٤، قاد أول انتفاضة مسلحة كبرى في مرحلة ما بعد الحرب وأمر أتباعه «بإرهاب» العدو مهدداً بالشروع في استخدام الانتحاريين. واستمرت الانتفاضة آنذاك حتى إعلان الهدنة في السادس من حزيران / يونيو[٢٣].

وعادت أنظار العالم لتتركّز على جيش المهدي في آب / أغسطس العام ٢٠٠٤ عندما حاولت الولايات المتحدة اعتقال الصدر في النجف التي هي أكثر المدن قدسية بالنسبة إلى الشيعة. فوقعت آنذاك معركة كبرى بين ألفَي جندي من البحرية الأمريكية يؤازرهم

(٢٢) المرجع السابق، ص ٣٥٤.

(٢٣) نقلاً عن قناة الجزيرة الفضائية، ٦ أيار / مايو العام ٢٠٠٤.

١٨٠٠ رجل من أجهزة الأمن العراقية بإيعاز من رئيس الحكومة الموقّتة أياد علاوي[٢٤] من جهة، وألفَي مقاتل من جيش المهدي من جهة أخرى. لكن الحصار الذي فُرض على المسجد حيث التجأ الصدر والآلاف من أتباعه، والتدمير اللاحق للمدينة، أفقدا الولايات المتحدة حلفاء أساسيين في أوساط العراقيين المعتدلين.

وفي خلال معركة الفلوجة، حارب أنصار مقتدى الصدر إلى جانب المجموعات البعثية والجهادية في إطار تحالف وثيق وغير مسبوق بين السُنَّة والشيعة الذين وجدوا أنفسهم إذ ذاك أخواناً في السلاح. أضف أن الوضع في الفلّوجة جعل مئتَي ألف شخص من السُنَّة والشيعة يصلّون معاً صلاة يوم الجمعة الواقع فيه ٩ نيسان / إبريل في مسجد أم القرى في بغداد، ممّا حثّ الصدر على التوجّه إلى بوش قائلاً: «أنت الآن تحارب أمة بأسرها». لكن مشهد الوحدة العلمانية لم يدم طويلاً.

دولة أخرى فاشلة

في آب / أغسطس العام ٢٠٠٥، قال الرئيس البولندي ماريك بيلكا Marek Belka «لقد فشلنا اليوم في بناء دولة في العراق ما بعد الحرب»[٢٥]. والواقع أن ٨١ في المئة من العراقيين يعتبر القوات الأمريكية قوات احتلال وليس «تحرير»، في حين يعتبر ١٣ في المئة منها فقط أن الغزو كان مبرراً أخلاقياً[٢٦]. وبالتالي، فإن قلة قليلة من الشعب في العراق ما بعد الحرب تعتبر أن ظروفها الحياتية قد تحسّنت. فمعدل البطالة مثلاً وصل حالياً إلى نحو ٥٠ في المئة[٢٧]، في حين لا تزال معظم المناطق تفتقر إلى توافر الماء والكهرباء بشكل طبيعي ومنتظم. وبما أن المدارس والمستشفيات تحتاج إلى الكهرباء لتستمر في أدائها، يبدو أن أبسط الخدمات العامة الأساسية غير متوافر فعلياً. أضف أن معامل معالجة المياه التي أعادت بناءها شركة بيتشل Bechtel تتعطّل باستمرار ويهاجمها

(٢٤) بقي أياد علاوي في هذا المنصب من ١ حزيران / يونيو العام ٢٠٠٤ إلى ٧ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٥.
(٢٥) صحيفة ذي قسمان The Scotsman، ٣ آب / أغسطس العام ٢٠٠٥.
(٢٦) صحيفة يو أس آي توداي USA Today، ٣٠ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٤.
(٢٧) صحيفة واشنطن بوست The Washington Post، ٢٠ حزيران / يونيو العام ٢٠٠٥.

الثوار على نحو منتظم مما يجعل مجمل العراقيين يفتقرون إلى مياه الشفة النظيفة. هذا وقد أصبح المواطنون العاديون يخشون التجوال في شوارع بلداتهم ومدنهم الأم مخافة أن يذهبوا ضحية المعارك التي تدور بين الثوار والقوات الأمريكية. وفي موازاة ذلك، تتّسع دائرة التظاهرات وأعمال الشغب في حين يحتج الشعب على عجز الحكومة الجديدة عن توفير الخدمات.

يمكن التأكيد في الواقع أن قيام «الديموقراطية» في العراق مجرّد وهم، ما دام الوزراء الشيعة والأكراد يمثّلون مصالحهم الخاصة، في حين أن معظم السُنَّة يقاطعون المسار برمته. ولا يمكن بالطبع وصف أي نظام بالديموقراطي إن لم يكن يمثّل المجتمع كله ومصالحه وحاجاته المتباينة. أضف أن الانتخابات لا توفّر الوقود للسيارات، وصناديق الاقتراع لا تؤمن قوت الأطفال.

تجدر الإشارة إلى أن المستقبل السياسي للعراق يزداد تعقيداً نتيجة الموقف الأيديولوجي الراسخ للقاعدة والمجموعات السلفية التي تعتبر الديموقراطية «هرطقة» وتطالب بتأسيس دولة إسلامية سلفية.

قبل أسبوع من موعد الانتخابات المحدد في ٣٠ كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٥، نشر الزرقاوي على المواقع الإسلامية الإلكترونية خطاباً يستنكر فيه الديموقراطية ويحث الشعب العراقي على عدم المشاركة في الانتخابات. وكانت حجّته أن السلطة التشريعية في النظام الديموقراطي يمارسها ممثلون ينوبون عن الشعب. وهذا بحسب رأيه يعني طاعة الإنسان عوضاً من طاعة الله تعالى، وهنا يكمن «جوهر الكفر والشرك بالله والضلال». وأضاف الزرقاوي قائلاً إن الديموقراطية تسمح بحرية المعتقد الديني، بما في ذلك اعتناق ديانة أخرى، في حين أن الإسلام يفرض «قتل المسلم إن هو ارتدّ عن الإسلام إلى الكفر». كما تشمل الجوانب الأخرى التي لم يكن الزرقاوي يقبل بها في ما يتعلق بالديموقراطية وحرية التعبير التي تسمح في رأيه باستخدام لغة قد تسيء إلى الخالق تعالى، والواقع أن الدولة العلمانية تحصر وجود الله وتأثيره في أماكن العبادة. فضلاً عن ذلك، كان الزرقاوي يعتبر فكرة حكم الأكثرية «خاطئة وباطلة تماماً لأن الصواب

بحسب الإسلام هو ذاك الذي يتماشى مع ما جاء في القرآن الكريم والسُنَّة، سواء أكان عدد مؤيديه قليلاً أم كبيراً».

أما الديموقراطية في العراق، فتتميّز بالفساد والغدر والطمع. ففرص الأعمال غزيرة، حتى إنه تقرر عقد مؤتمر تحت عنوان «إعادة إعمار العراق ٢٠٠٦» في عمّان ـ الأردن للشركات الراغبة في الإفادة من الفرص التي أوجدتها الحرب. وجاء في الإعلان الخاص بالمؤتمر: «العراق المنبعث هو بأمسّ الحاجة إلى مجموعة كاملة من منتجات وخدمات وأنظمة البنية التحتية». ويضيف الإعلان بلهجة تشجيعية: «كن لاعباً في أهم سوق واعدة في المنطقة. لا دولة في المنطقة تتمتع بإمكانات أكبر لتوفير فرص الأعمال.. لقد خصصت الحكومة الأمريكية مبلغاً قدره ١٨,٦ مليار دولار أمريكي لإعادة تأهيل العراق»[٢٨].

والواقع أنه يمكن العراقيين الذين يعملون مع الشركات الأمريكية الكبرى أن يستفيدوا بأكثر من طريقة. فبمقدورهم على سبيل المثال الفوز بعقود من الباطن، مما يؤدي إلى توافر عائدات ضخمة، أو بمقدور أولئك الذين يشغلون مناصب إدارية أن يحصلوا على رشًى مغرية مقابل منح عقود مربحة.

هذا ويحصل «العراق الجديد» على مساعدات أجنبية تبلغ نحو ١٠٠ مليار دولار أمريكي في هيئة مساعدات أجنبية. وتشير الهيئة الدولية للشفافية المنوطة بها مهمة مراقبة الفساد إلى أن الوضع قد يفرز «أكبر فضيحة للفساد في التاريخ». والواقع أن هذه الفضيحة كانت قد بدأت تظهر في عهد حكومة علاوي عندما ارتفع مستوى الفساد إلى حد جعل معظم أعضاء الحكومة يغادرون البلاد لدى خسارة علاوي في الانتخابات خشية أن تقوم الحكومة الجديدة بمساءلتهم. إنما لم يكن من داعٍ لمخاوفهم.

وقد بات من المعروف على نطاق واسع أن الرشوة تشكّل جزءاً لا يتجزأ من النظام الاقتصادي الجديد. ويُزعم أن الوزراء وكبار الموظفين يتوقّعون على الدوام الحصول على ما نسبته ٥ إلى ٦ في المئة من قيمة أي عقد مقابل قبولهم بأحد العروض في المناقصة. وقد كتب الصحافي الأوسترالي بول ماك جوف Paul McGeough هو عن مناقصة أجريت

(٢٨) www.rebuild-iraq-expo.com

في وزارة الطاقة. فقد أخبره رجل أعمال عراقي في بغداد بالآتي: «كان العمل المطلوب إنجازه يساوي نحو ١٥ مليون دولار لكن فريق عمل الوزير كان يريد لنفسه عمولة قدرها ٤٠ مليون دولار تقريباً. وإذ ذاك، نصح العاملون في الوزارة صاحب العطاء بزيادة السعر إلى ٧٠ مليون دولار كي يتسنّى لهم الحصول على حصّتهم ويتمكن صاحب العطاء هو أيضاً من تحقيق ربح وافر»(٢٩). فهؤلاء «المقاولون» لا يكترثون حقيقةً لواقع أن للحالة الخطرة لشبكة الكهرباء العراقية انعكاسات تشمل اليوم الوطن كله.

أحمد جلبي هو نائب رئيس مجلس الوزراء المعيّن، وكان قد حُكم عليه من قبل بالسجن ٢٢ عاماً لضلوعه في فضيحة مصرفية مقدارها ٢٠٠ مليون دولار أمريكي في الأردن. آنذاك فرّ من البلاد وعاد وظهر لاحقاً في لندن حيث ترأس المجلس الوطني العراقي أو ما يُعرف «بحكومة المنفى» التي موّلتها الولايات المتحدة بنحو ٩٧ مليون دولار. وتشير المزاعم إلى أن الولايات المتحدة دفعت لجلبي مليون دولار أمريكي مقابل «معلومات» تتعلق بترسانة صدّام من أسلحة الدمار الشامل. صحيح أن تلك المعلومات كانت مختلفة بحسب ما ثبت لاحقاً، إلا أنها وفّرت لجورج دبليو بوش سبباً كافياً للغزو(٣٠). وعلى الرغم من الشقاق الذي نشأ في العام ٢٠٠٤ عندما «تبيّن» أن المعلومات عن أسلحة الدمار الشامل كانت غير صحيحة، فقد ظلّ جلبي على علاقة وثيقة بواشنطن.

الواقع أن حكومة العراق الجديدة فشلت سياسياً واقتصادياً وأخلاقياً. أما على مستوى الأمن، فالكارثة بلغت أقصاها. وبدءاً من تموز / يوليو العام ٢٠٠٠، بلغت الثورة مستويات جديدة من القوة مع بلوغ المعدل الوسطي للهجمات خمسة وستين هجوماً في اليوم الواحد يسقط بسببها عدد كبير من القتلى والجرحى(٣١). ويبدو أن المقاتلين يزدادون وقاحة ووحشية يوماً تلو آخر. فقد تطوّر مستوى المهارات العسكرية

(٢٩) صحيفة ذي آيدج The Age، «الفساد: صناعة النمو في العراق الجديد» Corruption: The Growth Industry of New Iraq، ٢ أيار / مايو العام ٢٠٠٥.

(٣٠) صحيفة ذي إنديبندنّت The Independent، ٢٠ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠٣.

(٣١) تقارير المقاومة العراقية، www.albasrah.com

والاستراتيجية التي يمتلكها الثوار حتى إن ضباط الجيش الأمريكي الذين خبروا القوة في المعارك وازدادوا بأساً يتأثرون هم أيضاً بما يحدث. وهذا ما قاله أحدهم لصحيفة «نيويورك تايمز» The New York Times في خلال حصار الفلوجة: «إنهم يدعمون تقدّم المشاة بالقصف المدفعي، وهذا تكتيك غاية في الصعوبة في ما يتعلق بالوحدات الصغرى».

والجدير ذكره أن هذا المستوى المعزّز من المهارات يترافق مع تصاعد وتيرة القتل الهمجي والعشوائي للمدنيين إضافة إلى ضرب الأهداف «المشروعة». علماً أن مستوى العنف قد بلغ حداً غير مقبول حتى بالنسبة إلى بعض المتشددين. ففي آب / أغسطس العام ٢٠٠٥ مثلاً، ذكّر المنظّر الجهادي السلفي، السوري أبو ناصر الطرطوسي، القاعدة بقول النبيّ (ص): «من آذى مؤمناً فلا جهاد له». وفي تموز / يوليو العام ٢٠٠٥، أعلن الشيخ أبو محمد المقدسي - وكان لا يزال في السجن - معارضته للزرقاوي بعد أن كان راعيه من قبل، وشكك في قتله المدنيين، ولا سيّما النساء والأطفال، وفي استهدافه الشيعة. وجاء رد الزرقاوي آنذاك في تعليق على شبكة الإنترنت أكد فيه أن «المقدسي قد وقع في إغواء الشيطان لوضع إسفين في صفوف المجاهدين».

في تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٥، اعترفت الولايات المتحدة بمقتل ٢٠١٥ جندياً وإصابة ١٤ ألفاً آخرين. أما عدد الوفيات في صفوف الجيش العراقي والشرطة العراقية، فبلغ ٦١٤١ قتيلاً منذ بدء الغزو. وقد نقل ناطق باسم القوات الأمريكية لوكالة آي بي AP للأنباء أن المعدل الوسطي للإصابات في صفوف المدنيين العراقيين بات يقارب ٦٤ إصابة في اليوم الواحد، معترفاً بأن ٣٠ ألف عراقي قد ماتوا منذ بدء الغزو في العام ٢٠٠٣، علماً بأن محللين مستقلين يشيرون إلى أن عدد الوفيات بلغ ١٠٠ ألف حالة أو أكثر. هذا وتحدد منظمة الحقوق الإنسانية العراقية «مفكرة الإسلام» عدد الضحايا المدنيين حتى تموز / يوليو العام ٢٠٠٥ بمئة وثمانية وعشرين ألف قتيل، ٥٠ في المئة منهم نساء وأطفال لم يتجاوزوا الثانية عشرة من العمر.

أما الهجمات الشاملة على قواعد الثوّار، كعملية «الضربة السريعة» في محافظة الأنبار في آب / أغسطس العام ٢٠٠٥، وقصف معقل أنصار الإسلام في الشمال مع بداية الغزو، وتدمير الفلّوجة، فكان مفعولها موقّتاً ومحدوداً. واللافت أن الثوار كانوا يتمتعون بمقدرة استثنائية على التسلل عبر شباك قوى الأمن وإعادة تنظيم صفوفهم في مكان آخر. بالمختصر، يمكن القول إن الولايات المتحدة لا تسيطر على جميع أنحاء العراق.

والجدير ذكره أن الثوّار لا يفوزون في هذه الحرب الدموية وحسب، بل يحققون نصراً استثنائياً. وبغض النظر عن عدد الثوّار الذين تقتلهم قوات التحالف، كثيراً ما تواجَه هذه القوات بموجة جديدة من الشباب التائقين «للاستشهاد» آخذين معهم أكبر عدد من جنود العدو. ووفقاً لحسابات المنظرين العسكريين، ينبغي أن تكون نسبة الإصابات في صفوف القوة الغازية المسلحة إلى الإصابات في صفوف عدوها ١ إلى ١٠ كي تنتصر هذه القوة في حرب عصابات. وإذا كانت هذه النسبة تعني سقوط ٢٠ ألف قتيل في صفوف الثوّار، فإن الأرقام الفعلية بعيدة كل البعد عن هذا العدد، لا بل من المستبعد أن يقارب عدد الضحايا في صفوف الثوّار نصف هذا العدد. ولا شك في أن الشعبية التي تحظى بها الثورة في أوساط المواطنين العراقيين العاديين تشكّل دليلاً آخر على فشل الولايات المتحدة. ويبدو أن مبيعات الأقراص المدمّجة والشرائط التي تبثّ موسيقى مؤيدة للمقاومة تشهد ارتفاعاً مستمراً. ولعل أكثر المغنّين شعبية في هذا المجال هو صباح الجنبي الذي يؤدي أناشيد من أبرز كلماتها «جاءت أمريكا واحتلت بغداد / الجيش والشعب يملكان الأسلحة والذخيرة / دعونا ننضم إلى القتال ونهتف باسم الله تعالى»[٣٢].

غني عن القول إن الولايات المتحدة تواجه خطراً فعلياً يتمثّل بنزعة جهادية بدأت تنتشر في الدول المجاورة التي يدعم العديد منها الثورة العراقية ويزوّدها بالمقاتلين والمؤن. ففي شمالي العراق، نشأ نوع من التفاهم بين الجهاديين الأتراك والمجموعات الكردية، كما لوحظ وجود مقاتلين أتراك في السليمانية وكركوك والموصل. أضف أن

(٣٢) ديليب هيرو Dilip Hiro، أسرار وأكاذيب، ص ٤٤٢..

علاقات قبلية تمتدّ عبر المنطقة، ولا سيّما بين العراق والخليج وسوريا. وبما أن معظم هذه القبائل سُنِّي، فقد سمح هذا الترابط، ومثله العلاقات العائلية، بتسهيل قدوم العديد من المجاهدين الشباب التابعين لهذه القبائل إلى العراق، سواء أكانوا أعضاء في القاعدة أم أشخاصاً يشاركونها في أيديولوجيتها.

وإذ ذاك، يسيطر على البلاد جو من الخوف والهلع وعدم الاستقرار وانعدام الثقة. هذا وتشير التقارير إلى أن عدد المصابين باضطرابات عقلية مرتبطة بالحرب في صفوف القوات الأمريكية يراوح بين ١٧ ألفاً ومئة ألف حالة، فضلاً عن تسجيل ٣٠ حالة انتحار في أوساط الجنود الأمريكيين حتى أواخر العام ٢٠٠٤[٣٣]. ووفقاً للكاتب الفلسطيني الخبير في شؤون الشرق الأوسط سعيد أبو ريش، فقد شاعت باستمرار روايات عن جنود أمريكيين انشقوا عن القوات وفرّوا إلى تركيا.

ولعل الجانب الأهم والأشد خطورة للفشل الأمريكي في العراق هو ما سلط عليه الضوء تقرير لشاتهام هاوس Chatham House (سابقاً المعهد الملكي للشؤون الدولية) نُشر في ١٨ تموز / يوليو العام ٢٠٠٥. فقد أشار خبراء الأمن الدولي إلى أن الوضع في العراق وفّر «زخماً لشبكة القاعدة على مستوى الدعاية والتعبئة وجمع التبرعات، وسبب انقساماً كبيراً في صفوف قوات التحالف، وشكّل منطقة نموذجية لأهداف الإرهابيين المرتبطين بالقاعدة كما لتدريبهم».

المستقبل

في ما يتعلق بالولايات المتحدة، تحوّلت حرب الخليج الثانية إلى حرب استنزاف

(٣٣) في تقرير نشرته صحيفة أوبسيرفر Observer، تنبأ فريق طبي رفيع المستوى في القوات الأمريكية بأن يعاني جندي واحد من أصل خمسة من الجنود العائدين بتوتر ما بعد الصدمة. وفي ظل وجود ١٥٠ ألف جندي أمريكي منتشرين حالياً في العراق، يعني ذلك أن ٣٠ ألفاً منهم سيعانون أضراراً نفسياً نتيجة تجربتهم القتالية (شارك ما نسبته ٨٦ في المئة من الجنود الأمريكيين الموجودين في العراق في معارك فعلية، في مقابل ٣١ في المئة فقط في أفغانستان. راجع بيتر بومونت Peter Beaumont، «وباء التوتر يجتاح القوات الأمريكية في العراق» Stress Epidemic Strikes Amerian Forces in Iraq، صحيفة ذي أوبسيرفر، ٢٥ كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٤).

كلّفت حتى الآن ٢٥٠ مليار دولار أمريكي، من المتوقع أن ترتفع هذه الكلفة إلى ٧٠٠ مليار خلال بضع سنوات إن استمرت الحرب. وبما أن العجز في الموازنة الفدرالية يبلغ نحو ٥٠٠ مليار دولار، فهذا يدل على أن الاقتصاد الأمريكي في ورطة. وفي هذا الإطار، يقول الضابط السابق في دائرة مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية مايكل شوير Michael Scheuer «لا يحتاج أسامة (الشيخ بن لادن) إلى الفوزر في الحرب، فهو سيجعلنا فقط ننزف حتي الموت»[٣٤]. هذا فضلاً عن عدد الضحايا المتزايد في صفوف الجنود الأمريكيين.

بدأ الحديث أخيراً عن انسحاب أمريكي يُنفّذ على مراحل. وقد كتب القائد السابق لوكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية جون دوتش John Deutch مقالاً جريئاً في صحيفة نيويورك تايمز The New York Times أعلن فيه دعمه مثل هذه الخطوة. وجاء في المقال: «ينبغي لأولئك الذين يقولون إن علينا أن نتحمّل حتى نهاية الحرب... أن يفكروا في احتمال أن نفشل في تحقيق أهدافنا في العراق ونعاني في سياق ذلك خسارة كبرى على مستوى صدقيتنا». ويضيف دوتش: «إن تأثير الثوّار المقوّض لا يتضاءل»، موصياً بأن يُسمح للعراق «بأن يتطور في جو السلم ومن دون تدخل خارجي».

في أيار / مايو العام ٢٠٠٥، نشرت صحيفة «واشنطن بوست» Washington Post تقريراً عن خطط البنتاغون في ما يتعلق بأربع قواعد جويّة كبرى هي طليل في الجنوب، والأسد في الغرب، وبلد في الوسط، وإربيل أو القيارة في الشمال. وبحسب الصحيفة، من المفترض أن يوفِّر كل من هذه المراكز الاستراتيجية المحصنة الدعم لكتيبة قتالية، فضلاً عن عاملين آخرين في مجال الطيران والدعم. هذا وأُفيد في كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٥ بأن البنتاغون يبني نظام اتصالات عسكرية دائمة في العراق[٣٥]. ولا شك في أن هذه المعلومات كلها تثير شكوكاً مهمة في احتمال أي انسحاب كامل للقوات الأمريكية في المستقبل القريب.

(٣٤) جايمس ستيرنغولد James Sterngold، «إصابة حرب: الاقتصاد الأمريكي» Casualty of War: the US Economy، صحيفة سان فرانسيسكو كرونيكل The San Fransisco Chronicle، ١٦ تموز / يوليو العام ٢٠٠٥.
(٣٥) راجع www.globalsecurity.org

إذا فكرت الولايات المتحدة أن تسحب قواتها وبدأ العراقيون بتنظيم شؤونهم الإدارية الخاصة، فإن المجموعات الجهادية ستخسر إذ ذاك ذريعة القتل والإعطاب اللذين طُبعت عليهما. وبالتالي، فإن العراق الموحّد سيترك هذه المجموعات كما تُركت في البوسنة، أي من دون أي دور تضطلع به في الدولة الناشئة.

في هذه الحالة، من المحتمل أن يعود العديد من الجهاديين المدرّبين جيداً والمصقولين بالخبرة في العراق، إلى ديارهم ليبدأوا بشن الحروب على حكوماتهم. فهذا ما حدث بعد الحرب الأفغانية، مما أعاد تأجيج النزاعات وهدد بتقويض الأنظمة الفاسدة والديكتاتورية في الجزائر ومصر والمملكة العربية السعودية. ولا شك في أن المجاهدين العائدين من العراق سيحظون بدعم شعبي هائل في أوطانهم، خصوصاً أن العديد من العرب يعتبر القتال ضد القوات الأمريكية في العراق مشروعاً.

والواقع أن لدى المملكة العربية السعودية على وجه الخصوص الكثير لتخشاه من عودة أبنائها الجهاديين من العراق. فالتهديد الإرهابي الذي تتعرض له المملكة قد تسبب أصلاً بارتفاع حادّ في أسعار المواد الخام، أضف أن عمليات التخريب المستمرة التي يشنّها الثوّار في العراق على خطوط أنابيب النفط والخزانات قد جعلت الأسعار ترتفع إلى مستويات غير مسبوقة. وقد صرّح جورج بوش في أيار / مايو العام ٢٠٠٥ بأن الولايات المتحدة تواجه حاجة ماسّة إلى إيجاد مصادر بديلة للطاقة، قائلاً: «اعتمادنا على النفط الأجنبي أشبه بضريبة أجنبية على الحلم الأمريكي»[٣٦].

وإن استمر الاحتلال قائماً، فستستمر المقاومة المنظمة عالمياً بالتكاثر والنمو. والواقع أن التدخّل العسكري في العراق وأفغانستان من جانب الولايات المتحدة وحلفائها قد خلّف انعكاسات عالمية بلغت قوّتها حداً غير مسبوق. فتفجيرات مدريد ولندن كانت رداً مباشراً على الدعم العسكري الذي قدّمته الحكومتان الإسبانية والبريطانية للقوات الأمريكية في ما يتعلق باحتلال العراق. وكانت القاعدة قد هددت بتنفيذ هذه الهجمات

(٣٦) http://www.whitehouse.gov/news/releases/2005/05/images/22050516-webp44882-165-515.html

قبل أن تقدم فعلياً على ذلك. ولا شك في أن النهج العملي التي تعتمده القاعدة يتميز بفاعلية صلبة تُعتبر جديدة تماماً بالنسبة إلى «مجموعات الإرهاب».

أضف أن الظاهرة التي تجلّت في لندن عبر شبان جهاديين من السكان المحليين المهيَّئين للقتل تشكل نوعاً جديداً من الرعب يصعب على الغرب تقبّله. أما الدعم المستمر الذي تقدّمه أي حكومة للاحتلال الأمريكي، فلن يحقق أكثر من تعزيز الإحساس بالقمع والاستياء والكره الذي يولّد مثل هذا العنف المتطرف.

الواقع أن الولايات المتحدة جعلت من العراق ميدان تدريب مثالياً للقاعدة ولأي مجموعة جهادية أخرى أو فرد. والعراق يزخر بالأسلحة والأموال والرفاق والمدرّبين. عدا أن المجاهدين العرب لا يواجهون في العراق حاجز اللغة كما كانت الحال عليه في أفغانستان حيث الشعب يتكلم لغة الباشتو، ولا يعانون أيضاً وجود فروق ثقافية فعلية. وتماماً كما أثبتت حركة طالبان أنها مضيف متعاطف مع القاعدة، يوفّر المواطنون العراقيون للثوّار المأوى والمال والعتاد الحربي. ولولا هذه الحماية، لما استطاع الثوّار أن يفلتوا من قبضة قوى الأمن أو يبقوا على قيد الحياة.

هذا وقد أمّنت الولايات المتحدة للقاعدة والمجموعات الجهادية الأخرى مجموعة جديدة من الحلفاء الذين انضموا إلى الجهاديين في حربهم ضد عدو مشترك. فالمزيج الجديد والمميت من الإسلاميين والقوميين العرب الذي نشهده حالياً في العراق قد يخلّف انعكاسات خطيرة على المنطقة بأسرها.

ولعل الأمر الأقرب إلى الحدوث نتيجة الوضع الحالي في العراق هو الانحدار إلى حرب طائفية دموية يقاتل فيها السُنَّة الأكثرية الشيعية. وقد علمتُ من مصادر مقربة من القاعدة أن هذا ما يسعى إليه واضعو الاستراتيجيات لدى القاعدة والزرقاوي. فالقاعدة لا تكتفي بأن تعتبر الشيعة كفاراً، بل تحمّلهم أيضاً مسؤولية التعاون مع القوات المحتلة. وفي الوقت الحالي، تسود حالة من الهدنة المضطربة بين الجهاديين السُنَّة وجيش المهدي التابع لمقتدى الصدر. وفي حين أن معظم أتباع الصدر من العرب الذين لا تربطهم أي علاقة بإيران، تتكوّن مجموعتا آية الله السيستاني وعبد العزيز الحكيم بالإجمال من شيعة

فارسيين يحظون بدعم إيراني. وفي الخامس والعشرين من آب / أغسطس العام ٢٠٠٥، اصطدم جيش المهدي بكتائب بدر التابعة لعبد العزيز الحكيم فدارت بين الطرفين اشتباكات عنيفة أوقعت قتيلاً وثلاثة عشر جريحاً. ولا شك في أن الزرقاوي كان يعتمد استراتيجيا تهدف إلى تعزيز الانشقاقات بين الشيعة على أساس السلالات الإثنية كي يسهل عليه في مرحلة لاحقة التفوق عليهم.

وبما أن السُنَّة يشكّلون أقلية في العراق، فإن القاعدة تعتقد أن الحرب الطائفية من شأنها أن توسّع دائرة الجهاد في المنطقة عبر استقدام مجاهدين من الدول المجاورة لمساعدتها، فالسُنَّة يشكلون أكثرية في تركيا والمملكة العربية السعودية وسوريا والأردن. وأعتقد أن القاعدة سترحب أيضاً بتدخل أمريكي عسكري في سوريا، خصوصاً أن انتقال الجهاد إلى الأراضي السورية سيجعل المجاهدين أقرب إلى عدوّهم الأكبر الآخر، أي إسرائيل.

ولعل ما يثير السخرية أن إيران، العدو الاستراتيجي للولايات المتحدة منذ زمن بعيد، هي التي أفادت أكثر من غيرها من السياسة الخارجية الأمريكية ومغامرات الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان. ففي أفغانستان، قضت الولايات المتحدة على حكم العدو الديني لإيران الشيعية، أي حكم طالبان (السُنّي). أما في العراق، فتخلّص الأمريكيون من العدو العلماني لإيران صدّام حسين. أضف أن الإيرانيين استغلّوا التورّط العسكري الأمريكي في العراق ليطوّروا قدراتهم العسكرية والنووية فيما كان الجميع مشغولين عنهم؛ وإذا بهم يظهرون كفوة عظمى في المنطقة. والواقع أن إيران حققت هذين الانتصارين الرئيسين من دون أن تطلق رصاصة واحدة أو تخسر جندياً واحداً.

من الواضح أن الولايات المتحدة قدّمت العراق إلى إيران على طبق من فضّة. فالرئيس العراقي طالباني كان حليفاً موثوقاً به لإيران في خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية، كما أن رئيس الوزراء والعديد من الوزراء في الحكومة العراقية الجديدة تلقوا التدريب والتمويل من الحرس الثوري الإيراني، ومن رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق آية الله عبد العزيز الحكيم الذي كانت كتائب بدر التابعة له متمركزة في إيران قبل

الغزو الأمريكي. كذلك وُلد آية الله السيستاني، القوة المحركة للمسار السياسي الأمريكي في العراق، في إيران. ولا شك في أن هذه العوامل كلها تطرح إشكالية كبيرة بالنسب إلى الولايات المتحدة. ولا بد بالتالي من أن يؤخذ التأثير الإيراني البالغ في العراق، وبالطبع نظام الحكم الذي تؤيّده الولايات المتحدة، في الاعتبار إنْ قررت هي أو إسرائيل تعطيل البرنامج النووي الإيراني بالسبل العسكرية.

وبغض النظر عمّا يحمله المستقبل، يبقى الأمر المؤكد هو أن غزو العراق ضمن للقاعدة القويّة والمدعومة والمعززة، الملجأ الآمن والميدان التدريبي اللذين كانت بحاجة ماسة إليهما، كما ساهم بتنشيط عشرات الآلاف الجهاديين، والجهاديين المحتملين في جميع أنحاء العالم القادرين على القيام بعمليات عنيفة ووحشية ومدمّرة كتلك التي شهدناها واستنكرناها في نيويورك ومدريد ولندن وغيرها.

ها قد انقضت ثلاثة أعوام منذ أعلن الرئيس بوش انتهاء العمليات الحربية فيما العراق يجد نفسه اليوم على شفير حرب أهلية. والواقع أن الراحل أبا مصعب الزرقاوي اضطلع بدور مهم على صعيد تأجيج الصراع الطائفي الدموي الذي نشأ بين السُنَّة والشيعة، وازداد حدّة منذ تفجير المسجد الذهبي في سامراء في شباط / فبراير العام ٢٠٠٦، وذلك كجزء من خطته المنشودة. ويبدو أن هذا الصراع قد أصبح أكثر دموية منذ وفاته. أضف أن هذا الصراع من الممكن أن يمتد إلى جميع أنحاء المنطقة إذا ما تورطت فيه دول أخرى مثل إيران والمملكة العربية السعودية ومصر وسوريا والأردن.

والجدير ذكره أن المساعي المشتركة التي تبذلها الإدارتان الأمريكية والبريطانية بالتعاون مع حلفائهما في العراق لم تنجح في جعل حكومة الاتحاد الوطني التي أثيرت حولها ضجّة كبيرة تنطلق كمحرّك سياسي ناشط فعلياً بعد مرور ستة أشهر منذ إجراء الانتخابات البرلمانية في كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٥. فمجموعات سُنِّية عدّة لا تزال تصرّ على ألا تكون جزءاً من المسار السياسي الذي تقوده الولايات المتحدة في العراق، في حين أن المناصب في الحكومة السابقة مُلئت في مرحلة متأخرة في حزيران / يونيو العام ٢٠٠٦ بسبب الصراع الخفي والشجارات الصاخبة في أوساط الائتلاف الشيعي.

في نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦، اقتنع أخيراً إبراهيم الجعفري بأن يخلي منصبه لرئيس الوزراء نوري المالكي. لكن هذه الخطوة ليست تغييراً ذا شأن، خصوصاً أن الرجلين عضوان في المجموعة الشيعية الأصولية «حزب الدعوة»، وكلاهما أمضى الجزء الأعظم من حياته الراشدة في إيران. والواقع أن العلاقة الوثيقة بين الشخصيات الرئيسة في حكومة الاتحاد الوطني وإيران تضع الولايات المتحدة في مواجهة معضلة جديدة غير متوقعة في ضوء الأزمة النووية التي طرأت أخيراً في إيران. ففي حين أملت الولايات المتحدة في مرحلة ما، استخدام عراق خاضع كمنصة للانقضاض على إيران، ها هي اليوم تجد قواتها المؤلفة من ١٤٠ ألف جندي رهينة لدى الإيرانيين من جهة، ولدى الميليشيا المدعومة من إيران (وفي تحول جديد، انضم إلى هذه الميليشيا جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر) داخل العراق من جهة أخرى. ويبدو جلياً أن الإيرانيين يشنّون حرب استنزاف على الحلفاء داخل العراق. فالبصرة قد تحولت للمرة الأولى إلى منطقة متفجّرة، والجنود البريطانيون قُتلوا على أيدي ميليشيا شيعية تستخدم متفجرات إيرانية الصنع. وبعد أن أنفقت الإدارتان الأمريكية والبريطانية مليارات الدولارات على الحرس الوطني وقوى الأمن، ها هما تكتشفان أنهما درّبتا وسلحتا أفراداً في الميليشيا الشيعية يقتلون بأسلحتهم ومتفجراتهم الجنود الحلفاء. وبالتالي، فإن غزو العراق يتطوّر إلى وضع بدأ يفرز نتائج معاكسة للاستراتيجيا الأمريكية للمنطقة.

وفيما تتحد الميليشيات الشيعية في الحرب على القوات الحليفة، يبدو أنها متورّطة أيضاً في التقاتل في ما بينها بغية السيطرة على تجارة تهريب النفط الجديدة والرابحة جداً. فبقاء العراق الدولة الوحيدة في العالم التي لم يتم قياس حقول النفط فيها يسّهل سرقة براميل لا عدّ لها من النفط. الواقع أن البلاد تعيش حالة فوضى شاملة.

وعلى الرغم من أن مقتل أبي مصعب الزرقاوي في أوائل حزيران / يونيو العام ٢٠٠٦ شكّل نصراً لأجهزة الأمن في العراق، فإن مصادر عدة أعلمتنا منذ ذلك الحين بأن قيادة تنظيم القاعدة شعرت بالراحة لإزالته من الساحة، خصوصاً أنه كان قد تحوّل إلى رجل يصعب التكهّن بما يضمره. ويُقال إن أيمن الظواهري والشيخ بن لادن أبديا استياءهما

البالغ من الهجوم الذي حثّ عليه الزرقاوي ضد فنادق تابعة لجهات غربية في الأردن في ٩ تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٥. ففي الهجوم على فندق راديسون، كان معظم الضحايا مواطنين أردنيين يشاركون في حفل زفاف. وقد أساءت هذه الاعتداءات الوحشية إلى سمعة القاعدة ومكانتها في تلك البلاد.

والجدير ذكره أن الشريط المصوّر الذي نشره الزرقاوي عن نفسه في الخامس والعشرين من نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦م لم يظهر أيّاً من التدابير الاحترازية التي كان يعتمدها قادة آخرون في القاعدة حريصون على أمنهم الشخصي، مما يوحي أنه كان يعمل بشكل مستقل ولا يتلقى النصائح المناسبة ـ وربما في ذلك مغزى ما. فقد ظهر الزرقاوي كرامبو العرب يتلهّى بمدافع رشاشة في موقع صحراوي فتعرّفت إليه بسهولة أجهزة الاستخبارات الأمريكية بما لديها من تطور تكنولوجي. وبعد أقل من ستة أسابيع، قُتل في غارة أمريكية على مخبئه.

لكن مقتل الزرقاوي لم يوهن المقاومة، بل إن العراق يتخبط في مزيد من العنف لم يشهد له مثيلاً. وأنا أتوقع أن يتعزز حضور القاعدة في العراق وتزداد نشاطاً الآن وقد رحل الزرقاوي إلى غير رجعة. فافتراضه بأنه ينطق باسم الشعب العراقي أثار نفور العديد من المجندين المحليين المحتملين، وهي مشكلة لم تُحل بتعيين أبي حمزة المهاجر المصري الجنسية. وكان هذا الأخير، على غرار الظواهري، عنصراً فاعلاً في الجهاد الإسلامي في مصر قبل انضمامه إلى القاعدة. وأنا أتوقع، كما العديد من المعلقين، تعيين العراقي عبد الله بن رشيد البغدادي قائداً إقليمياً جديداً.

الفصل السابع

القاعدة في أوروبا

«في أي دين يُعتبر موتاكم أبرياء وموتانا عديمي القيمة؟ بأي منطق يُعتبر دمكم حقيقياً ودمنا مجرد ماء؟ المعاملة بالمثل جزء من العدالة والبادي بالظلم أظلم» الشيخ أسامة بن لادن، إلى شعوب أوروبا، ١٥ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٤، قناة «الجزيرة» وقناة «العربية».

أظهرت تفجيرات مدريد في ١١ آذار / مارس العام ٢٠٠٤، وتفجيرات لندن في السابع من تموز / يوليو العام ٢٠٠٥، واغتيال مخرج الأفلام الهولندي تيو فان غوخ Theo Van Gogh، والاحتجاجات العنيفة على الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية التي استهدفت النبيّ محمد (ص) ونُشرت للمرة الأولى في أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠٥ في صحيفة «جيلاندز بوستن» Jyllands Posten، فضلاً عن طائفة من تحركات لم تحظَ بتغطية واسعة النطاق قام بها مناضلون إسلاميون على الأراضي الأوروبية، أن الجهاد لم يعد معركة تُخاض في أنحاء نائية من العالم. فبعد أن كانت أوروبا تشاهد المعركة من خطوط التماس، ها هي تجد نفسها الآن هدفاً رئيساً وساحة قتال ثانية لحرب القاعدة مع الولايات المتحدة وحلفائها.

وتماماً كما أنتجت الحروب في أفغانستان والبوسنة موجتين من المجاهدين العائدين الذين زادتهم المعارك عزيمة وصلابة، ووجد العديد منهم ملاذاً له في أوروبا، تفرز حرب العراق اليوم موجة ثالثة من الجهاديين الذين يكرّسون حياتهم وجهودهم لنشر رسالتهم الدينية وطموحاتهم العسكرية في أوروبا. لكن في حين لم ينظر العرب الأفغان الذين كانوا

يبحثون عن ملجأ يؤويهم في أوائل تسعينيات القرن العشرين، إلى الولايات المتحدة وأوروبا كعدّوهم المشروع، هذا ما يفعله حتماً أولئك العائدون من العراق. فضلاً عن ذلك، ظهرت موجة ثنائية الاتجاه - شجّعها أبو مصعب الزرقاوي، لا بل أشرف عليها في بعض الأحيان - قوامها مجاهدون راحوا يتدفقون من أوروبا إلى العراق وبالعكس.

ويبدو جلياً في بعض الدول الأوروبية، وخصوصاً في إيطاليا، أن وجود «السيّاح الجهاديين» يشهد ازدياداً ملحوظاً. ويتكوّن هؤلاء السيّاح من مسلمين (من شمال إفريقيا في العادة) يصلون إلى المدن الأوروبية من أجل التقدّم بطلبات إقامة لكنهم يسعون إلى تجنيد متطوعين وإنشاء خلايا إما للمشاركة في نزاعاتهم المحلية، وإما لتنفيذ هجمات محتملة في أوروبا.

هذا وقد أفرزت الحرب في العراق ظاهرة جديدة تمثّلت بجهاديين محليين مستعدين لمهاجمة بلدانهم. ويذكر أن هؤلاء الجهاديين يشكّلون الجيلين الثاني والثالث من المهاجرين المسلمين الساخطين الذين يشعرون بالذلّ جراء اعتبارهم ينتمون إلى طبقة اجتماعية من الدرجة الثانية - وهو أمر رضي به جيل آبائهم الأكثر ميلاً إلى الخضوع. ومعروف أن غضب هؤلاء يزداد استعاراً لرؤيتهم تقارير متلاحقة، في الصحف وعلى شبكة الإنترنت، تصوّر الانتهاكات التي تُرتكب ضد أخوانهم المسلمين، فضلاً عن اختبارهم الشخصي للتمييز العنصري ورهاب الإسلام. ولا شك في أن شعور مسلمي أوروبا البالغ عددهم ٣٢ مليوناً بأنهم موضع تدقيق وارتياب ستكون له انعكاسات خطيرة ستعزز الميل إلى الإسلام القتالي ويوسّع من دائرته.

أضف أن أوروبا باتت ميداناً لشكل جديد من أشكال الجهاد أطلق عليه الشيخ بن لادن في بيانه الصوتي المسجّل في ٢٣ نيسان / إبريل ٢٠٠٦ اسم «المعركة الثقافية الأخلاقية». وقد تجلى هذا الجهاد على وجه الخصوص في أعمال الشغب التي أعقبت نشر رسوم كاريكاتورية في الدانمارك تسخر من النبيّ محمّد (ص)، وقتل صانع الأفلام «المجدّف» تيو فان غوخ، والخلاف على مسألة الحجاب في فرنسا[1].

(١) في أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠٤، أصدرت الحكومة الفرنسية قراراً يحظر على الطالبات ارتداء الحجاب في المدارس.

الجدير ذكره أن وجود القاعدة في أوروبا متنوّع ومراوغ، حتى إنه كثيراً ما يتجلى عبر مجموعات إسلامية أخرى تتشارك في جدول الأعمال نفسه، أو عبر خلايا نشأت بشكل ذاتي مستقل بعد أن وجدت التحفيز المطلوب عبر شبكة الإنترنت التي أكسبتها أيضاً الخبرة وزوّدتها بقنوات الاتصال. أما عصر مجنّدي المجاهدين السابقين المتمرسين الذين يبنون شبكات من الخلايا ويتزعّمونها، فقد ولّى إلى غير رجعة. ولا شك في أن هذا التمثيل يصعّب على أجهزة الاستخبارات مهمات تعقب حيثيات الخلايا الجهادية الجديدة وأنشطتها، ويوفّر للقاعدة ظروفاً مثالية للازدهار.

الإسلام في أوروبا ـ الارتباط التاريخي

اضطلع الإسلام منذ القرن الثامن بدور بالغ الأهمية في التاريخ الأوروبي، أولاً في إسبانيا ولاحقاً في البلقان.

في العام ٧١١ اجتاحت جيوش المسلمين الآتية من جميع أنحاء العالم العربي شمال إفريقيا وغزت الجزء الأكبر من شبه الجزيرة الإيبيرية حيث أرست الحكم الأموي الأندلسي من العام ٧٥٦ إلى العام ١٠٣١ وجعلت من قرطبة عاصمة لها. الواقع أن مرحلة الخلافة التي أسّسها عبد الرحمن الثالث في العام ٩٢٩ واستمرت إلى أن قضت عليها الحرب الأهلية في العام ١٠١٣ تُعتبر من وجهة نظر الكثيرين، «العصر الذهبي» للأندلس، علماً بأن المسيحيين لم ينجحوا في النهاية في إزاحة الغزاة المسلمين إلا في العام ١٤٩٢.

ولا يزال السيّاح المعاصرون يتوافدون إلى الحمراء الرائعة في غرناطة وإلى مراكز الآثار الأخرى التي تجسّد العظمة الإسلامية الغابرة ولا تزال تحمل أسماء عربية الأصل («أندلوسيا» Andalusia مشتقة من الأندلس، وهي الكلمة التي يستخدمها العرب في الإشارة إلى شعب الفاندال الذي هزموه في الغزو الأول).

ومعروف أن إسبانيا المسلمة شكلت منارة حضارية لجميع أنحاء أوروبا الأخرى. فقد تميّزت قرطبة ـ مركز الخلافة ـ بشوارعها المعبّدة والمضاءة وبمكتباتها التي كانت موضع

فخر واعتزاز، خصوصاً أنها ضمّت أكثر من ٧٠ مكتبة قبل ٤٠٠ عام من دخول صناعة الورق إلى الأنحاء الأخرى في أوروبا. فضلاً عن ذلك، كان الطلاب من العالمين العربي والأوروبي يتوافدون إليها لمتابعة تحصيلهم العلمي.

أضف أن التطورات التي حققتها الأندلس الإسلامية في حقول الطب وعلم الفلك والرياضيات والجبر والقانون والتاريخ وعلم الصيدلة، أنتجت إرثاً غزيراً أفادت منه أوروبا على مدى القرون اللاحقة. أما بساتين البرتقال والليمون التي تميّز الأندلس اليوم، فاستُوردت من الشرق الأوسط، على غرار تقنيات الريّ التي سمحت بازدهار تلك البساتين.

البلقان

استمرت الإمبراطورية العثمانية سبعة قرون، وتحديداً من العام ١٢٩٩ إلى العام ١٩٢٢. ومنذ العام ١٥١٧، أصبح السلطان العثماني أيضاً خليفة المسلمين، واعتُبرت الإمبراطورية العثمانية مرادفاً للخلافة، أو للدولة الإسلامية، التي يرغب أنصار أيديولوجيا القاعدة في إعادة إرسائها.

الواقع أن التوسّع السريع الذي بدأ يتحقّق منذ العام ١٤٥٣ أخضع جزءاً كبيراً من جنوب شرقي أوروبا وأوسطها للسيطرة العثمانية إلى أن كانت المعركة الحاسمة في فيينا في العام ١٦٨٣ وقد أسفرت عن هزيمة جيوش الإمبراطورية أمام القوات المشتركة للجيش البولندي وجيش هابسبورغ. لكن الإمبراطورية العثمانية ظلت قوة عالمية رئيسة إلى أن مهّد اتفاق سايكس-بيكو في العام ١٩١٦ الطريق للفرنسيين والبريطانيين ليتقاسموا الإمبراطورية عقب الحرب العالمية الأولى.

ولا بد من الإشارة إلى أن النفوذ العثماني استمر على وجه الخصوص في البلقان، بل إن العثمانيين لم يخسروا موطىء قدمهم في تلك البلاد إلا في العام ١٩١٢ عندما اتحدت الصرب ومونتينيغرو واليونان وبلغاريا من أجل طرد جيوش الإمبراطورية المتقوّضة.

في أيامنا هذه، يشكّل المسلمون ٦٠ في المئة من سكان ألبانيا، و٤٠ في المئة من سكان البوسنة والهرسك، و٣٠ في المئة من سكان مقدونيا.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الخلفية التاريخية تساعد على إيضاح الدلالة المهمة لإسبانيا والبلقان في الرؤية الشاملة للقاعدة. فالبلاد التي كانت في الماضي جزءاً من دار الإسلام تُعتبر أرضاً إسلامية إلى الأبد.

ما بعد أفغانستان ـ الهجرة الجهادية الأولى إلى أوروبا

عجز العديد من قدامى المحاربين الأفغان، المقدّر عددهم بما بين ١٥ و٢٠ ألف مجاهد، عن العودة إلى أوطانهم في العام ١٩٩٢ (عندما طُرد نجيب الله)، لأنهم كانوا سيتعرضون للإعدام أوالسجن بتهمة الإرهاب. ولم يبقَ أمام هؤلاء الرجال سوى ثلاثة خيارات، فإما أن يواصلوا الجهاد في المناطق التي تشهد نزاعات، مثل البوسنة أو الشيشان، وإما أن ينضموا إلى الشيخ أسامة بن لادن الذي استقر في السودان حيث نعم بالأمان من العام ١٩٩٢ إلى العام ١٩٩٦، أو أن يبحثوا عن ملجأ لهم في الغرب.

آنذاك، كان الشيخ أسامة بن لادن يعارض بشدة الإسلاميين الذين يبحثون عن ملجأ سياسي في الغرب، حتى إنه أخبرني بأنه هو شخصياً «يؤثر الموت على العيش في دولة أوروبية». أضف أنه كان يشارك د. أيمن الظواهري في خشيته من أن يصبح أولاد المجاهدين «أوروبيين»، الأمر الذي دفعه إلى إصدار فتوى تحظّر الاستقرار في بلد «كافر»(٢). ولم يتم التغلب على هذه المشكلة إلا عندما عمد مفتي الجهاد الدكتور الإمام عبد الخضر بن عبد العزيز إلى إصدار فتاوى فردية تسمح للأشخاص «بالذهاب إلى أوروبا والعيش بين الملحدين بشكل موقّت إلى أن يتم تأسيس دولة إسلامية تطبق أحكام الشريعة عن حق فينتقلوا إليها». واللافت أنه لم يرَ في السودان مثل هذه الدولة.

وإذ ذاك، انتشر آلاف العرب الأفغان في دول أوروبا الغربية في النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين، مستفيدين بذلك من السياسات الليبرالية للهجرة واللجوء

(٢) مقابلة للمؤلف مع مدير مركز المقرزي للدراسات التاريخية هاني السبع، لندن، نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦.

التي اعتمدتها دول أوروبية عدة عقب الحرب العالمية الثانية ومسار تعطيل الاستعمار. ويبدو أن أكثر هذه الدول ليبرالية وترحيباً بالوافدين كانت بريطانيا التي جعلت من لندن مغنطيساً جاذباً لمختلف الجهاديين والإسلاميين المتطرفين القادرين على المضي قدماً في نشاطاتهم من دون أي عائق.

وكان د. أيمن الظواهري قد أرسى علاقات وطيدة مع بعض الجهات في أوروبا توثّقت على مدى الرحلات المتعددة التي قام بها في أواخر الثمانينيات عندما أحضر مجاهدين جرحى من أفغانستان لتلقي العلاج تحديداً في النمسا وألمانيا. وفي هذه الزيارات، عكف د. أيمن الظواهري على إلقاء الخطب في المساجد الأوروبية. كذلك اختار ٥٠١٢ قائداً للقاعدة، وفي عدادهم الشيخ بن لادن، السفر إلى أوروبا في خلال ثمانينيات القرن العشرين بحثاً عن الدعم للمساعي الجهادية.

وقد أثبتت هذه العلاقات الأوروبية فاعليتها في مرحلة الجهاد الأفغاني من خلال إرسال المؤن والمعدات إلى المجاهدين. ولا أعتقد أن قيادة تنظيم القاعدة كانت في ذلك الحين تسعى وراء طموحات في أوروبا تتجاوز هذا الدعم، أو حتى تعتمد استراتيجيا تهدف إلى إنشاء «شبكة» من الخلايا الجهادية في جميع أنحاء أوروبا كما يزعم البعض. فأنا أرى أن هذه الشبكة تطوّرت بشكل رئيس نتيجة الانتشار العفوي للعرب الأفغان في أوروبا خلال التسعينيات، وأيضاً نتيجة تطور حركات إسلامية أخرى، مثل المجموعة السلفية الجزائرية للتبشير والجهاد، والجماعة الإسلامية المغربية المقاتلة، التي أصبحت ناشطة في أوروبا ووطّدت لاحقاً علاقاتها بالقاعدة.

البوسنة ـ محطة ربط بين الشرق والغرب توقّف فيها الجهاديون؛ الموجة الثانية:

شهدت البوسنة حضوراً قوياً للإسلاميين المتطرفين، وهو أمر ستكابد أوروبا أعباء تبعاته في خلال العقود المقبلة، خصوصاً أن النشاط الإرهابي في أوروبا ما كان ليتفعّل لولا وجود تلك القواعد في البوسنة.

حديث لسلوبدان ميلوسيفيتش Slobodan Milosevic في سياق محاكمته، لاهاي، ٣ شباط / فبراير العام ٢٠٠٦.

فيما كان المجاهدون يغادرون أفغانستان، ارتفعت من البوسنة أصداء نداء جديد إلى الجهاد شكل خياراً آخر للعرب الأفغان وفرصة للمتطوعين الجدد في أوروبا للانغماس في القتال.

حصدت الحرب الأهلية التي اندلعت في البوسنة بين العام ١٩٩٢ والعام ١٩٩٥ ما بين ٢٥٠ و٣٠٠ ألف ضحية. وإذ كانت الإبادة الجماعية العنوان الرئيس لهذه الحرب، شكلت النزاع الأكثر دموية في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية. والواقع أن معظم الضحايا أو النازحين كانوا من مسلمي البوسنة. وإذ ذاك، تدفّق نحو خمسة آلاف مجاهد إلى البوسنة للمساعدة(٣).

مقارنة بأفغانستان، شكلت البوسنة مكاناً سهُل على الجهاديين الأوروبيين دخوله. وبما أن البوسنة تقع جغرافياً بين الشرق الأوسط وأوروبا، شكلت هذه البلاد منصة مثالية لتوسع أيديولوجيا القاعدة وامتداداتها باتجاه الغرب.

وفي البوسنة، اختلط العرب الأفغان الذين زادتهم الحرب صلابة بالمجنّدين الجدد في أوروبا الغربية وقاتلوا إلى جانبهم، فكوّن هذا الواقع عاملاً رئيساً في التوسع الشامل للجهاد، ولا سيّما في أوروبا. ففي هذه القارة، لم يكتف المجاهدون من حملة جوازات السفر الأوروبية بتوثيق علاقاتهم بعضهم ببعض، بل وطدوا أيضاً علاقتهم بالقيادة المركزية في تنظيم القاعدة. وكان د. أيمن الظواهري مسؤولاً عن عمليات القاعدة في البوسنة في العام ١٩٩٣. ويبدو أن الشيخ أسامة بن لادن نفسه زار معسكرات المجاهدين في البوسنة ثلاث مرات بين العامين ١٩٩٤(٤) و١٩٩٦، حتى إنه في العام ١٩٩٣، استحصل في فيينا على جواز سفر بوسني(٥).

---

(٣) إيفان أف كولمان Évan F. Kohlman، جهاد القاعدة في أوروبا، الشبكة البوسنية الأفغانية Al-Qa'ida's Jihad in Europe, the Afghan-Bosnian Network، بيرغ Berg للنشر، العام ٢٠٠٤.

(٤) مصادر مختلفة، وعلى وجه الخصوص الصحافية إيف ـ آن برانتيس Eve-Ann Prentice في معرض إدلائها بشهادتها في محاكمة ميلوسيفيتش في لاهاي حيث قالت إنها ورينايت فلوتيل Renate Flotel من صحيفة دير شبيغل Der Spiegel شاهدا الشيخ أسامة بن لادن في تشرين الثاني / نوفمبر العام ١٩٩٤ يدخل مكتب الرئيس البوسني السابق أليجا إيزتبيغوفيتش Alija Izetbegovice

(٥) مصادر عدة، بينها صحيفة وال ستريت The Wall Street Journal، ١ تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠١.

وعندما انتهت الحرب، استغل عدد كبير من المجاهدين منفذاً في اتفاق دايتون يسمح لهم بالبقاء في البوسنة إنْ تزوجوا نساء من السكان المحليين. وآنذاك، أُنشىء عدد من الجيوب السلفية الصغيرة في بعض القرى مثل بوسينجا دنجا Bocinja Donja التي باتت موطناً لأكثر من مئة من قدامى المحاربين. لكن هذا الأمر لم يرق كثيراً مسلمي البوسنة الذين طُبعوا على نمط الحياة الغربي، مما حال دون إرساخ روابط متينة ودائمة مع المسلمين من السكان الأصليين. فخلافاً للتجربة في أفغانستان، عرفت القاعدة في البوسنة فشلاً ذريعاً.

وإذ ذاك، غادر معظم المجاهدين البوسنة وراحوا يبحثون عن ملجأ في مكان آخر. والواقع أن الدول الأوروبية وكندا رحبّت بقدامى المحاربين البوسنيين وبالعرب الأفغان، باستثناء فرنسا التي كانت قد اختبرت الهجمات الإرهابية الجزائرية على مدى تسعينيات القرن العشرين، فرفضت منح أيّ من المجاهدين الأفغان أو الأفغان أو البوسنيين حق اللجوء.

لا بد من الإشارة إلى أن قدامى المحاربين البوسنيين الذين استقروا في الغرب سارعوا إلى فرض وجودهم وتورّطوا في العديد من المؤامرات الفعلية والفاشلة. والواقع أن اثنين على الأقل من الخاطفين الانتحاريين الذين نفّذوا عمليات ١١ أيلول / سبتمبر، هما نواف الحمزي وخالد المهدار، حاربا في البوسنة في العام ١٩٩٥، على غرار عبد العزيز المقرن الذي تولّى لاحقاً قيادة تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية (المملكة العربية السعودية).

الجالية المسلمة في أوروبا

يعيش اليوم في أوروبا ٣٢ مليون مسلم قصدها غالبيتهم عقب الحرب العالمية الثانية عندما فتنهم الوعد بإيجاد فرص عمل بأجر مرتفع لضمان «الأعجوبة الاقتصادية» في أوروبا. وإذ تحدّر جيلان من المهاجرين الأوائل، تعتبر دول أوروبية عدة اليوم أن هؤلاء العمال يشكّلون فائضاً يفوق الحاجة، مما يؤدي إلى ظهور حارات قذرة ومجتمعات مهمشة تتكوّن في غالب الأحيان من مهاجرين مسلمين عاطلين من العمل يعيشون على

هامش المجتمع الأوروبيّ، ويتورّط الشباب منهم بين حين وآخر في أعمال شغب احتجاجاً على ظروفهم المعيشية المهينة. وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء الشباب المسلم متعلم وصاحب عمل (كما هي حال قائدَي منفّذي تفجيرات لندن مدريد)، إلا أنه بقي عرضة للعزل الاجتماعي جراء التمييز العنصري أو رهاب الإسلام أو - بصورة متزايدة - نتيجة خياره الشخصي المبني على قيم أخلاقية وثقافية متضاربة. ولا شك في أن هؤلاء الشباب مهيّؤون ليجنّدهم الجيل القديم من المقاتلين الإسلاميين الذين يتكوّنون بمعظمهم من قدامى المحاربين، في النزاعات الأفغانية والبوسنية.

وقد نشر أبو مصعب السوري (الذي سنعرض تفاصيل عن سيرته الذاتية في جزء لاحق من هذا الفصل) على الموقع «الرسمي» للقاعدة المعروف باسم المقاومة الإسلامية العالمية، تقريراً عن حياته كمحارب أفغاني قديم يعيش في أوروبا منذ تسعينيات القرن العشرين. والواقع أن هذا التقرير مهم في مضمونه لأنه يبيّن كيف يمضي المجاهدون وقتهم في أوروبا ويظهر كيف أن حياتهم شهدت تغيّرات جذرية منذ تولّي طوني بلير زمام السلطة في بريطانيا في العام ١٩٩٧. وقد جاء في التقرير:

«كانت لندن مركز التواصل بين المجموعات الإسلامية والمجموعات المعارضة لحكومات بلدانها. هكذا وكنا على تواصل أيضاً مع قادة الجهاديين خارج بريطانيا. وعلى وجه الخصوص مع د. أيمن الظواهري الذي درج على الاتصال بي بشكل منتظم، فكنت أتلقى اتصالاته في كشك للهاتف في ضواحي لندن... كانت حكومة جون مايجور ذكية للغاية، فخدمت أمن بريطانيا ومصالح شعبها بقبولها الهدنة التي قصدنا بها عدم استهداف بريطانيا... شرط أن تدعنا قوى الأمن وشأننا... وعندما تبوّأ طوني بلير زمام السلطة في العام ١٩٩٧، مزّق التفاهم غير المكتوب وطعن المجاهدين في ظهورهم بتعديله للقوانين وإزعاجه لنا بشكل متكرر. وأعتقد أن هذا السلوك بين عزم طوني بلير منذ البدء على مهاجمة العالم الإسلامي تحت المظلة الأمريكية.

لا بد من الإشارة إلى أن ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وهولندا وبلجيكا والدانمارك استضافت أعداداً كبيرة من المجاهدين العائدين من الحرب. وقد شكّل هؤلاء

الجهاديون، بزيّهم الإسلامي ورواياتهم البطولية عن ميدان الحرب، نقيض نظرائهم الأوروبيين من المهاجرين، وبيّنوا للشباب المسلمين الغاضبين خضوع جيل آبائهم وضعفه.

هذا وقدّم الإسلام أيضاً الجواب عن أزمات الهوية التي اختبرها العديد من الشباب المسلمين الساخطين في أوروبا. فمفهوم الأمة - أي الأمة الإسلامية - يبطل كل سؤال عن الجنسية ويمنح المهمّشين والمحرومين الإحساس بالانتماء.

وإدراكاً لخلفيات الجيل الجديد من المجنّدين المحتملين، أُرفق شريطا الفيديو اللذان أعدهما زعيما القاعدة د. أيمن الظواهري وأبو مصعب الزرقاوي في ٢٧ و٢٤ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦ على التوالي) بنص مترجم إلى اللغة الإنكليزية. أضف أن قرار الزرقاوي تقديم نفسه على طريقة رامبو شاهراً سلاحه الرشاش يهدف إلى جذب انتباه الشباب الذي ترعرع على أفلام هوليوود.

والجدير ذكره أن معظم منفّذي هجمات ما بعد العراق على الأراضي الأوروبية مهاجرون مقيمون في أوروبا منذ زمن بعيد أو أبناء مهاجرين.

زعماء الجيل الأول من الجهاديين في أوروبا

خلال تسعينيات القرن العشرين، لا بل قبل ذلك، استقر العديد من الشخصيات الرئيسة المرتبطة بالقاعدة في أوروبا وحافظ على صلته بالقيادة المركزية. والواقع أن هجرة الجيل الأول من الجهاديين العالميين شكلت أساساً لما يكوّن اليوم شبكة معقدة ومتقنة من الخلايا الجهادية في جميع أنحاء أوروبا. وقد أدرك أبو مصعب الزرقاوي منذ زمن بعيد أهمية الشبكة الأوروبية المتنامية، حتى إنه داوم على إرسال المجاهدين من العراق إلى الغرب وبالعكس، بشكل منتظم. وفي ما يأتي إضاءة سريعة على كيفية نشوء الشبكة الأوروبية واستمرارها في التطور والتوسّع.

أبو مصعب الزرقاوي

يُعتقد أن الزرقاوي تعاون عن كثب مع أبي مصعب السوري (راجع أدناه) في تطوير شبكة الخلايا الجهادية في أنحاء أوروبا كافة، علماً بأن جهات داخلية أعلمتني بأن الرجلين ما كانا ينسجمان على المستوى الشخصي. والجدير ذكره أن القادة الأصليين للخلايا الأولى المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقاعدة خصوصاً أولئك المسؤولون عن الهجمات في البر الرئيسي لأوروبا) هم إما أردنيون (مثل الزرقاوي) وإما سوريون (مثل أبي مصعب السوري).

في أيامنا هذه، قد لا تصنّف الخلايا نفسها تابعةً لتنظيم القاعدة وربّما تنتمي إلى واحد من التنظيمات الثلاثين الأخرى الملحقة بالقاعدة، والتي تتشارك في أفكار وأهداف سياسية ودينية متشابهة. ونذكر من هذه التنظيمات على سبيل المثال المجموعة السلفية الجزائرية للتبشير والجهاد والجماعة الإسلامية المغربية المقاتلة.

عقب أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر، تشتّت أعضاء شبكة التوحيد والجهاد التابعة للزرقاوي، فتوجّه العديد منهم إلى أوروبا. وقد اعتُقل أحد عشر شخصاً منهم في ألمانيا في نيسان / إبريل العام ٢٠٠٢، وأظهرت أدلة التسجيلات الصوتية تفاصيل عن اتصال هؤلاء على نحو منتظم بالزرقاوي في إطار جمع الأسلحة وإعداد الخطط للهجوم على أهداف يهودية في برلين[٦]. ولا شك في أن الأعضاء الذين هاجروا إلى دول أوروبية أخرى ظلوا ناشطين على غرار هؤلاء الرجال الأحد عشر.

كذلك استقر المغربي عامر العزيزي، وكان أحد أعوان الزرقاوي المقربين، في إسبانيا وجنّد رجالاً من شمال إفريقيا للانضمام إلى جنود أبي دحداح في خلية الله في مدريد. وفي مرحلة لاحقة، تطورت هذه الخلية إلى مجموعة نفّذت تفجيرات قطار مدريد في آذار / مارس العام ٢٠٠٤.

وتولي شبكة القاعدة اليوم اهتماماً بالغاً بدفق المجاهدين الأوروبيين من العراق وإليه.

(٦) موقع تايمز أونلاين Times online، خلية الزرقاوي في أوروبا في السجن Al-Zarqawi's Europe cell jail، ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٥.

فإذ يعود هؤلاء المحاربون إلى أوروبا وقد تزوّدوا على الجبهات الأمامية بالتدريب والخبرة اللازمين لاستخدام المتفجرات والمشاركة في حرب الشوارع، فيكوّنون أساساً للخلايا النائمة النموذجية التابعة للقاعدة. وبفضل الاتصالات التي رُسِّخت على مدى أكثر من عقد، نجح الزرقاوي في تشجيع وتسهيل رحلات المجندين الجدد وتدريبهم.

وكشفت تقارير الاستخبارات الإيطالية للعام ٢٠٠٤ أقلّه خليتين، إحداهما في ميلانو والأخرى في فلورنسا كانتا تنشطان في مجال تجنيد الانتحاريين والمقاتلين بغية إرسالهم إلى العراق. وسلطت هذه التقارير نفسها الضوء على ارتباط خلية ميلانو بخلايا أخرى في ألمانيا وإسبانيا وهولندا[٧]. وفي العام ٢٠٠٦، نجح وزير الداخلية الإسباني في تفكيك ثلاث خلايا مرتبطة بالقاعدة واعتقال ٥٠ شخصاً (بعضهم من قدامى المحاربين العرب الأفغان) كانوا ناشطين في تجنيد المقاتلين من أجل إرسالهم إلى الزرقاوي[٨]. كذلك نشرت صحيفة إنترناشيونال هيرالد تريبيون International Herald Tribune خبراً عن تعقّب ٤٠ بريطانياً أو أكثر كانوا في طريقهم إلى المثلّث السُنِّي في العراق أيضاً بمساعدة الزرقاوي[٩].

وتتوافر في الواقع تقارير عدة مشابهة تتعلق بغالبية الدول الأوروبية. ولعل المجنّدة الأكثر إثارة للاهتمام التي استخدمها الزرقاوي هي موريال ديغوك euquageD leiruM فهذه الانتحارية الأنثى الثالثة لدى الزرقاوي فجّرت نفسها في هجوم على الشرطة العراقية بالقرب من بلدة بعقوبة. والجدير ذكره أنها كانت مواطنة بلجيكية اعتنقت دين الإسلام لدى زواجها ببلجيكي مغربي الأصل، وجنّدها زوجها من أجل العراق.

---

(٧) مؤسسة جايمستون Jamestown Foundation، تحليل الإرهاب العالمي جهاز رصد الإرهاب Terrorism Monitor، المجلد ٣، العدد ٤، ٢٤ شباط / فبراير العام ٢٠٠٥.

(٨) صحيفة نيويورك تايمز New York Times إسبانيا تعتقل قائداً مشتبهاً فيه لخلايا تجنيد الإسلاميين Spain arrests suspected leader of Islamic recruiting cells، رنويك ماكليم Renwick McClam، ٢١ كانون الثاني / يناير العام ٢٠٠٦.

(٩) صحيفة إنترناشيونال هيرالد تريبون International Herald Tribune، الجبهة الثانية للقاعدة: أوروبا Al - Qaida's second front: Europe، روبرت أس لايكن Robert S. Leiken وستيف بروك Steve Brooke، ١٥ تموز / يوليو العام ٢٠٠٥.

أبو مصعب السوري

على الرغم من أن أبا مصعب السوري اعتُقل على أيدي قوى الأمن الباكستانية في أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠٥ وسُلّم بعد بضعة أشهر إلى الولايات المتحدة للتحقيق معه، وعلى الرغم من أن مكان إقامته الحالي مجهول، فإنه يبقى منظّراً أيديولوجياً ومخططاً استراتيجياً رائداً في تنظيم القاعدة تُنشر نشاطاته على نطاق واسع في المواقع الجهادية الإلكترونية. وأعتقد أنه اضطلع بدور رئيس في تطوير الشبكة الجهادية في أوروبا وروّج لهذه الخطوة باعتبارها ضرورة استراتيجية داخل التنظيم.

أبو مصعب السوري هو السوري الفظ إلى حد ما، ذو الشعر الأحمر الذي فوجئت بمقابلته في كهوف الشيخ أسامة بن لادن في طورا بورا في العام ١٩٩٦. أما اسمه الحقيقي فهو مصطفى ست مريم ناصر. وهو يُعرف أيضاً بالاسم المستعار عمر عبد الحكيم.

وُلد أبو مصعب السوري في العام ١٩٥٨ ودرس الهندسة الميكانيكية. وفي أيام شبابه، انضم إلى مجموعة سورية مرتبطة بجماعة الأخوان المسلمين. وقد شارك في الجهاد الأفغاني وتحالف مع الشيخ أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة الناشىء. وبدءاً من العام ١٩٨٨، راح يدرّب «النخبة» من المقاتلين لمصلحة القاعدة على الاستراتيجية والمنهجية العسكريتين وعلى استخدام المتفجرات والقتال في حرب العصابات.

وعقب خلاف مع الشيخ بن لادن، انسحب أبو مصعب السوري من تنظيم القاعدة في العام ١٩٩٧ وعمل مستشاراً إعلامياً لدى زعيم جماعة طالبان الملا عمر. وما بين العامين ١٩٩٨ و٢٠٠١، أدار أبو مصعب معسكرات تدريب مستقلة في أفغانستان حيث درّب المقاتلين على المهارات الإضافية لتنفيذ هجمات بالأسلحة الكيميائية والسموم[١٠]. لكنه عاد واتحد مع قيادة القاعدة بعد سقوط طالبان كما أشار في مذكراته التي نُشرت على شبكة الإنترنت في العام ٢٠٠٥ وقال فيها تحديداً: «بايعت

---

(١٠) إيفان كولمان Evan Kohlman, www.globalterroralert.com، «أبو مصعب السوري: قنابل ملوّثة لأمة دنسة» Abu Musab al-Suri: Dirty Bombs for a Dirty Nation

الشيخ أسامة بن لادن على الجهاد ومحاربة أعدائنا في تشرين الثاني / نوفمبرالعام ٢٠٠١»[١١].

وفي المذكرات نفسها، يؤكد السوري أن العديد من المتدرّبين لديه كانوا يحملون جوازات سفر غربية. كما أنه هو نفسه أقام اتصالات أوروبية مكثفة، خصوصاً أنه استقر في لندن وباريس وإسبانيا طوال خمسة عشر عاماً. هذا وتزوّج أبو مصعب في العام ١٩٩٢ امرأة إسبانية اسمها إيلينا مورينو Elena Moreno اعتنقت الإسلام فحاز جواز سفر إسبانياً. ولا شك في أن جواز السفر الأجنبي، وأيضاً شعره الأحمر وعينيه الخضراوين وبشرته الشاحبة كلها عوامل مكنّته من السفر بسهولة في أنحاء أوروبا.

في العام ١٩٩٥، انتقل السوري إلى لندن مع إيلينا وولديهما. وفي لندن، تورّط أبو مصعب إلى حد بعيد في نشاطات الجماعة الإسلامية الجزائرية المسلحة واهتم بتحرير نشرتهم الدورية البالغة التطرف «الأنصار». ووفقاً للشرطة الفدرالية الألمانية التي اضطلعت بمسؤولية التحقيق في قضية خلية هامبورغ المتورطة في هجمات ١١ أيلول / سبتمبر. تداول السوري آلاف الدولارات التي زوّده بها رجل أعمال في هامبورغ اسمه مأمون دركزنلي. ويعتبر المحققون الألمان والإسبان على السواء دركزنلي «الممول الرئيس لبن لادن في أوروبا» والمرتبط بخاطفي الطائرات في أحداث ١١ أيلول / سبتمبر[١٢].

وإذ أحكمت جماعة طالبان سيطرتها على أفغانستان في العام ١٩٩٨، ولم تعد لندن «الملاذ» الذي كانت تشكّله في عهد حكومة جون مايجور، نقل أبو مصعب السوري عائلته إلى جلالاباد.

لا بد من الإشارة إلى أن السوري يتمتع بذكاء حاد يثير الخوف، خصوصاً أنه بات منظّراً استراتيجياً ومحللاً يحظى ببالغ الاحترام وينشر على شبكة الإنترنت مجلدات

(١١) تصريح لعمر عبد الحكيم (المعروف أيضاً باسم السوري) نُشر على الموقع الإلكتروني للمقاومة الإسلامية العالمية، آب / أغسطس العام ٢٠٠٥..

(١٢) جون كروسدون John Cresdon، تقارير تكشف عن مشتبه فيه Reports Emerge of Suspect، موقع شيكاغو تريبيون Chicago Tribune، ٢١ تموز / يوليو العام ٢٠٠٥.

ضخمة عن التجربة الجهادية والتاريخ الجهادي(١٣). ويشدد أبو مصعب في كتاباته على ضرورة أن يعمد الجهاديون في جميع أنحاء العالم إلى إرساء خلايا مستقلة ومغفلة في كل دولة، على أن يمتلك أعضاء كل خلية المهارات الضرورية لشنّ حرب العصابات واستهداف أماكن تجمع السياح ومنشآت النفط والطاقة الكهربائية. ويبدو لي هذا الطرح غاية في الانسجام مع النشاط الجهادي الملحوظ خارج العراق.

وفي حين يواظب السوري على إنكار تورّطه الشخصي الفعلي في سلسلة من الهجمات، وتحديداً تفجيرات قطار أنفاق باريس في ١١ أيلول / سبتمبر العام ١٩٩٥ وتفجيرات مدريد ولندن، يقرّ في المقابل بدوره في التحريض على تنفيذ هذه العمليات. وفي هذا الإطار، يعترف بأنه «نصح قائد الجماعة الإسلامية المسلحة أبا عبد الله أحمد ورؤساءه [حرفياً].. بضرب عمق البرّ الفرنسي»(١٤). وهو يقرّ أيضاً بأنه اقترح استهداف أنفاق لندن باعتبارها «هدفاً مناسباً» لمجموعة من المتدربين، وأضاف: «أنا سعيد للغاية لأن البذور التي زرعتها بدأت تعطي ثمارها».

وبالنظر إلى نشاطاته في إسبانيا، يمكن إثبات أنه كان عضواً في جماعة جند الله الملحقة بالقاعدة، والتي تأسست في العام ١٩٩٥ على يد سوري آخر اسمه أبو دحداح تدرّج لاحقاً في الخلية التي نفّذت تفجيرات مدريد في آذار / مارس العام ٢٠٠٤. وكان قد حُكم عليه في العام ٢٠٠١ غيابياً بتهمة الانتماء إلى التنظيم، ذلك أنه كان قد انتقل نهائياً إلى أفغانستان في أواخر تسعينيات القرن العشرين.

وعلى الرغم من أن السوري قيد الاعتقال، فهو لا يزال يتمتّع بنفوذ قوي في أوساط الجهاديين. فبياناته الملهبة للمشاعر تتوافر على نطاق واسع عبر شبكة الإنترنت وتحض «المجاهدين المنتشرين في سائر أنحاء الدول الأوروبية وغيرها من الدول العدوّة على التحرك بأسرع وقت ممكن للهجوم على بريطانيا وإيطاليا وهولندا والدانمارك وألمانيا

(١٣) الأبلغ تأثيراً بين هذه المنشورات مؤلف قوامه ١٨ فصلاً نُشر في العام ١٩٨٧ تحت عنوان «ملاحظات حول التجربة الجهادية في سوريا». وفي كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤ وضع كتاباً في ١٦٠٠ صفحة تحت عنوان «دعوة المقاومة الإسلامية العالمية» حدد فيه الاستراتيجيات المستقبلية للجهاد.

(١٤) تصريح في آب / أغسطس العام ٢٠٠٥.

واليابان وأستراليا وروسيا وفرنسا، ومهاجمة مصالحها في أوطاننا وفي مختلف أنحاء العالم، فضلاً عن مهاجمة الدول التي ترسل جيوشها إلى العراق وأفغانستان وشبه الجزيرة العربية. يجدر بالخلايا النائمة في أوروبا أن تستيقظ فالحرب قد بلغت أوجهها والعدو على وشك الانهيار».

أبو دحداح

أبو دحداح سوري الأصل من مواليد العام ١٩٦٣، واسمه الحقيقي عماد الدين بركات يركس. وبما أنه كان عضواً في جماعة الأخوان المسلمين السورية، فرّ من سوريا في العام ١٩٨٢[(١٥)]، وانتقل في النهاية، وتحديداً في العام ١٩٨٦، إلى إسبانيا حيث تزوّج امرأة إسبانية، فحاز الجنسية الإسبانية وأنشأ عدداً من الشركات.

في أواسط التسعينيات، أسس أبو دحداح ومعه عدد من الأعضاء السابقين في جماعة الأخوان المسلمين مجموعة جند الله في مدريد. وإذ تماشت هذه الخلية المستقلة ظاهرياً مع النموذج المتظهر لنشاط القاعدة في أوروبا، كانت فعلياً ملحقة بها عبر الأفراد المشتركين والأيديولوجيا المشتركة.

وقد بدأ جهاز الاستخبارات الإسباني يتنصّت على مكالمات أبي دحداح الهاتفية منذ العام ١٩٩٧، مما مكنّه من جمع أدلة جمة تثبت ارتباط أبي دحداح بخلايا القاعدة في مختلف أنحاء العالم، من أندونيسيا إلى هامبورغ. والجدير ذكره أن أبا دحداح سهّل الاجتماع التخطيطي الأخير في إسبانيا بين محمد عطا ومخططين آخرين قبل هجمات ١١ أيلول / سبتمبر على نيويورك وواشنطن.

اعتُقل أبي دحداح في تشرين الثاني / نوفبمر العام ٢٠٠١، وحُكم عليه بالسجن ٢٧ عاماً، ١٥ منها لضلوعه في مؤامرة ١١ أيلول / سبتمبر و١٢ عاماً «لتزعّمه تنظيماً إرهابياً». كذلك اتُهم أبو دحداح بجمع التبرعات لمصلحة القاعدة وتجنيد الشباب للمشاركة في

(١٥) ارتكب الجيش السوري مجزرة في العام ١٩٨٢ ذهب ضحيتها ١٠ آلاف رجل من الأخوان المسلمين.

معسكرات تدريب كان يديرها أبو مصعب السوري في أفغانستان في الفترة الممتدة من أواخر التسعينيات إلى العام ٢٠٠١.

ولمّا كان أبو دحداح في السجن، انتقلت قيادة مجموعته في العام ٢٠٠٣ إلى التونسي سرحان بن عبد المجيد فاخت. وفي غضون ذلك، انتقلت مجموعة جند الله السورية الأصل إلى مجاهدين من شمال إفريقيا (وذلك يُعزى بجزء كبير منه إلى الأساليب الناجحة التي اعتمدها معاون الزرقاوي المغربي عامر عزيز في التجنيد). وقد عمدت هذه المجموعة في مرحلة لاحقة إلى تنفيذ تفجيرات ١١ آذار / مارس العام ٢٠٠٤ في مدريد تحت راية القاعدة.

أبو قتادة

لطالما كنت أنفر من لقائي بأبي قتادة الذي كان يوصف على الدوام في وسائل الإعلام «بالقائد الروحي للقاعدة في أوروبا»، خصوصاً أنه أصدر في العام ١٩٩٥ فتوى تشرّع قتل أطفال الموظفين في الحكومة الجزائرية. لكن عندما حضر إلى مكتبي في صيف العام ٢٠٠٥ (علماً بأنه كان حينئذٍ موضوعاً تحت الإقامة الجبرية وملاحقاً)، رأيت فيه رجلاً طيباً وحاضر البديهة، على الرغم من آرائه السياسية والدينية المتطرفة على نحو لا يقبل الشك. وقد كان رجل الدين هذا، الملتحي والنابض بالحياة مسلياً جداً، خصوصا أنه راح يحدّثني بأسلوب فصيح عن الشعر والأدب وغيرهما من المواضيع الثقافية، بالإضافة إلى الدين. لكنني ظللت متيقظاً لمدى خطورة هذا الرجل في حال كانت التهم الموجّهة إليه حقيقية.

أبو قتادة واسمه الحقيقي عمر عثمان أبو عمر، فلسطيني وُلد في العام ١٩٦٠ في بيت لحم. وهو كان يحمل الجنسية الأردنية ويتميز بارتباطه الوثيق بالمنظّر الأيديولوجي الشهير أبي محمد المقدسي. وقد سافر كلاهما إلى أفغانستان في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، تماماً كما فعل أبو مصعب الزرقاوي. والواقع أن أبا قتادة هو من تولّى تعريف الرجلين أحدهما بالآخر، بل إنه أخبرني بأنه هو من تلقّى مبايعة الزرقاوي للشيخ أسامة بن لادن.

جاء أبو قتادة إلى المملكة المتحدة مستخدماً جواز سفر إماراتياً زائفاً، ونجح في تقديم

طلب اللجوء في العام ١٩٩٣. ووفقاً لأشخاص عرفوه في خلال إقامته في لندن، كانت أواسط التسعينيات مرحلة اشتهر في خلالها بأقصى درجات التطرف والتحريض لأجل الجماعة الإسلامية المسلحة وتجنيد المجاهدين لمصلحتها (بصورة مباشرة أو غير مباشرة). لكنه اكتشف لاحقاً أن أجهزة الاستخبارات الجزائرية خدعته ودفعته إلى تبنّي أكثر المواقف تطرفاً، منها على سبيل المثال الفتوى التي ذكرتها أعلاه. كذلك أعلمني مصدر مقرّب منه بأنه عانى «صدمة نفسية... وشعر بأنه مجبر على طلب السماح من العديد من المسلمين الذين كان مرتبطاً بهم».

ويبدو أن أبا قتادة عاد عقب ذلك إلى أحضان القاعدة، وعرّف عنه جمال الفضل (في سياق الإدلاء بشهادته في محكمة الإقليم الجنوبي في نيويورك في ٦ شباط / فبراير العام ٢٠٠١ في قضية تفجيرات آب / أغسطس العام ١٩٩٨ التي استهدفت السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ـ كينيا وفي دار السلام ـ تنزانيا) بأنه كان عضواً في لجنة فتاوى القاعدة في العام ١٩٩٨. وفي العام نفسه، حُكم عليه غيابياً بالسجن مدى الحياة في الأردن بتهمة التحريض على سلسلة من التفجيرات. ففي العام ١٩٩٩، اتُهم أبو قتادة بتمويل مجموعة تتكوّن بمعظمها من أردنيين كانوا يخططون لمهاجمة حيّ مسيحي بالقرب من بترا.

اعتُقل أبو قتادة واستُجوب في بريطانيا في شباط / فبراير العام ٢٠٠١ بتهمة التورط في هجوم مخطط له على سوق ستراسبورغ للميلاد. آنذاك، كان بحوزة أبي قتادة مبلغ نقدي قدره ١٧٠ ألف جنيه استرليني، لكن التهمة لم تثبت عليه. وبعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر، عُثر في شقة محمد عطا في هامبورغ على شرائط فيديو تتضمن خطبه. هذا ويُزعم أنه كان مرشد ريتشارد رايد Richard Reid، البريطاني الملقب بصاحب الحذاء الناسف.

والجدير ذكره أن الأخوين السوريين، معتز ومحمد الملا دباس، اللذين اضطلعا بدور أيديولوجي رئيس في مجموعة مدريد التابعة لأبي دحداح، أي جماعة جند الله، كانا شريكين مقرّبين لأبي قتادة.

لاذ أبو قتادة بالفرار في كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠١، لكن السلطات تعقبته واعتقلته بعد مرور عشرة أشهر واحتجزته في سجن بلمارش Belmarsh وإذ أُطلق سراحه في آذار / مارس العام ٢٠٠٥، اتُخذ في حقه قرار بالمراقبة. والواقع أن أبا قتادة اعتُقل مجدداً في آب / أغسطس العام ٢٠٠٥، وهو لا يزال في السجن إلى يومنا هذا. ولا بد من الإشارة إلى أن الأردن ودولاً أوروبية عدة تطالب باسترداده.

ربيع أسامة سيد أحمد

ربيع أسامة سيد أحمد، المعروف أيضاً باسم محمد المصري، من مواليد العام ١٩٧١. وهو غادر مصر في العام ١٩٩٦ إلى غير رجعة وراح يعيش متخفياً في دول أوروبية عدة. وكان شريكاً مقرباً لسرحان بن عبد المجيد فاخت الذي قاد خلية مدريد المنبثقة من جماعة أبي دحداح «جند الله» والمسؤولة عن تفجيرات ١١ آذار / مارس.

وقد عمدت الشرطة الإيطالية في حزيران / يونيو العام ٢٠٠٤ إلى التنصّت على مكالمات أحمد الهاتفية، كما دسّت جهاز تنصّت في شقته، مما مكّنها من تسجيل أحاديثه في سياق تجنيد شاب مصري اسمه يحيى راجح لتنفيذ مهمة انتحارية من خلال مجموعة الزرقاوي في العراق. وقد قال أحمد: «هجوم مدريد كان مشروعي، وأولئك الذين قضوا شهداء في (ليغان Leganes) هم أصدقاء أعزاء. لقد وضعت الكثير من الصبر والدراسة في هذا المشروع الذي استغرقني الإعداد له سنتين ونصف السنة»[١٦].

وبحسب محطة سي بي سي CBC Television، قد يكون أحمد مرتبطاً أيضاً بالتنظيم المصري «التكفير والهجرة» المتورّط في اغتيال تيو فان غوخ Theo Van Gogh (راجع أدناه)[١٧].

(١٦) نقلاً عن نص التسجيل الصوتي الوارد على الموقع الإلكتروني www.cbc.ca/fifth/warwithoutborders/suspect
(١٧) www.cbc.ca/fifth/warwithoutborders/suspect

استهداف أوروبا

لطالما تحدّث الشيخ أسامة بن لادن عن شعور المسلمين منذ زمن بعيد بالغضب تجاه فرنسا وعلى وجه الخصوص بريطانيا. والواقع أن جذور هذا الغضب تمتد إلى حدثين تاريخيين كان لهما انعكاسات بالغة الأهمية بالنسبة إلى الأمة. فاتفاق سايكس - بيكو الذي أُبرم في ١٦ أيار / مايو العام ١٩١٦ وقسّم منطقة الشرق الأوسط عملياً منطقتين تخضعان للسيطرة البريطانية والفرنسية، استُتبع في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر العام ١٩١٧ بوعد بلفور السيىء السمعة الذي أظهر دعم بريطانيا للمخططات الصهيونية الهادفة إلى إنشاء «وطن» لليهود في فلسطين، والذي تغاضى ظاهرياً عن واقع أن فلسطين كانت أصلاً وطناً للفلسطينيين. في هذا الإطار، يرى الشيخ بن لادن أن هذه الخيانات تبقى جلية على نحو مؤلم، حتى إنه يقول: «إن اتفاق بوش - بلير قد تحقّق تحت الراية الصليبية نفسها وللغرض نفسه المتمثل بالقضاء على المسلمين ونهب مقدراتهم»(١٨).

الواقع أن أول هجوم قام به ناشط في تنظيم القاعدة على أرض أوروبية يعود إلى تشرين الثاني / نوفمبر العام ١٩٩١، عندما حاول برتغالي اعتنق الإسلام اسمه بولو خوسيه دي ألميدا Paulo Jose de Almeida اغتيال الملك السابق لأفغانستان واجتمع ثلاث مرات بالشيخ أسامة بن لادن في سياق التخطيط للهجوم قبل الانطلاق في رحلة التنفيذ. آنذاك، انتحل دي ألميدا صفة صحافي للتمكن من الوصول إلى الملك الذي كان يخطط للعودة إلى أفغانستان، والذي ربما استخفّ بموقف حركة طالبان والمجاهدين من عودته. لكن تحولاً قدرياً يستحق تبّنيه في ميلودراما هوليوود جعل الملك ينجو من الموت بفضل علبة سيجار كانت تقبع في جيب الصدر، فحالت دون إغماد سكين القاتل في قلبه(١٩).

كما أكدتُ سابقاً، يتميّز حضور القاعدة في أوروبا بطابع أيديولوجي أكثر منه تنظيمياً ويرتكز على شبكة من المجموعات لا يرتبط بعضها ببعض بإحكام (هناك من يزعم أن

(١٨) تصريح للشيخ أسامة بن لادن صادر بتاريخ ١٦ شباط / فبراير العام ٢٠٠٣.

(١٩) www.telegraph.co.uk/news/main.jhtml?xml-/news/2002/04/14/wafg14.xml

عدد هذه المجموعات يبلغ الثلاثين تقريباً) إنما تتشارك في طموحات دينية وسياسية مماثلة وتضم في غالب الأحيان أعضاء مشتركين. وفي حين لا أفترض بأي شكل من الأشكال بأن الأيديولوجيا قابلة للمساومة لمصلحة البراغماتية، أعتقد أن هذا الوضع نشأ في الأساس عقب انتشار المجاهدين في أوروبا بعد انتهاء الحروب في أفغانستان والبوسنة وارتباطهم لاحقاً بمناضلين إسلاميين محليين كما في الجزائر.

كانت الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر التي تأسست في العام ١٩٩٢ تضم مئات الأعضاء الذين حاربوا السوفيات وارتبطوا بالشيخ بن لادن. والواقع أن هذه الجماعة ظلّت تحظى بدعم مالي وعملي من تنظيم القاعدة إلى أن تسبب الطابع غير المميز لنشاطاتها القائمة على العنف بشقاق أفرز انفصال المجموعة السلفية للتبشير والجهاد في العام ١٩٩٨. وقد وافقت الجماعة السلفية للتبشير والجهاد لاحقاً على التعاون مع القاعدة في سياق اجتماع عُقد في قندهار بين الشيخ أسامة بن لادن وقائد المجاهدين الجزائريين أبو ضحى (الذي انتقل لاحقاً إلى لندن). وأذكر أيضاً من الشخصيات الرئيسة التي شكلت رابطاً بين الجماعة الإسلامية المسلحة وتنظيم القاعدة ما بين العامين ١٩٩٢ و١٩٩٨ أبا مصعب السوري وأبا قتادة. والجدير ذكره أن الجماعة الإسلامية المسلحة كانت أولى الجماعات المرتبطة بالقاعدة التي تستهدف أوروبا على أرضها.

في العام ١٩٩٤، وتحديداً عشية عيد الميلاد، أقدم أربعة أفراد من الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر العاصمة على خطف طائرة تابعة لشركة طيران فرنسا Air France على متنها ١٧٠ مسافراً، آنذاك، قتل الخاطفون ثلاث رهائن وزرعوا الديناميت في الطائرة وتوجهوا بها إلى فرنسا في مخطط لجعلها تصطدم ببرج إيفل في باريس. لكن فرقة من المغاوير الفرنسيين اقتحمت الطائرة في خلال توقفها في مرسيليا للتزوّد بالوقود وقتلت الخاطفين الأربعة.

وفي الخامس والعشرين من تموز / يوليو العام ١٩٩٥، انفجرت مقذوفة غاز متشظية تحوي عدداً كبيراً من المسامير داخل قطار في محطة سان ميشال St. Michel في باريس،

فأودت بحياة ٧ وأوقعت نحو ١٥٠ جريحاً. والواقع أن هذا الهجوم كان الأكثر دموية ضمن سلسلة من التفجيرات التي شنّتها الجماعة الإسلامية المسلحة مستهدفة السكك الحديد الفرنسية وقطار أنفاق باريس ومتسببة بمقتل ١٠ وجرح ١٨٠ في ذاك العام.

ويذكر أن القاعدة أو الخلايا المرتبطة بها في أوروبا نفذت عدة هجمات حتى العام ٢٠٠٣. لكن أجهزة الاستخبارات والشرطة نجحت في تفكيك عدد من الخلايا، منها خلية في فرانكفورت تتكوّن بمعظمها من جزائريين كانوا يخططون للهجوم على السوق الخاصة بعيد الميلاد العام ٢٠٠٠ في ستراسبورغ. وكانت ألمانيا أيضاً معقلاً لخلية هامبورغ السيئة السمعة التي أفرزت هجمات ١١ أيلول / سبتمبر. وتجدر الإشارة إلى أن قائد المجموعة محمد عطا وغالبية رفاقه الستة في الخلية أتوا إلى ألمانيا ما بين العامين ١٩٩٢ و١٩٩٧ من أجل متابعة تحصيلهم العلمي. وقد التقى المغربي منير متصدّق (الذي بُرىء اليوم من تهمة التواطؤ في مؤامرة ١١ أيلول / سبتمبر) محمد عطا في العام ١٩٩٥ وعرّفه إلى سيد بهاجي، وهو مغربي ألماني لا يزال طليقاً، وإلى المغربي زكريا الصبار الذي انتقل إلى أفغانستان مباشرة قبل تنفيذ الهجمات. إلى ذلك، ساهم الصبار في انضمام زكريا الجراح إلى المجموعة والتقى محمد عطا مروان الشحي من الإمارات العربية المتحدة في العام ١٩٩٧ في مدرسة لتعليم اللغة الألمانية. أما رمزي بن الشيبة، وهو يمني كان يطلب اللجوء، فتعرف إلى المجموعة في مسجد القدس حيث كان الإمام المغربي المتطرف الفزازي يلقي المواعظ الدينية في بعض الأحيان. ولا بد من الإشارة إلى أن الفزازي شخصية يتكرر ظهورها في هذه الروايات (فهو كان يعظ أيضاً في المسجد الذي اعتاد منفذو الهجمات الانتحارية في مدريد ارتياده)، وهو حالياً يقبع في السجن في المغرب بسبب تورّطه في تفجيرات الدار البيضاء التي نُفّذت في أيار / مايو العام ٢٠٠٣.

ووفقاً للتحقيقات التي أُجريت مع رمزي بن الشيبة عقب اعتقاله في باكستان في العام ٢٠٠٢، إن خلية هامبورغ كانت قد قررت الانتقال إلى الشيشان للانضمام إلى المجاهدين عندما كان للقاء عرضي على متن قطار ألماني برجل موريتاني اسمه محمدو ولد صلاحي

Mohamedou Ould Salhi دور في تغيير حياة أفراد الخلية وتاريخ العالم إلى الأبد. وصحيح أن صلاحي كان معروفاً بعلاقته بتنظيم القاعدة، إلا أن أجهزة الاستخبارات الألمانية والأمريكية لم تكن تعلم بأنه كان يعيش في ألمانيا حينئذ. وقد أخبر صلاحي محمد عطا ورفاقه بأن دخول الشيشان صعب جداً واقترح عليهم أن يذهبوا عوضاً من ذلك إلى أفغانستان. وفي العام ١٩٩٩، قام صلاحي بالترتيبات اللازمة لسفرهم ومهّد لاجتماعهم بالشيخ أسامة بن لادن. وقد سارعت مجموعة هامبورغ آنذاك إلى مبايعة الشيخ بن لادن ثم غادرت لتحقيق مهمة محددة تمثلت بإعداد العدة لتنفيذ هجمات ١١ أيلول / سبتمبر على نيويورك وواشنطن. وفي العام ٢٠٠١، عُقد اجتماع تخطيطي رئيسي في إسبانيا مهّدت له خلية مدريد التابعة لأبي دحداح.

الدور المحفّز للعراق

عقب الغزو الأمريكي للعراق في ١٩ آذار / مارس العام ٢٠٠٣، شهد العالم تصاعداً ملحوظاً في الهجمات المرتبطة بالقاعدة على أهداف أوروبية ويهودية. ففي السادس عشر من أيار / مايو العام ٢٠٠٣، قتل انتحاريون ٤٥ شخصاً وجرحوا نحو مئة في سياق هجمات منسّقة على مركز ثقافي يهودي وأهداف أخرى في الدار البيضاء. وقد استهدف الهجوم أيضاً مركزاً ثقافياً إسبانياً، أوقع عدداً من القتلى بينهم أربعة إسبانيين. وقد ربطت السلطات المغربية بين المهاجمين والجماعة الإسلامية المغربية المقاتلة.

وفي الخامس عشر من تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٣، هاجمت خلية للقاعدة في اسطنبول كنيس النبي شالوم وبيت إسرائيلي بشاحنة محملة بالمتفجرات يقودها انتحاري، فقُتل ٢٥ شخصاً وجرح ٣٥٠ على الأقل. آنذاك، تلقت صحيفة «القدس العربي» حيث أعمل رسالة إلكترونية من مجموعة تُدعى كتائب أبي حفص المصري وتشكّل الجناح العسكري للمجموعة التي ظهرت لاحقاً تحت اسم القاعدة في أوروبا. وكانت المجموعة تعلن في تلك الرسالة مسؤوليتها عن الهجوم. وبعد مرور خمسة أيام، جرى استهداف مصالح بريطانية في هجوم نفذّه انتحاريون بواسطة شاحنات محملة

بالمتفجرات انفجرت خارج القنصلية البريطانية وكان الجنرال روجر شورت Roger Short في عداد القتلى الإثنين والثلاثين الذين قضوا في هذين الهجومين، علماً بأنهما تسببا أيضاً بإصابة ٤٠٠ آخرين.

مدريد في الحادي عشر من آذار/مارس العام ٢٠٠٤

عندما انفجرت ١٠ عبوات ناسفة حُشرت في أوعية القمامة أو على رفوف الحقائب على متن أربعة قطارات في ثلاث من أكثر محطات مدريد ازدحاماً في خلال ساعة الذروة في الصباح، قُتل نحو ٢٠٠ وجُرح نحو ٥٠٠. وعلى الرغم من أن الحكومات الإسبانية والبريطانية والأمريكية سارعت إلى إلقاء اللوم على جماعة إيتا الانفصالية، فإن صحيفة «القدس العربي» تلقّت رسالة إلكترونية من كتائب أبي حفص المصري تعلن فيها مسؤوليتها عن التفجيرات. وقد صدمني آنذاك ما ورد في الرسالة من إشارة إلى المطالبة بإسبانيا باعتبارها أرضاً إسلامية:

نجحت فرقة الموت (في كتائب أبي حفص المصري) بالنفاذ إلى الأعماق الأوروبية الصليبية لتوجّه ضربة موجعة إلى إحدى دعائم التحالف الصليبي - إسبانيا. وقد شكّلت هذه الهجمات جزءاً من تسوية حسابات قديمة مع إسبانيا الصليبية بسبب حربها على الإسلام.

يبدو على الأرجح أن الخطة الهادفة إلى تفجير قطارات مدريد، انبثقت من القيادة المركزية للقاعدة، أو على الأقل وُضعت بعد موافقتها. ففي تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٣، وجّه الشيخ بن لادن تهديداً صريحاً إلى إسبانيا في رسالة وجهها إلى الرئيس الأمريكي بوش في ما يتعلق بغزو العراق. وجاء في الرسالة: «نحن نحتفظ بحق الثأر في الوقت والمكان المناسبين من مختلف الدول المتورطة، ولا سيّما المملكة المتحدة وإسبانيا وأستراليا وبولندا واليابان وإيطاليا»[(٢٠)]. وفي تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٣ أيضاً، دعا الموقع الإلكتروني للإعلام الإسلامي العالمي (موقع الحضور الرئيسي للقاعدة على الإنترنت) إلى شن هجوم على إسبانيا.

(٢٠) english.aljazeera.net/NR/exeres/8E8EA58-943C-4FBF-9ABD-21B47627FECD.htm

والواقع أن تردد الحكومات الغربية في الإقرار بضلوع القاعدة في الهجوم الأكثر خطورة الذي نُفّذ على أرض أوروبية حتى ذلك الحين يُعزى على نحو جلي، إلى رغبتها في تفادي تهم مفادها أن الهجوم وقع بسبب غزوها للعراق. ومن الواضح أن التوقيت اختير عمداً بحيث يتزامن مع الانتخابات الإسبانية العامة التي كان مقرراً إجراؤها بعد ثلاثة أيام من الهجوم. وقد نزل آنذاك ١١٤٠٠ ألف شخص (أي أكثر من ربع السكان) إلى شوارع إسبانيا مطالبين بمعرفة من يقف وراء الهجمات.

وفي الثالث عشر من آذار / مارس، وُضع شريط فيديو في حاوية للقمامة بالقرب من مسجد مدريد يتضمّن رسالة من القاعدة في أوروبا تعلن هذه الأخيرة من خلالها مسؤوليتها عن تفجيرات القطارات. وكانت تلك المرة الأولى التي يُستخدم اسم هذا «التنظيم الراعي». والجدير ذكره أن المجموعة المسؤولة عن الهجوم انبثقت من جماعة جند الله التابعة لأبي دحداح وتشكّلت من أعضاء مؤسسين سوريين وعدد كبير من الأفارقة الشماليين، وتحديداً من المغربيين المرتبطين بالجماعة الإسلامية المغربية المقاتلة وبأبي مصعب الزرقاوي من طريق المسؤول عن تجنيد الأفراد في المجموعة عامر عزيزي.

ويظهر في شريط الفيديو رجل يتحدّث بلكنة مغربية (ليس هو على الأرجح من صاغ البيان) مدعياً أن التفجيرات جاءت «رداً على تعاونكم مع بوش وحلفائه المجرمين.. والجرائم التي ارتكبتموها في العالم ولا سيّما في العراق وأفغانستان». آنذاك، عمد الشعب الإسباني إلى إقصاء حزب الشعب الذي ينتمي إليه رئيس الوزراء أزنار، عن السلطة واستبدله بخوسيه لويس رودريغيز زاباتيرو الذي تعهد سحب القوات الإسبانية البالغ عديدها ١٣٠٠ جندي من العراق.

وفي هذا السياق، أرسلت الحكومة المغربية فريقها الخاص من المحققين للبحث عن الروابط بين هجومات مدريد والتفجيرات المختلفة التي استهدفت الدار البيضاء في العام السابق. وتمثّلت إحدى حلقات الوصل بمصطفى الميموني، وهو صهر قائد خلية مدريد سرحان بن عبد المجيد فاخت والعضو في جماعة جند الله وأيضاً في خلية الجماعة الإسلامية المغربية المقاتلة التي نفّذت تفجيرات الدار البيضاء.

والواقع أن هجومات مدريد كانت غير مألوفة، مقارنة بسلسلة الترويع الذي اعتمدته القاعدة، لأن تلك الهجمات لم تكن انتحارية. ومن المرجّح أن المجموعة كانت تنوي الضرب مجدداً بحيث «يستشهد» منفّذو الهجمات في الضربة الثانية. ولعل ما يثبت ذلك هو أن المنفّذين السبعة فجروا أنفسهم بواسطة أحزمة ناسفة بدلاً من مواجهة الاعتقال عندما أغارت الشرطة على شقّتهم في ليغان (إحدى ضواحي مدريد).

هذا وزعمت الشرطة البوسنية أن أحد عشر شخصاً من خلية مدريد تلقّوا التدريبات في معسكر في البوسنة والهرسك(٢١). لكن ما من مصادر أخرى تدعم هذه المزاعم. والواقع أن حاجة الخلية إلى السفر من أجل تلقي التدريبيات أمر مستبعد، خصوصاً أن أبا مصعب السوري، العضو في شبكة مدريد الأصلية أي جماعة جند الله، كان واحداً من الرجال الرائدين في تدريب المقاتلين على استخدام المتفجرات، مما يعني أنه ربّما خلّف وراءه طاقماً مدرّباً عندما غادر أوروبا إلى أفغانستان. أضف أن عامر عزيزي، الشريك المقرّب لأبي مصعب الزرقاوي، كان يتنقل بشكل منتظم بين العراق ومدريد. ولا شك في أن المجموعة أثبتت تمتّعها بالمعرفة اللوجستية المطلوبة لإعداد المتفجرات وبالقبول النفسي للموت كسلاح.

لا بد من الإشارة إلى أن أعضاء خلية مدريد كانوا كلهم تقريباً من المهاجرين من شمال إفريقيا، الذين يعيشون في مستوى اقتصادي اجتماعي متدنٍ، باستثناء قائد الخلية سرحان بن عبد المجيد فاخت الذي كان يحمل شهادة دكتوراه في علم الاقتصاد من جامعة إسبانية رائدة. لكن على الرغم من مؤهلاته العلمية العالية، فقد شغل وظيفة وضيعة نسبياً من خلال عمله كمندوب مبيعات في شركة للعقارات(٢٢). فضلاً عن ذلك، تبيّن خلفيات منفّذي تفجيرات مدريد، بعيداً عن العامل الثقافي الاجتماعي الذي شكّل إلى حد ما حافزاً لهم، أن التجنيد يعتمد أيضاً على الشبكات الاجتماعية القائمة، كالروابط العائلية على

(٢١) وكالة صوفيا للأنباء Sofia News Agency، بلغاريا، ١١ أيار / مايو العام ٢٠٠٥.

(٢٢) صحيفة إلموندو El Mondo، ٨ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٤.

سبيل المثال والمؤسسات الدينية (فثلاثة من المنفّذين مثلاً تقابلوا في أثناء عملهم لمصلحة جماعة التبليغ والدعوة، وهي مجموعة تبشيرية ديوباندية في مدريد).

ويبدو أن الشيخ أسامة بن لادن نقض الفتوى التي كان قد أصدرها في العام ١٩٩٨ ضد «اليهود والمسيحيين» عندما عرض الهدنة على الشعوب الأوروبية عقب تفجيرات مدريد. ففي بيانه الصحافي الصادر في ١٥ نيسان/إبريل العام ٢٠٠٤ والموجّه إلى شعوب أوروبا، عرض «الالتزام بوقف العمليات ضد أي دولة تتعهد عدم الاعتداء على المسلمين أو التدخل في شؤونهم». والواقع أن هذه الهدنة كانت «قائمة» لمدة ثلاثة أشهر وجرى تجاهلها تجاهلاً تاماً.

مقتل تيو فان غوخ، ٢ تشرين الثاني/نوفمبر العام ٢٠٠٤

شهد العام ٢٠٠٤م تفشّي ما أطلق عليه الشيخ أسامة بن لادن «الجهاد الثقافي والأخلاقي» في أوروبا، وتمثل أول تجليات هذه الظاهرة الجديدة بإقدام فرنسا في شهر آب/أغسطس على حظر ارتداء الحجاب الإسلامي، مما أثار غضب المسلمين على مستوى العالم بأسره وأدى إلى تداعيات خطيرة، بما في ذلك اختطاف صحافيَين فرنسيَين في العراق.

وفي تشرين الثاني/نوفمبر العام ٢٠٠٤، تلقّى الكاتب والمخرج السينمائي الهولندي تيو فان غوخ تهديدات بالقتل من إسلاميين، إثر صدور فيلمه «الخضوع» Submission الذي تضمّن لقطات مصوّرة لنساء عاريات تلحّفن برداء شفاف طُبعت عليه آيات من القرآن الكريم.

والجدير ذكره أن فان غوخ كان ينتقد الإسلام بلهجة حادة في الأعمدة الصحفية التي يواظب على كتابتها، بل كثيراً ما أبدى تعليقات مسيئة إلى المسلمين في هولندا. أضف أنه كان مدافعاً شرساً عن الغزو الأمريكي للعراق. ولا شك في أن هذا كله لم يجعله محبباً إلى المسلمين البالغ عددهم ٩٢٠ ألف نسمة في هولندا (أي أنهم يشكلون ٥٫٨ في المئة من السكان) والذين ثارت ثائرتهم على فيلم «الخضوع» معتبرين أنه مهين وتجديفي إلى أقصى حدود.

وفي صبيحة الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر، قُتل فان غوخ بثماني رصاصات وعمد المغربي الهولندي من الجيل الثاني محمد بويري إلى قطع حلقه. هذا وثُبّتت إلى جسد فان غوخ، بواسطة السكين، وثيقة من خمس صفحات تضمّنت لكاتبة سيناريو الفيلم اللاجئة الصومالية آيان حرسي علي، وحملت بصمات أيديولوجيا التكفير والهجرة، وهي مدرسة فكر سلفية حصرية طوّرها جزئياً أبو محمد المقدسي المقرّب من أبي قتادة، والذي كان في مرحلة ما مرشد أبي مصعب الزرقاوي.

لا بد من الإشارة إلى أن محمد بويري اعتُقل إثر معركة مع الشرطة الهولندية، وتبيّن أنه لم يكن يعمل بمفرده. فقد ثبُت أن بويري جزء من خلية جهادية سلفية تُعرف باسم شبكة هوفستاد Hofstad وتمتد تشعباتها في جميع أنحاء أوروبا. كذلك تبيّن أن لهذه الشبكة ارتباطاً بالتفجيرات الانتحارية التي وقعت في الدار البيضاء في العام ٢٠٠٣ وبتفجيرات قطار مدريد التي نُفّذت في ١١ آذار / مارس. وقد اعتقلت الشرطة الهولندية لاحقاً ١٣ فرداً مشتبهاً فيهم من هذه المجموعة، معظمهم مسلمون من شمال إفريقيا، ومن بينهم رشيد بلقاسم الذي اعتُقل في شرقي لندن في ٢٢ حزيران / يونيو العام ٢٠٠٥، أي قبل أسبوعين فقط من وقوع الانفجارات في قطار لندن. وقد اتُهم بلقاسم بحيازة أسلحة وتجنيد متطوعين للجهاد المسلح(٢٣).

وعندما أحبطت الشرطة الإسبانية مؤامرة كانت تُحاك في تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٤ لاستهداف المحكمة الوطنية حيث مقرّ التحقيقات بشأن تفجيرات مدريد، تم الكشف عن مجموعة جُندت في إسبانيا تحت اسم شهداء من أجل المغرب وتزعمها الجزائري محمد أشرف. وتبيّن أن هذه المجموعة مرتبطة بمحمد بويري وشبكة هوفستاد. وفي هذا السياق، اكتشفت الشرطة الإسبانية أن أشرف موّل المجموعة الهولندية وأجرى مكالمات هاتفية مع بويري.

وعندما اعتُقل بويري، عُثر معه على قصيدة وداعية عنوانها «معمّد بالدم» In bloed

(٢٣) التقرير الخاص بالقناة الرابعة، ٢٤ حزيران / يونيو العام ٢٠٠٥، إعداد سيمون إسرائيل Simon Israel

gedoopt يبشّر فيها باستشهاده. لكن بويري لم يمت شهيداً، بل هو لا يزال ينفّذ حكم السجن مدى الحياة الذي صدر في حقه بتهمة القتل.

تفجيرات لندن في السابع من تموز/يوليو العام ٢٠٠٥

في السابع من تموز / يوليو العام ٢٠٠٥م، أقدم ثلاثة شباب مسلمين بريطانيين من أصل باكستاني يعيشون في ليدز Leeds، ومعهم رجل رابع جامايكي الأصل من باكينغهامشاير، على تفجير أنفسهم في شبكة النقل في لندن، مما أدى إلى وقوع ٥٦ قتيلاً وإصابة نحو ٧٠٠. وبعد مرور بضع ساعات على الهجوم، أعلنت «مجموعة التنظيم السري للقاعدة في أوروبا» مسؤوليتها عن الحادث عبر الموقع الإلكتروني الجهادي «القلعة».

والواقع أن منفّذي الهجوم اعتمدوا تعبيراً ميلودرامياً مروّعاً أرادوا من خلاله إحداث صليب مشتعل بواسطة الانفجارات التي كان يُفترض أن تقع في الجهات الأربع من شبكة الأنفاق، أي إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب. لكن هذه الرمزية الدينية أُحبطت عندما عمد أحد منفّذي التفجيرات ـ حسيب مير حسين البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً ـ إلى مغادرة شبكة الأنفاق واستقل عوضاً من ذلك باصاً فجّره لاحقاً.

أما الانتحاريون الآخرون، فهم شهزاد تنوير (٢٢ عاماً) وجيرمان ليندساي Germaine Lyndsay الجامايكي الأصل (١٩ عاماً) ومحمد صديق خان (٣٠ عاماً) الذي كان يتزعم المجموعة.

ويُذكر أن أقارب الانتحاريين وأصدقاءهم عبّروا جميعاً عن صدمتهم وعدم تصديقهم لما أقدموا عليه. فشهزاد تنوير كان يتحدر من عائلة من الطبقة العاملة باكستانية الأصل مترابطة ومتماسكة. وقد وصفه أحد الجيران ويُدعى محمد علي شهزاد «بنموذج التماثل في المجتمع البريطاني»[٢٤]. وكان شهزاد طالباً ثانوياً طموحاً لديه العديد من الأصدقاء

(٢٤) ميلان راي Milan Ray، ٧ / ٧ تفجيرات لندن London Bombings ٧ / ٧، الإسلام وحرب العراق Islam and the Iraq War، ص ٣١.

البريطانيين البيض، وكان يحب ممارسة لعبة الكريكيت. وقد وصفه معظم من عرفه بالشاب الهادئ والمسالم.

في المقابل، يُعتبر حسيب حسين شخصاً استثنائياً مقارنة بغيره من أفراد المجموعة، ذلك أن بعض معارفه يتذكّر تورّطه في نزاعات عنيفة وعدائية كانت تقع «دائماً بين البيض والآسيويين»(٢٥). ولدى بلوغه السادسة عشرة من العمر، أي قبل وقوع التفجيرات بعامين، تورّط في الإسلام المتطرف الذي جعله يتبدّل بصورة جذرية وللأفضل ظاهرياً. وكان من المفترض أن يلتحق حسيب حسين بالجامعة في أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠٥، كما أنه كان قد وافق على زواج مدبّر.

أما جيرمان ليندساي، فأمضى سنوات مراهقته في هادرسفيلد Huddersfield التي تبعد عن ليدز عشرين ميلاً. وعلى الرغم من أن والدته الجامايكية كانت مسيحية إنجيلية، فقد اعتنق الإسلام في العام ٢٠٠١ وهو لا يزال في الخامسة عشرة من العمر وغيّر اسمه إلى عبد الله شهيد جمال. وقد تعرّف ليندساي إلى الانتحاريين الآخرين، ولا سيّما خان، في المسجد الكبير في ليدز وانضم إليهم لاحقاً في ممارسة لعبة تبادل إطلاق الطابات الملونة Paintballing وعندما كان لا يزال في السادسة عشرة من العمر، تزوج امرأة تُدعى سامانتا لايثوايت Samantha Laithwate اعتنقت هي أيضاً الإسلام، وانتقل للعيش في لوتون Luton مع عروسه البالغة من العمر تسعة عشر عاماً. وقد رُزق الزوجان ولدين. والجدير ذكره أن سانتا لايثوايت رفضت في البدء أن تصدق أن جمال كان متورّطاً في التفجيرات، ولم يقنعها في النهاية بذلك سوى الصورة التي بثّتها محطة سي سي تي في شض للانتحاريين الأربعة في محطة كينغز كروس Kings Cross في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة من صبيحة اليوم المشؤوم ٧ تموز / يوليو العام ٢٠٠٥.

واللافت أن الانتحاريين كلهم كانوا يعيشون حياة مزدوجة، لا بل يسافرون خارج البلاد من دون علم المقربين منهم. لكن أقدرهم على التمويه على طريقة الحرباء كان

(٢٥) ميلان راي، المرجع نفسه، ص ٤٥.

محمد صديق خان، وهو أكبرهم سناً (وُلد في ٢٠ تشرين الأول / أكتوبر العام ١٩٧٤) وحتماً الشخص المسؤول تحديداً عن تطرفهم.

قبل أن يباشر خان، ابن العشرين عاماً، العمل في العام ١٩٩٥ في وزارة التجارة والصناعة، حيث شغل وظيفة وصفها «بالمملة»، سافر إلى أمريكا. ويتذكر أصدقاؤه أنه عاد من تلك الرحلة منتعلاً حذاء رعاة البقر ومتنكراً لهويته الباكستانية الإسلامية، حتى إنه اختار نفسه اسم «سيد» Sid وتحدّث عن الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي أيلول / سبتمبر العام ١٩٩٦، ترك خان وزارة التجارة والصناعة ليدرس إدارة الأعمال في جامعة ليدز Leeds Metropolitan University حيث تعرّف إلى زوجته حسينة التي رُزق منها لاحقاً ولدين (وُلد ثانيهما بعد وفاة خان). هذا وقد عمل خان خلال الفترة الممتدة من العام ٢٠٠١ إلى أواخر العام ٢٠٠٤ مساعد مدرّس في مدرسة هيل سايد Hillside الابتدائية في منطقة بيستون Beeston في ليدز. والواقع أن سجله الوظيفي في دائرة التربية في ليدز غير مكتمل ـ لا يتوافر منه سوى المعلومات المتعلقة بالعامين ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ ـ لكنه يبيّن تغيّبه المفرط فترات طويلة، إذ بلغ مجموع عدد المرات التي تغيّب فيها ست مرات دام آخرها أكثر من ثلاثة أشهر. ولا شك بالتالي في أنه لم يكن مثالياً لجهة حضوره إلى العمل.

ولعل تسامح أرباب عمله قد ساعده على أن يعيش بسهولة جلية حياة أخرى سرية. وتشير تقارير الاستخبارات إلى أنه كان على اتصال بكبار الشخصيات في تنظيم القاعدة على مدى السنوات الخمس التي سبقت تفجيرات لندن. وفي مقال صدر في ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٥ في الصحيفة الأسترالية «ذي آيدج» The Age (العصر)، زعم الباحث في الإرهاب روان غوناراتنا Rohan Gunaratna أن خان تلقى تدريباته في العام ٢٠٠٠ في معسكر للجماعة الإسلامية في الفيليبين الجنوبية، وأنه نزل في خلال تلك الزيارة في ضيافة قائد التنظيم حنبلي الذي كانت تربطه علاقة وثيقة بالقاعدة، والذي خطط وأدار الهجمات الفظيعة على الملهى الليلي في بالي في في تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٢.

أضف أن خان تعرّف على الإسلام المتطرف في العام ١٩٩٩ عندما خطب رجل الدين الجهادي الجامايكي الأصل عبد الله الفيصل (المسجون حالياً بتهمة التحريض على القتل) للمرة الأولى في مسجد بيستون. وخير دليل على أن تلك اللحظة شكلت نقطة تحول في حياة خان، الملاحظات التي أبداها إمام المسجد حميد علي في شباط / فبراير العام ٢٠٠٦ على مسمع مراسل سرّي. فقد أثنى الإمام آنذاك على خان والانتحاريين الآخرين قائلاً إنهم أجبروا الناس على الانتباه إلى ما لم تنجح التظاهرات السلمية في لفت الأنظار إليه واصفاً إياهم «بأبناء أبي عبد الله الفيصل»(٢٦). وقد خطب الفيصل بعد ذلك في مسجد بيستون أقله ثلاثة مرات.

شهد العام ٢٠٠١ أعمال شغب خطيرة في بورنلي Burnley وأولدهام Oldham وبرادفورد Bradford تورّط فيها بشكل رئيسي شباب مسلمون. وعلى غرار أعمال الشغب التي وقعت في فرنسا وبلجيكا والدانمارك في تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٥، كان الثوار من المحرومين الذين يعانون التمييز بحقهم، والذين طفح الكيل بهم بكل بساطة. وما هي إلا بضع سنوات حتى تنامى تطرّف شباب بيستون الثلاثة وعززت فورة حماستهم أحداث رئيسية كهجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر والغزو الأمريكي للعراق.

وإذ اتخذ أولئك الشباب المكتبة الإسلامية المحلية والنادي الرياضي الواقع تحت المسجد مقراً لهم، باتوا يشكلون نواة مجموعة متيقظة وقوية قوامها ١٥ شخصاً وتُعرف باسم «عصبة الملا». وقد شنّت هذه العصبة الحرب على الانحلال والإسراف الغربيَين. كما شملت نشاطاتها معالجة المسلمين من مدمني الهيرويين بالقوة، وذلك عبر احتجازهم في غرفة أياماً عدة إلى أن تبدو عليهم أعراض الانقطاع عن المخدّر. ووفقاً لما صرّح به الكاتب ميلان راي Milan Rai في مقابلة أُجريت معه في أوائل العام ٢٠٠٦، فإن الشرطة

(٢٦) إمام بريطاني يثني على منفذي تفجيرات قطار الأنفاق في لندن British imam praises London Tube bombers صحيفة سانداي تايمز The Sunday Times، ٢١ شباط / فبراير العام ٢٠٠٦، علي حسين، جوناثان كالفرت Jonathan Calvert غاريث والشGareth Walsh .

كانت تعلم بوجود «عصبة الملا» وتعتقد أنها تمارس نشاطاً اجتماعياً مفيداً. لكن مستخدمي النادي الرياضي كانوا أكثر وعياً لجدول أعمال العصبة المتطرف، فلم يمضِ وقت طويل حتى لُقِّب النادي «بنادي القاعدة».

وقد سافر الانتحاريون البريطانيون المسلمون الثلاثة إلى باكستان في العام ٢٠٠٤؛ وهذا واقع نعرفه من خلال نظام ضبط الحدود Pisces الذي يصوّر كل من يدخل الأراضي الباكستانية ويغادرها بطريقة شرعية. فخان وتنوير سافرا معاً في ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر العام ٢٠٠٤ إلى كراتشي على متن الرحلة الرقم ١٠٥٦ التابعة للخطوط الجوية التركية، وكلاهما غادر في ٨ شباط / فبراير العام ٢٠٠٥ على متن الرحلة ١٠٥٧ التابعة أيضاً للخطوط الجوية التركية. كذلك تظهر السجلات أن حسيب حسين وصل إلى كراتشي في تموز / يوليو العام ٢٠٠٤ على متن الرحلة SV-714 التابعة للخطوط الجوية السعودية، في حين بقي المنفذ الذي غادر عبره الأراضي الباكستانية غير محدّد.

وعلى الرغم من أن ما فعله الرجال خلال إقامتهم في باكستان ليس واضحاً، فإنهم على الأرجح كانوا يعدون العدّة لهجوم السابع من تموز / يوليو. وصحيح أن شبكة الإنترنت توفّر معلومات تفصيلية عن كيفية إعداد المتفجرات، إنما من المستبعد أن يكون بالإمكان تلقي الإعداد النفسي والروحي الذي تستوجبه المهمة الانتحارية عبر فضاء الاتصالات الإلكترونية. وفي سياق محاكمة بدأت في منتصف شهر آذار / مارس العام ٢٠٠٦ للنظر في قضية خلية أخرى متمركزة في لندن، جرى الاستماع إلى شهادات تؤكد أن بعض الأفراد سافر إلى باكستان في أواخر العام ٢٠٠١ من أجل «اكتساب الخبرة المطلوبة لاستخدام المتفجرات». أضف أن باكستان تشكل نقطة عبور شائعة للراغبين في شقّ طريقهم إلى منطقة الحدود الجبلية مع أفغانستان حيث يختبىء العديد من مقاتلي القاعدة وعلى الأرجح الشيخ أسامة بن لادن ود. أيمن الظواهري. وعلى الرغم من أن أحداً لا يعلم هل التقى انتحاريو لندن قادة تنظيم القاعدة شخصياً، فمن الجلي أنهم كانوا يمتلكون الوسائل التي تخوّلهم الاتصال عن قرب بالقيادة في خلال الرحلة. ويبدو أن خان على

وجه الخصوص قد أجرى حوارات مطوّلة مع د. أيمن الظواهري كما هو مثبت في البيانات التي صدرت عقب التفجيرات.

تجدر الإشارة إلى أن البيان الذي أصدرته القاعدة في أوروبا عقب التفجيرات لإعلان مسؤوليتها عن الهجوم يقع في الإطار الأيديولوجي المتطرف للمجموعات الجهادية المصرية الأكثر ميلاً إلى القتال. وأنا في الواقع شبه متيقّن أن د. أيمن الظواهري صاغ البيان بنفسه.

إضافة إلى ذلك، يبدو أن الوصاية الأخيرة لخان - من إنتاج شركة الصحاب التابعة للقاعدة - قد أعدت على الأرجح في خلال تلك الرحلة. وإن لم يكن الأمر كذلك، فهذا يعني أن خان كان قادراً على الوصول إلى شركة الصحاب الإنتاجية، مما يؤكد تواصله مع شخصيات رفيعة المستوى في القاعدة. واللافت أن الكلمات التي كان ينطق بها خان باللغة الإنكليزية (المشوبة بلكنة سكان يوركشاير الواضحة) كانت في كثير من الأحيان صدى للعبارات التي يستخدمها الشيخ أسامة بن لادن. فعلى سبيل المثال، يقول الشيخ بن لادن في رسالته إلى «شعوب أوروبا» التي بُثّت في ١٥ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٤ عقب تفجيرات لندن: «الأمن حاجة ملحة لكل إنسان، ولن ندعكم تحتكرونه لأنفسكم». وفي السياق نفسه، يحذر خان بدوره تلك الشعوب قائلاً: «سنجعل منكم أهدافاً لهجوماتنا إلى أن نشعر بالأمن».

وفي الشريط المصوّر لوصية خان، جانب آخر يثير الاهتمام ويوحي أن الشريط صوِّر تحت إشراف كبار الشخصيات في القاعدة خصوصاً أن خان يتحدث عن «أبطال اليوم أمثال حبيبنا الشيخ أسامة بن لادن ود. أيمن الظواهري وأبي مصعب الزرقاوي». وبما أن التحالف الرسمي بين مجموعة الزرقاوي وتنظيم القاعدة ترسّخ تحديداً في الوقت الذي أُعدّ الشريط المصوّر (كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٤)، فمن المستبعد أن يكون ذلك محض مصادفة. فالربط بين الشخصيات الثلاث على هذا النحو الدعائي من شأنه أن يترك أثراً هائلاً في نفوس الجهاديين.

فضلاً عن ذلك، تم وصل الشريط المصوّر ببيان للدكتور أيمن الظواهري يصرّح هذا

الأخير من خلاله بالعبارة المجرّدة بأن التفجيرات جاءت كرد مباشر على السياسة الخارجية التي تعتمدها المملكة المتحدة، «تماماً كما كانت هجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر رداً على السياسة الخارجية الأمريكية». كذلك هدّد الظواهري في بيانه بشن مزيد من الهجمات على أوروبا في المستقبل القريب لأنها تجاهلت عرض الهدنة الذي قدّمه الشيخ أسامة بن لادن في الخامس عشر من نيسان / إبريل العام ٢٠٠٤.

لكن هذا لا يعني تجاهل الأسباب الاجتماعية العميقة الكامنة وراء تفجيرات لندن. فكما هو شائع في أوساط العديد من الشبان المسلمين الذين يشعرون بأنهم موضع استعداء وإقصاء وازدراء في أوروبا، كان ينتاب خان وأتباعه شعور عميق بالتماهي مع الأمة (أي العالم الإسلامي الأوسع نطاقاً) التي تتجاوز حدود الجنسية أو حتى العرق. والواقع أن هذا ما يقصده الشيخ بن لادن عندما يقول في الشريط المسجل في ٢٣ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦: «الغرب لا يزال يؤمن بالتفوق الإثني وينظر باستعلاء إلى الأمم الأخرى. هم يصنّفون الناس إلى أسياد بيض وعبيد غير بيض». وبالتالي، يُنظر إلى القادة الإسلاميين النموذجيين، أمثال الشيخ بن لادن والزرقاوي، باعتبارهم القيّمين على إعادة تصويب حالة الظلم وعدم الإنصاف القائمة منذ زمن بعيد. كما أن الدلائل المستنبطة من الروايات تشير إلى أنه من الشائع أن ينزع الشباب البريطاني المسلم إلى إضفاء مزيد من الزخم على صورته «الصلبة» عبر ادعاء الانتماء إلى مجموعات جهادية متطرفة.

في الحادي والعشرين من تموز / يوليو العام ٢٠٠٥، نجت أنفاق لندن من هجوم انتحاري آخر عندما لم تنفجر القنابل الأربع. ووُجّهت أصابع الاتهام هذه المرة إلى شباب من إفريقيا الشرقية هم: إبراهيم مختار سيد، ٢٧ عاماً، أريتري الأصل يقيم في المملكة المتحدة ويحمل الجنسية البريطانية؛ عثمان حسين، من أثيوبيا في الأصل ويحمل الجنسية البريطانية؛ ياسين حسن عمر، ٢٤ عاماً، ورمزي محمد، وكلاهما من الصومال. وقد أعلنت كتائب أبي حفص المصري مجدداً مسؤوليتها عن الهجوم مؤكدة أن الهجمات ستستمر في أوروبا إلى أن يُترك العراق بسلام.

أزمة الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية

تجلّى الجهاد الثقافي على نحو استثنائي لا سابق له في أواخر العام ٢٠٠٥، عندما نزل آلاف المسلمين في جميع أنحاء العالم إلى الشوارع احتجاجاً على مجموعة من الرسوم الكاريكاتورية التجديفية التي تصوّر النبيّ محمد (ص). وكانت هذه الرسوم قد نُشرت للمرة الأولى في ٣٠ أيلول / سبتمبر في الصحيفة الدانماركية الأكثر مبيعاً «جيلاندز بوستن». وقد استمرت مظاهر الاحتجاج أشهراً عدة بوتيرة متصاعدة بلغت حد التعبير عن الغضب والانفعال، مما أدّى إلى وقوع عدد كبير من الضحايا. ففي شباط / فبراير العام ٢٠٠٦، قتلت الشرطة الباكستانية برصاصها خمسة متظاهرين على الأقل، كما قُتل ١٥ مسيحياً في نيجيريا حيث هاجم المسلمون الكنائس وأحرقوها.

الواقع أن الاحتجاجات شكلت حدثاً بارزاً على المستوى التاريخي، خصوصاً أننا شهدنا فيها تعبئة شعبية عالمية للأمة رداً على مظلمة مشتركة تتمثّل بالتهجّم على دين المسلمين وكرامتهم. وتكرر ظهور الشيخ أسامة بن لادن كقائد صوري لهذه الانتفاضة مع رفع المتظاهرين في رام الله على سبيل المثال شعارات من نوع: «بن لادن يا حبيبنا، ينبغي تفجير الدانمارك».

وفي الثالث والعشرين من نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦، كان الشيخ بن لادن قد بلور رده على أزمة الرسوم الكاريكاتورية من خلال فتوى تذكّر بتلك التي كان آية الله الخميني قد أصدرها في العام ١٩٩٠ ضد الكاتب البريطاني سلمان رشدي. فقد حضّ الشيخ بن لادن أخوانه المسلمين على «معاقبة الصحافيين الصليبيين الذين ارتكبوا جرائم مروّعة بحق النبيّ محمد (ص)... لقد أجمعت الأمّة على ضرورة قتل كل من يهين الرسول أو يحقّره».

لا شك في أن إقدام الوسائل الإعلامية الغربية على نشر الرسوم بدايةً، ومن ثم الاستمرار في عرضها، هو خطوة غير مدروسة وسفيهة. وقد بدا أن أزمة الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية قد أربكت حقيقةً العديد من الأوروبيين الذين ردّوا على الأزمة بحجج تدعم الحق بحرية التعبير. لكن الغرب «يحظّر» استخدام بعض المواضيع في إطار السخرية والاستهزاء، بدءاً من النساء وصولاً إلى المعوّقين. فكما أشار د. أيمن

الظواهري في شريط مصوّر تحدّث فيه عن هذه المسألة وبُثّ في الرابع من آذار / مارس العام ٢٠٠٦، ومما قال «لا أحد يجرؤ على إهانة اليهود... أو مثليي الجنس». ولا بد من الإشارة في هذا الإطار إلى أن عدم احترام القيم غير الأوروبية يشكل ظاهرة خطيرة جداً في وقت يتفشى الشعور بالغضب والاستياء في أوساط المسلمين، مما يسهّل على القاعدة مهمة الترويج لأزمة الرسوم الكاريكاتورية باعتبارها «امتداداً لحرب الصليبيين على الإسلام»، الأمر الذي دعم جدول أعمالها السياسي.

تجدر الإشارة إلى أن العنصر الجهادي في أوروبا راسخ ومتشعّب نتيجة وجود شبكة من الخلايا الصغيرة الناشطة أو النائمة في معظم الدول الأوروبية. وتتكوّن هذه الخلايا من أفراد ينتمون في الأصل إلى مجموعات إسلامية قتالية متعددة قد يكون لها جدول أعمالها الخاص، وإن كانت تشارك القاعدة في أيديولوجيتها وطموحاتها السياسية / الدينية الطويلة الأمد وتعترف بقيادتها.

وكثيراً ما تضم هذه المجموعات أعضاء مشتركين يوفّرون قناة اتصال بالشخصيات الرئيسة في القاعدة، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أم بطريقة محدودة. إلى ذلك، ويضطلع الإنترنت بدور حيوي من حيث الحفاظ على هذه الشبكة وتوفير دفق مستمر وموثوق به من الأخبار والمعلومات العسكرية والعملية والتحريضية.

وفي الوقت الحالي، يتمثّل الحضور الجهادي في أوروبا بثلاث مجموعات رئيسة. فقدامى المحاربين من العرب الأفغان والبوسنيين الذين وجدوا في الغرب ملجأ لهم في تسعينيات القرن العشرين يشكّلون الجيل الأول من رجال القاعدة المتمركزين في أوروبا. والواقع أن وجود الشبكة الأوروبية يُعزى بجزء كبير منه إلى العلاقات الوثيقة التي يتميّز بها هؤلاء. فهم كانوا يشكّلون في الماضي المجنِّدين والقادة النموذجيين للخلايا الجهادية (والعديد منهم مُحتجز في السجون حالياً)، لكنهم أصبحوا عقب أحداث ١١ أيلول / سبتمبر والاعتداءات الوحشية التي ارتُكبت في أوروبا عرضة لمراقبة مكثفة ومستمرة. لكن هذا لا يعني أنهم ما عادوا يشكّلون أي خطر، خصوصاً أن معارفهم وخبراتهم - سواء أتجلّت في هيئة المعرفة العسكرية الفعلية أو التحليل الاستراتيجي أو

التنظير الأيديولوجي - تبقى موضع تأثير بالغ، بل لا شك في أنهم قادرون على تحريض الجيل الأكثر شباباً على العمل المتطرف.

أما أكثر المجموعات نشاطاً، فتتكوّن من الشبان المسلمين المهاجرين الساخطين، وهم في الغالب من الجيل الثاني أو الثالث ويعانون تعقيدات في ما يتعلق بالهوية الثقافية يجدون الحل لها في انتمائهم إلى الأمة. والجدير ذكره أن الاعتداءات الشنيعة التي ارتُكبت أخيراً في أوروبا نفّذها أمثال هؤلاء الشبان الذين دُفعوا إلى التطرف في المساجد والسجون، وعبر الاتصالات الشخصية أو المواقع الجهادية على شبكة الإنترنت، فعمدوا بكل بساطة إلى إنشاء خلاياهم الخاصة. هذا وتتزايد أعداد المواطنين الأوروبيي الأصل الذين يعتنقون الإسلام وينخرطون في أعمال العنف في العراق أو في أوطانهم. وكثيراً ما يكون متعذراً على الشرطة تعقب هؤلاء الجهاديين من المواطنين المحليين لأن لا شيء يسمح في العادة بتمييزهم من آلاف الشبّان أمثالهم. وفي العديد من الحالات، تخطط هذه الخلايا للهجمات وتنظمها بشكل مستقل، على الرغم من أنني على يقين تام من خضوع أفرادها لمستوى معيّن من التدريب عندما يتعلق الأمر بالتفجيرات الانتحارية. وعلى الرغم من الاستقلالية الظاهرية التي يتمتع بها هؤلاء الشبّان، فإنهم قادرون على المساهمة في شبكة الروابط السرية التي تفضي حتماً إلى القاعدة، كما رأينا في حالة منفّذي تفجيرات لندن.

ومن الواضح أن قيادة القاعدة تبدي اهتماماً بالغاً بهذه المجموعة من الجهاديين «المغمورين» في بلدانهم الأم وبقدرتهم الهائلة على استقطاب أفراد من جاليات المهاجرين يشعرون باستعداء المجتمع الأوروبي لهم وبالسخط جراء إقصائهم إلى الحارات القذرة. ولعل خير إثبات على ذلك التلميحات إلى القضايا الأوروبية في التصريحات الصادرة أخيراً (نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦) عن الشيخ أسامة بن لادن (الذي تضمن بيانه فتوى متعلقة برسّامي الكاريكاتور الدانماركيين) وأيمن الظواهري (الذي حذا حذو الشيخ بن لادن في الحديث عن المضايقات التي تتعرض لها النساء المسلمات الراغبات في ارتداء الحجاب في فرنسا).

ونذكر من الإثباتات الأشد إقناعاً في هذا المجال الشريط المصوّر الذي أصدره أيمن الظواهري في ٢٧ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦، والشريط الذي بثّه الزرقاوي في الرابع والعشرين من الشهر نفسه، مترجمين إلى اللغة الإنكليزية، مما يؤكد أن الرجلين كانا يدركان أن العديد من المهاجرين المسلمين الأوروبيين من الجيلين الثاني والثالث قد لا يجيدون اللغة العربية. فضلاً عن ذلك، أصبح عدد متزايد من المواقع الجهادية الإلكترونية المتضمنة إرشادات عسكرية ومبادىء أيديولوجية ولوحات نشرات، يعتمد اللغة الإنكليزية ولغات أوروبية أخرى.

في العقد المنصرم، كانت مجموعة جديدة في أوروبا تتكوّن كلّها تقريباً من الأفارقة الشماليين الذين شكّلوا ما يمكن تسميته «السيّاح الجهاديين». وقد حضر هؤلاء إلى المدن الأوروبية بأوراق ثبوتية مزوّرة ولا غاية لهم سوى إنشاء خلايا عسكرية وتجنيد المجاهدين. ولا بد من الإشارة إلى أن معظم أفراد هذه المجموعة يرتبطون بشبكة المجموعة السلفية الجزائرية للتبشير والجهاد، التي تبدو على ارتباط وثيق بالقاعدة. وفي حين أن محور اهتمام هذه الخلايا هو توفير الزخم والقوة للثورة المستمرة في الجزائر، فإن حضورها ينبغي أن يكون موضع اهتمام باعتبارها توفّر أداة للقاعدة تسمح لها «بالتعاقد من الباطن» على هجمات تُنفّذ في أوروبا. والواقع أن هذه الشبكة التي تمركزت في الأصل في إيطاليا (وتحديداً في ميلانو التي تحولت إلى معقل للنشاط الإسلامي) تملك فروعاً في غالبية الدول الأوروبية، كما تتميّز بعلاقاتها الواسعة مع جماعة التكفير والهجرة التي يتذكّر القارىء حتماً إشارتنا إلى تورّطها في قتل تيو فان غوخ.

أعتقد أن قيادة القاعدة (ومثلها الزرقاوي قبل مقتله) تركّز أنظارها على أوروبا، بل إن هجوماً آخر يبدو وشيكاً. فلطالما بقيت أوروبا متورطة في العراق ومستمرة في دعمها مشروع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، اعتبرها الجهاديون هدفاً مشروعاً لهجماتهم.

في بيان أصدره الزرقاوي في ٢٤ نيسان / إبريل العام ٢٠٠٦، أعاد التذكير بالهدنة التي

عرضها الشيخ بن لادن على الأوروبيين فرفضوها. ويقول الزرقاوي في هذا الإطار: «كان من الأفضل لكم أن تقبلوا بها، لكن غطرستكم دفعتكم إلى الرفض». وكان الزرقاوي قد دأب في توفير دفق ثابت من المجندين الأوروبيين للجهاد مع قواته في العراق. إنما يبقى علينا أن نشهد التأثير الذي ستخلّفه الأعداد الهائلة من المجاهدين الأوروبيين العائدين من العراق، وإن كانوا سيشكلون على الأرجح مجموعة قتالية زادتها المعارك في العراق صلابة وأكسبتها معرفة متقدمة في الأساليب العسكرية التي يعتمدها الأعداء الغربيون للقاعدة.

معروف أن القاعدة تلتزم تفكيك القوة العظمى التي تمثلها الولايات المتحدة وتفكيك حلفائها في الغرب. وهل من طريقة أفضل من تقويض هذه الأنظمة من الداخل؟ الواقع أن مكاوي، الخبير الاستراتيجي في القاعدة، يحدد في خطته الطويلة الأمد التي أشرنا إليها في صفحات أخرى من هذا الكتاب، «مرحلة رابعة» تجعل من تنظيم القاعدة شبكة عالمية مترابطة على نحو غير وثيق عبر الأيديولوجيا وعبر مجموعة من المبادىء الإرشادية. وها نحن بدأنا نشهد ظهور هذه المرحلة في أوروبا.

الفصل الثامن
مستقبل القاعدة

أظهرت الأحداث الأخيرة، ولا سيّما الهجمات المدمّرة في أوروبا وفي شرم الشيخ في مصر، أن تنظيم القاعدة ليس حاضراً فحسب، إنما يرتكز أيضاً على استراتيجيا طويلة الأمد وقاعدة أيديولوجية متينة. وفي الوقت نفسه، يبدو التنظيم قادراً على التبدّل والتكيّف مع المتغيرات في الظروف والتاريخ والاستراتيجيا.

لا بد من الإشارة إلى أن هذه الهجمات نفّذتها خلايا سرية محلية، بل إن العديد من المنفّذين كانوا انتحاريين ترعرعوا في بلادهم الأم. ويبدو أن هؤلاء الناشطين يشكلون أسوأ كابوس لأجهزة الاستخبارات الغربية، خصوصاً أن لا روابط سابقة لهم بالمجموعات الإسلامية المتطرفة أو معسكرات التدريب الأفغانية. وبما أن تعقّب هؤلاء أو التعرّف إلى هوياتهم أمر مستحيل، أثبتت أجهزة الاستخبارات عجزها التام عن استشراف هذه الهجمات، فضلاً عن منعها. وفي حال نجحت أجهزة الاستخبارات في اعتقال بعض الناشطين الأساسيين، فإن هذا لا يؤثّر على ما يبدو في معدل وقوع الهجمات.

الواقع أن المؤشرات كلها تثبت تنامي نفوذ القاعدة وقوتها. فبعد أن تحوّل هذا التنظيم إلى أيديولوجيا، لم تعد القيود المادية أو الجغرافية تقف عائقاً أمام توسعه، بل إنه أضحى مظلة عالمية راعية للمجموعات والأفراد الذين يشاركونه في جدول أعماله.

أضف أن الكتيّبات التدريبية والأيديولوجية، والاستراتيجيا الطويلة الأمد الخاصة بالقاعدة لم تعد تشكل حقلاً حصرياً يخضع لرقابة قيادة مركزية، بل إنها باتت متوافرة في فضاء الاتصالات الإلكترونية وبالإمكان ولوجها بسهولة. كما يمكن أي شخص بالغ العزم

والتصميم أن يساهم في مشروع القاعدة.

والجدير ذكره أن الشيخ بن لادن قد سدّ الثغرة المعاصرة التي أوجدها التاريخ لجهة وجود قائد مسلم قوي يوحّد الأمة في الحرب على الولايات المتحدة وحلفائها ويعود بالعالم الإسلامي إلى مجده الغابر. وهذا ما يراه الملايين في الشيخ بن لادن. وسواء أحياً كان أم ميتاً، وسواء أأعجبنا ذلك أم لا، يبقى واحداً من الشخصيات التاريخية الرئيسة في عصرنا.

لا شك في أن القاعدة تُعتبر فريدة من نوعها في تاريخ التنظيمات المتطرفة. فالقاعدة هي أول تنظيم يتمتّع بمثل هذه التركيبة العالمية المهمة، والسبب يُعزى إلى عاملين أولهما انتشار المسلمين في أنحاء العالم. أما العامل الثاني الأكثر حراجة، فيتمثل بشبكة الإنترنت. فبمقدور أي مسلم، أينما كان في العالم، أن يصبح على الفور جزءاً من الأمة الإلكترونية التي يتمثّل جناحها الجهادي في المقام الأول بتنظيم القاعدة.

هذا وتُعتبر القاعدة متفردة من حيث بنيتها التنظيمية. ففي ظل وجود قيادة مركزية تضطلع بدور القدوة ومصدر الإلهام، أصبحت الأمور اللوجستية اليومية منوطة بالقادة الميدانيين الموزعين في أكثر من أربعين دولة في العالم. وأشير مجدداً إلى أن هذه الترتيبات باتت ممكنة بفضل شبكة الإنترنت التي تسمح بتوفير وصيانة وتحديث الإطار الأيديولوجي والاستراتيجي الذي يتيح لهؤلاء القادة ـ وبالطبع لأي مجموعة أو فرد ـ إمكانية التحرك.

ويبقى أن نشير أخيراً إلى أن القاعدة خطيرة على نحو متميّز لأنها قادرة على تجنيد الآلاف وربما الملايين من مسلمي العالم البالغ عددهم ١,٣ مليار نسمة، وذلك عن طريق تطبيق تفسير للإسلام يلقي على معتنقيه، دون غيره من أديان العالم، موجب القتال. لكن من الضروري الإشارة هنا إلى أن قلة قليلة فقط من الإسلاميين تؤيد العنف، إضافة عن ممارسته.

استراتيجيا طويلة الأمد

ما يميّز القاعدة حقيقة، ويجعلها بحسب اعتقادي «ناجحة» على طريقتها الخاصة، هو

أنها طوّرت بكثير من الدقة والعناية استراتيجيا طويلة الأمد يتم التقيّد بها بصرامة على أساس الخبرة والبحث والمراقبة. والواقع أن هذه الاستراتيجيا ستشكل المبدأ الإرشادي لمستقبل القاعدة.

ولا ينبغي للغرب أن يستخف بالقدرة الفكرية لقيادة القاعدة أو نطاقها، خصوصاًأن هذه القيادة تتمتع بمستوى عالٍ من العلم والثقافة والمعرفة.

ويبدو لي أن الاستراتيجيا التي تعتمدها القاعدة لهزم أعدائها تتميّز بجوانب أربعة هي الجانب العسكري، والجانب الأيديولوجي / السياسي داخل العالم الإسلامي، والجانب الأيديولوجي / السياسي في أوساط مواطني الولايات المتحدة وحلفائها، وأخيراً الجانب الاقتصادي.

الاستراتيجيا العسكرية

في الحادي عشر من آذار / مارس العام ٢٠٠٥، نشرت صحيفة «القدس العربي» مقتطفات من وثيقة عنوانها «استراتيجيا القاعدة للعام ٢٠٢٠» كان محمد إبراهيم مكاوي، الخبير الرئيسي لدى تنظيم القاعدة في مجال الإستراتيجيات العسكرية، قد نشرها على شبكة الإنترنت. والواقع أن مكاوي يعمل في الظل، ولا تتوافر عنه معلومات كثيرة، باستثناء أنه كان في ما مضى خبيراً في الإستراتيجيات الحربية في الجيش المصري.

أما الوثيقة المذكورة، فتبيّن أن القاعدة قد انطلقت بخطتها الرئيسة المتمثلة بإطلاق حملة جهادية طويلة الأمد تهدف إلى تخليص الأمة من مختلف أشكال الظلم، وأن هذه الحملة تندرج في خمس مراحل.

في المرحلة الأولى، سعت القاعدة إلى استفزاز ما يصفه مكاوي «بالفيل الأمريكي الثقيل الحركة» بغية دفعه إلى غزو أراضٍ إسلامية. فهجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر، التي بدأ التخطيط لها أقله منذ العام ١٩٩٨، دفعت الولايات المتحدة إلى شنّ هجوم فعلي وتام على أفغانستان ولاحقاً إلى غزو العراق.

في المقابل، قضت المرحلة الثانية من الخطة العسكرية بإعادة إيقاظ «فيل عملاق» آخر

هو الأمة نفسها. وبحسب مكاوي، تتمثل الطريقة الأكثر فاعلية لتحقيق ذلك، في استقطاب أعداد هائلة من الجنود الأمريكيين إلى أرض إسلامية، الأمر الذي سيثير حتماً غضب الأمة ويؤدي إلى مواجهة شاملة. فلا شك في أن الجانب الديني لهذا الوضع، الذي يذكّر إلى حد بعيد بالحملات الصليبية في القرون الوسطى، سيثير حفيظة الأمة ويولّد كرهاً مستشرياً لأمريكا؛ وهذا في الواقع ما كانت القاعدة تراهن عليه، خصوصاً أن إطلاق الجهاد يفرض أولاً على القاعدة تعبئة المجاهدين، والجدير ذكره في هذا الإطار أن التمرد الدموي المتنامي، فضلاً عن «الخزّان» اللامتناهي على ما يبدو من المقاتلين المحليين والأجانب في العراق، يشهد على نجاح القاعدة في هذا الميدان. وقد تبدو قيادة تنظيم القاعدة متبصرة جداً من حيث استشرافها ما سيحدث، لكنني أشهد بأن الهدف الذي أعلنه الشيخ بن لادن عندما التقيته في العام ١٩٩٦ كان «دفع الولايات المتحدة إلى خوض الحرب على أرض إسلامية».

أما المرحلة الثالثة، فتتمثّل وفقاً لمكاوي، بتوسيع دائرة النزاع إلى سائر أنحاء المنطقة وتوريط الولايات المتحدة في حرب استنزاف طويلة الأمد. والواقع أن هذا ما بدأ يحدث مع النشاط المتجدد في أفغانستان وتقويض القوات الأمريكية وعزمها في العراق. وتبقى الغاية المنشودة استحداث «مثلّث الرعب الجهادي» الذي يبدأ في أفغانستان ويمرّ بإيران المحايدة حالياً وبجنوبي العراق ثم بجنوب تركيا وجنوب لبنان، وصولاً إلى سوريا.

وتتمثل المرحلة الرابعة بتحوّل القاعدة إلى شبكة عالمية من خلال إحداث تغييرات تنظيمية تنتقل بالقاعدة أكثر فأكثر إلى خارج منظور أجهزة الأمن الدولية وخبرتها. فتحويل القاعدة إلى مجموعة من المبادىء الإرشادية، أي إلى أيديولوجيا، يسمح لها بأن تتجاوز الحدود الوطنية كافة ويجعل من إرساء تنظيمات ملحقة بها أو تابعة لها مهمة سهلة على نحو استثنائي. فعلى سبيل المثال، لم يتبيّن أن لمنفذي الهجمات الأخيرة (في الدار البيضاء ولندن مثلاً) ارتباطاً صريحاً وعلنياً بمجموعات إسلامية محلية متطرفة، كما لم يثبت أنهم تلقوا أي تدريبات في أفغانستان. وبالتالي، فإن التعرف عليهم قبل ارتكابهم الاعتداءات الشنيعة كان شبه مستحيل. والجدير ذكره أن القادة الميدانيين والمحليين يتمتعون باستقلالية تامة على صعيد التخطيط واختيار الأهداف والتكتيكات، الأمر الذي

يمنح التنظيم مرونة بالغة ويوفّر في الوقت نفسه التماسك الأيديولوجي والاستراتيجي. فمسار القاعدة قد رُسم بوضوح ويُمكن الاطلاع عليه بسهولة على شبكة الإنترنت.

وتبقى الإشارة إلى أن المرحلة الخامسة والأخيرة تلحظ تمدد الولايات المتحدة على نحو يتخطّى قدراتها التاريخية الضخمة بحيث تخوض حروباً على جبهات متعددة فيما تحاول تأمين الحماية لآبار النفط في منطقة الخليج والحفاظ على أمن إسرائيل. ويشير مكاوي إلى أن الموازنة العسكرية الأمريكية ستنهار عندئذٍ إلى حد الإفلاس، في حين ستكون خسارتها البشرية كارثية، الأمر الذي سيؤدي إلى انفجار القوة العظمى الشديدة البأس على المستوى الداخلي. وإذا كان هذا السيناريو يبدو بعيد الاحتمال، فمن الحكمة أن نتنبّه إلى أنه يصف فعلياً انهيار الاتحاد السوفياتي.

هذا ويقول بعض المصادر إن القاعدة ستسعى بسهولة بعد انهيار الولايات المتحدة إلى إسقاط الأنظمة العربية المكروهة لتعيد إرساء الخلافة. فالصدام العسكري الحاسم والنهائي بين جيش إسلامي شديد البأس و«غير المؤمنين»، الذي يشير إليه الشيخ بن لادن في غالب الأحيان سيؤدي إلى انتصار الخلافة وسيطرتها سيطرة كاملة. وهذا هو على الأقل ما تحلم القاعدة بتحقيقه.

الاستراتيجيا الأيديولوجية والسياسية داخل العالم الإسلامي

ارتكبت القاعدة أخطاءً عدة منذ نشأتها. فالفتوى التي أصدرتها في العام ١٩٩٨ وأجازت بها قتل «الصليبيين واليهود» لقيت معارضة واسعة في أوساط المتعاطفين مع القاعدة، وحتى في أوساط بعض أفرادها. وكان أحد، المعارضين الرفيعي الشأن لهذه الفتوى «سفير الشيخ بن لادن في لندن» خالد الفواز المُحتجز حالياً في أحد سجون بريطانيا بانتظار تسليمه إلى الولايات المتحدة. فقد نشر الفواز تصريحاً في صحيفة «القدس العربي» يعبّر من خلاله عن اقتناعاته (التي صودف أيضاً أنها اقتناعات الكثيرين أمثاله) بأنه لا يجوز قتل المواطنين الأمريكيين فقط لأن حكومتهم تتسم بالعداء. وقال الفوّاز إن في أمريكا مواطنين مسلمين وغير مسلمين عارضوا سياسات حكومتهم. (يُذكر أن الشيخ بن لادن تراجع ضمنياً عن هذه الفتوى عندما عرض الهدنة على الشعب

الإسباني عقب انسحاب الجيوش الإسبانية من العراق؛ كذلك يوحي توجّهه إلى الشعب الأمريكي قبل الانتخابات الأمريكية، وقوله لهم إنهم وحدهم المسؤولون عن أمنهم، بإمكانية عقد هدنة ما معهم).

هذا وينقسم المسلمون في شأن رؤيتهم لهجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر. فبعضهم يرى فيها عملاً إرهابياً كارثياً أودى بحياة ثلاثة آلاف مواطن أمريكي وأدى إلى انهيار حكومة طالبان الإسلامية. وهم يعتبرون أن هذا العمل شوّه صورة الإسلام والمسلمين وأدى إلى اجتياح الولايات المتحدة أفغانستان والعراق وتسبّب بصراع بين العالم الغربي القوي والعالم الإسلامي الضعيف. في المقابل، يعتقد بعضهم الآخر أن الهجمات شكلت انتقاماً من العدو الأمريكي وجاءت كإثبات على أن اليد الطولى التي أطلقتها أمريكا في الشرق الأوسط، فضلاً عن دعمها إسرائيل والأنظمة العربية الفاسدة والاستبدادية، لن تبقى من دون عقاب.

ولا بد من الإشارة إلى أن الشيخ بن لادن والظواهري كانا يدركان دوماً أهمية «العلاقات العامة في مهمتهما». ففي المقتطف المذكور آنفاً من كتاب «فرسان تحت راية النبي»، يشدد الظواهري على ما يلي: «من الضروري أن نكسب احترام الناس وثقتهم ومودتهم. ولن يحبنا الناس إلا إذا شعروا بمحبتنا لهم واهتمامنا بهم واستعدادنا للدفاع عنهم». ويعترف الظواهري بأن تنظيم القاعدة «يمكن أن نكسب الأمة إلى جانبنا عندما نختار هدفاً تستحسنه، أي هدفاً يمكن للأمة أن تتعاطف مع أولئك الذين استهدفوه» (مقتطف مذكور آنفاً).

وفي العام ٢٠٠٣، قدم جورج بوش ما كان الظواهري يسميّه «هدفاً» يؤيد مسلمون عديدون «ضربه»، وهو تحديداً قوة احتلال قوامها ١٥٠ ألف جندي أمريكي على أرض العراق. أما مخاوف القاعدة على مستوى العلاقات العامة، فأضحت جزءاً من الماضي. فبعد أن كان استهداف الشيعة غير مقبول في السابق، ها إنه يشكل اليوم جزءاً من جدول أعمال القاعدة في العراق. ولطالما كان يتمّ السعي إلى تفادي إيقاع إصابات «فرعية» في صفوف المدنيين عندما يكون ذلك ممكناً. لكن المئات أخيراً باتوا يخسرون حياتهم في الهجمات التي ينفّذها المتمردون، وهي حالة برّرها الزرقاوي في تصريح له مسجّل في ١٥

أيار / مايو العام ٢٠٠٥ بالقول: «إراقة الدم الإسلامي... أمر جائز من أجل تفادي الشر الأعظم المتمثل بإيقاف الجهاد».

ولا شك في أن العراق يشكل بطرق عدة منصة أفضل للقاعدة من أفغانستان. فالعراق يوفّر بيئة ثقافية ناطقة بالعربية، ويشكل من الناحية الجغرافية قلب المنطقة. أما على المستوى الإسلامي، فالعراق لا يقل أهمية عن المملكة العربية السعودية وفلسطين كمعقل قديم للخلافة. أضف أن أنصار القاعدة في العراق هم من العرب السُنَّة الذين هُمّشوا عقب الاحتلال، فاستُبعدوا من مؤسسات الدولة على نحو مذل، مما جعلهم يتوقون إلى الثأر واسترجاع السلطة. وإن اندلعت في العراق حرب طائفية، فإن الدول المجاورة ذات الأكثرية السُنِّية قد تتحالف مع الأقلية العراقية، وهذا ما قد يؤدي إلى قيام دولة إسلامية جديدة في المنطقة. والواقع أن القاعدة اعتبرت هذه الخطوة ضرورية لتحقيق مشروعها الطويل الأمد المتمثل بإعادة إرساء الخلافة.

أضف أن القاعدة تبقى معارضاً شرساً للعديد من الأنظمة في العالم الإسلامي، بل إن جزءاً كبيراً من مساعيها يهدف إلى تشجيع التمرد وتعبئة الشعوب ضد حكوماتها وضد الولايات المتحدة في الحين نفسه. ولطالما صرّح الظواهري بأنه يؤثر العيش في دولة لا تعترف بأي قانون على الخضوع لحكم الطغاة. والواقع أنه والشيخ بن لادن وجّها في أكثر من شريط مسجّل انتقادات لاذعة إلى هذه الأنظمة العربية الفاسدة واتهماها بالتعاون مع الصهاينة والولايات المتحدة. ويبدو أن هذه الأشرطة تلقى استحساناً واسع النطاق في أوساط العالم الإسلامي وتسهّل تجنيد القاعدة للجهاديين.

واللافت أن القاعدة لا تزال، بالنسبة إلى مجموعة كبيرة من الأفراد في العالم الإسلامي، توفّر رؤية فريدة ومقنعة يتلاقى فيها الإيمان والهوية الإسلامية والرغبة في تحقيق العدالة السياسية، وتولد شعوراً مسكراً بإمكانية تحقيق التغيير الذي افتقدته المنطقة على مدى عشرات السنين.

وسواء أرحبت غالبية الشعوب المسلمة بنموذج طالبان أم رفضته، فإن الحكم المبني على الشريعة الذي تدعو إليه القاعدة يبقى محل ريبة. لكن هذه المشكلة ليست موضع قلق لدى المسلمين فيما القوات الأمريكية موجودة على أراضيهم والقاعدة تستمر في

الإيفاء بوعودها المتصلة بإنقاذ الأمة من المحتلين.

الاستراتيجيا الأيديولوجية والسياسية في ما يتعلق بالولايات المتحدة وحلفائها

يعتقد أكثر من ٨٠ في المئة من المسلمين أن أمريكا تشن حربها على الإسلام وليس على الإرهاب، وفي هذا السياق، ترغب القاعدة في إثارة «صراع بين الحضارات» يتواجه فيه التطرف المسيحي والتطرف الإسلامي على نحو يؤدي في النهاية إلى اندلاع حرب بين «المؤمنين» والكافرين تُستخدم فيها مختلف الإمكانات المتاحة. لكن القاعدة تودّ أن ترى الولايات المتحدة تخوض هذه الحرب وحدها.

وإذ ذاك، تسعى القاعدة إلى إحداث شقاق بين الولايات المتحدة وأوروبا. ولا شك في أن تنظيم القاعدة قد نجح في إحداث تأثير بالغ في هذا الاتجاه عبر تفجيرات مدريد ولندن. ففي الرابع من آب / أغسطس العام ٢٠٠٥، أبلغ الظواهري الشعب البريطاني، من خلال رسالة صوتية مسجلة، بأن «بلير قد ألحق الدمار بقلب لندن». والواقع أن مواطنين بريطانيين كثراً يعتبرونه مسؤولاً شخصياً عن التفجيرات بسبب قراره المشاركة في غزو العراق.

وبحسب مصادر مقرّبة من القيادة، تولي القاعدة اهتماماً بالغاً بمناقشة الشعوب بدلاً من حكوماتها. أما المنطق المعتمد هنا، فيعتبر أن أي دولة، حتى الولايات المتحدة، قد تنهار داخلياً إذا ما انقلبت الشعوب على حكامها واعتبرتهم مسؤولين عن النكبات التي تنزل بها. وفي إطار السعي إلى زرع بذور السخط الشعبي، بالغ الشيخ بن لادن في الحديث عن مصالح إدارة بوش في العراق، مذكراً الشعب الأمريكي في خطبة ألقاها في ٢٩ تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٤ «بحجم العقود التي فازت بها شركات مريبة كبرى - مثل هاليبورتون Halliburton وغيرها - ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببوش وإدارته». وأضاف الشيخ بن لادن في الخطاب نفسه يقول: «أما الجهة الخاسرة فهي أنتم أيها الشعب واقتصادكم».

لا شك في أن العامة التي تواجه خطر التعرض لأي انفجار في أثناء التوجّه إلى العمل

لن ترضى بحكومة لا تفشل في حماية شعبها وحسب، بل تسمح أيضاً ببلوغ الإرهاب عتبة داره. وبالتالي، فإن الإحساس المزمن بالقلق وانعدام الثقة وغياب الأمن الذي يتولّد عقب الهجمات يباعد بين الشعوب وقياداتها أكثر فأكثر. أما الحكومات التي تسعى إلى استغلال مشاعر الخوف، تماماً كما فعلت الولايات المتحدة وبريطانيا في سياق اندفاعها إلى تطبيق قوانين مقيّدة أكثر من السابق، فإنها تعرض نفسها إذ ذاك للخطر. فقد شُبّه مثلاً القانون الوطني للولايات المتحدة الصادر في العام ٢٠٠١ بالمرسوم الذي أصدره هتلر في العام ١٩٣٣ في ما يتعلق بحريق البرلمان الألماني باعتبار أنه يقيّد الحريات المدنية بحجّة حماية الشعب. والواقع أن القانون الوطني كان موضع انتقادات كثيرة لأنه يقضي على مبادىء الحرية الشخصية وحرية الصحافة والتعبير وحرية الانتظام في مجموعات والحق بخصوصية التواصل. كذلك كان قانون الوقاية من الإرهاب الذي أصدرته حكومة طوني بلير في العام ٢٠٠٥ محط معارضة حادة على أساس أنه يخالف الحق بمحاكمة عادلة حفظها التاريخ القضائي البريطاني على مدى ٨٠٠ عام، الأمر الذي يفرض اعتماد إجراءات علّق عليها العضو المحافظ في البرلمان بوريس جونسون Boris Johnson بالقول: «إنها ستعيد فوراً إلى الأذهان الإجراءات المميزة لجهاز الأمن القديم Boss في جنوب إفريقيا ولكل شرطة سرية بما في ذلك الشرطة السرية السوفياتية المعروفة باسم «شيكا» CHEKA أضف أن التدابير التي اتخذتها المملكة المتحدة أخيراً (والتي نُشرت في آب / أغسطس العام ٢٠٠٥) لتسهيل عملية ترحيل «المتعاطفين مع الإرهابيين» المزعومين من شأنها أن تدفع فعلياً بمسلمي بريطانيا إلى التطرّف. لكن هذه المشكلة لا تنحصر في بريطانيا وحدها، خصوصاً وأن رد فعل مماثلاً تجلى في جميع أنحاء أوروبا وفي الولايات المتحدة. «فمطاردة الخارجين على الأعراف» التي تشنّ ضد الإسلاميين استناداً إلى فرضية مفادها أنهم جميعاً يؤيدون العنف - والحال ليست كذلك بالطبع - قد تولّد شبكة من التعاطف والغضب. وكلما اعتُبر أن هذه التدابير تندرج في إطار الظلم الأقصى والتعصب الأعمى والمعاملة غير المنصفة، تمّ النظر إلى أي رد فعل متطرف باعتباره مشروعاً ومبرراً، لا سيّما بالنسبة إلى المسلمين الذين يشعرون أصلاً بالتهميش والاستعداء.

الاستراتيجيا الاقتصادية لتنظيم القاعدة

لا بد من الإشارة إلى أن شنّ الحرب على الجبهة الاقتصادية يشكل مفهوماً يلقى استحسان القاعدة وقائدها صاحب الملايين الشيخ بن لادن. ففي خطاب توجّه به في التاسع والعشرين من تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٤ إلى الشعب الأمريكي، أشار فرحاً إلى حد ما، إلى أن «القاعدة أنفقت ٥٠٠ ألف دولار أمريكي على أحداث ١١ أيلول / سبتمبر العام ٢٠٠١، في حين أن أمريكا خسرت في ذاك الهجوم وفي تداعياته اللاحقة، أكثر من ٥٠٠ مليار دولار، ما يعني أن كل دولار أنفقته القاعدة تسبب والحمد لله بخسارة أمريكا مليون دولار.

هذا وقد خلّفت الهجمات تداعيات اقتصادية أخرى. فالمستثمرون العرب سحبوا مليارات الدولارات من المؤسسات المالية الغربية خشية تجميد أصولهم واستثمروها عوضاً من ذلك في العالم الإسلامي. فضلاً عن ذلك، تُستثمر اليوم إيرادات النفط الهائلة الناجمة عن تضخّم أسعار النفط حالياً في دول الخليج نفسها، الأمر الذي يسبب فورة اقتصادية.

أضف أن هجمات المتمردين المنتظمة على أنابيب ومنشآت النفط في العراق قد أثرت في أسعار النفط، حتى إن ما سُمّي «بالارتفاع المروّع» في قيمة النفط أدى إلى خفض إنتاج النفط بغية رفع الأسعار على نحو يثقل كاهل الاقتصاديات الغربية. لكن أسعار النفط ليست السبيل الوحيد لاستنزاف الولايات المتحدة.

تؤكد مصادر مقربة من قيادة القاعدة أن الظواهري من أشد المعجبين بكتاب «نهضة القوى العظمى وانهيارها» لأستاذ التاريخ في جامعة يال Yale بول كينيدي Paul Kennedy، حتى إن الظواهري يستخدم هذا الكتاب مرجعاً في سياق التخطيط الاستراتيجي. وتلحظ نظرية كينيدي باختصار ثلاثة أسباب لسقوط الإمبراطوريات العظمى هي زيادة التكاليف لولبياً بغية الحفاظ على الأمن الداخلي، والحضور العسكري التوسّعي في العالم الذي يترافق مع ازدياد الالتزامات على المستويين البشري والمالي، والمنافسة الأجنبية الشرسة في المجال التجاري.

والواقع أن الظواهري يؤمن بأن الولايات المتحدة تشكّل إمبراطورية من هذا النوع

في طريقها إلى الانهيار معتبراً أنها تستوفي أصلاً الشرطين الأول والثاني اللذين حددهما كينيدي. فالأمن الداخلي بات أصلاً مرتفع الكلفة نتيجة العمليات التي تنفذّها القاعدة أو تهدد بتنفيذها. ولطالما كرر جورج بوش ادعاءه غزو العراق بغية معالجة الإرهاب «هناك» بحيث لا ينتقل إلى عتبة أمريكا. لكن معلّقين عدة يعتقدون أن هجوماً عسكرياً على الولايات المتحدة يشبه في قوته وتأثيراته هجمات ١١ أيلول / سبتمبر بات وشيكاً.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن للولايات المتحدة التزامات مهمة في أجزاء من أوروبا وفي شمال شرقي آسيا وشرق آسيا والشرق الأوسط وجنوب غربي آسيا، فضلاً عن تورّطها في النزاعات الحالية في أفغانستان وعلى وجه الخصوص في العراق. كذلك تتبنّى الولايات المتحدة موقفاً مشاكساً من إيران التي اغتنمت فرصة انهماك الولايات المتحدة في العراق لتعيد إحياء برنامجها النووي.

إضافة إلى ذلك، يبدو أن الحرب في العراق قد بدأت تتحول بسرعة إلى حرب استنزاف، لا سيّما بالنسبة إلى الاقتصاد الأمريكي. ففي أواخر شهر حزيران / يونيو العام ٢٠٠٥، بلغت كلفة الحرب نحو ٢٥٠ مليار دولار أمريكي بمعدل شهري يوازي ٥ مليارات شهرية بحسب معظم التخمينات؛ بل إن بعض المعلقين يفترض أن الكلفة قد تزيد في النهاية على ٧٠٠ مليار دولار. وكما قال الشيخ بن لادن في رسالة وجّهها إلى الشعب الأمريكي، «لقد أجبر المقاتلون الجهاديون أخيراً جورج بوش على اللجوء إلى ميزانية للطوارىء بهدف المضي قدماً في القتال في أفغانستان والعراق، الأمر الذي يؤكد نجاح الخطة الهادفة إلى استنزاف أمريكا إلى حد الإفلاس بمشيئة الله تعالى».

أما الشرط الثالث الذي حدده كينيدي، فيسلط الضوء على منافسة تجارية عالمية مصدرها قوة عظمى معادية بدأت تتنامى. ووفقاً للظواهري (ولمعظم خبراء الاقتصاد)، تجسّد كل من الصين والهند مثل هذا التحدي، بل إنهما ستشكلان في خلال العقد المقبل مصدر تهديد فعلياً للولايات المتحدة واقتصادها.

ماذا لو اعتُقل الشيخ بن لادن أو قُتل؟

كثيراً ما أكد الشيخ بن لادن أنه لن يُؤسر حيّاً. والواقع أن الولايات المتحدة أنفقت

مليارات الدولارات وخسرت آلاف الجنود في إطار سعيها إلى القبض على الشيخ بن لادن وتدمير القاعدة. لكنها لم تحقق أي إنجاز يُذكر. وبالتالي، فإن كل يوم يمر فيما الشيخ بن لادن والظواهري طليقان يحمل معه نصراً سياسياً ودعائياً للقاعدة.

وصحيح أن أحداً لا يعلم فعلياً أين يختبىء الرجلان، إلا أن النظريات في شأن هذه المسألة غزيرة. فالبعض يعتقد أنهما ينتقلان من موقع إلى آخر في المناطق القبلية على طول الحدود الأفغانية الباكستانية التي تمتد على مسافة ١٥٠٠ ميل تقريباً. ولا بد من الإشارة إلى أن هذه المنطقة تقع كلها تقريباً خارج نطاق صلاحيات الحكومة الباكستانية وجيشها. أضف أن هذه المنطقة الجبلية الوعرة تشكل موطناً للقبائل الموالية للشيخ بن لادن والتي ترى فيه مجاهداً بطلاً ناضل من أجل تحرير أفغانستان وتخلّى عن الرخاء ورغد العيش ليقدّم الدعم لإخوانه.

في المقابل، يعتقد الرئيس الأسبق لجهاز الاستخبارات في باكستان، الجنرال أسد دوراني، أن المدن الكبرى هي أفضل مكان يمكن الشيخ بن لادن أن يبقى مختبئاً فيه. والواقع أن معظم عمليات اعتقال شخصيات رئيسية في القاعدة في باكستان تمت في مدن مثل كراتشي وفيصلاباد وبيشاور وكيتا Quetta وروالبيندي Rawalpindi.

وقد أخبرني أحد أقران الشيخ بن لادن المقربين منه بأن الشيخ كان يقيم في المنزل نفسه الذي يقطنه أبو زبيدة، عضو القاعدة المسؤول عن التعبئة والتجنيد الذي اعتُقل في فيصلاباد في آذار / مارس العام ٢٠٠٢. وقال المصدر نفسه إن الشيخ بن لادن غادر المنزل قبل أن تغير عليه قوة أمريكية باكستانية مشتركة بثلاثة أيام. وإذ تبدو هذه المعلومة معقولة إلى حد ما، لا أستبعد إمكانية أن يكون الشيخ بن لادن قد غادر الآن باكستان نهائياً.

عندما قابلت الشيخ بن لادن، ألمح إلى إمكانية انتقاله إلى الجبال اليمنية. وقد علمت لاحقاً أنه أرسل مبعوثين إلى اليمن من أجل التواصل مع القبائل هناك والتحقق من إمكانية انتقاله إلى اليمن. وكان أحد شيوخ القبائل الذين تواصل معهم الشيخ بن شاج من منطقة الصدر. (عادت زوجته الرابعة، اليمنية أمل السداح، إلى هناك في العام ٢٠٠٢).

أما الملاجئ الأخرى التي يُحتمل أن يأوي إليها الفارّون، فتشمل كشمير أو الجمهوريات الإسلامية للاتحاد السوفياتي سابقاً مثل أوزبكستان وأذربيجان أو حتى الشيشان.

والجدير ذكره أن نوع الأشرطة المصوّرة أو المسجّلة التي بثّها الشيخ بن لادن خلال الشهور الأخيرة لا توحي أنه يعيش في منطقة قبلية متخلّفة. فبياناته تشير إلى أنه والظواهري يمكثان في مكان مريح وآمن، وتبيّن أن بمقدورهما متابعة التطورات السياسية في المنطقة العربية والعالم والاطلاع على مجريات الأحداث المتكشفة.

وكان الشيخ بن لادن قد أخبرني بأنه، منذ عودته إلى أفغانستان بعد ترحيله من السودان، لم يستخدم أياً من أجهزة الاتصالات الحديثة كالهواتف الجوّالة أو العاملة بواسطة الأقمار الصناعية أو الإنترنت أو البريد الإلكتروني. فهو يفضل الآن نقل المعلومات والتعليمات عبر رسائل خطية يسلّمها مبعوثون من قبله. أضف أنه يُزوَّد بآخر الأخبار والمستجدات عن طريق أتباعه الذين يحمّلونها في مقهى الإنترنت ثم يخزّنونها على أقراص أو يطبعونها على الورق ليتمكّن الشيخ من الاطلاع عليها.

الواقع أن الشيخ بن لادن والظواهري يثبتان أنه من الصعب تعقبّهما، ليس أقله بسبب ذكائهما وتيقّظهما. فالرجلان قد اضطلعا شخصياً بمسؤولية أمنهما. واللافت أن الشيخ بن لادن يتحرّك مصحوباً بحارس شخصي واحد ومجموعة صغيرة من الرفاق الموثوق بهم في منطقة يعرفها حق المعرفة. وليس صحيحاً أنه من السهل التعرّف إليه بسبب طول قامته (١٩٠،٥ سنتيمتراً). فلو كان موجوداً بالفعل في الجبال بين باكستان وأفغانستان، فإن معظم الرجال في هذه المنطقة القبلية فارعو الطول ملتحون، لا بل يرتدون الزيّ نفسه الذي يرتديه الشيخ.

ولعل المؤشر الإضافي إلى النجاح الاستثنائي للتدابير الأمنية التي اتخذها الشيخ بن لادن يتمثّل في واقع أن لديه حالياً زوجتين ونحو ٢٠ ابناً وابنة يختبئون في أفغانستان. ولا أحد يعلم إلى يومنا هذا مخبأ زوجتَي الشيخ وأولاده أو أيضاً مخبأ عائلة الظواهري.

لا شك في أن الولايات المتحدة كانت محظوظة أكثر في تعقّب صدّام حسين لأنه كان متغطّرساً ولا مبالياً، وكان يتحرّك في المنطقة نفسها. فعلى الرغم من أن صدّام كان فاراً، فقد ظل يتصرّف وكأنه رأس الدولة. وإذ ذاك، كان يزور شيوخ القبائل ويتواصل مع أنصاره ويحيط نفسه بحرّاس شخصيين ليسوا موضع ثقة. أضف أن ١٤٠ ألف جندي أمريكي كانوا في العراق حيث أكثر من ثلاثة أرباع المواطنين العراقيين يناهضون نظام صدّام.

وعندما طُرد صدام حسين من السلطة، تخلّى عنه العديد من أنصاره، فيما تضاءل الدعم الشعبي الذي كان يحظى به، لكن العكس تماماً حدث ولا يزال يحدث مع الشيخ بن لادن. فهو ينتقل بين مناطق يُعرف سكانها بتأييدهم لتنظيم القاعدة، كما أن أتباعه أوفياء له إلى أبعد حدود ومستعدون للموت دفاعاً عنه. زد أن الوجود الأمريكي في المناطق القبلية، وبينها أفغانستان، يقتصر على ٢٠ ألف جندي حدّاً أقصى. وقلة فقط من القوات الأمريكية مولجة مهمة تعقب الشيخ بن لادن في الدول الأخرى التي قد يكون مختبئاً فيها.

وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ بن لادن والظواهري سيستمران في التأثير في مجريات الأحداث من وراء الكواليس ما بقيا على قيد الحياة. وهما سينتجان حتماً المزيد من التسجيلات الصوتية والبيانات المنشورة على مواقع الإنترنت التي تحض على الجهاد والعنف. وفي الماضي، كانت هذا البيانات تُستتبع في غالب الأحيان بهجوم ما. ففي السادس من تشرين الأول / أكتوبر العام ٢٠٠٢، حثّ الشيخ بن لادن أتباعه على ضرب المصالح الاقتصادية الغربية. وفي اليوم نفسه، استهدف انتحاري في زورق صغير ناقلة النفط الفرنسية ليمبورغ Limburg، وبعد مرور ستة أيام وقع انفجار في ملهى ليلي في جزيرة بالي الأندونيسية ذهب ضحيته ٢٠٠ شاب. (كان يرتاد الملهى سيّاح أجانب، ولا سيّما من أستراليا، حليفة الولايات المتحدة في الحروب على أفغانستان والعراق) إلى ذلك، دان الظواهري في كانون الأول / ديسمبر العام ٢٠٠٣ الرئيس الباكستاني برويز مشرّف، فنجا هذا الأخير بعد حين بأعجوبة من محاولة اغتيال. وقبل تفجيرات مدريد في العام ٢٠٠٤، أصدر كل من الشيخ بن لادن والظواهري شريطاً مسجلاً يهددان فيه بالانتقام لأرواح الضحايا الأبرياء الذين سقطوا في الحرب على العراق.

في رأيي أن الشيخ بن لادن لن يُعتقل أو يُقتل إلا بمحض مصادفة أو بضربة حظ لكنه سيضع الولايات المتحدة في مواجهة مجموعة جديدة من المشكلات، سواء أحياً كان أم ميتاً. فإن اعتُقل حياً، فسيكون لا بد من تحديد كيفية محاكمته، أي وفقاً لأي قانون وفي أي دولة. في المقابل، سيعني قتله تحويله إلى شهيد أو قديس، مما قد يؤدي إلى عمليات ثأر دموية.

لا بد من الإشارة إلى أن اعتقال صدام حسين لم يولّد أي شعور باليأس أو الإحباط لدى أتباعه، كما لم يوقف الثورة، بل العكس هو الصحيح. وعندما أمر عبد الناصر في

العام ١٩٦٦ بإعدام سيّد قطب، تحوّل هذا الأخير إلى بطل. وفي حين كان سيّد قطب كاتباً مغموراً من قبل، تزايد الطلب على كتبه بعد وفاته.

فإن جرت إزاحة الشيخ بن لادن بطريقة أو بأخرى، فذلك لن يؤدي إلى انهيار تنظيم القاعدة. فالنموذج المعتمد في عمليات القاعدة الأخيرة يبيّن أن للتنظيم حياة خاصة به مستقلة عن أي شخص أو مجموعة، أي أنه يشكل كياناً أيديولوجياً جماعياً بات أكثر متانة وتكاملاً وأقدر على الاستمرار وقتاً طويلاً بعد مقتل زعيمه. فالشيخ بن لادن سيبقى، حياً أو ميتاً، القائد الرمزي الملهم للتنظيم.

ما الذي ينبغي فعله؟

كما سبق أن رأينا، وفرّت الولايات المتحدة للقاعدة الأساس الجغرافي الذي كان التنظيم بأمس الحاجة إليه في العراق، ومنحتها فرصة تدريب الجهاديين واكتساب الخبرة القتالية. في غضون ذلك، تحوّلت القاعدة إلى تنظيم عالمي بحق.

بغية تنفيذ هجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر، كان على الناشطين في القاعدة، السفر إلى الولايات المتحدة وعبور الحواجز الأمنية في البلاد. أما اليوم، فلم يعد هذا الإجراء ضرورياً، بعدما بات للقاعدة فروع مستقلة وذاتية الحكم في العراق وأفغانستان وباكستان وأوروبا. كذلك تتوافر تقارير تشير إلى وجود فروع أخرى للتنظيم في دول عدة، من بينها الجزائر وأوزبكستان، وحتى فلسطين. واللافت أن كلاً من هذه الفروع يتمتع بالاستقلالية التامة ويمتلك إمكانات هائلة.

والواقع أن أمير الفرع المحلي لا يحتاج إلى تلقّي التعليمات المباشرة من القائد الأعلى للتنظيم الشيخ بن لادن، أو من الظواهري، من أجل تنفيذ عمليات بسيطة تهدف إلى التسبب بخرق أمني أو بجذب انتباه وسائل الإعلام. في المقابل، لا بد من «الشورى» في ما يتعلق بالعمليات الكبرى التي تتطلب الحصول على «إذن» مسبق. ففي ما يختص بتفجيرات مدريد مثلاً، تبلورت الخطة التي اعتُمدت لهذا الهجوم من خلال الشورى والتنسيق. أما التنفيذ، فجرى بشكل مستقل على أيدي الخلايا المحلية وبما يتماشى مع الشكل الجديد للقاعدة.

وغني عن القول إن الهدف الأول للقاعدة يتمثّل بالقضاء على المشروع الأمريكي للمحافظين الجدد، حيث تعتبر هؤلاء مسؤولين عن مختلف الشرور ـ السياسية والأخلاقية ـ المتفشية في العالم الإسلامي. وقد نجح الظواهري، وأخيراً الزرقاوي، في إقناع الشيخ بن لادن بمشروعية أي عمل من شأنه أن يقوّض الولايات المتحدة.

وصحيح أن مكانة الشيخ بن لادن كزعيم روحي للقاعدة تبقى غير قابلة للجدل، إلا أن وضعه كهارب قد أحدث فراغاً على مستوى القيادة العسكرية الشاملة. ولا شك في أن الزرقاوي استطاع إلى حد ما ملء هذا الفراغ. ففي بيان صدر أخيراً عن القاعدة في بلاد ما بين النهرين ونشره على الإنترنت السعودي أبو عبد الله أحمد العرام، جرت الإشارة إلى الزرقاوي باعتباره «الأقرب إلى تولّي منصب أمير التنظيم في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا». هذا وقد تبلورت ملامح الجيل الجديد من زعماء القاعدة (أبو مصعب السوري ذو اللحية الحمراء يجسّد شخصية رئيسية أخرى)، مما جعل التنظيم يصبح أكثر تشدداً. ويتجلى في الواقع أسلوب جديد من القسوة في ما يتعلق بالعنف الشديد الموجّه ضد مجموعة واسعة من الأهداف في العراق، وهو أسلوب جديد مخطط له بوضوح من أجل ترهيب الأعداء وإضعافهم.

أما ما يميّز القاعدة من غيرها من التنظيمات الإسلامية، كجماعة الأخوان المسلمين مثلاً، فهو المرونة في أيديولوجيتها وسعيها إلى تحقيق مجموعة كبيرة من الأهداف. ففي حين يبدو البرنامج الديني الخاص بالقيادة سلفياً في الأساس، تتسع مظلة التنظيم على نحو كافٍ لتشمل طائفة متنوعة من مدارس الفكر والميول السياسية. فالقاعدة تضمّ بين صفوف أعضائها والمؤيدين لها أشخاصاً يرتبطون بالوهّابية والشافعية والمالكية والحنفية، بل إن بعضهم يعتنق معتقدات وممارسات تتعارض تعارضاً مباشراً مع السلفية؛ وهذه هي على سبيل المثال حال يونس خالص، أحد قادة المجاهدين الأفغان. فهو شخص صوفي يزور قبور القديسين ويطلب بركاتهم، في حين أن هذه الممارسات تتعارض مع مدرسة الفكر السلفي الوهّابي، التي ينتمي إليها الشيخ بن لادن، في المقابل يبقى المذهب الشيعي الاستثناء الوحيد على هذه السياسة الإسلامية الجامعة. فالقاعدة على ما يبدو تعارض هذا المذهب بقسوة معتبرة إياه ضرباً من الهرطقة. أكثر من ذلك، وفي العراق تحديداً، أعلنت

القاعدة الحرب صراحةً على كتائب بدر التي تعاونت مع الولايات المتحدة، وباتت اليوم تعتبر المدنيين الشيعة أهدافاً مشروعة لعمليات العنف التي تنفذها.

في كتاب صدر في العام ٢٠٠٤ تحت عنوان «ضد الأعداء كافة: الحرب على الإرهاب داخل أمريكا» Against All Enemies: Inside America's War on Terror، يقول المؤلف ريتشارد آي كلارك Richard A. Clarke، المنسق السابق لمكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، إن الإدارة العليا فشلت في فهم طبيعة ومستوى التهديد الذي تشكله القاعدة بالنسبة إلى الولايات المتحدة. فإذا اعتمد كبار المسوؤلين إطار العمل التحليلي للحرب الباردة كنهج للتفكير في مشكلة القاعدة، راحوا يبحثون عن القوة التي تقف وراء تنظيم القاعدة بدلاً من مواجهة مصدر التهديد الذي تمثله بشكل مباشر. ويوضح كلارك أن هذا النهج هو ما جعل الولايات المتحدة تفشل فشلاً ذريعاً في حربها على الإرهاب.

ووفقاً لكلارك، تتمثل القناعة المسيطرة في أوساط البيت الأبيض، حتى قبل أحداث ١١ أيلول / سبتمبر، بواقع أن وراء كل شبكة إرهابية دولة تدعمها وتموّلها، وأن تدمير هذه الدولة سيسمح بالقضاء على الشبكة الإرهابية ويضع حداً للخطر الذي تمثّله. ولا شك في أن هذه القناعة تُعتبر واحداً من الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة تتوق بشدة إلى إثبات وجود ارتباط بين صدام حسين والقاعدة، والتي جعلت المحافظين الجدد في أمريكا يحظون، لدى إعلانهم وجود هذا الرابط من دون توافر أي أدلة بالدعم الذي كانوا يحتاجون إليه من أجل تنفيذ خطتهم الهادفة إلى الهجوم على العراق.

من المستحيل في الواقع أن تهزم عدواً لا يمكنك رؤيته أو فهمه. فالقاعدة تشكل ظاهرة جديدة تماماً في تاريخ الإرهاب، خصوصاً وأنها تتمتع بالجرأة الاستراتيجية لوطن ـ دولة من دون أن تنحصر في أي موقع جغرافي؛ فأعضاؤها يتوزعون على امتداد الكرة الأرضية وفضاء الاتصالات الإلكترونية، ولا ملامح جلية تسمح بالتعرف عليهم.

لا بد من الإشارة إلى أن الحرب على القاعدة بُنيت منذ بداياتها على فرضيات خاطئة. فالعدو غير مرئي، وهذا ما يعني أن استخدام القوة فقط أسلوب عقيم تماماً. أما الكلمات السحرية التي لا ينفك بوش يرددها للإشارة إلى أنه «يدمّر البنية التحتية للإرهاب»، فلا تعود صحيحة عندما يتعلق الأمر بالقاعدة. فمن غير الممكن تمشيط مواقع القاعدة

بالقصف الجوي أو مهاجمة جنودها الذين يطوّرون مهاراتهم العسكرية ويتلقون التعليمات من خلال الجلوس قبالة جهاز الكمبيوتر والاتصال بشبكة الإنترنت.

أضف أن الحلول الأمنية وحدها لن تقضي على تنظيم القاعدة لأن نجاح الشبكة وبقاءها لا يعتمدان على الأفراد أو حتى على المجموعات، بل إن الشيخ بن لادن نفسه لم يعد ضرورة حتمية في هذا المجال. وبالتالي، فإن مدّ الأجهزة الأمنية بمزيد من المخصصات المالية والموارد البشرية والنفوذ قد يسمح بتراجع معدل الهجمات بشكل طفيف لكنه لن يضع حداً نهائياً لها.

إلى هذا، يبدو التفاوض مع القاعدة أمراً بعيد الاحتمال، خصوصاً أنه لا يمكن أحداً أن يفاوض أشباحاً. إنما هذا لا يعني إقصاء هذا المفهوم إقصاءً تاماً. فمن كان يتصوّر يوماً أن بريطانيا ستفاوض الجيش الجمهوري الإيرلندي، أو أن إسرائيل ستفاوض ياسر عرفات بعد أن صنّفته إرهابياً وحشياً؟ لا شك في أن المشكلة تكمن في أن للقاعدة مطالب عالمية لا تقتصر على دولة أو أرض معيّنة.

أما السبيل الوحيد للمضي قدماً بحسب رأيي، فيتمثّل باعتراف الولايات المتحدة بأن العمل المسلّح لا يولد من العدم. فالقاعدة لا تجسّد العنف الأعمى، بل هي تمارس العدوان العسكري المصحوب بمجموعة من الأهداف، وهي تتغذّى من التعاطف الشعبي والحماية والذخائر البشرية.

الواقع أن الدعم الذي يتوافر لمجموعات مثل القاعدة يتولّد من الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية غير المقبولة من وجهة نظر الناس. وبالتالي، فإن القاعدة توفّر لهؤلاء فرصة النضال والمقاومة، وهي فرصة لم تكن متاحة على مدى وقت طويل بالنسبة إلى العالم الإسلامي بأسره. وصحيح أن المسلمين قد لا يستحسنون ما تنوي القاعدة تقديمه لهم على الأمد الطويل - فكم عدد المسلمين الذين يرغبون حقيقة في العيش في ظل حكم شبيه بحكم طالبان؟ - لكن هذا ليس لب المشكلة حالياً.

وعليه، فإن تقليص قوة القاعدة ونطاقها يقتضي أولاً إنضاب ينابيع تعبئة المجاهدين من طريق معالجة جذور الشعور بالاستياء والسخط والكره البالغ الذي نجحت الولايات المتحدة في توليده من خلال تدخلاتها العسكرية في المقام الأول.

أضف أن إرجاء إصلاحات ديموقراطية في جميع أنحاء المنطقة العربية قد يشكّل طريقة لمواجهة بعض المشكلات الكامنة التي تعانيها المنطقة، والتي ساهم الشيخ بن لادن على نحو رئيسي في تظهيرها. فهجمات ١١ أيلول / سبتمبر التي أعلن مسؤوليته عنها أثارت في الغرب حالة من الوعي لمدى تغلغل الفساد والديكتاتورية في العالم العربي. وقد اكتشفت الولايات المتحدة على وجه الخصوص أن دعمها للأنظمة الديكتاتورية والاستبدادية في المنطقة سبب رئيسي آخر للكره الذي يكنه لها العالم الإسلامي.

هذا وقد أدركت الولايات المتحدة أن هذه الأنظمة تثقل كاهلها بالمطالب السياسية والأمنية والاقتصادية. واعترفت أخيراً وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس بأن الإدارات الأمريكية المتعاقبة أخطأت في بناء سياساتها على المنطق القائل إن الاستقرار في المنطقة العربية يتحقق على حساب الديموقراطية. ويبدو جلياً اليو م أن المنطقة لم تعرف الاستقرار أو الديموقراطية. والجدير ذكره أن علاقة مباشرة تجمع بين مستوى الفساد والقمع في أوساط حكّام نظام ما من جهة، وتفشّي التطرّف الإسلامي الذي يستهدف الولايات المتحدة والغرب من جهة أخرى. ولا شك في أن المملكة العربية السعودية تشكّل حالة نموذجية في هذا المجال. حيث إنها وحدها قد أنتجت نحو ٧٠ في المئة من مقاتلي القاعدة فضلاً عن زعيمها.

وفي سياق التعاطي مع القاعدة في الوقت الحالي، ينبغي أن يتركّز الاهتمام على العراق. فالوضع في العراق قد وفّر للقاعدة، أكثر من أي شيء آخر، ملاذاً آمناً وجماعات لا متناهية من المقاتلين التائقين إلى الموت عبر معارضة الاحتلال الأمريكي للبلاد. أضف أن الوجود الأمريكي في العراق قد وفّر للقاعدة مزيداً من الدعم، أو ساهم على الأقل في الحد من معارضتها في أوساط معظم شعوب العالم الإسلامي.

وبسبب استمرار الربط بين السياسة الأمريكية الحالية أو المنظورة وانعدام الاستقرار الدائم في معظم أنحاء الشرق الأوسط، يمكننا أن نتوقّع تنامي قوة القاعدة واتساع دائرة نشاطاتها.

المحتويات